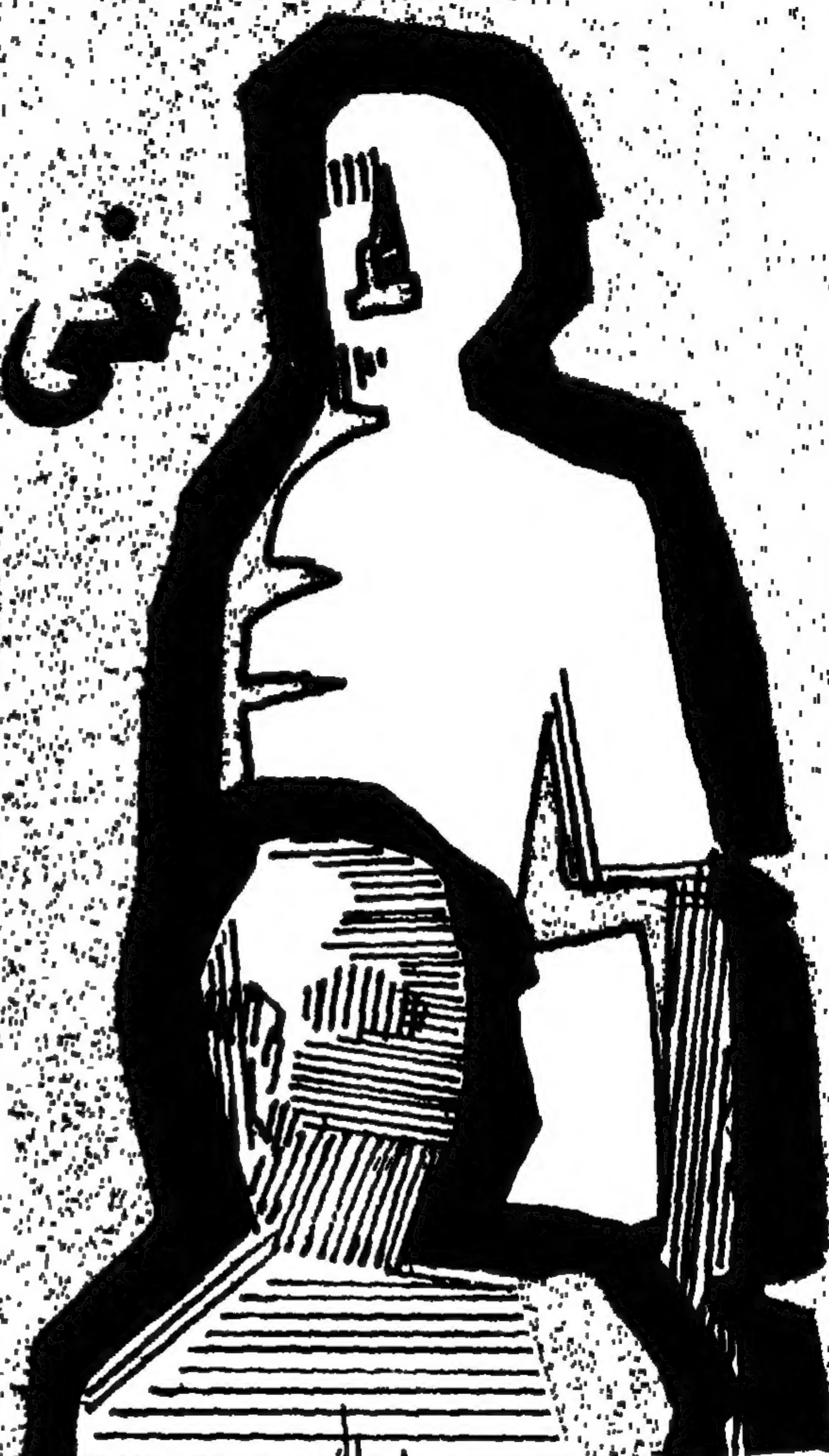


دكتور محمد إبراهيم الفيومي

في الفكر الديني الجاهلي



دار المعارف

Bibliotheca Alexandrina
0018052

في الفكر الديني الجاهلي

دكتور محمد إبراهيم الفيومي

عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية
جامعة الأزهر



دار المعارف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَى
الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ
الَّذِينَ مَعَهُ أَشْدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ
يُحِبُّونَ مَا يُبْتَغَىٰ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ
فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ
وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْعَهُ فَكَازَرَهُ
فَاسْتَفَلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوْقِهِ ۖ يُعِجِبُ الزَّارِعَ لِيُعْظَمَ
بِهِمُ الْكُفْرَ ۚ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

سُورَةُ الْفَتْحِ

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة
مقدمة الطبعة الرابعة	٥ — ٧
مقدمة رؤية الكتاب الفكرية	١١ — ١٢

الباب الأول

الهلينية والمنطقة العربية قبل الاسلام	٢٧ — ٧٣
عواصم العرب السياسية	٢٧
البيقراء	٣٤
تدمر	٣٥
دولة الغساسنة	٣٧
دولة المفاخرة	٣٧
التراث الهليني ومراكزه العربية	٣٩
مدرسة الاسكندرية حاضره البحر	٤٣
مدرسة أنطاكية	٤٧
نيقولاوس وظهور الهرطقة	٤٨
برنابا في أنطاكية	٤٩
من أهم جهود برنابا	٥٠
أنطاكية تحت حكم تدمر	٥٠
مدرسة نصيبين	٥٢
مدرسة الرها	٥٣
آراء قلقة للمستشرقين	٥٥

الباب الثاني

الهلينية بين الرفض اليهودي والتسليم المسيحي	٧٧ — ١١٢
اليهودية ومكافحتها للوثنية الهلينية	٧٧
اليهودية وانتشارها في بعض القبائل العربية	٨٤
اليهود في نظر القرآن	٨٦
المسيحية الهلينية	٨٩
المسيحية في المنطقة العربية	٩١
الشقاكات المسيحية	٩٣
النساطرة	٩٣

الموضوع الصفحة

أصحاب الطبيعة الواحدة	٩٥
مناقشة العرب للرسول في مصدر القرآن	١٠٤
رواية علاقة الرسول بحكمة لقمان	١١٢
علاقة القرآن باليهودية والنصرانية	١١٣

الباب الثالث

الصابئة والمجوسية	١٢٥ — ٢٠٢
تاريخ الصابئة وجغرافيتها الفكرية	١٢٥
انتقالها الى جزيرة العرب	١٢٩
معنى الصابئة	١٣٤
اقسام الصابئة	١٤٢
صابئة الحنفاء	١٤٢
صابئة بوداسف	١٤٨
القرات الهندى	١٤٨
صابئة الأشخاص	١٥٠
صابئة الهند	١٥٥
صابئة الفلاسفة	١٥٦
صابئة أهل الكتاب	١٥٧
صابئة البطائح	١٥٨
حول نسبة مذاهب الصابئة	١٥٩
هرمس وعازيمون	١٥٩
بوداسف	١٦٧
أصل فكر الصابئة الأولى	١٧٤
أعمال الصابئة	١٧٧
هياكلهم	١٧٧
تعقيب حول فكر الصابئة	١٧٨
من قضايا الصابئة وموقف القرآن منها	١٨١
ابراهيم والصابئة	١٨١
الوساطة بين الانسان والله	١٨٥
ملاحظات على ما أورده الشهرستاني	١٨٦
ملاحظات على ما ذكره المسعودى	١٨٨
الزندقة عند عرب الجاهلية	١٩٠

الصفحة	الموضوع
١٩٠	ملاحظات على ما ذكره ابن قتيبة
١٩٤	على هامش الصابئة (المجوسية أقدم من زرادشت)
١٩٦	زرادشت
١٩٨	المجوسية والعرب
١٩٩	علاقة الاسلام بهم
٢٠٠	القدرية والمجوس

الباب الرابع

٢٦٠ — ٢٠٥	الكعبة مركز العرب الدينى
٢٠٥	مكة وبناء البيت
٢٠٦	نبي الله ابراهيم والجزيرة العربية
٢١١	اله ابراهيم الخليل غير اله اليهود
٢١٤	النبوة الالهية عربية لفظا ومعنى
٢١٦	الكعبة بيت الله الحرام
٢٢٢	الكعبة والمرحلة العبتية
٢٢٣	الاتجاه نحو الوثنية وكيف نشأت ؟
٢٢٦	مظاهر معبوداتهم
٢٢٧	سدنتها
٢٢٩	الاتجاه التوفيقى بين المظهر القبلى والدينى
٢٣٧	معاهدات العرب التجارية
٢٣٨	المحتوى الفكرى لمذهب قريش الدينى (التحمس)
٢٤١	من نتائج التحمس (القرشى — الطواغيت)
٢٤٣	تقويم التحمس القرشى
٢٤٧	موقف القرآن من التحمس
٢٤٩	أسماء الذين أمرهم الرسول بتكسير الأصنام
٢٥٠	التشكك فى الأوثان وسحب الثقة منها
٢٥١	موقف الساخطين على الأوثان
٢٥٢	المتشككون فى أوثانهم

الباب الخامس

٣٠٢ — ٢٦٣	موقفهم من قضايا الفكر الدينى
٢٦٣	نظرة تحليلية حول الوثنية العربية

الصفحة	الموضوع
٢٦٥	الوثنية في نظر الرازي
٢٦٦	اعتقاد الشبه
٢٦٧	اعتقاد في الأسباب الظاهرة
٢٦٧	تعظيم المجهول
٢٦٨	اعتقاد الأرواح
٢٦٨	اعتقاد المقدسات
٢٦٨	التجسيم
٢٧٠	موقفهم من قضايا الألوهية
٢٧٠	(أ) المشركون
٢٧٢	(ب) الدهريون
٢٦٣	(ج) الموحدون
٢٨١	موقفهم من الرسالة
٢٨٢	قضايا الغيب
٢٨٥	رمزيات أساطيرهم
٢٨٥	الاختلاف في النفس عند العرب
٢٨٨	الغول
٢٨٨	الهواتف والحنان
٢٨٩	التطير
٢٩٠	الفرق بين الفال والتطير
٢٩١	الكهانة
٢٩٧	تعقيب
٣٠٣	ملحق على هامش الأخبار العربية
٣٠٥	العربي والعبري
٣١١	مكتشفات مصرية
٣١٩	رسالة الجاحظ
٣٧١	لمراجع العربية
٣٧٩	الفهرس

مقدمة الطبعة الثالثة

طرح العرب قديما قضية « علاقة الرسول بالاديان السابقة » على الرسول ابان دعوته ودونها القرآن ورد عليها وكان اهم ما يبغون من ورائها دعوى : بشرية القرآن .

وتعنى بشرية القرآن ، من حيث السند التاريخي : عزوة الى تاليف محمد . أى أن القرآن من وضع بشرى ، وليس من وضع الهى وتعنى القضية أيضا أن محمدا ليس برسول .انما هو مفكر استطاع أن يؤلف القرآن .

هذه هى جوانب قضية بشرية القرآن سجلها القرآن ، كدعوى مفتر من العرب على الرسول ذكرها القرآن فى قوله تعالى : « ولقد نعلم أنهم يقولون : انما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون اليه أعجمى ، وهذا لسان عربى مبين » هذه الآية على قصرها تناولت القضية شكلا ومضمونا ، دعوى وردا عليها حين قالت : « انما يعلمه بشر » هذه هى الدعوى أما الرد عليها فجاء تاليا بعدما اشارا اليه فى الآية ذاتها فى قوله تعالى : « لسان الذى يلحدون اليه : أعجمى ، وهذا لسان عربى مبين » .

فالدعوى والرد عليها من قبل القرآن أفادنا من حيث الجانب التاريخي : انها قديمة منذ أن ادعى الرسول رسالته وقام بععب الدعوة اليها . كذلك تفيدنا من جانب آخر أن القضية حين سجلها القرآن – ونحن نعلم ان القرآن كتاب عالمى ، لا يختص بزمان ولا بمكان ولا بأمة – معنى ذلك أن تسجيلها إنما هو تسجيل للرد على تلك القضية ، قضية بشرية القرآن ، وعلى العقل الانسانى أنى وجد وحيثما اتفق له أن ادعى تلك الدعوة على الرسول ، فالقرآن سجلها ليعين المسلم وهو بصدد التيارات الفكرية أن يدفع تلك القضية لأن القرآن دافع عنها ثم هى فى النهاية تصيب بصميم دينه هذا ما تعنيه قضية بشرية القرآن بشكل عام .

اما شكلها التفصيلي – وهو موضوع الدراسة – فانها تحتاج الى تبسيط القضية بعد تجليلها تحليلًا تاريخيًا من جانب ، وواقعيًا من جانب آخر ،

مع الاهتمام بالجانب المنطقي في مناقشة بعض القضايا الموضوعية التي سوف نعرض لها فيما نعرض لي طرح العقل سؤاله من خلال اثاره دعوى بشرية انقرآن .

وحقيقة هناك أسئلة كثيرة لكن من الممكن أن ترتد الى سؤال واحد يقول : اذا كان الرسول ألف القرآن وهو الآن بين أعيننا وبين أيدينا فياترى متى تعلم الرسول ؟ وفي أى مدرسة من المدارس القديمة انتظم فيها ؟ . . . وياترى عندما ألف القرآن هل استمده من المسيحية ؟ أو من اليهودية ؟ أو من المجوسية ؟ أو تلك الصابئة ؟ أو من الوثنية ؟ . . . وهل كانت هذه الأديان أو تلك الملل منتشرة في الجزيرة العربية ؟ . . . وبأى لغة كانت ونحن نعلم أن هذه الأديان ليست ناشئة في مكة وإنما نشأت بعيدا عن الجزيرة العربية وحقيقة كانت بلسان اعجمي .

فالمسيحية لم تكن بلسان عربى وإنما كانت لسانا سريانيا .

واليهودية لم تكن بلسان عربى وإنما كانت لسانا عبرانيا .

والمجوسية كذلك لم تكن بلسان عربى إنما كانت أعجمية باللسان الفارسي .

كذلك الصابئة لم تكن بلسان عربى وإنما كانت لسانا آراميا .

كذلك الوثنية الفكرية لم تكن باللسان العربى إنما كانت لسانا أغريقيا رومانيا على أساس أن الفلسفة اليونانية كانت لا تعتقد بعقيدة دينية وإنما كانت تؤمن فيما تؤمن بالعقل الانسانى وفكره وحسب ، فإذا ما تكلمنا عن الوثنية الفكرية لابد للذهن أن يتجه نحو اليونان .

أما الوثنية المنتشرة في العرب فانها كانت وثنية ساذجة ليس لها مضمون فكرى .

وهى أيضا كما تذكر الرواية العربية انها وفدت الى العرب على يد عمرو بن لحي حينما جاء « بهيل » من بلاد « البلقان » أيام الاسكندر الأكبر هكذا جاء في المراجع العربية .

فالوثنية العربية بالرغم من أنها وفدت الى العرب فانها كانت وثنية لا تخرج عن عبادة الحجر من غير شكل فنى أى من غير صورة يخلعها العربى على هذا الحجر نحتا أو تصويرا انما كان يكتفى العربى من الحجر عبادته بحسب .

واضح مما قدمناه سابقا ان الأديان التى انتشرت فى الجزيرة العربية ومكة منها والتى جمعها الله فى قوله تعالى : « ان الذين آمنوا والذين هادوا والنجارى والصابئين والمجوس والذين اشركوا » الى آخر الآية .

هذه الأديان كما عرضنا سابقا أنها كانت أعجمية وفق ما قال القرآن (لسان أعجمى) فتسجيل القرآن لتلك الأديان يعنى من وجهة النظر التاريخية ان العرب كانوا يعلمون شيئا أو أشياء عن تلك الملل والنحل (الأديان والمذاهب) والمنتشرة فى أجواء الجزيرة العربية .

فهل يا ترى أى شيء تعلم منها محمد ؟ وما هى اللغة التى قدر لمحمد ان يتعلمها . . ؟ قطعا الاجابة سوف توجه بشكل تحليلى بمعنى اننا سوف نسير بخطوط متوازية مع تلك الأديان وعلاقة الرسول بها وذلك موضوع الكتاب :

وليس فى هذه الطبعة جديد أضفناه سوى تحرير ما رأينا تحريره وتنقيحه فهى مثل الطبعة الثانية التى تزيد كثيرا على الطبعة الأولى . .

والله من وراء القصد . .

محمد ابراهيم الفيومى

٦ صفر سنة ١٤٠٢

٢٢ أكتوبر سنة ١٩٨٢

مصر الجديدة يوم الاثنين

مقدمة

رؤية الكتاب الفكرية

أما قبل :

فمنذ ان كان للشرق تراث وهو ينقسم قسمين :

• * قسم مقدس •

• * وقسم غير مقدس •

أما القسم المقدس ، فهو الذى أوحى الله به للانسان أى : ما كان أصله
الوحى الالهى •

وأما القسم الآخر : فهو ماسوى ذلك •

ونعنى بصفة التقديس :

١ - أنها تشتمل على معنى تعبدى •

٢ - أن الانسان مطالب بعدم ردها •

٣ - أنها محددة من حيث الاتجاه العام بأوصاف معينة :

فهى من حيث الزمان : لا يسأل عنها الانسان الا فى سن معينة ، ومن
حيث المكان : يتعين على الانسان فى عبادته ان تكون نحو مكان معين •

ويرتبط الانسان بها من خلال مستوياته العامة : من مستواه العقلى
الى مستواه الوجدانى • • وتبرز فى سلوكه تطبيقا عمليا •

ولها أركانها المكونة لها من حيث أساس بنيانها :

الركن الاول : الله ، الركن الثانى : الوحي ، الركن الثالث ، الرسول •

والتراث المقدس يرتبط بالمادة والروح معا غالبا •

وتصبح الصفة العامة للتراث المقدس : انه موضوع للعبادة أو للتعظيم
مثل الكعبة والحجر الاسود ، فانها مثل للتعظيم وليست للعبادة •

والعبادة تقتضى :

عابدا : وهو الانسان • ومعبودا : وهو الله • وعلاقة : وهو الرسول •

والتراث المقدس : الانسان معه بين أمرين :

✳ اما مؤمن .

✳ واما غير مؤمن .

فنلمس هنا أننا أمام أمرين : اما واما ، أى أننا فى حرية من حيث الاعتقاد فى التراث المقدس . ولكن حرية الاعتقاد مقرونة بالتخويف والوعيد وسوء العاقبة والطرود من رحمة الله .

فعدم الايمان على المستوى النفسى : يؤدى الى تشويش فى الرؤية نحو غد الآخرة ، هذا من حيث مستوى الانسان النفسى .

ومن ناحية عضويته فى الهيئة الاجتماعية : فهو - أيضا - مهدد بالطرود منها ، وغير مشهود له بالعدالة ، وقد تنادى بعض طبقات الهيئة الاجتماعية بحل دمه ، فلا رفق ولا لين - من ناحية الهيئة الاجتماعية - مع مريض الايمان ، لأن هذا المرض الذى يلم بصاحبه تنتشر عدواه فى المجتمع ، وهو من الأمراض الخبيثة التى يرى المجتمع أنه يجب عليه مكافحتها ، ويحجر على من فى قلوبهم زيغ مخافة الفتنة . هذا من ناحية عضويته فى الهيئة الاجتماعية .

أما من حيث صلته بتراثه التاريخي : فهو بموقفه الراضى للايمان يسق عصا طاعة تراثه ، وتلك وصمات سياط قاسية يتعرض لها من يزور عن الايمان ويجاهر بازوراره .

ونرى حالات شتى لمن توقفوا بين الايمان وعدمه : فنرى منهم من التزم الصمت بعدم المجاهرة مع دأبه فى البحث والمطالعة مثل : الامام الغزالي ، قال واصفا حاله عندما انتابته هذه الحالة - حالة تهديد ايمانه الراسخ : مكثت على هذه الحالة قرابة شهرين بحكم الحال لا بحكم النطق والمقال ، أى ظل صامتا مع دأبه على البحث عن جسر الحقيقة ، ثم انتهى بعد مرحلة صمته الى نتائج الايمانية التى ربطته بالهيئة الاجتماعية وبعقيدته وتراثه التاريخي وجعلته عن جدارة يوصف بحجة الاسلام ، ويبدو أن الغزالي كان يرى وصفه بذلك اللقب حقا فى نفسه ، وذلك عندما قال فى كتابه « المنقذ »

لما رأى حالته وما هو عليه من قلق فى حله وترحاله قال : وارثبك الناس فى الاستنباطات وقالوا : عين أصابت أهل الاسلام .

أى ما أصاب الغزالي أصاب أهل الاسلام . . على أى حال هذا نوع من الاسراف فى فهم الذات ، والا فكيف نفهم أو يفهم الغزالي : أن ما طرا عليه من اضطراب أو قلق اضطراب أو قلق فى أهل الاسلام . هذا صنف .

وهناك نوع آخر من الناس تلابسه تلك الحال - حال التوقف فى مسائل الايمان - تراهم يهربون منها وبها الى آراء فلسفية ويلبسونها البسة دينية وفى النهاية لا ندرى هى فلسفة أو دين ؟ على أى حال هو نوع من الملقى الفكرى الاجتماعى يلجأ اليه صاحبه حذر التنكيل به أو اضطهاده من قبل الهيئة الاجتماعية ، وعرف التاريخ الفكرى هذا اللون أيضا وحفظ شعاره وهو : التوفيق بين الفلسفة والدين . شعار طريف فيه طرافة ومتمعة للعقل بيد أنه من ناحية النقد العقلى أو العلمى نراه هشاً ومشوشاً : لأننا فيه نساوى بين ما هو مقدس ونحمل أنفسنا على الدينونة به ، وبين ما هو غير مقدس نرى فيه حريتنا الفكرية وذاتيتنا وتمردنا .

فهل يا ترى أى الصفتين أردنا الباسها بالآخر ؟ .

هل أردنا الباس صفة التقديس للفلسفة أو أردنا الباس صفة البشرية للدين ؟ على أى حال جانب الطرافة واضح وجانب التشويش فى القضية أوضح ، لذلك قلنا أن هذا لون من الملقى الفكرى للهيئة الاجتماعية وفى نفس الوقت توسعة فى مفهوم المقدس ، وفى توسعة مفهوم المقدس جور على العقل والدين .

بعد ما سبق نرى : أن التراث المقدس ضرورى ، وتظهر ضرورته فى حياة الانسان الدينية وفى المجتمع حين لا يحجر على الفرد الا بعد مجاهرته بعدم الايمان ، وأما حقيقة العقيدة فهى تحدد فى المستوى النفسى وأمام الله .

وأن التراث المقدس هو ما كان من الله أو من رسوله وصفة التقديس تطلق حقيقة على ذلك شكلا وموضوعا .

وأصبحت القاعدة في مصدر المقدس وغيره قولهم : كل انسان يؤخذ من كلامه ويرد الا صاحب الروضة الشريفة .

تطور مفهوم المقدس :

ثم تطور مفهوم المقدس في نفس الانسان وفي علاقته به ، وكما لاحظنا ان الالتزام بالمقدس شيء ضروري ، وليس بالهين ولا باليسير على الانسان تركه ، ولا سيما ان تركه فيه ما يعرضه لمصاعب نفسية واجتماعية لا يقوى على تحملها وان تحملها فسوف يكون في تحملها انتحاره .

وبالرغم من أن المقدس تكتنفه تلك الصعوبات أو كما وصفه القرآن (انا سنلقى عليك قولا ثقيلا) .

وقال : « انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان أنه كان ظلوما جهولا » .

نقول : بالرغم من تلك التبعات فانه وجد بجانب الأديان الصادقة والنبوءات الصادقة أديان كاذبة . . أي وجد بجانب المقدس الحقيقي مقدس غير حقيقي . .

معنى ذلك - كما يفيدنا التاريخ - أن في الانسان جانبا يحب الالتزام ببعض المبادئ وعليه أن يرعاه بالاعتقاد المقدس ، فطلبنا لحاجات الانسان الروحية تبني متنبئون كثيرون هذا الجانب وأثروه بما شاء لهم من أثراء وبما طاب لهم من قول .

فالنبيوءات الكاذبة توسع وتخيل في مفهوم المقدس ، وقلنا : توسعا ، لأنها في حقيقة الأمر ليست من عند الله ، لا وحيا ولا تكليفا ، وتبين لنا في وضوح أن وجود المقدس الذي حمل الانسان نفسه عليه كان لا يرى فيه أنه يلغى حريقته لأن عدم وجوده دعاه الى طلبه وأعانه عليه شعوره بالحاجة اليه .

كذلك النبيوءات الكاذبة : هي التي شلت العقل الشرقي عن أن يتابع وظيفته ، وكان دور العقل معها شاقا وعسيرا حينما عزلته عن مناقشتها أو حتى

عن فهم رموزها كما عرضت الأنبياء الصادقين لحن القتل والاضطهاد وهم بصدد تحرير الفكر البشرى والالهى من زيف المزييفين ولبست النبوءات الكاذبة ثوب الصادقين لتلبى حاجة الانسان الضرورية الى المقدس الحقيقى . وفى ذلك كله ما يؤكد أن فى الانسان حبا وميلا طبعيا يدفعانه الى الالتزام بمبادئ مقدسة ان غابت يبحث عنها فى نفسه ، ويصاب بالقلق ان لم يجدها ويبحث عنها المجتمع ان غابت عنه ، فهى عامل أساسى فى بنائه وتوجيه علاقاته .

• ويصبح التاريخ فى سيره من غير النبوءات الصادقة لا يسمو نحو الله .

فالنبوءات الكاذبة ساهمت فى تزييف معتقدات الانسان الدينية وألهته عن معتقداته الصادقة ووسعت مفهوم المقدس حتى انحرفت بعبادة الانسان الصحيحة الى شتى الأنماط : كالنار والكواكب وغيرها . وعلمت الانسان الشرقى كيف يخضع عن ذلة لغير الله ، وأن الشرق - من الناحية التطبيقية - لا يحكمه إلا مستبد عادل يسهم بدوره فى إعادة هذه المعانى المزيفة والا كيف يعدل وهو مستبد ؟ وكيف يستبد وهو يعدل ؟ وهو أيضا معنى من معانى النبوءات الكاذبة التى عودت الانسان الشرقى أن يخضع لغير الله باسم الانسان المعصوم من الخطأ وهو العادل .

بهذه الأوصاف التى البسها المزيفون عليه أمن به الشرقى على أنه حقيقة وليس أسطورة ، وبات يمنى نفسه به كما منى الفارابى به نفسه فى كتابه آراء أهل المدينة الفاضلة ، ومازال بيننا من يعتقد فى حكم المستبد العادل ، وهو على أمل اللقاء به ، ومازال ينظره باسم المهدي المنتظر ، أو الامام المعصوم ، ليس هذا المستبد العادل - المثل الأعلى فى نظرية الشرق السياسية - يماثل نظرية الحزب الواحد فى روسيا الشرقية من حيث الاهتمام بالرأى الواحد ، وعدم الخوض فى تصرفاته بالتعديل أو النقد ، وعلى الانسان - أخيرا - أن يقدم ولاءه فقط للحزب ، أو المستبد العادل ، وأن ما لدى الحزب من آراء تماثل المقدس وفى النهاية : انها رؤية واحدة لراى واحد وما وراء ذلك كله من تخويف وارهاب ، وذلك عين التطرف والاستبداد المقدس فالانسان الشرقى - وهو رائد فى حضارته المعاصرة - حكم نفسه من خلال تراث تاريخى

مزيف وهو نظرية الواحد المستبد العادل ، وهذا لون من التوسعة في معنى المقدس على المستوى السياسى .

ووثنية الاغريق تعنى من جانب الانسان : اشباع حاجته الضرورية الى ايجاد معنى المقدس في حياته . ورحلات فيثاغورس وأفلاطون الى الشرق ساعدتهم على أن يرفضوا وثنيتهم ليحلوا بدارهم وفكرهم فكرة : مثال المثل ، أى الذى لا يتغير ولا يتبدل وهو المثال الأعلى الذى تتحول الانسانية اليه محاولة العود الى ما كانت عليه في رحاب الله . هذا توسع في مفهوم معنى المقدس ومحاولة منهم لايجاد صورة طبق الأصل ، لما عليه الدين الحق ، غير انها في النهاية تفتقر الى شعار خاتم النبوة ، ليجيز معناها الحقيقى المقدس ، على أى حال نرى في فكرة أفلاطون الفلسفية : تمردا حقيقيا على الوثنية ، لأنه كان يرى : أن الوثنية ان صحت عقيدة شعبية ، فانها لا تصح عقيدة للفلاسفة الكبار أو حتى صغار الفلاسفة .

هدف فكرة أفلاطون الفلسفية – ذات الطابع الدينى الشرقى – السعى بها الى تنزيه الله عن مستوى الفكر الفلسفى ، عن مستوى العقيدة الشعبية الوثنية ، وشاعت فكرة أفلاطون على يد من بعده من الفلاسفة الذين رضوا لانفسهم أن يأخذوا بفكرته ، ثم راحوا يطبقونها على القرآن ، الذى أنزله الوحي الالهى ، وقالوا : أن ما فيه يلائم الحياة الروحية السائدة بين العامة وذوى السباجة فى رأى ، أما العلماء المستنيرون ميرون – من وراء استبطانه وما يعين عليه الادراك – ما فيه حق وصدق ، وهم أهل التأويل . ومنهم أهل التوفيق بين الفلسفة والدين ، الذين يرون : أنه ليس من المصلحة الدينية أن يكشف للعامة . أما من ناحية الموازنة العامة بين أفلاطون وأهل مدرسته من بعدهم فانا نرى فى موقف أفلاطون جدوى وله مسوغاته ، وهو تمرده على الوثنية الاغريقية ، أما موقف هؤلاء الفلاسفة كالفارابى مثلا : فانى رجوت نفسى أن تفهمه أو تنظر جدوى رأيه فتأبى عليها أن تفهمه ، وتحصل لها من البحث فى جدواه : أن فيه من التقليد والتعصب الذى يجانب عقل الفيلسوف أو المفكر ما فيه . روى عن على : وقد سئل : هل خصكم رسول الله بشئ ؟ فقال : « ما عندنا غير هذه الصحيفة ، أو فهم يؤتاه الرجل فى كتابه » فعلاقة المقدس الحقيقى بالانسان هى كما قال على : « فهم

يؤتاه الرجل في كتابه « من غير مصادرة ، أو تمييز خاص ، لأن معايشة فهم كتاب الله حق للجميع بشروطه .

على أى حال أسهمت نظرية أفلاطون في مجال السياسة فخلقت حرية الرأي واحترامه ، أو الرأي ومعارضته ، فلا يكافح أحدهما الآخر ، وكان هذا معنى من معانى الديمقراطية اليونانية .

ومن الذين ترسعوا في مفهوم المقدس : الذين دعوا الى عبادة الوثنية في شتى أشكالها :

منهم الذين دعوا الى عبادة الكواكب ، ربطوا مصير الانسان بمطالعها وأن ميلاده مرتبط بالصدفة ، فهو ان صادف ميلاده سعودا في طالع فهو سعيد ، وان صادف نحوسا في طالع فهو نحيس أو شقي ، فعبادة الكواكب خلفت : مشاكل الجبر ، والتفسير ، والصدفة ، والحظ ، وفيها مصادرة حقيقية على الحرية الانسانية ، وأصبح الوجود معها يشكل حرجا في الوجود الانساني ، ومع ذلك عبدها الانسان ، واستلطف الارتقاء في احضانها ، واستعذب شقاءه في عبادتها ، فجبلته على رضى فيه معنى المذلة حين منحها الانسان معنى المقدس الذى لا رد فيه ولا مراجعة .

ومع ذلك وجد من الانسان من ثار على ذلك النوع من العبادة ، ورد للانسان حريته واعتباره ، فاستحدث السحر ليلغى به سيطرة الكواكب عليه وعلى مصيره . وبالسحر استطاع الانسان أن يعلن سيطرته على الارواح ومدى قدرته على تسخيرها ، ألهمته عرفانا بالغيب وأعانتة على قضاء حوائجه ، فغير بها من مستقبله ورفع بها من عظمتها ، وألغى من حياته سيطرة الكواكب عليه ، وبواسطة السحر استبانت قدرة الانسان في تمرده على عبادته .

ولأول مرة تقع دولة الارواح مستعمرة للانسان ، يجندها لخدمته ، ولا تقوى على النفور منه الا برسالة الهية : قام بها نبي الله موسى ، وذلك حينما بات الناس في خوف وعدم أمن من كيد السحرة ، فرهبهم الناس أى وقع الناس وهم يفرون من سيطرة الكواكب الى أسر السحرة ، ودخل (م ٢ - الفكر الدينى)

الإنسان مرة ثانية تحت سيطرة الإنسان وهو من نفسه نرى : « نؤمن أن السحر السحرة والأعبيهم ، وبه قناعة أن عبادة الأرواح أصبحت غير مجدية إلا عن طريق السحرة وارضاء أهوائهم فأصبح السحر يؤدي إلى نوع من الاستعباد للإنسان » .

فمن ثم انتضت الحكمة الالهية - وهي دائماً تنف - ببشأن الحربه الانسانية - أن ترسل رسولا ليبطل كيد السحرة ويحقق الحرية الانسانية وانها لا تنين لغير الله . ودائماً رساله الله ترمي الإنسان في حريته وفي عبادته وان ما توحى به لا سيطرة لأحد عليه وليس عليها تيم سوى كتاب الله ، وأما من يدعى القوامه على كتابه فانه يدفعه إلى ذلك حبه النفس لأن يكون شيئاً في الهيئه الاجتماعية .

وفي عبادة الحجر والسجر وأشكال الوثنية المختلفة توسع من الإنسان في معنى المقدس ، ونلاحظ من وراء توسع الإنسان في الرمزيات المقدسة شيئاً جوهرياً يدفعه ليحدث هذا التوسع هو : شعور الإنسان ببارادته وحرية وخوفه من الكون وليس حبه له .

وعلى رداءة الوثنية في تظهرها فمعنى الحرية الانسانية نادى فيها ، فالإنسان الوثني شاء أن يتس ، فتدفع أنه ، واختار حبره ، ومثل شكله ، وحدد مكانه ، فتدفعه ، ثم أن شاء أن يستبدل بمشعر آخر أو بشكل أحسن ، ثم أن شاء الإنسان الوثني أن يمدح من أنه ، أن شاء . كل ذلك فعل غير عبال محض فليس فيه سيطرة البارادته الذاتية على ما صنعت من رمزيات المقدس .

لكنها حرية وبطله بنيلة حين منحت عنيتها ارمزيات زبداله لا تفرغ عنها شيئاً ، لكن لماذا فعلت ذلك ؟

نرى - من وجهة نظرنا - أن التوسيع في مفهوم الذات من قبل الإنسان بدخلى الخوف المتزايد عند الإنسان الشرقي ، وذلك بسبب أن الإنسان عن فهم الكون . ثم خافه فتدفعه ، فصفة الإله من الكون ليست كما يدعى الإنسان الواعية المتعددة في الشرق . فالإلهات الوثنية القوية ذاتها في الخوف

الثالثة من عدم تعقل الوجود • فالافراط في المظهر التقديسي للأشياء مظهر من مظاهر الخوف •

والتوسع في مفهوم المقدس : فيه راحة لوجدان الشرقي ، الغاء عقله • •
والا فلماذا توسع في المقدس وهو يعلم أن التوسع ليس من مصلحة العقل •
لذلك نقول - ومن غير افراط فيما نقول : أن الشرقي عندما يعجز عن فهم الشيء يخافه ، ثم لا ينصرف عنه حتى يخلع عليه أثرا من آثاره النفسية ، وهو التقديس ، ومن خلال نزعة الخوف الكائنة في نفسه من الوجود تسهل قيادته ، كذلك يتميز الشرقي بالاسراف في فهم ذاته وذلك من خلال نصوص مقدساته فلا يكف عن نجوى ذاته بها •

فاليهودية تقول : نحن أبناء الله وإحباؤه • • وأنهم شعبه المختار •
والمسيحية تقول : نفس القول مع اعتقادهم بأنهم أمة الخلاص •
والمسلمون على حالهم هذا يقولون : خير أمة أخرجت للناس من غير أخذ بالقرآن الذي يهدي للتي هي أقوم •

فهو لا يحب أن يفهم ذاته من خلال واقعها ويواجه أخطاءه ، وهو لا يحب أن يفهم ذاته فقط إنما يتعالى على فهمها ويعتبر كل من يشير إلى خطأه يتحسس العورات •

فالتعالى عن فهم واقع الذات خلق له من الأسباب ما يبرره مثل :
تبرير الأخطاء ، كأن يبرر الشعب أخطاء الحاكم وهو يعلم أنه ينافقه •
والتساءل المعاذير أسلوب لازم للمنطق التربيري •
ومن ذلك كله الافراط في أساليب المجاملات •

كل هذه خصال و ادعاءات ، تخدم التعالى وترفع من شأن الفردية في نفس الشرقي لأنها أساليب نابعة من نزعة الخوف ، تشيع في فرجسية الذات غرورا واستبدادا ، دون أن تساعد على فهم أخطائها ، وليس ذلك يعني أن الإنسان الشرقي ليست عنده تمييز الخطأ من الصواب ، قطعا لا نعلم هذا ، إنما نعلم أن عنده قدرة التمييز ، إنما يغلب أسلوب التبرير والمعاذير والمجاملات على مواجهة الخطي بما سخطا فيه ، ولذلك نراه فيها بعد

يجبى نفس العمل ثم يصفه بالخطأ - الذى برره من قبل - على شكل رواية تاريخية وبعد أن يزول عامل القهر مصدر خوفه .

فإذا قدر للشرقى أن يفهم قبل أن تحتويه نزعة الخوف تفرد وغلب وسيطر ، وذلك كان منه على فترات متطاولة فى تاريخه وسوف أسوق مثالا شاهدا على ذلك وهو منهاج الاسلام :

تطش الشرقى كثيرا وهو يبحث عن ذاته ، من خلال الديانات المتعددة ، وبينما هو يتعثر عثر على حقيقته فى نظام الاسلام ومنهاجه ، ووجد فيه ما يجيب على أسئلة شتى ، استغلق عليه فهمها ، خلال رحلته الطويلة فى البحث عن حقيقته ، وفيه ألفى ما تتجاوب معه النفس الانسانية من حيث هى نفس انسانية لأنه ، وهو الصيغة النهائية لسلسلة الوحي الالهى ، قدم المزيد مما يساعد الانسان على تفهم حقيقته من خلال واقعة وجوده ، وعلاقاته بالله . وان شرعية مبدأ التوبة فى حد ذاته ألفى تصوراتنا عن الانسان الملائكى وامكانية وجوده . ومعنى ذلك أن على الانسان أن يفهم ذاته من خلال بشريته أو من خلال قول الرسول : كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون .

لذلك نرى أن الاسلام يركز على أمور تبرز منها :

أولا : حدد مفهوم المقدس من غيره وحدد مصدره وهو الله وما أوحى به على رساله ، بذلك التحديد كفل للعقل مجاله وحريته .

ثانيا : سد الطريق على كل متخبيء بقوله عليه السلام : « أنا الباعث فلا نبى بعدى » .

وقوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم واتممت نعمتى ورضيت لكم الاسلام فينسا » .

وتلك مكرمة الاسلام الحقيقية. لأن هذا المبدأ الذى قرره الاسلام حمل الفعل الانسانى مسئولية الكفاح ضد الذين يحاولون أن يعوتوا من مسيرة العقل الانسانى ، باسم التنبؤ أو باسم الأوصياء الشرعيين من قبل

الله . . وأبطل قول كل من يدعى العصمة ، ولا يفيد معنى انتهاء النبوة انتهاء الدين لأن الخيانة الدينية باقية ببقاء الوحي الالهي وهو القرآن وسنة نبيه .

ثالثا : دعا الاسلام العقل الى وظيفته ، ووظيفة العقل في نظر الاسلام : ان يقوم بعبء وظيفته الشرعية ، وهي الفهم ، والتدبر ، والتفكر ، ألا يدع وظيفته هذه لأي داع مضلل ينهاء عنها .

قال تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » .

بذلك أرشد العقل الى أخص وظائفه : وهو الفكر ، حتى ولو كان في القرآن أو في مصدره . وكان هذا الوضع طبيعيا من دين الغي طريقا طويلا أزدحم فيه متنبئون كاذبون : وإنما لدعوة استجاب لها التاريخ نفسه على مستنواه العالي .

رابعا : الغي الخوف الذي يدفع الانسان ليتوسع في المقدسات بقوله تعالى :

« وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه » .

بذلك رفع عن كاهل الانسان عبء الخوف ، الدافع الى الذلة ، ليحل محلها : الخشية لله فقط . . فرد بذلك الى الانسان اعتباره .

خامسا : يعتبر الانسان في نظر الاسلام : « خليفة الله » وصور الرسول مهمة ذلك الخليفة بقوله : « لو تعلقت مهمة ابن آدم بما وراء العرش لنالته » ومعنى ذلك أن على الانسان أن ينهض بعبء خلافته ، وأن عليه في سبيل ذلك : الأخذ بمبدأ الشورى الذي قرره الاسلام ، فإن سلك سبيل الاسلام الغي الحكم الفردي من طريقه وكل تصوره عن المستقبل العادل .

والله ، وهو حقيقة العقيدة الاسلامية ، ليس جبارا ولا متحيزا للمسلمين ، كاله اليهود وأى اله في أى دين . انما الله في الاسلام تتحدث عنه آياته في الكون حديث العقل تارة وحديث الوجدان ، تارة أخرى ، وفي ذلك كله ما يؤكد المعرفة في النفس الانسانية ، ويعين الانسان على تفهم وجوده في واقع الوجود .

فمعتقد المسلم ، قوة من الحب ، وليست ضعفا من الخوف ، فحملها الانسان حين حملها تفتح بها عقله وأطمأن اليها وجدانه .

أما حين تخطى عن رسالة الاسلام ، وكفاه منها انتسابه الاسمى اليها فانه تودى إلى طبيعة الخوف ، فجبى دون مسئوليته أمام الاسلام ، وانقاد مع الخرافة التي تسالت الى مخاوفه ، وأعانته على توسعة معنى المقدس مرة ثانية ، وتلك مرحلة يقاسيها دعاة الاصلاح .

بذلك كان الدين الاسلامى بما قدمه للمقتل الانسانى - من بين سائر الأديان التي حفلت بها المنطقة العربية - الصورة الوحيدة في التاريخ التي تجاوبت معها الارادة العربية .

أما الآن فان الارادة العربية متخلقة كثيرا عن فكرها لعوامل كثيرة ترجع - في نظرنا - الى نوع الولاء والحكم ، فبعض هذه الدول محكوم بعصبية الزعامة الاسرية ، والبعض الآخر ، محكوم بعصبية الزعامة الثورية . وفي الشكلين معا كان ولاء الحاكم لنوع عصبية انتقامه ، أما الولاء للشعب ، فغير متبادل بينهما الا بما تحتمه ضرورة الجاملات ، واذا كان الفكر لا يعرف ولاء غير ولائه الانسانى ، فان نظم الحكم عاقت تجاوب الارادة معه ، وفي هذا كله ما يعوق النهضة العربية الاسلامية عن بعثها الحقيقى ، لكن متى تتجاوب الارادة العربية لتقوم بعبء رسالتها مرة ثانية ؟

دكتور محمد ابراهيم الفيومى

مصر الجديدة فى ١٠/١١/١٣٩٩ م

١ / ١٠ / ١٩٧٩ م

ابواب الكتاب

- الباب الاول : الهلنستية والمنطقة العربية •
- الباب الثاني : اليهودية والمسيحية في المنطقة العربية •
- الباب الثالث : المسيحية واليهودية •
- الباب الرابع : الوثنية والفكر العربي •
- الباب الخامس : من قضايا فكرها الديني •

البَابُ الأوَّلُ

الهيفستية والمنطقة العربية
قبل الاسلام

• مواهب الصوب السياسية : .

لم يكن العرب قبل الاسلام في عزلة عما حولهم : فكريا ، أو اجتماعيا ، أو اقتصاديا ، وليس ثمة داع لها ، فلم يؤثر تاريخيا ، أنه ضرب عليهم سبور يعوق من حركات الدخول في الجزيرة العربية أو الخروج منها ، وليست الجزيرة العربية بالأرض الخصبة ، التي تكفل لقاطنيها وفرة في العيش ، وخصوبة في الرزق حتى يكره العربي في حبها السعى عن تحصيل ضرورات عيشه • إنما كانت طبيعتها قاسية جافة ، وأرضها جرداء مقفرة ، ورغم أهلها أن يضربوا بابلهم في أفناء الأرض شهورا ، ليصيبوا منها أقواتهم ، وضرورات عيشهم ، ونرى في القرآن تسجيلا لهذه الرحلات في سورة كاملة - سورة قريش - قال تعالى :

« لا يلاف قريش ايلافهم ، رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت ، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » • هذا من ناحية حركات الخروج منها :

أما من ناحية حركات دخول الناس فيها - أي الجزيرة - فله من الدواعي الكثير :

ففيها الكعبة : وهي - من البيوت السبعة القديمة - مما يطمع اليها الرائي أو السايح للتعرف عليها ، وهناك روايات تاريخية تذكر : أن الفرس قصدوها كثيرا (١) •

كما دخلها جيش أبرهة الحبشي (٢) ورحل اليها قديما نبي الله ابراهيم وأقام ابنه اسماعيل فيها وجدا معا بناء الكعبة وأسس حولها دين التوحيد •

(١) يراجع المسعودي - مروج الذهب ج ١ ص ١٨٨ قال : وقد كانت أسلاف الفرس تتصد البيت الحرام. ولطوف به تعظيما له ولجدها ابراهيم •

(٢) وكتب غيز واحد من اليونانيين المؤرخين : أن أبرهة زحف على مكة في مركب يجرها أربعة من الفيلة وأن جيشه لم يعد منه الا القليل لكثرة من مات منه بالوباء : أبو الانبياء : المعتاد • كما لجأ اليها النساطرة وأصحاب الطبيعة الواحدة وكلا المذهبين المتطهرا منها منها ودينها •

يذكر القرآن ذلك فيقول : واذا يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا أنك أنت السميع العليم « وهي وان كانت من حيث طبيعة جوها لا يطمع فيها طامع ، مما جعلها بمعزل عن أطماع السياسيين ؛ أصبحت بذلك كأنها منطقة حيادية ، ولهذا السبب - وهو عزلتها - رغب فيها اللأجئون السياسيون الذين وقعوا فريسة للاضطهاد السياسى ، أو الدينى ، فكانوا يفرعون اليها لأنهم يجدون فيها الملجأ الآمن المطمئن وكذلك جاليات اليهود ، والنصر من النصارى ، ما دخلوا تلك البلاد الا فرارا من حملات الاضطهاد الرومانى التى وقعت عليهم .

لذلك لم يكن بعيدا علينا أن نجد فيها - كما ذكر القرآن - من اليهود والنصارى ، والمجوس ، والصابئين ، والذين اشركوا ، وتجد فيها : الأصنام ، والأوثان ، ومصطلحات دينية غير عربية مثل : الجبت ، والطاغوت .

ومعلوم : أن اليهودية لم تنتشأ فيها ، ولا النصرانية ، ولا المجوسية ، ولا الصابئة ، انما وفدت اليها تحت قسوة الاضطهاد السياسى أو الدينى .

وسنعرض بالتفصيل لتلك الأديان والمذاهب .

كل هذا وغيره يعطينا : أن العربى لم يكن فى عزلة عما حوله ، سواء من ناحيته ، لانه خرج منها متاجرا ، أو من غيره فلم يكن فى عزلة عنها : اذ وجدنا من يمم وجهه شطرها .

ومن العوامل الأساسية فى التوسع وتدعيم النفوذ الرومانى وتوطيده فى الشرق كان قوامها :

- الدبلوماسية .

- والتجارة .

ولكنها كانت مؤيدة بقوات حربية عظيمة ، ونشاط حربي مضمّن . وفى مصر وفى بلاد العرب وشمال أفريقية اتبعت هذه السياسة بعينها .
فبالبلاد العربية جرى فيها حركات حربية وتجارية ودبلوماسية .

يرى م - رستوفتزف : أن الدبلوماسية والتجارة هما من أسس التوسع الروماني في بلاد العرب وهذا معناه - في نظرنا - أن العربى له اعتباره الفكرى منذ القدم .

ويقول : ولم تكلل حملة ابلوس جالوس على بلاد العرب بالنجاح التام ولكنها على اى حال ضمنت للتجار الرومان الحصول على مرافئ آمنة وهم في رحلتهم من مصر الى موانئ الهند .

ويقول : وكان التجار الأعراف يقومون بدور الوسيط بين التجار المصريين وزملائهم في الهند وكانت هذه التجارة الى حد كبير تقوم على الكماليات (١) .

وليس الأمر بحثاً في دوافع الخروج ، أو الدخول فيها وحسب ، بل يرى علماء التاريخ : أن شبه الجزيرة العربية هى أصل الهجرات السامية لتلك المنطقة (٢) .

وحجتهم في ذلك أنها بلاد صحراوية ، ويحيط بها البحر من ثلاث جهات ، لذلك عندما يزيد السكان عن قدرة الأرض المأهولة الضيقة لاعتهم فأنهم يميلون الى البحث عن مجال حيوى ، فيجدونه فقط في الأراضى الشمالية الخصبة التى تجاورهم .

ويؤدى ذلك الى الحجة الاقتصادية التى تقول : ان أهل الجزيرة الرحل كانوا نوما يعيشون على ما يقرب من الجوع ، وأن الهلال الخصيب كان أقرب مكان يزودهم بما يحتاجون اليه .
يقول سبتينومو سكاني (٣) :

« فالساميون يظهرون في أقدم المصادر على أنهم بدو صحراء العرب يدفعون بأنفسهم دائماً الى الخارج ويتغلغلون في المناطق المحيطة ويوطدون أقدامهم فيها فهناك :

(١) تاريخ المبراطورية الرومانية الاجتماعية والاقتصادية صفحات : ٩٢ ، ١٤٥ .

(٢) العرب واليهود ، التاريخ ج ١٨٩١ د ١ أحمد هوجج . وتاريخ سورية : فلبليج

حتى ج ١ وهمة الحضارة ٢ ص ٢٦٤ .

(١) يراجع كتابه ، الحضارة السامية ص ٢٢٥ .

- - الأكديون الذين نراهم في أرض الرافدين في الألف الثالث قبل الميلاد .
- - ثم الأموريون الذين أسسوا في بداية الألف الثاني سلسلة من الدول في فلسطين وسوريا وأرض الرافدين .
- - ثم العبريون والآراميون الذين جاءوا بعد ذلك بقرون قليلة ليسدوا الفراغ التاريخي الذي خلف انسحاب « شعوب البحر » في فلسطين وسوريا .
- ثم العرب الذين خرجوا من صحرائهم بعد ذلك بعدة قرون في حركة فتح عظيمة نقلتهم الى أقصى البقاع ، وهؤلاء جميعا ليسوا سوى أسماء مختارة برزت في الحركة المستمرة التي كانت في كثير من الأحيان خفية مجهولة الأبطال ، والتي وجهت ودفعت سير الأحداث في الشرق الأدنى ثم يقول : ولم يكن بد من أن ينقل البدو ومعهم آثار أحوالهم الأولى ومن هنا بحثنا في النظام الاجتماعي القديم لصحراء العرب عن الخطوط التقريبية ، . . . وحاولنا أن نقيم على وجه التقريب أيضا ، الصور السياسية للشعوب المختلفة وفي معتقداتها أو طقوسها وفي قوانينها بل في فنها أيضا وليس التراث البدوي لتلك الشعوب كافيا وحده لتفسير ذلك التطور وهو العنصر الذي وصفناه بأنه سام .

ويضيف ننتج فيقول (١) :

« المحاولات الناضجة في القرن التاسع عشر في فك رموز الكتابات التي تعود الى العصر السابق على ظهور المسيحية كشفت عن تشابه بين لغات البابليين والآشوريين والآراميين والكلدانيين والفينيقيين والعموريين والعبرانيين والعرب والأحباش . وهو تشابه ملفت للنظر بحيث يوحي بأن هؤلاء الناس جميعا لابد وأنهم ينبثقون من نفس الأصول . »

ومن هذا ثبت أن أسلافهم المشتركين كانوا العرب الأصليين - أو الساميين من قبيلة سام - إذ ان اسم « عريب » هو التعبير السامي عن

ترجمة : دكتور السيد يعقوب بكر .

مراجعة : دكتور محمد القصاص .

(١) ص ٥ العرب نتج ترجمة د . راشد البراوي الانجلو .

✧ الترابة الذنوبية بين الشحوب التي تتكلم اللغات السامية .

• **عناصير الدينية** •

✱ دۇسساقتم الاجتماعية

هذا فضل ابن أبي عمير آخرى ضرب صفحا عنها .

هذا التشابه يدل من السهل الاستنتاج : أن الأسلاف الذين تقلدوا
البادلية والأثورية والآرية ، والكنعانية ، والأبيرية ، والآرامية ، والعربية
والحيثية ، كانوا غالباً من النسل الواحد في الأصل . لعوامل : سياسية
وإقليمية ، ومع التاريخ ، حصل بينهم خلاقات وكان من آخر انهجرات
الذين : حوالي ٥٠٠ ق م : هجرة الأنباط الى شمال شرقي جزيرة مسنداء ،
حيث كانت عاصمتهم البتراء . هذا عدا هجرات الفتيق الاسلامي . وهذه
الهجرات الأخيرة : هي التي أثارت التاريخية التي يؤيد بها نظريتهم التي
تجعل من هذه الجزيرة : بيت المقدس الاسلامي ، وبينهم أي ذات
حجة أخرى : وهذا : أن اللغة العربية قد احتضنت في نواح كثيرة بأشد تشابه
باللغة السامية التي كانت جميع اللغات السامية من لهجاتها .

وكانت هذه الحجة مبنية على أن سكان شبه جزيرة العرب
وكانت تسمى آنذاك بالقبائل السامية .

وبما ندب أن نتسير اليه ، أن عقائدهم الدينية كانت تقوم على عبادة
الآلهة ، في شكلها البدائي ، وكانت هذه العبادة شائعة بين الرعاة ، من بلاد
الشمالي وبلاد العرب ، وكان يوجد بجانب اله القبيلة اله اعظم يطلق عليه

• أو • اللات •

وتشانت اذانت او ٠ ل الألية الرئيسية في الجزيرة العربية •

تسببوا أن يكون دورهم في العالم القديم وثقافته عزلة عنهم عنه ، غير
وارث . وفي بيت أمام التاريخ الحديث الذي أصبح يتكلم عن العرب ودورهم
في التاريخ القديم . دورهم في الحفائر والنقوش التاريخية القديمة ،
ووجهاً في غير أن يتمثل . أن ما دستك فيونه من حفائر تاريخية في تلك المنطقة ،

يعطى ما أشار اليه القرآن : وهو عدم عزلتهم ، وما تعاقب في المنطقة العربية على فترات متتالية في التاريخ من مراكز حضارية عربية يشهد عليها ، فضلا عن المركز الديني الثابت وتلك المراكز هي :

✳ مكة : عاصمة دينية قديمة تقع في وسط الحجاز .

✳ البتراء (١) دولة البتراء عاصمة تجارية عربية ورئيسها عربى وكانت

في الجنوب .

✳ دولة تدمر (٢) عاصمة تجارية عربية ورئيسها عربى في الشمال .

(١) ان كلمة : البتراء Patra هي اللفظ اليوناني بكلمة حفرة ، وهي العربية النحصى : الرقيم ، وهي الواردة في القرآن في سورة الكهف وهي وادي مروي الاسم الحديث للموقع بأكمله . أسسها : الحارث حوالي ٦٩ : م. ويدعى (اريئاس ملك العرب سفر المكابيين) وقد نسي بهذا الاسم كثيرا من ملوك الأنباط وملوك النبطية ، وينتقل بالكشاف = آثارها بعض أشياء ذكرها القرآن أن الأماكن المرتفعة التي لا تزال قائمة في البتراء التي تمثلها قبور الحجر (مدائن صالح) في الحجاز إلى زمن حكمه . وكانت الحجر مركزا لقبيلة ثمود الواردة في القرآن اكتشف آثارها للعالم في ١٨١٢ المكتشف السويسري : بيركهات Burckharat وكان أحدهم كما ذكر الكتابات الآثارية التي وجدت في حوران : رابيل الثاني حوالي ٧١ - ١٠٥ آخر ملوك الأنباط ، وهو ابن مالكور ووريثه ابتلعها الدولة الرومانية وأصبحت في ذمة التاريخ الذي منه أنت - تاريخ سورية ج ١ ص ٤٥٤ .

(١) تدمر : معناها : قيل - وهو قول الهذاني في كتابه الاكليل - : ج ٨ ص ١٢١ مع تعليقات الاب انستاس ماري الكرملى .

والتاريخ الاسلامي العام « على حسن ابراهيم » انها سميت تدمر : بتدمر بنت حسان ابن أدينة ، وقيل معناها يعنى بالآرامية : الأعجوبة والمعجزة لانها كانت أعجوبة مدن الأرض .

وقيل : كما ذهب الأب الكرملى الى أن أصل الكلمة مأخوذة من الثمر وكذا في الآرامية فيكون معناها : مدينة النخل أو مدينة الثمر . التاريخ الاسلامي العام د / على حسن ابراهيم ص ٨٦ .

تامت دولة تدمر : بعد ولاية الأنباط التي كانت تابعة للدولة الرومانية ، دولة الانباط كانت قبل ميلاد المسيح بزمان طويل وسيطروا خلال الحقبة الهلينية على تجارة القوافل بين جنوب بلاد العرب وشمالها ، وكان الأنباط يتكلمون اللغة العربية ، ويرى أنرليتمان : أن النبطية لهجة آرامية اختلط بها صيغ وكلمات عربية لأن الذين كتبوها كانوا من العرب العاربة ، أنوليتمان . لهجات عربية شمالية قبل الاسلام بحث مستخرج من مجلة مجمع اللغة العربية الملكى سنة ١٩٣٦ .

* بصرى : دولة الغساسنة (١) عاصمة تجارية عاية. ورئيسها عربى
وتقع بينهما .

يجمع بين هذه الدول الثلاث بعض المظاهر العامة وفق تاريخها المتعاقب
من حيث :

* أصلها : يرجع الى تحضير القبائل البدوية أو المتنقلة .

* وازدهارها : يرجع الى تجارة المرور .

* وتحالفت كل منها واحدى الدولتين لبعض الوقت باعتبارها دولة حاجزة
بين إحدى الدولتين العالميتين وهما : فارس ورومة ، وتلقت المساعدات منهما .

* ونهايتها كانت على يد إحدى الدولتين .

فرومة قضت على الدولتين : الدولة النبطية ، والدولة التدمرية (الزباء)
وقضت فارس وبيزنطة على دولة الغساسنة .

وأنها جميعا كانت وسائل جيدة للقراوج بين حضارات الغرب : رومة ،
واليونان ، وبين حضارات الشرق : فارس والهند وبيزنطة ، فنقلت من
الهند الى الغرب ونقلت من الشرق الى الهلينية . وكانت مع مرفئها التجارى
عاملا مهما فى ظهور التراث الهلينستى (٢) وظهرت مدارس اشتغلت بالفكر
الشرقى والهلينى فى ربوع تلك الدول منها :

* مدرسة نصيبين .

* مدرسة الرها .

* والمدائن .

(١) يقول نيكلسون : من الصعب الاعتماد على الأخبار العربية الخاصة بدولة
الغساسنة لما فيها من اضطراب لأنه قل أن يجد الباحث مادة يؤلف من شتاتها صورة
تقريبية. يمكن أن تضاف الى تلك المعلومات المبعثرة فى كتب المؤلفين البيزنطيين .

وقول د . على حسن إبراهيم : وسبب هذا الاضطراب فى أقوال مؤرخى العرب .
هو عدم استقرار الغساسنة الذين لم يكن لهم ملك ثابت حتى أنهم اتخذوا أكثر
من عاصمة (التاريخ الإسلامى العام ص ٩٠) له ما يبرره .

(٢) الفترة التى يطلق عليها العصر الهلينستى هى التى تقع بين حكم الاسكندر وحكم
روما ٢٢٠ - ٣٠ ق . م تراجع ج ١ ص ٢١٨ تراث العالم القديم .

(م ٣ - الفكر الدينى)

✳ وانطاكية .

✳ وجنديسابور .

فتلك المدارس : كانت روافد صالحة لنشر الهلنستية في الشرق والغرب ونشر تراث الشرق والغرب أيضا في المغرب الروماني . وسنعرض لتلك المدارس ووظائفها :

١ - فالبتراء : من الدويلات المهمة التي قامت في العصر السلوقي وأهلها من الأنباط (من العرب المتكلمين باللغة الآرامية) وازدهرت طوال ثلاثة قرون من القرن الثاني ق.م الى القرن الثاني الميلادي ، وفي نفس القرن ضمها الامبراطور الروماني تراجان (١) الى الامبراطورية ، وظلت الى أواخر القرن الرابع وهي المدينة الرئيسية على طريق القوافل تربط بين جنوبي الجزيرة الذي ينتج التوابل وبين مراكز البيع في الشمال .

وكانت تسيطر على الطرق المؤدية الى مرفأ غزة في الغرب والى بصرى ودمشق في الشمال والى آيلة (ايلات) على البحر الأحمر والى الخليج الفارسي عبر الصحراء .

وكانت يستبدل فيها الجمال النشط بجمال القوافل .

واستطاع الحارث الثالث العربي النبطي (٢) : أن يدخل مملكته ضمن المحور القام للحضارة الهلنستية : وكسب بذلك لقب محب الهلينية .

(١) يراجع : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة : طه باقر ص ٤١٨ منشورات دار البيسان .

(٢) كان المؤرخون القدامى يرون أن العرب غير الأنباط نفري المسعودي في كتابه مروج د ج ١ ص ١٨٢ يقول : وقد تزارع الناس في ملوك الطوائف : ابن الفرس كانوا في هذا النمط أم من العرب ؟ غير أن هذا الخلاف يشير الى أن هناك أصلا لهذا الاختلاف ، ويقول فيليب حتى : وقد أصاب (سترابو) و (بوسينوس) و (ديوروس) باطلاق اسم العرب على الأنباط إذ أن أسماءهم الشخصية وأسماء آلهم وأثر التحريف العربي في كتاباتهم الآرامية لا تدع مجالا للشك بأن لغتهم الوطنية كانت لهجة عربية شمالية وظهر في الكتابات الآثرية أسماء مثل : علي ، حبيب ، سعيد ... الخ .

وبلغ من كثرة استعمال كلمات عربية صرفة في إحدى الكتابات الآثرية المتأخرة (٢٦٨ م) أن النص كله يكاد يكون عربية ، راجع : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ص ٤٢٦ ق ٢٢٧ ج ١ ترجمة د / جورج حداد وعبد الكريم رائق ومراجعة د / جبرائيل جبور . دار الثقافة ببيروت .

وبدأت البقراء - جزء من الولاية الغربية الرومانية - تتخذ مظاهر هلينستية نموذجية . يقول فيليب حتى : كانت حضارة الأنباط : عربية في لغتها ، آرامية في كتابتها ، سامية في ديانتها ، ويونانية ورومانية في فنها وهندستها ، المعمارية وهي لذلك حضارة مركبة : سطحية في مظهرها الهليني ولكنها عربية في أساسها وبقيت كذلك .

٢ - تدمر :

وأما تدمر (زنوبيا) فيرجع بناؤها الى نبي الله سليمان . كانت تقوم بين هاتين الامبراطورتين العالميتين ساعدها موقعها هذا على عدة ميزات منها .

* عدم تمكن الفرق الرومانية والفرق الفارسية من سهولة الاستيلاء عليها .

* استفاد تجارها من وضعها الفريد كمحطة رئيسية لنزول القوافل عند نقطة التقاء الطرق التي تعبر الصحراء من الشمال الى الجنوب ، ومن الشرق الى الغرب .

* استغل رجال السياسة بذكاء موقعها الاستراتيجي من حيث انها بين دولتين كبيرتين متنافستين : فكانوا يقفون مرة بجانب رومه ، ومرة بجانب الفرس ، مما جعلهم يحافظون على ميزان القوة ويستفيدون من الحياد .

وحصل الزعماء التدمريون من شيوخ القبائل في الصحراء على اذن بمرور قوافلهم بسلامة . وكانت النتيجة أن أصبحت (تدمر) من أكثر المدن ثروة في الشرق القديم .

وأصبح رئيسها - (أذينة زوج زنوبيا) يحوز لقب (زعيم الشرق) ونائباً للامبراطور غالينوس ، الروماني - غالينوس في الشرق ، وذلك بعد أن خاض معركة ضد الغرب ليخلص « فاليران » الامبراطور الروماني ، الأسير لدى الفرس ، فهزم الفرس ، ولم يستطع تخليص الامبراطور الأسير ، ثم اغتيل في ظروف غامضة .

تولت زنوبيا أو الزباء من بعده ، وكانت طموحا ، فوسعت من دولتها حتى أصبحت تشمل سوريا ، وجزءا من آسيا الصغرى ، وشمالى الجزيرة

العربية ، ويقول المؤرخون : كادت أن تكون امبراطورية • ورعت الثقافة اليونانية وجمعت تاريخا للشرق • يقول فيليب حتى : وكانت حضارة تدمر : حضارة غريبة فهي مزيج من عناصر سورية ويونانية وفارسية ، ولا شك أن السكان الأصليين كانوا قبائل عربية وبقيت اكثرية السكان عربية •

ويصف م • رستوفتزف قوة دولة تدمر فيقول (١) :

وكانت الحال في المشرق أسوأ منها في المغرب فقد غزا الفرس سوريا وحدوا آسيا الصغرى فسار فاليران لصددهم وبالقرب من اديسا (الرها) هزمه هزيمة نكراء ووقع في أيدي أعدائه (٢٦٠ م) ونجت آسيا الصغرى وسوريا من قبضة فارس أنقذ الأولى (آسيا الصغرى) كاليسنوس - أحد قواد الرومان - الذي طرد الفرس •

وانقذ الأخرى : (سوريا) اوديتاثوس شيخ تدمر الذي أنزل الهزيمة بالغزاة عندما حاولوا عبور الفرات في عودتهم الى فارس •

لذلك اعترف جالينوس بأوديتاثوس الذي استمر يحكم سوريا وجزءا من آسيا الصغرى ، وبقي يحمل لقب امبراطور حتى قتل ٢٦٦ - ٢٦٧ م فخلفه على العرش ابنه فابالاثوس وقد قامت أمه الملكة زينوبيا بأعباء الحكم نيابة عنه وكانت امبراطورية تدمر في الشرق أكثر رخاء وأشد تماسكا تحت حكم زينوبيا وابنها فابالاثوس وقد لاحت بالتدريج لزينوبيا فكرة انشاء امبراطورية رومانية شرقية مستقلة يحكمها أغسطس مستقل •

ولكن أوريليانوس الذي تولى زمام الأمور بعد كلوديوس - الذي لقي حتفه ضحية طاعون عصف مرة ثانية بصفوف الرومان سنة ٢٧٠ م - بعد أن هزم القوط سار الى الملكة زينوبيا واستطاع بعد حملة اكتنفتها الصعاب من كل جانب أن يعيد سيادة رومة على الشرق وأن يفتح مصر مرة ثانية وأن يستولى على مدينة تدمر ويأسر حكام الامبراطورية التدمرية رغم المدد الذي جاءهم من الفرس •

(١) تاريخ الامبراطورية الرومانية الاجتماعى والاقتصادى ج ١ ص ٢٧٥

٣ - دولة الغساسنة :

ودولة الغساسنة : (الحارث بن جبيل بن الأيهم) وتنحصر في خلال القرن الرابع الميلادي إلى أن جاء الإسلام .

منح الحارث من قبل « يوستنيان » لقب « فيلارك » أي رئيس قبيلة واستطاع أن يهزم المناذرة في معركة قنسرين التي تعرف « بمعركة حطيمة » .

وقام الحارث في عام ٥٦٣ بزيارة بلاط « يوستنيان » حيث ترك تأثيرا عميقا على أفراد حاشيته كشيخ بدوي مهيب .

ويقول المؤرخون : وكان موظفوا البلاط بعد سنوات من هذا الحادث حين يريدون أن يهدثوا الأمير المعنوة « يوستين » وهو ابن أخ يوستنيان ووريثة يكتفون بالقول :

اسكت : والا استدعينا الحارث :

وحصل الحارث أثناء وجوده بالقسطنطينية على تعيين يعقوب البرادعي (١) اسقفا على الكنيسة فكان يعقوب من أتباع نسطورا ومذهبه القائل بالطبيعة الواحدة للمسيح .

وأصبحت بصرى - التي بنيت كاتدرائيتها في عام ٥١٢ - العاصمة الدينية ، في المنطقة ووصلت المملكة حينذاك ذروة اتساعها إذ كانت تمتد من قرب البتراء إلى الرصافة شمالى تدمر وتشتمل : على البقاع ، والصفاء ، وحران .

٤ - دويلة المناذرة :

وقامت في بداية القرن الثالث الميلادي في البادية المحاذية للفرات في منطقة الكوفة دويلة عربية مهمة هي مملكة الحيرة ، وأصل أهلها وملوكها من عرب اليمن ، عرفوا بالمناذرة واللخميين ، وتقع الحيرة ، عاصمتها على بعد نحو

(١) وكان الحارث مسيحيا يعقوبيا وقد دافع عن مذهبه بحماسة وتوفيق عظيمين نرى وقت كان التعلق بأهداب هذا مجازفة خطيرة كما كان لا بد من وسع في الدفاع عن أصحاب الطبيعة الواحدة وتحريرهم من الاضطهاد ان يقع عليهم ، وبفضلة توطدت دعائم الكنيسة البعثوية بعد أن كانت مهددة بالخطر : نولدكه : ابراه غسان ص ١٤ ترجمة دابندى جوزى ودا قسطنطين زريق .

٣ أميال جنوب الكوفة ، وكان أهلها نصارى على المذهب النسطورى وكان ملوكها موالين أو محالفين للوك الدولة الساسانية ، ومن ملوكها الأوائل امرؤ القيس الأول (القرن الرابع الميلادى) والنعمان الأول ابن امرى القيس ، والمنذر الأول (٤١٨ - ٤٦٢) ابن النعمان ، وقد عظم في زمنه شأن الحيرة ، والمنذر الثانى (٥٠٥ - ٤٥٥) وهو الذى سماه العرب « ابن ماء السماء » ، وأعقبه ابنه المسمى : عمرو بن هند (٥٥٤ - ٥٦٩) الذى خلفه شعراء العرب من الجاهلية مثل : طرفة بن العبد ، والحارث بن حلزة وعمرو بن كلثوم . وانتهى حكم السلالة في حكم النعمان الثالث الذى يكنى « أبو قابوس » (٥٨٠ - ٦٠٢) ، صاحب النابغة الذبياني ، حيث صار الملوك الساسانيون يتدخلون في شئونها وأخيرا انحاز عرب الحيرة الى خالد ابن الوليد في فتحة العراق (٦٣٣) (١) .

وقد بذلت داخل الصحراء نفسها محاولات للتنظيم السياسى كدولة كندة التى وحدت تحت حكمها عدة قبائل من وسط الجزيرة .

ولكن ظل البدو في حملتهم أحرارا من مثل هذه التنظيمات السياسية فلم يطلبوا وحدة فوق قرابة الدم التى وحدت بينهم في قبائل . وانما كانوا يجوبون بلادهم الرملية الشاسعة مستقلين بعضهم عن بعض . وقد ذكرت لنا الرواية الاسلامية ذكرى تنافسهم وتصارعهم « فأيام العرب » مملوءة بحروب وثورات نشأت في الأصل عن نزاع على الماشية أو المراعى . أو عيون الماء . وهنا تبرز شخصية البدوى حية نابضة بصفات الشجاعة والكبرياء والاصرار والحيلة وهى صفات كان لها دور لا يستهان به في النظام العظيم الذى انبثقت عنه الجزيرة العربية فيما بعد . وقد قامت مدن في واحات الحجاز خاصة وكان طريق القوافل المتجه الى الشمال يسيطر عليه مركزان يغلب عليهما طابع التجارة هما : يثرب التى سميت المدينة فيما بعد ومكة الى الجنوب منها . وكانت تحكم مكة حكومة قله قوامها التجار .

وكانت تفد عليها في أيام الأسواق والمواسم الدينية أفواج العرب من

(١) مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، طه باقر ، ص ٦١١ منشورات دار البيان

جميع أنحاء الجزيرة فلم يكن في وسط الجزيرة رقعة تضارع مكة مركزاً
لاجتماع القبائل واختلاطها ببعضها ببعض (١) .

من هنا يتبين لنا ، أن المنطقة العربية تعرضت لتيارات : من الرومان
قارة ، والفرس أخرى ، وبيزنطة الثالثة الأخيرة ، وفي هذا ما ينفي القول
القائل : أن العرب كانوا في عزلة عن التاريخ ، ويعطى لدينا : أن المنطقة
شهدت حضارات تعاقبت عليها ، وشاركت في أحداثها السياسية ، والاقتصادية
ومظاهرها الاجتماعية ، أيضا ، غير أن هذه التأثيرات بتياراتها لم تستطع
أن تلغي شخصيتها العربية ، إنما كانت طلاء ظاهرا لم يلبث أن انجلي عنها .
أما لماذا انجلي عنها ؟ فسوف نعرض له .

وبعد ما كانوا يرون أن العرب حجزهم للتاريخ عن حضارته ، أصبحوا
يرون ، من خلال ما استجد أمامهم من وثائق تاريخية وصلوا إليها عن طريق
الحفائر والآثار : أن المنطقة تعرضت للتيارات المختلفة : من غزو يوناني ،
إلى روماني ، إلى فارسي ، إلى بيزنطي ، وبالتالي « أصبحت قادرة على
العطاء ، وأصبح الإسلام - في نظرهم - هو ثمرة هذا العطاء وتلك قصة
سنعرض لها .

وأصبح الإسلام يتكون - في نظرهم - من عدة تأثيرات :

- التراث الهلينستي : أي التراث الشرقي والغربي الذي ألفت بينه
مدرسة الإسكندرية حاضرة البحر الأبيض .
- التراث الديني : العبري ، والمسيحي .
- وسوف نبدأ بالتراث الهليني وموقف الشرق منه .

التراث الهليني ومراكزه العربية :

لقد عرضنا للأحداث السياسية التي تعرضت لها المنطقة العربية
والدويلات التي قامت بها على فترات متعاقبة من التاريخ وكيف كانت
تحتويها إحدى الدولتين العالميتين حينذاك أما الفرس أو الروم .

وكان الهدف الذي كانت ترمي إليه الجمهورية الرومانية الناهضة
هو العمل على الحيلولة دون قيام أي نظام سياسي قوي في الشرق يخشى

(١) راجع المصارات السامية القديمة ص ٢٠٤

ان يكون خطرا على الدولة الرومانية وكلما زادت القلاقل والمتاعب في الشرق كلما كان هذا أفضل لصالح روما ، وكلما تضاعف عدد الدول المستقلة كلما كان هذا أجدى وأنفع لروما وكلما زادت الارتباكات وتعقدت الأمور في الشئون الداخلية لكل دولة من دول الشرق كلما تضاعف أمل روما في أن تصبح سيدة الموقف والقوة المتحكمة في مصير الشرق بأسره (١) .

وان أهم ما يقال عن هذه الدويلات من حيث مظهرها السياسى : أنها كانت دويلات تزدهر بازدهار مرفئها التجارى ، وتندثر باندثاره ، وكانت ترى تبعيتها لاحدى الدولتين ولاء سياسيا واجبا ، وكان هذا الولاء يتغير من حين لآخر ، وعامل التغير الأساسى فى ذلك : هو الظروف الدولية للدولتين الكبيرتين ، وأما هذه الدويلات فعليها أن تشكل ظروفها تبعا لهذا التغير دون اعلان رغبتها حتى فى شكل التبعية .

وترتب على ذلك - من وجهة نظرنا - أن أصبحت ميول هذه الدويلات العربية مرتبطة بميول الامبراطور الشرقى ، أو الرومانى ، وبدلا من أن يكون الولاء للوطن : أصبح الولاء للامبراطور ، وفى هذا ما جعل الاسر الحاكمة لهذه الدويلات أن سمعت - نفاقا سياسيا منها - الى التسبب بمظاهر حضارية ذات غشاء رقيق ، لم يلبث أن تكشف عن بداوة وسعى الى حياة الترف بشتى أشكاله وألوانه وصنوفه .

وفى هذا ما صرفها عن دراسة مكوناتها الحضارية ، وعن ابراز عوامل شخصيتها الانسانية ، وعن الدعوة الى توظيف لغتها ، ورفع ادبها ، ومناقشة قضايا وطنها ، والبحث عن حريتها الانسانية ، وحريتها فى العلاقات السياسية .

لذلك كنا نراها : دويلات متعاقبة فى سلسلة التاريخ الانسانى ، تظهر « دولة البتراء » ، ثم تغيب مع غياب الاسرة التى حكمت فاذا ما اخطأت سبيل ترضية الامبراطور ، فما عليه الا أن يغطى عليها ، ودون أن يغيب نجم الامبراطور السياسى ، ولأول مرة أرى دويلات تفتخر انتحارا سياسيا نتيجة القلق السياسى الذى انتابها .

(١) تاريخ الدولة الرومانية والاجتماعية والاقتصادى ص ٢٤ ح ١ تاليف : م . رستوفتوف ترجمة : ريكى على ، محمد سليم سالم - مكتبة : النهضة المصرية .

ثم تظهر دولة (تدمر) لتعيد نفس التاريخ ونفس الأسلوب ويقضى عليها بنفس الوسيلة السابقة .

الى أن جاء الاسلام فاحتوى الدولتين العالميتين : سياسيا ، وفكريا ، ودينيا ، وشفى ما بها من علة القلق السياسى ، وكان الاسلام بما أحدثه من تغييرات ، على المستوى العالمى : يعتبر بحق أظهر بمبادئه الرفيعة حقيقة الانسان عندما ضل عن فهمها من خلال ما حوله من أفكار دينية ما جت بها منطقته . فتلاحظ أنه كان فى المنطقة تغييرات سياسية ، لكن غير محددة الوجهة السياسية ، فتارة الى الشرق وتارة أخرى الى الغرب ، فاذا ناعت دولة الشرق الكبرى فارس بثقلها على هذه الدويلات تغير مجرى علاقاتها الى الرومان وهكذا ، فهناك حقيقة تغييرات سياسية طرات على المنطقة غير ثابتة الهدف السياسى ، والوجهة الحضارية ، يضاعف ذلك : عدم وعى الاسرات التى حكمت بهدفها السياسى ، والحضارى ، وذلك مما عجل من انتحارها السياسى .

وحال العرب اليوم مثله بالأمس ، دويلات ظهرت فى المنطقة العربية وازدهرت لعامل اقتصادى لا دخل للعبقريّة العربية فيه ، وسيطرت عليه ، احدى الدولتين العالميتين ، فظهرت المنطقة بمظهر حضارى غربى ، ورجع العربى من غير أن يدري الى بداوته ، فكره العمل ، وبسات على ذلك منعم البال بترائه المادى ، فشل بذلك من عبقريته ، ومن تفهمه لمستوى حضارته ، وكذلك أسرات حاكمة يرى فيها ، أنها مسئولة عن توجيهه لما تحب وترضى ، فمفهوم التعاون العربى نراه لا يخرج عن معناه القبلى : وهو الأسرة لا الوطن هى الأحق بالرعاية والتقدير .

وفى ذلك ما يشير الى مستقبلها أن ظلت على هذا الحال كلقمة طيبة المذاق يعافها الذوق عندما يتغير مذاقها أو يتغير مذاقه على حد سواء ، لذلك كان على العربى أن يبحث : عن شخصيته ، وأصالته ، وأن يرصد أموال البترول لصالح ورعاية السلوك الحضارى النابع حقيقة من الاسلام ، وعليه يتحدد مظهرنا الحضارى اللائق بعبقريتنا ومنهجنا الإسلامى .

وإن وضعنا - عربا ومسلمين - فى حضارتنا المعاصرة مؤسف إذ ما زلنا بمعيددين عن المشاركة فى بناء الحضارة ، وإن ما يبدو علينا من مظاهر فهو

مظهر استهلاكى لابنائى ، وفى ذلك تدهور وتدل ، والعربى - تاريخيا - محسود حينما حباه الله برسالة الاسلام - وحيا مقدسا - لا مظهر للعبقرية العربية فى تأليفه ، وهو العامل الجوهرى للحضارة الانسانية ، وحينما منحته أرضه - وستمنحه - بترولها وهو عامل جوهرى فى قوة الحضارة المادية ، فلا مظهر فيه للعبقرية العربية انما هو منحة الهية ايضا .

وفى كلتا الحالتين استحق العربى بهما دوره التاريخى والحضارى . لكن هل قام بعبء هذا الدور ، انه ما زال يتسول التكنولوجيا من الغرب .
نرجع الى حديثنا عن المدارس الهلينستية التى انتشرت فى المنطقة فنقول :

ما عرضناه كان مقصورا على الجانب السياسى فقط . ترى ألم يكن ثمة تغيير من الناحية الثقافية ؟ أو بمعنى آخر :

هل اطردت الحياة الثقافية غير متأثرة بالتغيير السياسى ؟

ونحن لكى نجيب على هذا السؤال : نقدم بين يديه شيئا عن المراكز الثقافية الهلينية فى المنطقة العربية ولون الثقافة التى غزت المنطقة العربية .
نلاحظ من مقتضى الأحداث السياسية : أن أصبح الشرق - والمنطقة العربية فيه - خاضعا الى حد كبير للنفوذ الثقافى الأغريقى ، وكما نشأت عواصم سياسية نشأت أيضا بجانبها عواصم ثقافية .

يقول م . رستوفتزف :

ويمكن أن نصف المظهر الذى كان عليه العالم القديم قبل نشوب الحروب الأهلية فى روما وإيطاليا على الوجه الآتى : ففى أثناء الفترة التى يطابق عليها اسم العصر الهلينستى أخذ مركز الحضارة فى التحول تدريجيا من الغرب الى الشرق فحلت الاسكندرية فى وادى النيل وأنطاكية على نهر العاصى وبرغامة على نهر كايكوس Caicus محل أثينا فى الصدارة والاسبقية فى المدنية (١) . من أولى العواصم الثقافية : مدرسة الشرق الكبرى :

(١) يراجع ، تاريخ الامبراطورية الرومانية الاجتماعى والاقتصادى ج ١ ص ١٦ م . رستوفتزف .

مدرسة الاسكندرية حاضرة البحر :

وكما هو واضح من اسمها أنها تحمل اسم ذلك الفتى الأغريقى ، بانيتها ومؤسسها ، وخضعت لنفوذها الدنيا ، وهو لما يزل فى عقده الثالث ذلك السكندر الأكبر . لقد أسسها سنة ٣٢٣ ق.م وقد ظل اسمه علما عليها الى الآن .

وأنشأ خلفاؤه - من بعده - فيها : أكاديمية يونانية ، تناظر بزهوها العلمى المدارس الأثينية ، بل وتفوق عليها لما احتوت عليه : من تراث شرقى ، وتراث يونانى ، وأصبحت موئلا للعلماء والمفكرين الذين وقع عليهم الاضطهاد ولا سيما بعدما أغلقت مدرسة أثينا ، فانتقلت الى الاسكندرية بتراتها وفلاسفتها ، مع اهتمام حكماء مصر بها أيضا فانقلوا من معابدهم اليها ، لما لقيته من حفاوة وتقدير : استطاعت بهما أن تكون وريثة عين شمس ووريثة أثينا .

فجمعت : بين خصائص الثقافة الشرقية ، وخصائص الثقافة الاغريقية وأصبح من الصعب : أن يحتفظ الفكر اليونانى بخصائصه ، او أصالته ، كذلك أصبح أيضا الفكر الشرقى يميل الى الاندماج نحو الهلينى ، والهلينى نحو الشرقى ، وبذلك أصبح فكرها عالميا .

« ومع ذلك فالمحيط اليونانى فى الاسكندرية فقد الأصالة التى كان يمتاز بها الفكر الأثينى واتخذ طابعا عالميا وظهر فيه ميل ظاهر نحو الفكر الشرقى .

وعلى الرغم مما كانت تدعيه الثقافة اليونانية القديمة من الأصالة ، فانها لم تكن خالية تماما من المؤثرات الشرقية ، ويمكن أن نرجع الكثير من مظاهر الحياة والفكر اليونانى : الى أصول مصرية ، وبابلية ، هذا وينبغى أن نلاحظ أنه بالرغم من أن الاسكندرية كانت ذات أثر بارز جدا فى تطور الفكر اليونانى فى العصر المتأخر ، فان مثل هذا التطور لم يكن وقفا عليها ولم يكن محليا ، بل لم يكن قوميا أيضا وانما كان تطورا عالميا » (١) .

(١) علوم اليونان وسبل انتقالها الى العرب ص ١٤ ، دار ديلاس أو لبرى د . وهيب

كامل مراجعة ، زكي ملي .

وقال أو ليرى : ان الحياة اليونانية العالمية الجديدة التى ازهرت بعد عهد الاسكندر ، كانت ذات جوانب متعددة : انتجت نوعا من الادب خاصا بها ، وأخرجت نقدا أدبيا علميا ، وسارت قدما بالفلسفة منتهجة فى أكثر الأحيان سبلا جيدة ، كما أنتجت أبحاثا جديدة فى الطب ، والفلك ، والرياضيات ، والفروع الأخرى من العلم ، فكل هذه متداخل بعضها فى بعض وأنها كلها ذات منزع متماثل وكلها تتطور تطورا طبيعيا من ثقافة اليونان القديمة (١) .

وفى النهاية يكفى القول : انها ولفت بين الترائين وأصبح ما يعرف فى تاريخ الفكر الفلسفى : بالهلينستية يرجع الى نشاطها العلمى تاريخيا واصطلاحا .

ومما ينسب اليها من الشخصيات :

١ - ساكاس (أمونيوس)

يقول عن نفسه : أنه من أهل الاسكندرية ، ونشأ مسيحيا ، وتفقه فى الدين على يد والديه ، ولكنه عندما بدأ يدرس الفلسفة تحول عن دينه وصار وثنيا .

٢ - أفلوطين : وأفلوطين من أسيوط ولاحوالى ٢٠٠ م . وأفلوطين عدة مؤلفات كتبها على فترات .

الفترة الأولى : كتب واحدا وعشرين كتابا من تاسوعات .

الفترة الثانية : فى روما : كتب فى اثنائها أربعا وعشرين كتابا .

الفترة الأخيرة : كتب تسعة من الكتب .

وانتهت أعمال أفلوطين المصرى بتلمذة فورفورىوس الصورى له .

فمن مدرسة الاسكندرية ومكتبتها بدأت تنداح دائرة الثقافة الهلينية دائرة أثر دائرة لتشمل جميع مراكز الثقافة فى المنطقة العربية ودوائرها ولم تكن الثقافة التى غمرت المنطقة العربية يونانية ، انما كانت الثقافة الصادرة عن الاسكندرية ثقافة هلينستية متأثرة بالشرق واليونان .

ونجهل فيما يلي خصائص الفكر الاسكندري ما دام هو الذى يغذى
المراكز الثقافية وهو فيما يلي :

اولا : تتميز بالاتساع الفكرى ، واتساعها الفكرى وان كان ميزة أبعد
عنها تهمة التعصب لثقافة دون أخرى ، فانه جعلها لا تتعمق القضايا بقدر
ما حملت عبء التوفيق بين القضايا المتنازعة .

ثانيا : ركزت على النهج التوفيقى أو التلفيقي : فربطت أولا : بين
المدارس الفلسفية القديمة . ثم ثانيا : ربطت بين أفكار الفلسفة القديمة
وبين فكرها الحديث ، هذا من جانب موقفها الفلسفى ، ثم من ناحية موقفها
من الدين حاول بعضهم مثل فيلون الاسكندري : أن يوفق بين توحيدة الدينى ،
وبين اتجاه الفلسفة ، ثم غالى في اتجاهه عندما أخذ يؤكد اتجاه الفلسفة
اللاهوتى وحملها على تأكيد قضايا الدين الذى كان يعتنقه وهو الدين
اليهودى (١) .

ثالثا : أبرزت ثنائية الوجود ابرازا منطقيا ، وجهتها اليها الروحية
الشرقية من جانب ، والمادية الهلينية من جانب آخر ، عندما كانت تحاول
المزاوجة بين تراث يتميز بالروحية ، وتراث يتميز بالمادية صادفتها هذه
الثنائية فأبرزتها .

رابعا : التأكيد على الحقيقة المطلقة وافق ميلها الى الطابع اللاهوتى
فحولت الفكر الى تلك الغاية .

خامسا : الملازمة بين اليهودية والفلسفة حمل عبئها فيلون .

سادسا : الملازمة بين المسيحية والفلسفة حمل عبئها أفلوطين ورجال
الكنيسة وكانت تلك المحاولة بدء الانشقاقات الحقيقية فى المسيحية .

(١) تدهور الامبراطورية الرومانية وسقوطها فى الفصل الثالث عشر من الانلاطونية
المحدثة . وللإستزادة راجع : الفكر العربى ومكانته فى التاريخ ، دالاس أولير فى ترجمة
تمام حسان ، والفكر العربى للأستاذ اسماعيل مظهر وهو يعتبر ترجمة لديلاس أولير ترجمة
لها تصرف أدبى كذلك الاراء الدينية والفلسفية ، لفيلون الاسكندري تأليف لاميل برييه ترجمة
د . محمد يوسف موسى ود . عبد الحليم النجار .

هذه الخصائص وان كانت تبين المسئولية الجديدة التي حملتها مدرسة الاسكندرية وان كانت تنقسم بسعة الأفق ، غير أن منهجها هذا - وهو المنهج التوفيقى - شغلها بقضايا عسيرة الحل . وحقيقة الأمر : أنها شاركت واعطت الكثير من الحلول التي تنقسم بالطرافة والمتعة العقلية ، غير أنها لم تكن على درجة عقلية مقبولة ، [من جهة الدين ، ولا من جهة الفلسفة .

وبالرغم من هذه المهمات فإنها بحثت عاجزة مقعدة عن نواح أخرى : وذلك عندما صرفتها تلك القضايا عن مشاكل واقعها ، وعن تحمل مسئولية وطنها ، وقضايا تاريخها ، وأصبحت مع هذا الازدهار التاريخي : توصم بالعزلة وهي حاضرة الفكر والثقافة .

وما انتهت مدرسة الاسكندرية الا بعد أن خطت منهج خلط الدين بالفلسفة ، أى المقدس بغيره ، وكانت المسيحية باستسلامها لهذه الخطة نموذج هذا الخط . وتقبلها الرومان على أنها أقرب الصور لوجهة نظر «أنطيوخوس» عندما أراد أن يحكم الشرق بسياسة واحدة ، ودين واحد ، تبنت مدرسة الاسكندرية وجهة نظره هذه وراحت تنسج بخيوطها تلك الصورة ، بيد أن صورة المحاولة باءت على شاكلة (أبو الهول) : صورة انسان على جسم حيوان رابض . أنها نفس تصورات مدرسة عين شمس عن الوجود ، وعن دين (أخناتون) أصبحت المسيحية تحمل اسم الدين من غير جوهره ، وتحمل اسم الفلسفة من غير منهجها ، وكان ذلك من أخطر نتائج مدرسة الاسكندرية ومن أشيع مناهجها .

يقول : جيبون :

لقد أهمل الأفلاطونيون المحدثون : المعرفة التي تتناسب مع وضعها وقدرتها ، كما أهملوا : حقل علم الأخلاق ، والطبيعة ، والرياضة ، وذلك في الوقت الذي أجهدوا فيه قوتهم في المناقشات اللفظية في الميتافيزيقيا ، وحاولوا : أن يكشفوا عن أسرار عالم الغيب ، ودرسوا أرسطو ، وأفلاطون ليوفقوا بين آرائهما في موضوعات لم يكن أحد هذين الفيلسوفين أقل جهلا بها من بقية بنى آدم .

هذه هي الصورة العام لنوع الثقافة التي تسلمتها المراكز الثقافية العربية فما هي البصة العامة لمراكز الثقافة التي انتشرت في المنطقة العربية ،

١- مدرسة أنطاكية :

كانت انطاكية بمثابة حلقة الاتصال بين العالم القديم والعالم الحديث ، لذلك كانت مركز التقاء الحضارتين ، الأغريقية ، والشرقية ، وأنها كانت تزخر بالأغريق المستشرقين ، والشرقيين المتأغرقين من جميع الطبقات ، وعلى مختلف درجات التعليم ، فقد أصبحت تشتمل ليس على مجرد المذاهب الدينية الأغريقية القديمة الراسخة لعبادة « زيوس » « أبولو » وباقي جمهرة هذه الآلهة ، بل تشتمل كذلك على المذاهب السورية لعبادة « بعل » Baal والاله الأم فضلا عن الديانات ذات الأسرار بعقائدها عن الخلاص وعن الموت والبعث وعودها لما بعد الحياة .

كذلك شهدت التغيرات التي عرفت بها الحقبة الأخيرة من العصر الهلينستي حينما كانت المذاهب الدينية والفلسفية القديمة آخذة في التحول الى معتقدات فردية تبعا لانصراف الناس الى التماس العزاء الديني عن مشاكلهم ومطامعهم الشخصية . وأصبح مثلها مثل المراكز الأخرى التي كانت قد ازدهرت فيها الديانة والفلسفة الهلينيستيان وكان من دعائها الأول :
القديسان : نيقولاوس ، وبرنايا .

نيقولاوس وظهور الهرطقة في أنطاكية

وطبقا لبعض المصادر فإن نيقولاوس الأنطاكي وهو الذى كان من أوائل المهتدين وأحد الشمامسة السبعة في القدس (أعمال الرسل ٦ : ٥) ابتدع هرطقة باكره عرفت باسمه .

والظاهر أن هذه الحركة المنسوبة الى نيقولاوس كانت ترمى الى ايجاد حل وسط بين المسيحية والعادات الاجتماعية السائدة وذلك بالتوفيق بين ممارسة عادات وثنية معينة والانخراط في سلك الطائفة المسيحية .

والهرطقة المنسوبة الى نيقولاوس كانت - من بعض الوجوه - الطليعة لمذهب الغنوسطية الذى كان يفوقها الى حد بالغ من حيث بعد الاثر وخطوره الشأن وهو مذهب القائلين : بأن الخلاص يتم بالمعرفة دون الايمان .

ازدهر هذا المذهب في جو دينى وفكرى في أنطاكية حيث كان الاختلاط بين جماعات أفريقية وشرقية متباينة الجنس والدين يهيء مجالا واسعا لدراسة ونشر مذاهب جديدة دينية . وفلسفية ولما كان مذهب الغنوسطية مذهبا يواسط بين الفلسفة الوثنية والدين ، وكانت أصوله أغريقية ، الا أنه اقتبس بعض الآراء المسيحية ، وبعض الآراء اليهودية ، فان ذلك المذهب كان في وضع يهيء له منافسة العقيدة المسيحية . فقد كان يعد بمعرفة التدبير الالهى للكون وبالخلاص . بما في ذلك الامان من قوى الشر على الأرض وضمان حياة سعيدة في العالم الآخر . وقد بدأ ظهور هذا المذهب في الشرق ثم انتشر في جميع أنحاء الامبراطورية الرومانية وتعددت صوره المتباينة الى ما لا سبيل الى حصره وتفاوتت تعاليم كل قطب من أقطابه ما بين أنظمة غير مسيحية قطعا وأنظمة كيفت على نحو بحت معه على هيئة هرطقات مسيحية .

ومذهب الغنوسطية الذى وصل الى أنطاكية كان سليل تعاليم « سيمون ماجوس » من سميريا وهو الذى كان في عهد الحواريين يدعو بين الناس بأن ثمة ربا أعلى يوزع القوى أو الفيوض التى كان سيمون نفسه من بينها

وقد ادعى سيمون بأنه صنو المسيح وعرض على الأنظار ضروباً من السحر جذبت إليه كثيراً من الاتباع ص ١٦٧ (١) .

برنابا في أنطاكية :

أرسل شيوخ القدس : برنابا الى أنطاكية - وكان من القبارصة مثل بعض أوائل المبشرين في أنطاكية - لكي يتفقد ما كان جارياً فيها وينهى اليهم مدى نجاحه وما ينتظر له مستقبلاً . وكان خليقاً ببرنابا بوصفه من القبارصة أن يشعر وهو في أنطاكية بأنه في موطنه تماماً كما أن أهل المدينة كانوا خليقين بأن يروا فيه فرداً من أبناء طائفة مجاورة تربطهم بها روابط الألفة . ولقد تم على يديه المزيد من حالات الهداية ولما رأى أن النجاح كان حليف الدعوة ذهب الى طرسوس حيث كان بولص يقيم اذ ذاك ودعاه الى المجيء الى أنطاكية للمعاونة في بث الدعوة .

وقد مكث برنابا وبولص في أنطاكية لمدة سنة وهما يقومان بالوعظ فامن عدد كبير من الناس وذلك حوالى سنة ٤٠ م .

وكانت النتيجة التى أسفر عنها هذا العمل هى ظهور طائفة تختلف عن الزمرة الأصلية من أتباع السيد المسيح في القدس . وقد تمثل التغيير في ظهور التعبير الجديد ، تعبير « المسيحيين » ظهر هذا التعبير في مستهل الأربعينيات من القرن الأول للميلاد .

وليست لدينا أية بينة عن حجم الطائفة المسيحية في أنطاكية عندئذٍ وأما عن نظامها فانه يروى لنا أنه كان ثمة « رسل » « ومعلمون » ذكرت أسماءهم على وجه التحديد بأنهم كانوا : برنابا وسميون نيجر ، « ولوكيوس القوريني » و « ماناين » « وبولس » ولقد كان هؤلاء الرجال ورفاقهم في رابطة الاخاء بأنطاكية هم الذين وضعوا الخطة لحملات التبشير المنظمة التى قام بها بولس وزملاؤه وتولت الطائفة تدبير الوسائل التى بدأت بفضلها رحلات التبشير (٢) .

(١) 'نطاكية القديمة' جلاتيل داووى ترجمة د . ابراهيم نصحي - النهضة المصرية .

(٢) نفس المرجع ص ١٠٦ .

من أهم جهود برنابا :

جدت مشكلة « تطبيق ما تقضى به طقوس الشريعة اليهودية على المهتدين غير اليهود ذلك ، أنه في الأصل عندما كان كل المهتدين من اليهود لم يكن ثمة مجال للبحث في مراعاتهم لمقتضيات تلك الشريعة إذ لم يكن هناك مشكلة الا بعد ما بدأت العقيدة الجديدة (المسيحية) تتخذ وضعاً واضحاً متميزاً . ظهر نزاع من اليهود المتأغريقين مؤداه : أنه ليس من الضروري المحافظة على تلك الشريعة اليهودية .

وعندما بدأ غير اليهود في الاقبال على اعتناق المسيحية دخلت المشكلة مرحلة دقيقة بصدد الختان والاحكام الخاصة بالأطعمة والمشاركة في الواجبات بين المسيحيين من اليهود وغير اليهود .

كان بولص يرى : انه لم يكن امراً عملياً تطبيق الشريعة على غير اليهود وأن من يعتنقون المسيحية منهم يجب اعفاؤهم من طقوس الختان فقد كان من شأنها أن تعنى في نظر المهتدين منهم أن يصبح أحد افراد الأمة اليهودية أو الجنس اليهودى مسيحياً ، وأنه نزل عن ترائه أغريقى الرومانى وقد توصل برنابا وبولص الى الاتفاق مع اقطاب القدس - جيمس وبطرس ويوحنا - على أن تكون الدعوة الى الهداية الموجهة الى غير اليهود طليقة غير مقيدة بأحكام الشريعة اليهودية (١) .

أنطاكية تحت حكم تدمر :

بعد ما هزم الفرس الرومان ٢٦٠ ووقع فاليريانوس نفسه أسيراً في يد الفرس وفي صيف ذلك العام بعينه اجتاحت سورية قوات الملك سابور من جديد واستولت على أنطاكية مرة أخرى . وقد هبطت سطوة الرومان ومكانتهم الى الحضيض واغتتم حكام تدمر هذه الفرصة لتحرير مملكتهم من سيطرة الرومان وسرعان ما وجدت أنطاكية نفسها في داخل نطاق نفوذ تدمر الآخذ في الاتساع .

في ذلك الحين كانت أبرز شخصية في أنطاكية هي شخصية أسقفها بولص من سنفيساط ، وكان بولص ينتمى الى الشطر السامى من أهل سورية

(١) نفس المرجع ص ١٦٢ .

ويمثل فصالح العنصر السامى أكثر من مصالح العنصر الأغريقى الرومانى من السكان وقد أسند اليه الاضطلاع بمهام مدنية ومهام دينية معا وكان يتمتع بتأييد « تدمر » ويؤدى مهام المنوب المفوض عنها فى حكم أنطاكية وأصبح بولص السيمساطى شخصية لها أهميتها أيضا من الناحية اللاهوتية فان تعاليمه التى كانت تدعو باصرار الى أن الله واحد والمسيح بشر مهدت هذه الافكار السبيل للمذهب الأريوسى وانشأت فيما بعد عرفا تقليديا فى مذهب المدرسة اللاهوتية بأنطاكية .

يرى جلانفيل : أن هذه التعاليم المبسطة قد أعدت أرضاء لزنوبيا ملكة تدمر التى كان يظن أن لها ميولا يهودية . ومن المحتمل أن تكون وجهة نظر بولص فيما يتعلق بواحدانية الله وقدرته تأثرت باعتقاد اليهود اعتقادا جازما فى التوحيد . وأما انكار الوهية المسيح أو متبوعيتها فان ذلك كان فكرة نبقت فى عهد مبكر جدا حالما أصبحت طبيعة المسيح موضوعا للدراسة والمناقشة المفضلة وكانت أنطاكية عندما حل عهد بولص مكانا خلبقا بأن تلقى فيه مثل هذه الفكرة تأييدا ولا سيما بعدما أصبحت معتلا من معاقل المذهب الأريوسى الذى كان فى جوهره يشايع هذا التفسير . وارتبط تاريخ الطائفة المسيحية فى أنطاكية بمجرى النزاع الأريوسى حول طبيعة الوهية المسيح ، وهو ذلك النزاع الذى أحدث انشقاق الكنيسة الى معسكرين فى الجزء الشرقى من الامبراطورية وظل هذا الانشقاق الى سنة ٣٢٥ موعده مجلس نيقية وفيه تمت الموافقة على حل ادمج بموجبه فى العقيدة النص على وحدة الآب والابن مادة وجوهرات متسوية وضع جماعة المنشقين .

ولانرى فى أنفسنا ميلا نحو تحليل « جلانفيل » لدعوة بولص الى التوحيد بانها كانت ترضية للكة تدمر وفى نظرنا ليس الأمر كذلك لأن التوحيد ظاهرة تغلب على الديانات السامية ولنذكر خاصة « ال » وهو اله سامى مشترك :

- ال : لدى الأكانيين
- وال : لدى الكنعانيين
- والوهيم : عند العبريين
- والله : عند العرب

وقد عرف اليمينيون أيضا هذا الاسم واستعملوه في الغالب اسما عاما
يمعنى اله وهو مدلوله الاصلى حقا ولكنهم استعملوه أحيانا علما على اله
خاص ويكثر وروده عنصرا في أعلام الأشخاص .

وفي هذا الجو الفكرى العام ذى الطابع المسيحى انشأ بسطاثيوس
Bustathius أسقف أنطاكية : مدرسة بها ، على نمط مدرسة الاسكندرية
ولم يسر تاريخها على وتيرة واحدة ، ففى أوائل عهدى بوسطانيوس سلة
٣٣١ وترك المدرسة فى رعاية فلافيان Flavian وقد أشرك معه الناسك
ديودوروس Diodorus

وهؤلاء الثلاثة جميعا وهم : الأسقف بوسطانيوس ، وفلافيا ، وديورودوس
كانوا من زعماء الخصومة مع أتباع أريوس .

وهذه الزعامة : هى السبب فى كثير مما تعرضت له مدرسة انطاكية من
عنت ، فقد كان لأتباع أريوس فى هذا الوقت ، قوة سياسية كبيرة ، وزادت
قوتهم بعد موت قسطنطين سنة ٣٣٧ م ومع ذلك فقد استمرت المدرسة الى
سنة ٣٧٩ عندما صار ديودوروس أسقفا لطرسوس .

وقد كان فى سنة ٣٨١ أحد الأساقفة الذين رسموا فلافيان على كرسى
انطاكية ، ولما ارتقى ديودوروس الى كرسى الأسقفية : ثشتت المدرسة .

وكان بين انطاكية ، ومدرسة الاسكندرية : تنافس لم يكن كله وديا
وذلك عندما اتهمت مدرسة الاسكندر الأسقفيين : ديوروس أسقف طرسوس ،
وثيودور أسقف مصيصة ، بأنهما بذرا دون قصد منهما : بذور المذهب
النسطورى .

٢ - مدرسة نصيبين :

تقع نصيبين : فى الرقعة التى تخطت عنها فارس لروما سنة ٢٩٨ ،
ولما كانت حينذاك مدينة من مدن الحدود تشرف على الطريق الرئيسى بين

شمال ما بين النهرين(٢) وبين دمشق ، فان الرومان حصنوها احسن تحصين ، ولعله كان فيها : بعض المسيحيين في ذلك الوقت ، كما كان الحال في أجزاء كثيرة في بلاد ما بين النهرين .

وفي حوالي سنة ٣٠٠ أو ٣٠١ عدت مقر كرسى أسقفى وكان أول أسقف لها هو : بابو Bapu ثم خلفه الأسقف يعقوب الذى أنشأ مدرسة بها على غرار مدرسة أنطاكية ، وكان فيها قبل أن تقع في أيدي الرومان : مدرسة يهودية ، أنشأها الحبر يهوذا ابن باثيرا ، وهو راوية ، وقد ورد باسمه سبعة عشر فصلا من فصوله في (المشناه) ، والمرجح أن استيلاء الرومان على المدينة قضى على مدرستهم فيها . وعلى أية حال فلا ذكر للمدرسة بعد هذا التاريخ ، وبعد يعقوب أقيم شيخ اسمه ابراهيم على رأس هذه المدرسة .

٣ - مدرسة الرها :

عندما وقعت نصيبين مرة ثانية في يد الفرس ٣٤٣ فر ابراهيم رئيس مدرسة نصيبين ، فهرب الى الرها ، ولا شك أنه كان هناك لاجئون كثيرون مثله فالتفوا حوله .

وهكذا أنشئت مدرسة مسيحية في الرها ، ويمكن أن تعد مدرسة الرها بعثا لمدرسة نصيبين .

(*) قبائل العرب الذين سكنوا ما بين النهرين : ربيعة ، وتغلب بن وائل ، ومضر ، هاجروا من اليمن ، سكنوا ما بين النهرين : جلة والفرات ، وسبيط ديار بكر ، وديار ربيعة ، وديار مضر : آمد : ديار بنى بكر ، وقرقيسيا : ديار مضر من العرب الطائيين ، ونصيبين . ديار ربيعة ، يقول الالوسى وهذه الجزيرة سكنها اناس مختلفوا الملل والاجناس ، ومنها دارا : التى أخفاها الاسكندر قال الشاعر :

ونقد قلت لرحل بين حران ودار
اصبرى يا رحل حتى يرزق الله حمارا

الالوسى . بلوغ الارب ج ١ ص ٣١٩ وللاستزادة يراجع : معجم ما استعجم لابی مريد البكري ومعجم البلدان : لياتوت الحموى .
دارا . نسبة الى دارا بن كشتاسب ٥٢١ - ٤٨٦ ق.م عندما اراد ان يؤمن الطريق من سوس الى سروس (نى لنديا) سيطر على آسيا الصغرى بقوة من بلاد النهرين وضم : دارا ، أيضا البنجاب ، وبلاد العرب الى الامبراطورية ص ٥٦ تراث .

وكما هو واضح : أن مدرسة الرها كانت في أول أمرها جماعة ليس لها صفة رسمية ، وكذلك ليس لها سند قانوني ، أو رسمي ، مثل : مدرسة نصيبين ، وأنطاكية •

هذه صورة عامة عن المدارس التي قيل عنها : أنها حملت تراث مدرسة الاسكندرية الى المنطقة العربية ، وبالرغم من أن تاريخها ما زال مجهولا ، فإن ما علم منه يفيدنا أن هدفها الأول : نشر أصول الدين الوثني بين المسيحيين الذين يتكلمون بالسريانية ، يقول ديا لاسي : « فقد كانت عقائدهم اللاهوتية ، ونظام كنائسهم • كما بين (أستريز يجوفسكي Strzygowski) غير مطابق للأصول المعتمدة في الكنيسة الكاثوليكية » •

وكما نلاحظ : أن رؤسائها أساقفة مسيحيون ، أي رجال دين ، وليس رجال دين فقط ، إنما رجال دين منشقون بعضهم على بعض ، فحملت هذه المدارس طابع هذا الانشقاق •

فالمدارس كانت ذات طابع ديني ، وكانت القضية المسيطرة عليها : قضية طبيعة المسيح ، والرأي ومنهجه حول طبيعة المسيح لم يكن واحدا ، إنما كان يتغير تبعا للولاء السياسي كما كانت غالبية هذه المدارس يرجع الفضل في انشائها الى بعض المضطهدين : من السياسة ، والكنيسة •

هذا مما أدى : الى فشل الهلينية في المنطقة العربية ، لأن هذه المدارس كان رؤساؤها رجال دين مضطهدين : فحولوها الى غايات دينية غير متفق عليها ، وكثيرا ما كان يستعدى عليها : رجل السياسة ، فيشتت شملها ، ويبعثها ، أضف الى ما سبق : أن بعدهم عن الاغريقية ، جعلهم ينعزلون داخل المادة السريانية المترجمة ، فانقطاعها عن الهلينية : صيرها اقليمية خالصة ، وحامت فلسفتها : حول الدين ، واللاهوت ، وهي وإن كانت نشرت بعض أفكار فلسفية عن المسيحية في بلاد جديدة : فإن هذا الفكر لم يساعدها على التطور ، وأصبح حال هذه المراكز الثقافية ليس بأحسن حالا من العواصم السياسية للمنطقة العربية ، فما كادت تظهر وتتماثل للازدهار حتي يطويها ليلها الطويل •

يقول دلاسى أوليرى(١) : أن الثقافة اليونانية لم تنتقل الى الغرب عن طريق هذه الاتصالات الاولى ، ولقد تحقق انتقال العلوم اليونانية الى العرب عندما استقرت الخلافة العربية في مدينة بغداد التي كانت حديثة البناء بالقرب من جنديسابور .

آراء قلقة للمستشرقين حول الهلينية في المنطقة العربية قبل الاسلام :

بعد ما عرضناه عن الهلينية في الشرق والمنطقة العربية فيه ، رأينا : أن نعرض بعض آراء استشرافية مغالية وكنا نلاحظ أن هذه الآراء مهما تنوعت أهدافها ووسائل مناهجها فانها ترجع في نهايتها الى موقفين :

✳ موقف من يصم العقلية السامية : بعدم الفهم الطبيعي للأمور .

هذا الموقف كان من نتائجه : أن ميز بين عقليتين :

— عقلية آرية خصائصها : جمع وتحليل : esprit Fusiennist

— عقلية سامية وخصائصها : التجزئ

✳ وموقف من يرى : أن الشرق لا يحب للثقافة ذات النزعة الانسانية .

وبين الرايين خلاف جوهرى مؤداة : أن الراى الأول يرد العجز العقلى : الى علة فطرية والراى الثانى يرد العجز العقلى : الى عوامل كسبية اى تخلف حضارى .

وهما معا على اختلافهما فى التفسير الذى يعلل اخفاق الهلينية ، يتفقان معا : على عدم تجاوب الشرق مع الهلينية ، ويتفقان أيضا : على أن الشرق هو السبب اما لعله مرضية ، او لعله مزاجية .

وغاب عنهم — كما قدمنا — أن التيارات الثقافية التى غزت المنطقة : بعضها هب من فارس ، وهى دولة كانت عالمية ، فتوى فى تراثها نفس

(١) علوم اليونان وسبل انتقالها الى العرب ..

Jrenan : l'eslamisme et la science dans discans et canferanccs
Paris 1887 P. 377 - aussi.

2 guatier l'esprit semitique et l'esprit aryen Paris 1923 1,67.

هذه الصفة العالمية ، فكانت تكافح روما سياسيا ، وثقافيا لاحلال سياستها وثقافتها في كل بلد تدخله .

وروما أيضا كانت دولة عالمية ، وتراثها كذلك أيضا أى كانت ترى فيه : هذه الصفة من العالمية ، كانت تكافح الفرس سياسيا ، وثقافيا ، من أجل احلال ثقافتها على كل رقعة يمتد نفوذها عليها ، والمنطقة العربية ، كانت مرة في حوزة الفرس ، ومرة في حوزة الروم ، فكان من الصعب أن تستقر على تراث ثقافى ذى طابع واحد ولا سيما ان الذين قاموا به - وهم من آباء الكنيسة - مضطهدون سياسيا ، ودينيا ، فكان المواطن يعزف عن هذا اللون من الثقافة الحرجة .

فلم تكن في المنطقة العربية دولة ذات طابع استقلالى تبنت الدعوة الى هذا اللون من الثقافة أضف الى كل ذلك : ان المادة الهلينية التى ترجمت جاءت عن الاسكندرية بعدما أتخمتها بالمباحث اللاهوتية ، فلو لاحظ المستشرقون هذه الاعتبارات ، وأخذوا في اعتبارهم ضعف المادة الهلينية حين فسروا اخفاقتها في الشرق : لما انتهوا الى هذه النتائج .

أما موقف من يصمم العقلية السامية بالعجز لعوامل وراثية فان النظريات العلمية المعاصرة ذهبت به بجدا (١) يقول ديلاسى أوليرى :

يتتبع التاريخ تطور البنية الاجتماعية التى يوجد المجتمع اليوم فيها ثلاثة عوامل رئيسية تعمل في هذا التطور وهى :

- العنصر القومى .
- اتجاه تيار الثقافة .
- انتقال اللغة .
- أول هذه العوامل فسيولوجى .

وأهم عامل في تطور البنية الاجتماعية هو : تناقل الثقافة والثقافة ليست من الأمور الوراثة ، ولكن تناقل الثقافة يعود الى الاتصال ، لأن الثقافة تتعلم وتستفاد بالتقليد، ولكنها لا تورث .

(١) المرجع السابق .

ثم قال : وليس في هذا ما يتصل بمسألة العنصر ، فالثقافة لا تورث باعتبارها جزءا من الميراث الفسيولوجي الذي يرثه الطفل من أبيه ، وإنما يجري تعلمها بالاتصال الناشئ عن الاختلاط بالثقافة ، والتعليم ، وما أشبه ذلك (١) .

فلعدم مدلولها العلمي رأينا أن نضرب صفحا عنها (٢) .

وأما الموقف الثاني : وهو ما يرى أن الشرق لا يحب الثقافة ذات النزعة الانسانية فنحب : أن نعرض له ، ونفسح له المجال :

يقول هذا الرأي ، من خلال وجهة نظر هانز هينرش شيدر : (٣)

كان غزو الاسكندر الأكبر وما تلاه من تكوين امبراطورية يونانية في غرب آسيا الحادث الفاصل في تاريخ تطور الروح الشرقية .

فمن هنا : وقع الشرق تحت تأثير الثقافة اليونانية ، ودبت فيه حياة جديدة من الحضارات المختلفة ، والتي تتكون منها الحضارة الشرقية عامة ، والقام شملها في وحدة جديدة تحمل طابع الروح اليونانية ، وتلك الوحدة هي التي يسميها باسم الهلينية . ثم يرى المؤلف من خلال بعض تعبيراته أنه :

— تحت تأثير الثقافة اليونانية : دبت في الشرق حياة جديدة .

— وتحت نفس التأثير . تطورت الروح الشرقية .

— وأن الوحدة الحضارية التي ظهرت في الشرق : تحمل طابع الروح اليونانية .

(١) نفس المرجع : ونحيل القارئ إذا أراد معرفة بها الى : تهديد الفلسفة الاسلامية

الاستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق .

(٢) في الفلسفة الاسلامية ، منهج وتطبيقه د . ابراهيم مكيور ، الجانب الالهي

من التفكير الاسلامي — د محمد البهي .

(٣) الشرق وتراث اليونان ترجمةكتور عبد الرحمن بدوي بعنوان روح الحضارة

العربية دال العلم للملايين . بيروت .

ونهاية رأيه : أنه حصل في الشرق تطور ، مصدره ، الحضارة اليونانية .
ثم أخذ يشرح وجهة نظره ، من بين رؤيتين للتاريخ يوضح بهما
الأثر الزمني للسيطرة الهلينية ، فيقول :

– هناك رؤية المؤرخ السياسى : وهى موقوته بدءا من الاسكندر ،
ونهاية حتى قيام ما يدعى بالامبراطورية الرومانية ، فيقول :

«وللمؤرخ السياسى الحق ، حينما يريد أن يفهم معنى الهلينية ، تلك
الفترة التى استمرت حتى قيام الامبراطورية الرومانية من أسوس ، حتى
اكتيوم وحدها » .

– وهناك رؤية للمؤرخ الفكرى ، أو الروحى ، وهى تمتد حتى اعتاب
العصر الحديث كل الحداثة فيقول :

لكن الدارس للتاريخ الروحى للشرق القريب ، لا يستطيع الاقتصار
على هذا التحديد ، لأنه يجد أمامه هذه الواقعة الا وهى : أن ثمة أفكار
يونانية : هى التى أنشأت الحياة الروحية الشرقية ، ووهبتها القوة الدافعة
المولدة ، لا فى عصر خلفاء الاسكندر الاثنى عشر وحدهم فحسب ، بل وأيضا
فى العهد الرومانى ، والبيزنطى ، الى العهد الاسلامى .

والحضارة الروحية التى أسستها الهلينية : قد امتدت حتى بلغت فى
الشرق أعتاب العصر الحديث كل الحداثة ، أى الى نفوذ المدينة الأوربية ،
والعلم منذ الاجيال الثلاثة الأخيرة .

والنتيجة كما يقول – وفق نظره :

وعلى هذا : فإن نقطة ابتداء ، الحضارة الشرقية ، التى بلغت كمالها
فى الاسلام ، هى بعينها نقطة ابتداء الحضارة الغربية .

ثم بعد ذلك : طرح سؤالاً جعله مقدمة لدراسة مقارنة ، ممهدا له بقوله :

لكن أقل مقارنة بين الخصائص الروحية للشرق الاسلامى الحديث ،
ولعالمنا الغربى ، تدلنا : على تباين فى الموقف ينتظم كل شئ : العام

منه ، والخاص ، حتى أبسط الجزئيات ، فنرى أنفسنا أمام هذا السؤال وهو :

كيف أدى قبول قوة روحية واحدة بعينها - ونعنى بها : الثقافة اليونانية - الى نتائج مختلفة كل الاختلاف هناك كما هي الحال هاهنا ؟

للإجابة على ما طرحه من سؤال : أخذ يبين خصائص الشرق الفكرية قائلا :

في الحضارة الشرقية ، نشاهد الشعور بالسنة والتقاليد وشدة التمسك بهما : قد بلغا أوجهها .

بيد أن كليهما يبدو هناك في تركيبه متميزا بطريقة خاصة من فكرة التقاليد عند الغرب . فالتقاليد معناها في الشرق : المحافظة على ما هو أصلي وقديم .

والتقدم الروحي ، لا يمكن ان يتم عنده ، الا في التفسير ، والتكيف مع الأوضاع الجديدة ، لا في التحويل ، والصياغة من جديد لما ورثوه ونقلوه .

والعلة الرئيسية في هذا : انما هي الرابطة الدينية ، والتي في داخلها يتم تطور الروح في الشرق .

والتقليد (أو السنة) لا يمكن نقضها ، لأنه ينظر اليها : على أنها من الوحي ، وما هو من الوحي : ليس في مقدور المتأخرين ، ولا من شأنهم ، أن يمسوه ، لأنه مما بلغ للانسان من قبل على أنه الحقيقة .

ثم رجع المؤلف متسائلا ، مرة ثانية عن عدم نجاح التراث الهليني في الشرق مرة ثانية : كيف أمكن اذن الا يغير اقتحام الفكر اليوناني (للشرق) منذ نهاية القرن الرابع قبل الميلاد هذا الموقف الروحي عند الشرقيين ؟

وبالجملة ، ولصياغة المسألة هنا في صيغة موجزة :

كيف أمكن الا يكون الشرق حتى العصر الحديث قادرا على ايجاد نهضة أو نزعة انسانية ؟

يقول مجيبا : ولقد قدر للشرقيين ، حينما اتصلوا بليونان • أن يجدوا أنفسهم مالكين لثقافة روحية دخلت دور التحجر تبعا لموقفها المحافظ من السنة التقليدية لم تتطور تطورا كافيا •

فلم يكن ثم ما يتعلمونه حقا من يونان بل (على العكس من هذا) لم يكن لهم أن يتعلموا شيئا لأن تقاليدهم قد قدسها الوحي وفضلا عن هذا فقد استقرت الغاية في تطورهم الروحي فبينما أحس الرومان في اتصالهم بليونان • أن المثل الأعلى للفضيلة والمروءة ، يمكن أن يسمى به الى أعلى صورة ، صورة الدراسات الانسانية ، ومن أجل هذا • أقبلوا على يونان : برغبة في العلم غير محدودة تمتاز بالحرية الباطنية والتفتح ، اتجه الشرقيون ، لا الى الانسانية وانما الى الظفر بالقداسة وبالنجاة •

ولهذا فان المثل الأعلى ، ذا الطابع الدينى المرتبط بالعقائد الثابتة ، عند الشرقيين ، لم يسم حينما انكشف له الفكر اليونانى الى استهداف غايات جديدة ، وانما • • اشتد في حركته هو الخاصة •

ولم يكن هذا فحسب : فان الامكانية الحاسمة الجديدة التى تبدت آنذاك أمام الشرقيين : كانت هى استغلال التراث اليونانى من أجل « توكيد » نوازعهم الخاصة •

لذا لم يكن طبع الحضارة الشرقية بطابع الهلينية ، حركة نهضة ، أو ميلادا جديدا ، وبعثا لقديم ، وانما : كان استمرارا في المحافظة عليه وتخليده •

فاستفاد القوم « الشرق » من القوى اليونانية • امكان تنظيم هذا الخليط العديم الصورة • من المنقولات الأسطورية ، والنبوية ، والتشريعية ، والأمثالية ، وترتيبه وتبويبه تحت وجهاً نظر رئيسية موحدة بسيطة ، ثم جعلها تتواتر في صورة أثبت ، وخصوصا وقبل كل شيء : جعل فهم تقاليدهم الخاصة وقيمتها مفتوحاً أمام غيرهم ممن هم خارج نطاق جماعتهم الحضارية •

والعلة في رايه التى جعلت الأثر اليونانى عقيما في الشرق هى كما يقول : وهكذا نرى العلة الرئيسية • في أن التراث اليونانى في الشرق ، قد كان ذا عقم بالغ حتى الأعماق ، وان لم يكن هذا التراث أقل نفوذا وتعبيرا

منه عند الرومان ، وهذا العقم لا يمكن أن نفعته الا بأنه كان مؤلما
 أسيان فما تعلمه الشرقيون ، من اليونان : أفادهم في الاستغلال العربى له ،
 لا في الظفر بتنشئة جديدة وتطور في الثقافة .

ومن ناحية أخرى يتبدى جليا الآن : لماذا كان السؤال - الوجه الى
 الحضارة الروحية الشرقية - عن العلة : في أنها لم تستطع ايجاد نزعة
 انسانية تتجدد من جيل الى جيل ؟

يقول : أى المؤلف : لماذا كان هذا السؤال ليس سؤالاً صادراً عن
 خارج أو عن وجهة نظر لا تقوم في طبائع الأشياء نفسها ، بل هو سؤال
 له أساسه في جوهر الأمور عينها ؟

والنتيجة النهائية هي كما يقول :

فالامر اذن على هذا النحو : وهو ان كل من يدخل مع اليونانيين في
 صلة حيوية يوضع امام الاختيار بين احد خصلتين :

- اما أن يقتلهم أى لليونانيين - عن وعى واردة .

- واما ان لا يفعل .

يشرح المؤلف ذلك فيقول : فان تأثير يونان له من الصولة ، وكذلك
 قوة عقلهم المفكر ، المنظم لمجموع الواقع المطلق لنفسه ، هو من الاقناع
 بالنسبة الى كل انسان يكون على علم به بحيث لا يوجد ثم مندوحة عن هذه
 القوة وذلك التأثير ، فمن يلقي اليونانيين لابد أن يتعلم منهم ، والمسألة :
 هي فيما اذا كان سيحول هذه الضرورة الى ارادة حرة ويعرف كيف يشكر
 اليونانيين من أجلها أم لا .

نلاحظ ان المؤلف بدأ يظهر بوضوح أنه : من عدم استفادة الشرق من
 التراث الهليني ، وأخذ يوطىء لذلك بما قاله عن الشرق وهو :

أن عدم نجاح رسالة التراث اليونانى في الشرق ، راجع بالدرجة الأولى
 الى تمسك الشرق بتقاليده وتراثه ، فما أحب الشرق أن يكون تلميذاً .

ولا أحب أن يفعل ، وان كان اليونان أحب أن يكون معلما مسيطرا فان الشرق قد نبذه .

ثم يقول : والشرقيون اعتقدوا الثقة بتقاليدهم ، واعتقدوا أنهم لا يستطيعون أن يأخذوا عن اليونانيين : الا ما ينتسب الى الصناعة الفنية ، وليس عليهم أن يتعلموا منهم توجيهها روحيا جديدا ، ولم يستطع الشرقيون ، أن يرتفعوا الى مستوى الاعتراف الخلق بالنفس العالية الحرة ، الاعتراف بالرسالة اليونانية التي يشير بها « هوراس » للرومان في قوله « يونان مقهورة تقهر المتبربر الظافر » .

بعد ما انتهى الباحث الى هذه النتيجة : وهي أن الثقافة اليونانية رفضها الشرق ، وما أخذ منها : كان بمثابة الاستفادة ، أو ما أدخلوه على صناعتهم الفنية : فالشرق لم يقتلهم على يونان بوعى وإرادة ، لذلك عجز التراث اليونانى . أن يترك أثرا للفتنة الانسانية في الشرق .

ولقد كان من الملاحظ حقيقة ونظمئن اليه ، وهو ما أفزع الباحث وأقلق عليه باله : هو أن حروب الاسكندر استطاعت أن تغلب الشرق سباسبيا غير أن ثقافته اليونانية لم تستطع : أن تقهر الشرق ، ثم بعد ذلك ، بدأ منه تجاهل - في حنق وفي عصبية - لا مبرر له ، ليس في طرحه سؤاله : انما في الاجابة عليه ، فهو يقول : ومن ثم تتضح الصعوبة غير العادية ، التي تكمن في مسألة ما اذا كان على المرء أن يرد مركز الثقل في الانتاج الروحي - وخصوصا منه الدينى والفلسفى - الذى أبدعه الشرق الى الهليني أو العنصر الشرقى ؟

وتلك مسألة تعرض نفسها بالحاح خاص في كل درجة من درجات التطور الروحي للمسيحية ، وبالنسبة اذن الى تلك الحركة التي اقتحمت نطاق اليهودية ، التي انفكفت على نفسها وغلقت أبوابها باطراد متزايد منذ عهد المكابيين ضد العالم الهليني المحيط بها ، ولكنها في أصولها لم تظهر بعد بصورة روحية راسخة ، بل ظفرت بها أول مرة بفضل التوغل في ارض هلينية حقا : أن هذه المسألة يجاب عنها بصورة جلية منذ القرن الثالث بعد الميلاد لما أن نما المذهب المسيحى في مدرسة الاسكندرية : الى نظام

فلسى. استقصيت فيه الذرائع ، وهذا الجواب : هو أنه ما من أحد يمارى فى سيادة الفكر اليونانى فى علم اللاهوت المسيحى من ناحيته التنظيمية المذهبية . بيد أن الاجابة عن هذه المسألة ، تترجح وتتردد : حينما يتصل الأمر بنشأة تاريخ المسيحية ، وأكثر من هذا : حينما يتصل بالحركات ذات الصلة الماسة بها ، من حيث التوجيه فى النظرية الكونية ، وتسير موازية لها ، وكذلك أيضا حينما يتصل الأمر بالنظرة الاسلامية : فى الحياة والوجود التى أتت بعد ذلك .

نقول : ان اجابة تتردد وفقا لكون المرء فى احكامه هنا يبدأ من الأسس العقلية التنظيمية لهذه النظرات فى الوجود والحياة ، أو يبدأ - وهذا اقرب بكثير الى اهتمام الباحثين اليوم - من الموقف الذاتى ، وبالجمله ، من المثل الأعلى للتقوى ومن الحنين الى النجاة الفردية لاتباع تلك النظرات الكونية .

نلاحظ : أنه عندما أخذ يبين الأثر الهليني : على المسيحية ، واليهودية ، والاسلام ، رايناه : متحيزا : كما يظهر من تردده حين اراد أن يقوم تساعل هل يردده الى العنصر اليونانى ؟ أو الى العصر الشرقى ؟

ثم بعد تردد نراه يقول : الانتاج الروحى - وخصوصا - الدينى ، والفلسفى الذى أبدعه الشرق يرجع الى الهلينية .

ثم يتابع قوله عن الشرق الهليني فيقول :

هنا يرى : أن فى الشرق ثمرات ابداعية : غير أنه أضافها الى الهلينية وفى هذا ما يفيد لديه : أن التراث الهليني نجح ، ويصبح ما أحصاه عليه من خصائص تفوق نموه الثقافى : غير حقيقته لأنها ان كانت فيه فلماذا منعه عن التطور ؟

ويعترف : ان فى الشرق ابداعا غير أن حيرته فى تساؤله - هل هو ابداع راجع الى العنصر الهليني ؟ الذى أعلن أنه فشل فى الشرق ؟ أو راجع الى الشرق ؟ الذى فيه خصائص تعوق نموه الثقافى ؟ : حيرة تنم عن تعصب

وتعييننا على وصف نظراته بأنها تحتاج منه الى مراجعة مع روية واصطناع
الأناسة .

ثم راح المؤلف بعد ذلك : يبين الأثر اليونانى فى الشرق ، واختار فى
سبيل اظهار ذلك : قضية الكون والوجود .

فقال : ولشق طريق علينا على الأمل خلال هذه الرحلة لابد أن يتساءل المرء :

أين مجال التاريخ الروحى الحقيقى ؟ والى أى نقطة يجب أن يتجه
انتباهه ؟ حتى يتبين ، بوضوح : تطور النظرة الكونية ويقدر على ايضاحها ؟

ومن ذا الذى يمكن أن يشك ، وهو يضع السؤال على هذا النحو ،
فى أن الأسس التصورية للنظرة الكونية وتطوراتها ، هى بعينها التى يمكن
تعرفها بيقين ، وتعرف درجاتها فى تاريخ تطور الفكر والتحرر الذاتى للعقل ،
بينما التدين الفردى : حينما يكون عامرا بالقوة والمميزات الخاصة ، يكون
بمعزل عن التطور ، بل عن الارتباط الزمنى الى حد : أن انتظام أصحابه
فى خط التطور : يصطدم بعقبات لا تكاد تذلل ؟

ولهذا : فانه لا تكاد توجد امكانية اخرى للتأمل التاريخى الروحى عند
الشرق ، غير ابتداء هذه الواقعة ألا وهى :

أن الكلم اليونانى والفكر اليونانى - وهذا الأخير ممثلا فى صفوة محدودة
بحاجة الى مزيد من الوصف - وقد أثر كلاهما فى الشرق ، وحى هناك ومازال
يحيا حتى العصر الحديث .

وتاريخ الفكر اليونانى فى الشرق : يقدم لنا الخيط الأحمر ، الذى يعين
المرء على ضم كثرة من صور النظرة الكونية ، تحت لواء مركب تطورى
واحد ملئ بالمعانى ، وفضلا عن هذا : يسمح بربطته ومقارنته بالتاريخ
الروحى للغرب .

وهذه المصادرة لا شئ أبلغ فى تحقيق صحتها من مجرى التطور الحقيقى
للفكر الشرقى ، تبعا لكونه قد خضع بكل اذعان : لتأثير العقل اليونانى
منذ اللحظة التى تعارفوا فيها ، وليس فى تاريخ النظرة الكونية فى الشرق :

قوة عقلية واحدة ، يمكن أن تقارن : في أهميتها وجلال شأنها ، بالقوة اليونانية ، بل يستطيع المرء ، أن يذهب الى أبعد من هذا ، ويقول :

ان اتجاهات النظرة الكونية - لدى الشرقيين منذ الهلينية - : تبلغ في كل حالة ، درجة من الوضوح العقلي ، وقابلية التعليم والفاعلية ، الا حينما عملت فيها : نظم التطورات العقلية اليونانية ، والاستثناء الوحيد في هذا الباب هو : الديانة التشريعية اليهودية .

ثم يقرر المؤلف - وهو بصدد بيان الأثر الأغريقي على الشرق - : أن نظرات الشرق في الوجود ، أثر أغريقي ، لأنها خضعت في تطورها : للفكر والتحرر الذاتى للعقل ، واستبعد المؤلف أن تكون هذه النظرات ، وليدة التدين ، لأن التدين - في نظره - حينما يكون عامرا بالتقوى ، والمميزات الخاصة ، يكون بمعزل عن التطور ، بل من الارتباط الزمنى ، الى حد أن انتظام أصحابه في خط التطور ، يصطدم بعقبات تكاد لا تذلل .

واضح من اتجاهه أنه يميز بين نظرتين بالنسبة الى الكون والوجود :

- النظرة الدينية : ومميزاتها عدم التطور ، ومتحير في مصدرها .

- النظرة العقلية : ومميزاتها التطور ، ويرجع أصلها : الى اليونان .

والمؤلف : اذ يضع هذا التمييز بين نظرتين ، نراه لا يبنى حكمه عليهما ولا يراعيهما في منهجه فضلا عن أننا نلمح تعسفا منه : حينما أسند نظرات الشرق في الوجود الى الهلينية ، في الوقت الذى حاول فيه - سابقا كما بينا - أن يطنع الشرق بعدم قدرته على التطور ، وعاجزا عن متابعة الهلينية كما عجزت الهلينية من وجهة نظره - أن تكون دواء لداء الشرق القعيد عن التطور ، فكيف تطور - بعد ذلك - في نظراته حول الوجود ؟

ثم يرجع فيقول : ولهذا فان المثل الأعلى ، ذا الطابع الدينى ، المرتبط بالعقائد الثابتة عند الشرقيين : لم يسم حينما انكشف الفكر اليونانى ، الى استهداف غايات جديدة ، وانما اشتد في حركته هو الخاصة ، ولم يكن هذا فحسب ، بل فان الامكانية الحاسمة الجديدة التى تبعت آنذاك أمام (م ٥ - الفكر الدينى)

الشرقيين : كانت هي استغلال التراث اليونانى : من أجل « توكيد » نوازعهم الخاصة .

لذا لم يكن طبع الحضارة الشرقية بطابع الهلينية ، حركة نهضة ، أو ميدانا جديدا ، وبعثا لقديم ، وانما كان استمرارا في المحافظة عليه وتخليده » .

بعد ما قرر المؤلف هذا التقرير : نراه ناقضه ، وناهضه ، وذلك عندما رد « نظرتهم ، الى الكون والوجود : الى الأثر الاغريقى ، واستبعد أن يكون : وليد تعينهم .

ولنا بعد ذلك سؤال يقول : هل يا ترى تراث الشرقيين ، الخاص بالوجود والكون ، يدخل تحت وصف المؤلف لتراث الشرق « بأنه خليط عديم الصورة » أو أنها نظرات على مستوى فكرى عظيم « فينحطها الى يونان ؟

حقيقة الأمر أن المؤلف يتحامل على الشرق حينما ينحل اليه « كل خليط عديم الصورة » .

ونراه لا يرى في ذلك استثناء واحدا سوى : اليهودية . فيقول :

والاستثناء المميز الوحيد في هذا الباب هو ، كما سنبين « الديانة التشريعية اليهودية » . بهذا الاستثناء ، بدأ المؤلف : يعطى بعضا من الأصول الثابتة للشرق والاساسية في تكوين تراثه وخصائصه ، حينما رأى ذلك في الدين اليهودى وهذا أقدم دين شرقى بلغة السماء نعرفه بكتابه .

إذا كانت اليهودية مستثناة - وليست كلها - انما شريعتها فما هو المقابل الذى يقدمه المؤلف ويظهر فيه الأثر اليونانى ؟

يقول - وفي مقابل هذا - : نشاهد مثلا : أن الديانة القائمة على عبادة النجوم ، ومنشؤها من البابليين ، ليست مطلقا نتاجا أصليا للتطور الروحى البابلى ، وانما هي بالأحرى : نتيجة تعمق علم النجوم البابلى . والقياسات الفلكية ، بمعاونة التصورات اليونانية ، والفلسفة اليونانية ، وبخاصة : الراقية منها .

وقوة النفوذ الهائلة ، التي كانت للنظرة الكونية النجومية في العصر الهليني ، لا يجب أن نفهم إذن إلا إذا اتضح للمرء : أن اللوغوس اليوناني هو الذى نظم تلك النظرية ، وبعث فيها قوة الاقناع .

والأمر على هذا النحو - أيضا - فيما يتصل باستمرار تأثير النظرة الكونية الايرانية الأقدم في الشرق القريب وما وراءه . فالتفكير الايراني : يتضمن بعض التطورات التوجيهية ، ذات القوة الرمزية العظمى ، ومضمونها الرمزي الواسع ، قد جعلها : تبحو أكثر قابلية للتعبير عن الميول الخاصة للثقافة الشرقية ، بنظرتها الكونية فيها عن غيرها ، لذلك : كان لابد لهذه التصويرات الأسطورية المقيدة بالتفكير الاسطوري ، لكي تصبح رموزا كلية مفهومة لدى الجميع فعالة - يقول أى المؤلف - : أنه كان لابد من دخول العقل اليوناني فيها لينظمها على هيئة مذهب محكم في تفسير العالم والتاريخ .

فما قدمه من نموذج ، وهو الديانة القائمة على عبادة النجوم ، أى الديانة الوثنية ، واعتبره أثرا يونانيا : نوافقه عليه ، بل نوافقه على أن الوثنية التي غزت الشرق ، وغزته : كان أصلها يونانيا .

ثم يقول : ولا سبيل - بعد كل ما قلناه - الى ايضاح المهام الملقاة على عاتق التاريخ الروحي الشرقي ، إلا بالتأمل في أهمية الفكر اليوناني بالنسبة الى الشرق ، ووجوهه الخاصة ، أى بالتأمل في ظاهرة انعدام النزعة الى الشرق ، ووجوهه الخاصة ، أى بالتأمل في ظاهرة انعدام النزعة الانسانية في الشرق .

ويحاول المؤلف ، في النهاية : أن يبين بوضوح أن السبب في عدم نجاح التراث اليوناني الشرقي : هو عدم اهتمامه بالنزعة الانسانية ، لماذا ؟

يقول : ذلك أن الفكر الشرقي لا يقوى على ادراك عالم محكم احكاما لا يوصف ، منظور اليه بقوة بصيرة دقيقة واضحة ، وفيه لكل شيء مكانه ، وتدبير الآلهة وفعل بنى الانسان كلاهما : يجرى على نظام واحد طبيعي ، ان جاز هذا القول ، اذ الفكر الشرقي يوجه كل همه ، نحو الحاجة للنجاة بالنسبة الى الذات المفردة الخاصة ، ونحو أحذية الله وعلوه على الكون ، وقوته وقدرته التي تهيمن : على كل الأفعال الانسانية .

وكذلك ، لن يستطيع : أن يفهم هذه اليقينية التي وصل اليها سقراط ،
 ألا وهي : ان حياة الانسان الأخلاقية ، لا تملأ معناها عن طريق التفكير العقلي
 الأخلاقي ، أو التأملى النظرى الميتافيزيقى ، انما عن طريق تحقيق مضمون
 الحياة كله داخل نطاق الجماعة ، بينما عند الشرقيين ، فى العصر القديم ،
 قد أصبح التفكير والحديث عن الأمور الأخلاقية : موضوعا للأحاديث الوعظية ،
 وبهذا فقد فقد الدافعة الى العمل • ولو شاء المرء ، أن يعبر فى صيغة
 موجرة عن الحد الذى عنده يقف فهم الشرقيين لليونانيين ، لاستطاع أن يقول :
 ان هذا الحد : هو الفكر الكونى عند اليونان • أعنى : تصور العالم : على
 أنه كل محكم الاعضاء ، جوهره : يقوم فى انسجام أجزائه •

فتطور الفكر الشرقى ، لا يهدف الى تأمل الكون المنظم ، وانما يهدف
 الى جمع الصلة بين النفس المفردة المحتاجة الى النجاة ، وبين ربها •

ذلك : أنه اذا اقتصر كل الاهتمام على النجاة الشخصية ، وعلى التوتر
 بين الكمال الالهى ، وبين النقص الانسانى ، أصبحت العين عمياء عن العالم
 الخارج عن الذات الخاصة ، ولم يعد ثم تفكير فى نظم العالم الموضوعية •

ثم قال : وهنا نشير ، كذلك الى وجهة نظر أخرى يجب ألا نغض
 النظر عنها فى السؤال عن عدم تقبل الشرق لتراث اليونان •

عاد ليجيب : فان أتباع الأديان الشرقية التى اثمرها الفكر اليونانى
 رأوا أنفسهم منقادين الى هذه النتيجة وهى : أن مضمون الوحي الذى
 كان من نصيبهم : هو الحقيقة المطلقة بالضرورة •

ولبلاغ هذه الحقيقة : كان لابد أولا من « تأويل » وثائق الوحي فى
 صورتها الأسطورية المنقولة ، تأويلا بوجهتين :

* وجهة تصور الآلهة واضدادها ونشوءها وخصوماتها ونسبتها الى
 ظواهر كونية •

* ووجهة تعدها بمثابة رموز أخلاقية وتسبغ عليها خيرية النفس
 وشريتها وما بينهما من صراع - بعد ذلك نقول :

ان المؤلف لا يحاول : أن يتراجع ، بعدما قدم من شواهد تثبت عقم التراث اليوناني في الشرق ، سواء اكان هذا التراث لا يتفق معه ، أم كان لعدم ميله الى الأخذ بالفرقة الانسانية قلنا لا يحاول أن يتراجع رغم أنه بات متحيراً في حكمه على تراث الشرق - ليعيد النظر من جديد في تراث الشرق وسيكولوجية التقابل بينه وبين الهلينية . على أنه لا يؤخذ من وجهة النظر العامة للمؤلف : أن الشرق لم يحتفل بتراث اليونان .

أما سؤال المؤلف : الذي بدأ به بحثه : وهو أن نقطة مبدأ الحضارة الشرقية : هي اليونان، كان فرضاً منه ، ألغاه بحثه .

وليس معنى : عدم تقبل الشرق للتراث اليوناني ، معناه : تخلفاً في الشرق ، بل قد يكون كما قلنا : راجعاً الى نوعية الثقافة التي ترجمت كما قلنا .

وقد يحلو لنا أن نذكر ثقافة ، على ثقافة ، ولكن من المكروه أن نجعلها المقياس الأمثل ، اليس محاولة فرضه هو عين الاستبداد في الرأي ؟ والاستبداد مرض يوصم صاحبه بالأثره لا يرجى له العلاج منها .

وفي ذلك ما يفيد - من خلال منهج بحثه - تورطه في معنى التعصب بشامل معناه :

- * تعصب وطني .
- * تعصب ديني .
- * تعصب لليونانية .

لذلك جاء البحث بنتائج سابقة لا توطئ لها مقدماته .

ثم نراه يعيب علينا : أن نأخذ من الوحي في الوقت الذي نراه يستشهد بسقراط فعاب على الشرق ، بما أخذ به ؟

ثم نأخذ عليه : أنه خلط بين الدين الاسلامي ، والدين الوضعي (١) وهو يعلم جيداً ما يعنى مبدأ التفريق بينهما .

(١) فيقول .. أن الخطب كلها نسبة Hone lies clementines هي التي حددت الشعور بالرسالة لدى مؤسسي الأديان اللذين ظهروا في الشرق بعد المسيح ، إلا وهما : حددت الشعور بالرسالة لدى مؤسسي الأديان اللذين ظهروا في الشرق بعد المسيح ، إلا وهما : مائي ونعميد .

وفي النهاية أحب أن أشير الى نقطة جوهرية : بين الثقافة ، والحضارة .

وإذا كانت الثقافة اليونانية – حقيقة كما يتفق الباحثون – : لم تتقدم وأنها نمت نموا بطيئا في الشرق عنه في الغرب ، وأنها : هي العامل الأول – كما يقولون – لكل تطور حضارى ، فكيف نفسر اذن الحضارة الاسلامية اiban ازدهارها ؟ وهذا ما لم يثره المؤلف ولم يتعرض له .

نقول : انه قد تنتقل ثقافة الى حضارة فتتقدم الحضارة ولا تتقدم الثقافة الوافدة ، ومنها الحضارة الاسلامية قد تكون حددت الثقافة بغايتها الحضارية .

فالحضارة الاسلامية ، كانت بعد الوحي : عواملها ذاتية ، واستفادت من الثقافات الأخرى ما وسعها الاستفادة ، فتقدمت الحضارة الاسلامية : لغة وفكرا وتاريخا ، وجغرافية ، وما زال الاسلام مزدهرا وان كان المسلمون في ضعة وضعف . وأصبح لها وزن خاص وخصائص حضارية خاصة . اذا أخذنا هذا في الاعتبار فتصبح دعوى « هانز هيترش شيدر » يشوبها روح التعصب لليونانية ، لأن الحضارة ليست مهمتها تنمية التراث الوافد لتعيده مرة أخرى الى حيث أتى ، انما مهمتها الاستفادة التي تيسر لها مسيرتها وتخدم غاياتها ، حتى تحدث أثارها ذكرا بينا فيما يأتى من حضارات . ولذلك كان لابد للثقافة أن تتغير ، وأن تكيف نفسها بكيفية الظروف المتغيرة ، وأن تلبي المطالب الجديدة ، لذلك لا يمكن ان تظل وفيه لماضيها دون حاضرها ، الا حين تكون حياتها غير حقيقية أو تكون ثقافة : لا وظيفة لها ، وعندما يكون حالها هكذا ، فتصبح وظيفة المجتمع : رفضها ، لأنها أصبحت ، لا تتناسب مع وضعه وقدرته . على أى حال : لم تكن الهلينية من أقوى المؤثرات في الشرق والمنطقة العربية فيه : انما كانت الأديان السماوية : هي الأثر الوحيد والحقيقى للشرق ، واثره البارز على الغرب ، أو بمعنى آخر : الأديان – وهى تراث شرقى – أثر تركه الشرق على الغرب ، وأما مناهجه العقلية فهى أثر يونانى في بعضه .

النتيجة النهائية التى يجب أن يصل اليها ، غير أن بحثه لم يمهد لها هي كما يقول : « وإتي العرب معهم بارادة الغزو ، وكلمة دينية جديدة

لكنهم لم يأتوا بحضارة خاصة يمكن أن تحل محل تلك التي وجدوها في البلاد التي فتحوها ، وبقدر ما توغل العرب في المقاطعات القديمة ذات الحضارة وبقدر ما نقلت مراكز سلطانتهم من مواطنهم الأصلية : الى سوريا ، ومنها الى العراق ، وجاء العرب عيالا على الحضارة العتيقة الراسخة في نفسها ذات الطابع الموحد التي كانت عند من أخضعوهم . وهكذا بدأت تبرز ، منذ نهاية القرن الثامن : وحدة الحضارة الاسلامية التي لم تكن شيئا آخر غير تطور عمره ألف سنة . وكانت القوى الروحية المقومة فيها : هي قوة التراث الهليني .

على أي حال : عرضنا للمد السياسي الهليني ومراكزه الثقافية في الشرق والمنطقة العربية فيه ، ثم عرضنا لبحث « هانز شيدر » تبينا أن المؤلف مذعور من عدم نجاح الهلينية في الشرق ، وكان هذا في نظره ظاهرة مرضية — كما بينا — أنه يتحامل على الحضارة الاسلامية ، وعلى الوحي الذي عده عائقا دون نهضة الشرق ، وعده ايضا : من الحواجز الأساسية ، دون قيام النزعة الانسانية في الشرق ، لذلك صار العرب عيالا على الحضارة العتيقة الراسخة .

ويقول : وكانت القوة الروحية المقومة فيها هي : قوة التراث الهليني ، اذا كانت هذه نتائج طبيعية ساقه اليها بحثه فلماذا يقول متسائلا : كيف امكن الا يكون الشرق حتى هذا العصر ، قادرا على ايجاد نهضة او نزعة انسانية ؟

على أي حال : ان محاولة الطعن في الشرق ، أو الاسلام ، كانت رسالة قديمة ، قام بها الجيل القديم من المستشرقين ، وأصبح الجيل الحديث والمعاصر ، يؤدي خدمات جليلة للتراث الاسلامي ، ويعمل كثيرا من وجهات نظر القدامى من المستشرقين مع المحافظة والفهرسة لتراثنا الاسلامي والعربي .

يقول : م : رستوفتزوفا :

« وعلى ذلك فان حضارة العصر الهلينيستي لم تصبح في أي وقت مزيجا من الحضارة الشرقية اليونانية وانما بقيت أو كادت أن تكون اغريقية صميمة في

جوهرها مع اضافة شيء قليل جدا من العناصر الشرقية اليها ، ولم يكن المظهر الرئيسي الجديد لتلك الحضارة الاغريقية في العصر الهلنستي هو طابعها الشرقي الاغريقي وانما كان طابعها العالمي ، وهذا ما جعلها مستساغة مقبولة لدى مختلف الحكومات الوطنية الجديدة التي ظهرت في كل من الشرق والغرب ومع ذلك ففي الشرق لم تتخذ احدى الدول الجديدة - ومنها بارثيا - باكتريا - والهند - ارمينيا وغيرها - الثقلفة الاغريقية تماما ، بل بقيت العادات والأفكار اغريقية طلاء رقيقا يكسوه بناء محليا ذا طابع شرقي صميم ، وبالإضافة الى ذلك فان الأثر الاغريقي في الشرق قد اقتصر وجوده على المدن وعلى الطبقات العليا من السكان ولم يكن له أى أثر على الإطلاق على سواد الناس وعامتهم . وكان تغلغله أعمق في حياة الأمم الغربية من الايطاليين والكلتيين وأهل ايبيريا والتراقين ولكن الحضارة اليونانية بقيت هنا أيضا وفيه لنشأتها الاولى ولطابعها الحقيقي فكانت هي حضارة المدن وساكنها واستمرت محتفظة بهذا الطابع .

وعلى ذلك كانت الحضارة الهلنستية لا تعدو أن تكون مظهرا جديدا في تطور حضارة المدنية الاغريقية فحسب ، بل انه في الممالك الهلنستية التي قامت في آسيا الصغرى وفي سوريا ومصر وعلى ضفاف البحر الاسود لم تتأثر الجماهير المقيمة في الريف بالحضارة الاغريقية مطلقا وانما حرصت على التمسك بعاداتها القديمة وسجاياها وعقائده الدينية الموروثة (١) .

يقول ديلاسى أوليري : ان الثقافة اليونانية ام تنتقل الى العرب عن هذه الاتصالات الاولى (٢) .

يقول فيليب حتى : ولكن الواقع : هو أن الشرق الهليني كان شيئا مصطنعا ، فديانة اليهودية : احتفظت بتقاليدها القديمة في وسط هذا الشرق الهليني :

(١) يراجع تاريخ الامبراطورية الرومانية الاجتماعى والاقتصادى ص ٢٣ ج ١ .

(٢) علوم اليونان ص ٦٠ .

وبالإضافة الى ذلك فان السلوقيين تبثوا العبادات المحلية بأشكال هليينية وأظهر أكثرهم احتراما للالهة المحلية (١) .

ولكن هذا لا يعنى جعل الشرق هلينيا بقدر ما يعنى جعل العالم الهليني شرقيا وأصبح أفراد الجاليات اليونانية بالتدريج : أكثر تأثرا بالحياة السامية من تأثر الوطنين بالحياة اليونانية . ونجحت الحضارة في سورية الأرامية ، وفلسطين اليهودية ، بأكثر من المحافظة على مكانتها بوجه عام ، فأعطت أكثر مما أخذت .

والذى حصل بنتيجة ادخال الهلينية : هو تمزيق البنيان الاساسى والفكرى الذى كان ساميا صرفا ، والسماح للتأثيرات الرومانية بالدخول فيما بعد (٢) .

(١) أصبح بعل يسمى : زئس وأقيم لى معبد أبولون ذلك الاله اليونانى لى « وقتله » وسط غابة من الشجر حيث تكثر المياه (بيت الماء) وأصبح مركزا للخلاعة لىها بعد .

(٢) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ج ١ ترجمة : جورج حداد وعبد الكريم رافق اشرف علي مراجعته د / جبريل جبور - دار الثقافة ببيروت .

الباب الثاني

الهلينية بين الرفض اليهودي والتسليم المسيحي

- * اليهودية والهلينية •
- * المسيحية والهلينية •
- * المسيحية في المنطقة العربية •
- * حول علاقة الرسول بالمسيحية •
- * مناقشة العرب للرسول في مصدر القرآن •

اليهودية ومكافحتها للوثنية الهلينية

لقد بدأ شتات اليهود *Diaspora* بعد تخريب أورشليم ، على يد البابليين(*) عام ٥٨٨ ق.م ولجأ كثير منهم الى مصر وافناء المنطقة العربية . وعندما سمح قورش باعادة بناء أورشليم بعد هزيمته للبابليين ٥٣٨ فتحها لهم ، غير أن بعضهم فضل الاستقرار خارجا عنها ، ولا سيما بنى الاسكندر : مدينة الاسكندرية ، وهم على شتاتهم ظلوا يحافظون على دينهم وعلى قوانينهم حتى عهد أنطيوخوس أبيفانيس ٤٧٥ - ١٦٤ ق.م *Antiochus Epiphanes* حاول هذا الملك : أن يشربهم الثقافة الهلينية ، وأن يدخل عبادة الآلهة اليونانية في أورشليم ، أدى صنيعه من جانب اليهود الى قيام ثورة بزعامة المكابيين ولم يستطع أنطوخوس أن يقمعها ، وخلع وقتل في سبيلها : الكاهن الأعظم أونياس الثالث وهرب أيضا : أونياس الخامس ابن الكاهن القليل لينجو من الرجس والفوضى اللتين اشاعتها سياسة أنطيوخوس .

فاحسن بطليموس فيلوميثور (١٨١ - ١٤٦) وفادتهم وأعطاهم معبدا مصرياً مهجوراً في « ليونتو بوليس » (١) حيث أقاموا هيكلًا يدعى أونياس ربما نسبة الى أونياس الكاهن ، على صورة هيكل أورشليم ولعل الترجمة (١)

(*) وذلك متى يد بختصر البابلي فكان من ابوره على بنى اسرائيل واثخانهم نهم وهدمه لبیت المقدس واحرقه للتوراة وقتله لأولاد الانبياء واسترقاقه لنساء ملوكهم ولذرائهم — راجع و الروض الاتف للسهيلي ص ١٨١ ج ١ .

(١) ليونتو بوليس هي : نيتو على عهد الفراعنة ومحلها الآن (كرنتل مقدم) بالقرب من مركز ميت خبر من أعمال محافظة الدقهلية وما زالت آثاره للآن تضاهد . قال الشهير ستاني في كتابه الملل والنحل ج ١ ص ١٩٩ : السامرة (فرقة من اليهود) هؤلاء قوم : يسكنون جبال المقدس وقرية من أعمال مصر . وقال : ولغتهم غير لغة اليهود ، وزعموا : أن التوراة كانت بلسانهم وهي تربية من العبرانيين فنقلت الى السريانية . يقول : لعل هي لينتوبوليس .

(١) كان يقرؤها يهود مصر أيام نيثون الاسكندري واليهود الذين انشقوا على الزريباتيين .

اليونانية للعهد القديم وهي التي تعرف باسم السبعينية (١) قد وضعت على مراحل متتالية من أجل هذا الهيكل المحلى .

أما « كاليجولا » الذى نودى به امبراطورا في ٣٨ ق ٠م فقد زينت له أوهامه أنه فوق البشر فطالب رعاياه بتأليهه واقامة تماثيله في مختلف المعابد . ولعله قد تأثر في حداثته بفكرة تأليه الملوك الأحياء وهي فكرة كانت شائعة في ممالك الشرق الهلينستى ولا سيما في مصر ، ولكنها كانت غريبة على الرومان فلم تلق بينهم رواجاً كبيراً .

رفض اليهود الامتثال لأمر الامبراطورية الخاص باقامة تماثيله في جميع المعابد ، ولم يكن من المعقول أن يقبل اليهود تدنيس معابدهم بتماثيل البشر مهما جل قدرهم وهم يؤمنون بآله واحد فاقترح الاسكندريون معابدهم ونصبوا فيها تماثيل كاليجولا بالقوة فلما قاومهم اليهود اتهموهم بعدم الولاء للامبراطور .

وكان من البديهي الا يسكت اليهود على ما أصابهم من هوان تجاوز حد الاحتمال في تلك الفتنة .

ففي شتاء ٣٨/٣٩/٤٠ على الأرجح أوفد اليهود الى روما سفارة من خمسة أعضاء على رأسهم « فيلون » وأوفد الاسكندريون سفارة مثلها على رأسها « أبيون » لكي يعرض كل من الفريقين قضيته على الامبراطور وشاء حظ اليهود التعس أن يتلقى كاليجولا وقتئذ نبأ تدمير الجالية اليهودية لمعبد اقامه الاغريق في بلدة بامنيا على ساحل فلسطين فتثور ثأثرته ويبعث الى

(١) وفي مدرسة الاسكندرية التي كانت تتميز بميزات خاصة اتى اتصال الثقافة الشرقية والثقافة الغربية بالثمار في اصدار الترجمة Septugint النسخة الاغريقية لآثار العهد القديم ، وقد اطلقت عليها هذه التسمية لانه يظن أن سبعة مترجمين قاموا بوضعها في القرنين الثالث والثاني ، وربما تنسب الى مجلس الشيوخ (gerousia) البالغ عدده واحد وسبعين عضوا لوانقته عليها وقد حرمت الكنيسة المسيحية « العهد القديم » عن طريق هذه التسمية على الأرض (تراث العالم ص ٢٢١ ج ١) .

بثرونيوس حاكم سوريا بصنع تمثال له وتخصيبه في معبد اليهود الكبير
بأورشليم .

وقد تضمنت مطالب اليهود - فيما يبدو - حرية العبادة وفقا للشريعة
الموسوية وتحديد وضع جالياتهم في المدينة أو بالأحرى اكتساب حقوق
المواطنة الاسكندرية صدموا عندما ابتدرهم كاليجولا بأنهم قوم كفر لا يؤمنون
بالوهيته .

اجاب الوفد اليهودى بأنهم نحروا الثيران من أجل الامبراطور : مرة
عند اعتلائه العرش ومرة أخرى بعد شفائه من مرضه ومرة ثالثة ابتهاجا
بانتصاره في حملته على الرين . وعندئذ قال كاليجولا :

قد يكون صحيحا انكم قدمتم القرابين من أجلى ولكنكم قدمتموها لاله
آخر فما فائدة ذلك انكم لم تقدموا القرابين لشخصى (١) .

ولم يفز اليهود منه بطائل اذ صرفهم قائلا : يبدو لى ان من تبلغ بهم
الغباوة الى الحد الذى لا يؤمنون معه بالوهيتى هم أجدر بالرثاء منهم بالعقاب .

وبعد ان خلفه بعد اغتياله كلوديوس تراءى ليهود مدينة الاسكندرية
ان الفرصة قد حانت لتسوية حسابهم مع الاغريق فتقدموا بمطالبهم وهى
حقوق المواطنة الكاملة بها .

غير ان مطلب اليهود يظهرهم بمظهر المتناقض ذلك ان المدينة اليونانية
كانت مدينة وثنية تؤمن بأكثر من اله واحد وكان الدين فيها مرتبطا
بالحياة الاجتماعية والسياسية ارتباطا وثيقا فكان خليقا باليهود أن
ينأوا بأنفسهم عن هذه الحياة أو ان يتنازلوا عن دعواهم بأنهم عبدة الاله
الحق الاوحد .

لذلك يرجح كثير من الباحثين الآن أن اليهود كانوا منقسمين :

✱ فريق متزمت .

(١) مصر والامبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البريدية ص ١٠٠ د . عبد اللطيف
احمد على - دان النهضة العربية ١٩٧٤ : ٨٠

✳ وفريق متحلل بعض الشيء من قيود الشريعة الموسوية ومتأثر
بأساليب الحياة اليونانية .

لعله كان هناك حزبان بين الاسكندرانيين .

✳ حزب المتهورين أو المتطرفين .

✳ وحزب المتزمتين أو المعتزلين .

وعندما ارسل اليهود بمطالبهم أرسلوا بعثتين احدهما تمثل الطائفة
المحافظة ولاخرى تمثل الطائفة المتحررة التى تأثرت بالثقافة وأساليب الحياة
اليونانية .

وظلت هذه الاشتباكات بين اليهود والاغريق من ناحية وبين الرومان
واليهود من ناحية أخرى ، الى أن قامت ثورة اليهود الكبرى وهى أكبر ثورة
نشبت بين اليهود فى مصر منذ الفتح الرومانى فى آخر عهد مكسيموس .

أخذت علاقة اليهود والرومان فى التدهور السريع بعد ثورتهم فى فلسطين
سنة ٦٦ وتدمير معبدهم الرئيسى بأورشليم سنة ٧٠ وقد زادها سوء
ذلك القرار الذى أصدره فسبسيان بارغام اليهود على دفع ضريبة الدينارين
لمعبد الاله جوبيتر فى روما بدلا من دفعها لمعبد لمعبد أورشليم وقراره الآخر بتدمير
معبد أونياس فى لينتو بوليس بمصر وهو (قل مقدم) الذى ارتابت فيه
الحكومة فى أنه مركزا لنشاط الحركة اليهودية الأخيرة . وصادرت أملاكه
وهو معبد كان قد شيد حوالى ١٦٠ ق م لمنافسة معبد فلسطين . لذلك
قام اليهود وتعمدوا بالذات بهدم معابد وثماثيل الآلهة اليونانية : أبوللون ،
وزيوس ، وهكاتى ، وغيرها من المعابد كمعبد ايزيس والمعبد القيصرى ودمروا
حمامات المدينة وأروققتها المسقوفة وأنديتها وملاعبها وعاثوا فى الحقول فسادا
حتى أصبحت جذباء قاحلة وامتد لهيب الثورة الى قبرص حتى ان مواطنيها
أصدروا فيما بعد قرارا يحرم على اليهود ان تطل أقدامهم أرض الجزيرة ، وتنتهى
بوقوف الامبراطور هدریان فى صف اليهود بعد ثورتهم الأخيرة ويقضى بمعاقبة
زعماء الاغريق .

وكانت ثورة المكابيين على صنيح أنطيوخوس تعنى :

✳ عدم احلال الوثنية محل الدين اليهودى وإقامتها مكانه فى معبد

أورشليم • هذه الوثنية أراد أنطيوخوس من تطبيقها إخضاع الشرق له سياسيا ودينيا • وصف اليهود صنيعة هذا « بالرجس المخرب » (١) •

✽ عدم سيطرة الهلينية من حيث اللغة والثقافة على لغتهم وثقافتهم ؟

✽ قيام حركة يهودية قوية تدعو الى رعاية تقاليدهم العبرية واستعمال لغتهم ضد سيطرة الهلينية وثقافتها •
... الخ ...

✽ تضمنين دعوتهم بأنهم خير الأجناس وعليهم الانفصال عن « الشعوب » غير اليهودية وما فيها وحولها من تطرف •

✽ لازم قيام هذا التطرف : قيام حركة اليهود الربانيين ، ويبدو : أنها كانت ذات قدرة ، لأنها تحملت من جانبها عبء دعوة تطبيق الشريعة اليهودية على جاليات اليهود في أى مكان ، من مراعاة طقوس وسائر السنن الشرعية الى الختان ، وفرضت ذلك فرضا لازما •

ثم أصدرت عدة فتاوى تتسم بالجرأة وتخدم الروح الوطنية والدينية معا منها :

✽ تحريم قراءة الأسفار المقدسة في البيعة اليونانية •

✽ تحريم قيام أى صلات ودية مع الوثنيين أو غيرهم المختونين •

أصبحت الشريعة الموسوية أكثر صرامة ، وازدهارا بفضل شروح الربانيين •

بهذه الروح القومية والدينية استطاعت اليهودية أن تعمل • وهى فى شتاتها مبعثرة : على احياء دينها ، ولغتها وثقافتها ، وترباط جنسها ، وهذا من الأمثلة النادرة فى التاريخ الانسانى •

(١) سفر اعمال الرسل •

وبلغ من موقفهم أن أصبحت الأسفار التي أثر فيها الفكر اليوناني تعتبر لدى اليهود محذوفة لأنها في نظرهم تحمل طابعا رواقيا (١) .

ثم أخيرا كانت الأسفار المقدسة التي تنسب اليهم وهي : - أي أسفارهم التي تنسب اليهم - أربعة :

الأول : وهو أهمها من الناحية التاريخية : يروى الأحداث التي جرت في اتليم يهوذا Judee منذ حكم اندايوخوس الرابع حتى موت سيمون (١٧٥ الى ١٣٥ ق م) .

الثاني : يتناول قسما من الفترة عينها بصورة موجزة .

الثالث : يروى أحداثا عجيبة خاصة بالملك بطليموس الرابع فيلوباتر ، ويعنى خصوصا ببيان كيف أن الحناية قد انقضت يهود الاسكندرية من بين أيدي ذلك الحاكم .

الرابع : هو بحث فلسفي ينسب الى المؤرخ يوسفوس وفيه يجرى الحديث عن الشهداء الشباب الذين يطلق عليهم خطأ اسم المكابيين السبعة الذين حكم انطيوخوس ابيفانوس باعدامهم لأنهم رفضوا الأكل من لحوم ذبحت للأصنام (٢) .

وهذه الحركة الإصلاحية التي قامت ضد الهلينية ووثنياتها ، كان من آثارها عند اليهود : أن خلقت لديهم ميلا طبيعيا الى العزلة القومية نهعت بها السيطرة القومية اليونانية ، ومما لا يمكن انكاره : أن سياسة العزلة

(١) ملاحظ عندما نقرأ ما كتبه الشهر ستاني من اليهودية أو فرقها : عدم وجود مسحة من التراث الفلسفي اليوناني على اليهودية ، وينسب الشهر ستاني : تحريم وتفرقهم : الى دعوة موسى عليهم ، كذلك لا نجد من قريب ولا من بعيد قضية من قضايا النسفة . إنما الذي لاحظناه : أن الاختلاف يدور حول الأخذ بالنص أو التأويل ووراء ذلك كله حبهم لعزلتهم القومية .

(٢) الشرف والتراث اليوناني هامش ص ٢٢ ترجمة د . عبد الرحمن بدوي .

المصطنعة قوت الاخلاص الدينى وأوجدت سموا خلقيا يناقض الانحلال
السائد فى العادات الاغريقية الرومانية ، والاغريقية الشرقية ، وكلها أبعدت
الأمم عن أى نصيب فى الميراث الروحى . هذا من جانب ، ومن جانب آخر :
أن سياسة العزلة جعلتهم يرون :

ان الالتزام بتبشير الأميين بعقيدة موسى لا يعتبره مبدأ من مبادئ
ناموسهم كما أنهم لم يميلوا الى فرضه على أنفسهم باعتباره واجبا يتطوعون
لأدائه .

واليهودية بعزوفها عن التبشير لتتفق تماما مع تعاليمها النى نقضى
بأنها دين للعبرانيين فقط ، غير أنها : راحت تبشر بنوع غريب كالسحر ،
وعلم التنجيم ، وكان لديهم كتبهم الخاصة فى السحر ، وتعاويذه ورقاه (١) .

هذا الموقف الصارم ، أو التطرف اليهودى ، أفسح مكانا لوجهة نظر
نقدية عامة معاصرة ، تصف الدعوة بالتطرف حين قيامها تقول : (٢)
إن الثقافة اليهودية لا تعدو أن تكون منقولة عن الغير وأنهم لا يشاطرون
من حولهم أى شعور بالأخوة البشرية ، بل ينطوون على أنفسهم ، وأنهم فى
الحقيقة : ملحدون ؟ لأنهم يقولون : بأن لا وجود فى الحقيقة لأى اله
الا « يهوه » ، وهى تهمة كانوا هم أنفسهم السبب فى إثارتها ، باصرارهم
على أن ما تعبدوه الشعوب الأخرى هو الصورة والتمثال الفعلى ، وليس
(كما هو الواقع) الله الذى لم يكن التمثال الا رمزا له (٣) .

على أى حال كافحت اليهودية كثيرا ضد وجهة نظر « أنطيوخوس »

(١) يراجع علوم اليونان ص ٥٨ .

(٢) الحضارة الهلينية ص ٢٤٨ .

(٣) كانت العقيدة اليهودية فى القرن الأول ، ذات وضع عجيب : نهى من ناحية
ونظام يرفض تقبل الانكار الاثريكية ، فى حين أنه يفتح الباب على مصراعيه لتقبل مؤثرات
انشرق — كعلم التنجيم ، وعلم مس الشياطين ، والسحر ، ذلك أنها كانت تأمل أن تحصل
يفضل هذه الأمور على خدام يخدمون روحها : الحضارة الهلينية ص ٢٤٩ .

غير أنها وقعت - وهي اذ تحاول الاحتفاظ بمفهوم المقدس الحقيقي - تحت تأثيرات تصوراتها الذاتية عن سمو جنسها : فضيقت معناه تضييقا جنسيا .

اليهودية وانتشارها في بعض القبائل العربية :

ان اليهود يرغبون عن الدعوة الى دينهم ، على أساس : أن اليهودية للعبرانيين اولاد يهوذا بن يعقوب جنسا ، وأتباع موسى ديننا ، وليست ديننا لغيرهم من الأجناس ، وأن الهمم وهو : « يهوه » ، هو الاله الحقيقي ، وغيره من الآلهة انما هو مثل له ، وأن كل نداءات التوراة خاصة « بيهود » فهي ليست ديننا تبشيريا ، لذلك لم يقم الاحبار بالدعوة اليها ، وجانب آخر : هو أن عدم استقرارهم السياسى : ساعدهم على عدم التبشير ، وزادهم تمسكا بدينهم .

من هنا : كانت الديانة اليهودية ، التي دخلت في بلاد العرب ، لم تكن للتبشير ، انما كانت عندما انتقلت بجماعات اليهود الذين فروا من اضطهاد الرومان في القرن الأول قبل الميلاد لمجرد الهجرة « ولا شك انه كانت هناك أسباب دعت اليهود الى ترك أوطانهم والنزوح منها الى البلاد العربية وأهم هذه الأسباب :

١ - زيادة عدد اليهود في فلسطين زيادة مطردة ، فقد قيل : انهم بلغوا أربعة ملايين (١) .

٢ - اضطهاد الرومان لليهود في القرن الأول قبل الميلاد ، ولوجودهم الى أرض الجزيرة العربية ، التي كانت أحب اليهم من غيرها : لأنظمتها البدوية الحرة ، ونظرا : لوجودها في اقاليم رملية بعيدة ، تموق سير القوات الرومانية المنظمة وتمنح توغلها (٢) .

(١) تاريخ الاسلام العام من ١٦٣ دكتور على ابراهيم حسن .

(٢) ج ١ ص ٢٤ .

٢ - بعد حرب اليهود والرومان سنة ٧٠ م التي انتهت بخراب بلاد فلسطين ودمار هيكل بيت المقدس وتششت اليهود في أصقاع العالم قصدت جموع كثيرة أخرى من اليهود بلاد العرب (١) .

فاليهودية وجدت في بلاد العرب نتيجة اضطهاد اليهود وترتب على ذلك أن العرب المجاورين لتلك الأتوام تهودوا ديناً أو ثقافة تبعاً لمجاورتهم تلك الجماعات اليهودية . وكان أصل اليهود باليمن - كما يذهب كتاب الدسيرة - يرجع إلى الحبرين الذين رافقوا تبعاً في رحلته إلى اليمن وهدما البيت المسمى برثام . ومعنى هذا الرأي : أنه يذهب إلى أن اليهودية دخلت وفق دعوة تبشيرية ، ولا مانع لدينا أن تكون اليهودية في عصرها الأول كان لها دعوة تبشيرية أو أنها أرادت أن ترد على الاضطهاد الوثني لها فبشرت لتهدم البيت الوثني المسمى « رثام » وهذا كله إن صحت الرواية .

يقول السهيلي صاحب الروض الأنف : غير أنه وجد في الاوس والخزرج من قد تهود وكان من نسائهم من تنذر اذا ولدت أو عاش ولدها أن تهوده لان اليهود عندهم كانوا أصل عام وكتاب .

ورأى يرى أن يهودية اليمن ترجع إلى أجدادهم الذين ظعنوا إلى ذلك القطر منذ عهد سليمان .

وبمع ذلك لم تستطع اليهودية أن تتغلب على الوثنية في بلاد العرب لان كثيراً من أحكامها مبني على المعتقدات الفسلا عن الرفض اليهودي للاندماج الأهمي ، ثم أخيراً انحراف العرب عن تحصيل واردتهم الثقافية وعدم ميلهم إلى مثل هذا التخيير .

يقول اسرائيل ولفنسون :

وهناك شهادات من يهود مدينة دمشق و حلب في القرن الثالث : ب . م أنهم كانوا يستنكرون وجود يهود في الجزيرة العربية . ويقولون : أن اليهود في جهات خيبر ليسوا يهوداً حقاً اذ هم يحافظوا على الديانة

(١) تاريخ الاسلام العام .

الالهية التوحيدية ولم يخضعوا لقوانين التلمود خضوعاً تاماً » •

ويقول : كان العالم شير يعتقدان أن اليهود في بلاد العرب كانت لها صبغة خاصة وكانت يهودية في أساسها ولكنها غير خاضعة لكل ما يعرف بالقانون التلمودي ويقول معلقاً : وبقيت هذه البطون العربية على أديان آبائها القديمة ولم تعتنق اليهودية فعدت من موالى اليهود وإذا وقفنا الى أن نميز بين يهود الحجاز والعرب من وجه الدين والعقلية فإنه المتعذر أن نوفق الى انتدبيز بين العنصرين من وجه الاخلاق والعادات والنظم والتقاليد الاجتماعية لأن اليهود الذين سكنوا في بلاد العرب لم يلبثوا أن تخلقوا بأخلاق العرب وتمسكوا بعاداتهم واتبعوا سبيلهم في النظم والتقاليد الاجتماعية حتى أصبحوا كأن لم يكونوا من جنس آخر غير الجنس العربى •• ويقول ولا أعلم في تاريخ اليهود القديم اقليماً تأثر فيه اليهود بأخلاق وعادات وتقاليد أبنائه الى هذا الحد سوى اقليم الجزيرة العربية (١) •

اليهودية في نظر القرآن :

يقول أحمد سوسة : وقد اقتبس هؤلاء قبيل السبى لهجتهم العربية المتقسية من الآرامية ، وبها دونوا التوراة التى بين أيدينا فى الأسر فى بابل أى بعد زمن موسى بثمانمائة عام لذلك صارت تعرف هذه اللهجة « بارامية التوراة » وهذه بلا شك غير الشريعة التى أنزلت على موسى • ويمكن أن نطلق عليها اسم « توراة اليهود » لتمييزها عن « توراة موسى » •

وهؤلاء هم اليهود الذين سماهم القرآن كفاراً لكذبهم على موسى وتحريفهم التوراة فيقول فيهم : « ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا الا بحبل من الله وحبل من الناس وباعوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » « آل عمران : ١١٢ » (٢) •

(١) تاريخ اليهودية في بلاد العرب في الجامعة وصدر الاسلام ص ١٣ لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩١٤ •

(٢) فتحى رصوان • اليهودية وبنى اسرائيل الاهرام ١٧/١٠/١٩٧٢ وكتاب العرب واليهود فى التاريخ •

وهكذا فرق القرآن الكريم : بين بنى اسرائيل ، ذرية ابراهيم من جهة
وبين اليهود المتأخرين ، من جهة أخرى ، وذلك باستعمال اسمين لهما :
فأطلق اسم بنى اسرائيل : في مواضع الرضا ، وسموا باليهود : في حالات
السخط عليهم .

ومن صور المنهج الرفيع في القرآن ، استعمال اسمين عند التحدث
عن العبرانيين : فهم تارة « اليهود » ، وتارة أخرى « بنو اسرائيل » .
وتقوم عبارة (الذين هادوا) في بعض المواضع مقام لفظ « اليهود » .
والقرآن الكريم حينما يستعمل الاسمين لا يفتل لأنهما مترادفان — كما يقول
متلا المسيح ، وعيسى بن مريم — بل يطلق عليهم : اليهود ، والذين « هادوا »
في موضع السخط أو التنديد بسوء أعمالهم ، أو عند حكاية ما أصابهم من
الذلة والعبودية لفساد طويتهم وسوء نيتهم .

أما اذا جاءت مواضع في القرآن الكريم تذكر بفضل الله على هؤلاء
القوم ذاتهم أو أصطفاء الله لهم واسناد الرسالة الى رجال منهم واسبغ
الحكمة والنبوءة عليهم . . الخ .

واستعمال هذين الاسمين مقصود ، لم يأت عفوا ، فاسرائيل : هو
يعقوب ، ويعقوب نبي من أنبياء الله ، ورث عن أبيه اسحاق وعن جده
ابراهيم رسالة الدين الحنيف .

ومن هنا لا يتحدث القرآن عن أولاد يعقوب أي بنى اسرائيل الا بالخير
والرضا فاذا صدر منهم ما يغضب ، فالقرآن يسميهم اليهود .

أما الشيء الذي لم يرد في القرآن : فهو مصطلح (عبري وعبراني)
لم يرد في القرآن مطلقا ، وهذا يدل في نظرنا : على أن العبري أو العبراني
ليس خاصا باليهود كجنس .

المسيحية الهلينية

مما لا شك فيه : أن نشأة الكنيسة المسيحية ترجع الى الكنيس اليهود (*) وأن كتابهما واحد ، وهو بعهديه : العهد القديم لليهودية ، والعهد الجديد للمسيحية - وهما معا يسميان : الكتاب المقدس ، غير أن نظام الكنيسة المسيحية من حيث الأسس في واقعها : تابعت في نظام الامبراطورية الرومانية ، وتخلت عن لغتها الأصلية الى اللغة اليونانية وبذلك أصبحت الكنيسة (الجامعة) الكاثوليكية : ينظمها أساقفة يونانيون .

وبهذا ساهمت الكنيسة بآبائها اليونانيين : في نشر الثقافة اليونانية من جانب ، واسباغ ثوب الثقافة اليونانية على المسيحية من جانب آخر ، وبلغ منها : أن باتت تفضل قراءة العهد القديم في ترجمته اليونانية .

ثم بدأت جهود فردية : تعكف على التوفيق ، بين العقيدة المسيحية والفلسفة اليونانية ، وظنوا انه بتضافرها مع الفلسفة : يعطيها قرة ، ولكن خيب ظنهم انشغالهم العقيدى الذى ظهر فيما بعد .

وظهر الأثر الفلسفى على القديس بولس - وهو رائد التوفيق بين المسيحية ، وبين التراث الفكرى عند الشعوب الداخلة فيها في رسائله التى وفق فيها بين المسيحية ، والفلسفة اليونانية ، وظهر جليا : عندما نشبت الخصومات داخل الكنيسة : صيغت هذه الخصومات في مصطلحات فلسفية يونانية ، ودارت معاركها وفقا للأصول الفلسفية .

وقد استخدم القديس بولس - وهو من أهل طرسوس أحد مراكز الرواقية الاختارة - : لغة تلك المدرسة : للتعبير عن المجتمع الروحى الذى ينتظم كل

(*) لقد احتلقت المسيحية عندما امتازت بالهلينية : بمدونة القوانين الخلقية العالية، التى ورثتها عن الدين العبرى ، ثم أن تاريخ نظام الكهنة ونظام المساواة المسيحيين : اثرت عليه المدونة الكهنية اليهودية ، وتصور العبريين لموظفة الكاهن فيز أن النظام الكهنوتى المسيحى يخفف عن النظام العبرى . فنى أنه ليس ورأيا ويغلب عليه التردية .

المسيحين أعضاء • وتتردد باستمرار في رسائله : فكرة رعوية سماوية ، وفي عظته في أثينا : اقتبس من أنشودة افلينثى الرواقى لذيوس ، وأعلن في الفاظ تردد صدى العقائد الأساسية في المذهب الرواقى : أن الله لا يسكن هياكل مصنوعة بالأيدي ، وأنه « صنع من دم واحد : جميع أمم الناس ليسكنوا كل وجه الأرض » (١) •

وهكذا منذ البدء : أتيح للكنيسة المسيحية : أن تكون مبشرة بالثقافة العقلية اليونانية ، وبالعقيدة الانجيلية معا •

ورأينا وجهة نظر يهودية معاصرة تقول : أن دخول المسيحية في الهلينية: انحراف منها: الى اليسار ، وأنهم يدفعون بأنفسهم في استهانة متزايدة نحو القراخي ، ويدفعون من جانبهم : الحركة الهلينية في اطراد الى الامام •

وبسبب هذه الانتقادات اليهودية : وقعت خصومة (٢) • بين اليهود والمسيحيين •

وكان في هذه الخصومة ما يفيد : أن المسيحية هي وريثة الهلينية ، وذلك عندما سايرت الى حد كبير تيار الفكر الهليني في الشرق •

وفي النهاية نقول : لقد حققت المسيحية توسعا دينيا ، فأصبحت الدولة الرومانية مسيحية بعد وثنيتها اليونانية ، وأصبح من المعالم البارزة التي طبعها الشرق على الغرب : أن دان الغرب بدين شرقي ، غير أن الغرب أخذها بعد أن طبعها اليونان بطابعه الفلسفي ، مما جعلها فيما بعد ، ابان عصور النهضة الأوروبية : محل انتقاد من بعض ، ورفض وانكار من البعض الآخر •

(١) (الاعمال ١٧ ، ٢٨) هو « لاتنا ايضا ذريته » يراجع تراث العالم القديم

ج ١ ص ٢٢٨ •

(٢) قد سجلت الخصومة بين هاتين الطائفتين في (اعمال الرسل الحواريين) •

وأشار القرآن الى نتائج هذه الخصومة بينهما قال : « وقالت اليهود ليست النصرى على شيء ، وقالت النصرى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب • كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم لا الله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » البقرة : ١١٣ •

وفي هذا ما يميز الاسلام عنهما : فهو قد انتشر بلغته ، وكتابه ، وشمل
امما ، وشعوبا ، فضلوا لغته على لغتهم • كذلك يتميز : بأنه دين دعوة منذ
أن نشأ ، وفي حياة الرسول نفسه : أرسلت سفراء ، وكتب لفسر الدعوة
الاسلامية • وكان له من القوة التي كفلت له حمل السيف ، على من نافره
العداء ، أو في سبيل تأمين دعوته ، اذا تعرضت لمناورات الخصوم المعارضين •

وكان من أكبر الأثر الفلسفي على المسيحية : أن صرفت النصارى عن
التوحيد دين المسيح ، الى عبادة الصليب وفي هذا التحول : تغير مفهوم المقدس
الحقيقي لديها ، لأن الصليب والصليب لم يكن تشريعا منه ، على أى حال
لقد توسعت في مفهوم المقدس : حين أدخلت قضايا فلسفية الى صميم دينها
بل الى صميم عقيدتها •

يقول جيبون :

وخلط الغنوصيون ، بالايمان بالمسيح : كثيرا من العقائد ، والمذاهب
الخاصة ، تلك التي اشتقوها من الفلسفة الشرقية ، بل حتى من ديانة
زرادشت التي تتعلق بخلود المادة ووجود عنصرين والتسلل الغامض للعالم
غير المرئي •

واستطاع هؤلاء الهرطقة الغنوصيون أن يخرجوا بدلا من الأناجيل
الأربعة التي قررتها الكنيسة بمجموعة كبيرة من التواريخ ، التي تلتئم
فيها مناقشات المسيح ، وحوارييه ، وأعمالهم ، مع أفكار كل شيعة بعينها •

المسيحية في المنطقة العربية :

كيف دخلت المسيحية مكة والجزيرة العربية :

كانت هناك روافد حملت المسيحية الى الجزيرة العربية بل ومكة
ذاتها هي :

١ - الاضطهاد الذي وقع على المسيحية منذ المسيح ذاته جعل أتباعها
يبحثون عن أماكن في كهوف الجبال وبطون الصحراء ليقواروا عن أعين
الرقباء من الرومان •

٢ - رحلات قريش التجارية ونظرية تقسيم الناس الى أحرار وعبيد ساهمت بدورها في ادخال المسيحية في مكة .

٣ - دخلت المسيحية الجزيرة العربية دخولا رسميا على يد « الحارث الغساني » .

٤ - دخلت المسيحية قلب مكة مع الغزو الحبشى لها .

٥ - ظهور جماعة يدعون بالحنفاء يرمون من وراء تحنفهم الى سحب الثقة الدينية من الأوثان ، ثم طلبوا أديانا مثتى فبعضهم طلب الحنفية وبعضهم طلب الأوثان وبعضهم طلب المسيحية .

وإذا كانت المسيحية قد دخلت مكة فالى أى حد انتشرت ؟

بقيت المسيحية رهينة لفتحها السريانية أو الرومانية فلم تنتشر انتشارا ملحوظا لا من قريب ولا من بعيد ، وكل الذين اعتنقوها من العرب هم الذين كانوا على صلة باللسان الأعجمى .

فلم ينتشر كتابها المقدس لأنه لم يترجم الى اللغة العربية . كذلك شعائر صلاتها (القداس) لم تترجم .

ليس معنى وجود المسيحية وانتشارها بين العرب تعلم الرسول منها وأنها كانت مصدره في تأليفه للقرآن لأن الرسول ادعى النبوة وجمال الوحي مصدره فيما قال وفيما فعل ، وقامت شواهد الواقع والتاريخ على صدق دعوته ثم كان القرآن من أكبر شواهد الأدلة بيننا عليه .

وأما ما بينهما من عناصر متشابهة ومثلها اليهودية فان القرآن نفسه حسم ذلك حين قال ان ما نزل على محمد ليس بدعا عما نزل على غيره من الرسل « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا » (١) والآية ٠٠٠ ويصبح كل بحث يحاول أن يبرز عناصر التشابه بين ما نزل من وحى السماء فهو من غير أن يدرى يدور في فلك الآية السابقة حين أكدت وحدة وحى السماء وفي نفس الوقت يؤكد دعوى نبوة الرسول وصدق ما قاله ودفع لنوازع النفوس البشرية حين تريد أن تخلق من المتجانسات تنافرا .

(١) سورة الشورى الآية ١٣ .

الشقاكات المسيحية

أولا : النساطورة :

ترجع نزعة التبشير في المسيحية : الى الاضطهاد الذي تعرضت له من الدولة الرومانية ، لأننا نلاحظ : أن هذه النزعة تظهر للمرة الاولى بعد استشهاد القديس اسطفانوس ، وما تلاه من اضطهاد ولم يكن الاضطهاد هو السبب الوحيد في انتشار المسيحية ، ولكنه كان سببا من أسباب انتشارها ولعله كان من أهم الأسباب :

نتيجة هذا الاضطهاد لجأ على أثرها بعض المسيحيين الى بلاد ما بين النهرين خارج نطاق الامبراطورية الرومانية ، واستطاعوا : أن يفتشوا كنيسة ما بين النهرين ، وخصوصا فيما حول الرها ، وفي هذه الكنيسة ظهرت المسيحية : بأدائها وبلغتها السريانية ، والترجمة للكتاب المقدس الى السريانية كانت عن النص العبري ، وليست عن النص اليوناني .

وأصبحت الرها بتمايزها السرياني : كنيسة ، ومدرسة ، مركزا مشعا ودايد الأركان ، ذات شهرة واسعة : بين سكان ما بين النهرين ، وفارس ومن يتكلمون السريانية . وباعتبارها مركز كنيسة الشعوب المتكلمة بالسريانية : فانها مثلت الجانب السرياني من الحياة العقلية ، وضارعت به الاسكندرية . وانتشرت اللغة السريانية : تدريسا وتعليقا ، في الرها ، ونصيبين ، وحران .

وهنا ظهر تمايز بين كنيستين في الشرق من حيث الوسائل التعليمية :

— كنيسة الاسكندرية : وهي يونانية ذات شكل مسيحي .

— كنيسة سريانية : مسيحية في تقاليدها (١) .

أدى هذا التمايز في الأسلوب الى حساسية مفرطة ، وأخذت تزداد بفضل النعرة العنصرية ، بين السريان ، والهليينين : ثقافة أو جنسا ، أدى الى تأليب الاسكندرية (الكنيسة الجامعة) : السياسة الامبراطورية على الكنيسة السريانية ، ورأت الامبراطورية — من وجهتها السياسية — بأن في

(١) رابع : ما يتبناه من انلاكية في هذا الكتاب .

هذا تمردا على السلطان : سلطانها السياسى من جهة ، وعلى الكنيسة الجامعة من جهة أخرى ، فمن هنا : راحت تقضى بعنف على تلك الكنائس المحلية ، ذات الصبغة القومية ، أو المنزع الاستقلالى : لغة ودينا • هذا من حيث الموقف السياسى •

وأما من الناحية الدينية : وهو الذى يكمن وراء هذا الاختلاف بين انطاكية والاسكندرية وما بينهما من منافسة وميول متعارضة فان الكنيسة السريانية كانت تنزع الى تناول اللاهوت بما يمكن أن نسميه تناولا عقليا - مشوبا بحذر - بقدر ما يحتاج اليه النص المقدس : من حيث الفهم ، أو التأويل •

وأما الاسكندرية : فكانت تميل الى تناوله تناولا فلسفيا ، يوافق القواعد اليونانية ، أو تناولا رمزيا ، وفق رمزية الهند ، وفارس ، وتعدى الخلاف الشكلى : الى انقسام حقيقى فى العقيدة •

فأصبحت الكنيسة السريانية : تذهب الى انكار امكان اطلاق لقب والدة الاله على العذراء مريم ، ذاهبة الى أنها لم تكن الا أما لعيسى ، باعتباره بشرا آدميا • وطرد فى سبيل ذلك نسطورس ، بقرار من مجمع أفسوس سنة ٤٣١ بزعامة كرلس ، بطريك الاسكندرية ، ولكن السريان لم يقبلوا هذا القرار ، ورفضوا معه قرارات المجمع ، وانفصلوا ، وعرفوا باسم النساطرة ، وانبرت الرها تعضد نستوريوس(١) بوجه عام • واقترن النساطرة بالرها والمنطقة العربية عموما •

ومنذ أن أصبح المذهب النسطورى مضطهدا ، ونحن نلاحظ سرعة فى انتشاره ، واشرافا ، وتوجيها ، وسيطرة على الكنائس ، والمدارس فى المنطقة العربية • وانتشر نشاط النساطرة بين العرب فى الجنوب الغربى ، ثم اتجه نحو الشرق عبر آسيا الوسطى ، الى أن بلغ الشرق الأقصى •

(١) رجع نستوريوس الى الديار التى جاء منه بالقرب من انطاكية ثم نفى الى البتراء فى بلاد العرب وتوفي بعد عام ٤٣١ بقليل •

ولعل معلومات الشهر ستانى عن نسطورا غير دقيقة يقول : النسطورية اصحاب : نسطور الحكيم ، الذى ظهر زمان المأمون وتصرف لى الانجيل بحكم راية •

من المدن العربية الكبرى التي تنصرت : الحيرة ، وذلك حوالى نهاية القرن السادس ، وذلك حين تنصر النعمان ملك الحيرة وتبع هذا تحول كثير من الأعراب الى المسيحية ، وهم من قبيلة اللخمين يؤلفون الاستقرابية الحاكمة فى الحيرة .

يقول ابن هشام : وبنجران بقايا من أهل دين عيسى على الانجيل ، أهل فضل واستقامة من أهل دينهم لهم رأس يقال له : عبد الله بن قامر .

يقول :ديلاسى أولرى : ويبعدو أن هؤلاء الذين اعتنقوا المسيحية قد أخذوا المذهب النسطورى ، وارتضوا : أن يقوم بخدمة القداس رجال الدين النساطرة ، الذين يتكلمون السريانية .

ورغم هذا كله نشلت المسيحية فى أن تمت جذورها بين العرب فلم يتأثر وسط الجزيرة العربية بالمسيحية . خلاصة القول كما يقول دوزى : لم تستطع المسيحية بما فيها من تقاليد وعقيدة التثليث وعقيدة صلب المسيح أن تجذب انتباه العرب أو أفكارهم (١) .

ومن وجهة النظر العامة : عجزت المسيحية أن تنتشر فى الشرق مثل انتشارها فى الغرب . وذلك لنفس السبب الذى يقوله « رينان » لأنها الوراثة بلا واسطة آثار الآرميين من مدرسة الاسكندرية .

ثانيا - أصحاب الطبيعة الواحدة :

يرجع نشر عقيدة أصحاب الطبيعة الواحدة فى المنطقة العربية الى يعقوب البرادعى . ولم يذهب اليها مضطهدا ، شأن نسطورس ، انما جاء به الى المنطقة العربية ، الحارث بن جبلة ملك قبيلة غسان العربية ، وكان قد قدم فى ٥٤٣ ق.م الى بلاط ثيودورا وكانت الحكومة البيزنطية تمده بالمال لقاء حمايتها للحدود السورية وكانت تسبغ عليه لقب ملك بصفة رسمية

(١) حضارة الاسلام : ص ٢٨ صلاح الدين خودابخش ترجمة د . / على حسنى

- وحدث في هذه الزيارة أن طلب الاذن لبعض الأساقفة فأجيب الى طلبه .
- فأعطى لبصرى : يعقوب البرادعى .

وللرها : ثيودور

وأصبح أصحاب الطبيعة الواحدة مجتهدين ، ومونقين في نشاطهم التبشيري ، وكانوا يجوبون الصحارى في حمى قبيلة غسان العربية .

قال الفايضة الخبياني في وصف آل غسان :

محلتهم ذات الاله ودينهم قويم فما يرجون غير العواقب
رقاق النعمال طيب حجاتهم يحيون بالريحان يوم السباسب (١)

يقول فيليت حتى :

« وفي أيام البعثة المحمدية : كان معظم هذه القبائل من المسيحيين ، وكانت الأديرة ، والصوامع ، منتشرة في الوادي كله ، وقد كان رهبان النمساوية : ينتشرون من هذا المركز العام ، فيجوبون خلال بلاد العرب كلها ، ويزورون الاسواق الكبرى ، ويعظون من يصيخون اليهم السمع ، وقد جاء في السيرة : أن النبي قد ذهب الى سوريا في شبابه ، والتقى بالقرب من بصرى ، براهب يدعى نسطورا .

ثم يقول فيليب حتى :

وأصبحت بصرى التي بنيت كاتدرائيتها في عام ٥١٢ العاصمة الدينية في المنطقة كما اشتهرت كمركز تجارى ، وتقول المرويات الاسلامية : أن النبي محمدا مر بها هو وقافلته .

ويضيف « حتى » قائلا :

وهناك اطلع على كثير مما عرفه عن المسيحية .

(١) محلتهم : مسكنهم — ذات الاله : بيت المقدس .

ويروى مجنبهم : قال القتيبي : تقديره كتابهم كتاب الله وكانوا نساوى وكتابهم الانجيل .
يوم السباسب . يوم الشعابين الأحد السابق لأحد النصح عند النصارى .

ديوان النبغة الدبباني ص ١٢ دار صادر .

ويقول حتى :

وقبل أن يزول الغساسنة نقلوا بعض الأفكار المسيحية التي كانت لها تأثير مع بعض أفكار أخرى على الاسلام .

وهكذا زودت الحضارة السورية الاسلام ، ببعض العناصر المبدعة ، كما فعلت بالنسبة لليهودية والنصرانية من قبل (١) .

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز :

وسوف لا نعول كثيرا على قصة بحيرا الراهب الواردة في الاثر والتي تذكر أن محمدا قابله وهو في الثانية عشرة من عمره عندما صاحب عمه أبا طالب في سفره الى سوريا . فالصواب يمنعنا من الاخذ بهذه المقابلة العارضة واعتبارها مصدرا لتعليم محمد ، لأن الحادثة : اما أنها أسطورية ، أو انه يتمين علينا أخذ كل الوقائع التي تذكرها في الحساب ، وحينئذ : نجد أن القصة تذكر أن هذه المقابلة كانت في حضور جميع أفراد القافلة ، وأن محمدا كان في دوره « مسئولا » لا مستمعا ، وبانتهاء الاستجواب : خلص الراهب الى نبوءة مضمونها توقع بعثة هذا الشاب رسولا في المستقبل . ان الفكرة اذن تفند نفسها (٢) .

ونحب أن نعرض للرواية التاريخية التي ذكرت مقابلة الرسول لبحيرا الراهب ، والرواية التي ذكرت مقابلة ثانية في مرحلة أخرى من العمر لنسطورا الراهب . اولارواية بحيرا :

قال ابن اسحاق : التقى بحيرا برسول الله وهو ابن تسع سنين .

وفي الطبري : ابن اثنتي عشرة سنة .

(١) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج ١ ص .

(٢) مدخل الى القرآن : عرض تاريخي مقارن ص ١٣٤ الدكتور محمد عبد الله

دراز ترجمة محمد عبد العظيم على ومراجعة د / السيد محبة بدوي .

اقرأ مقال هوارب : بالجريدة الآسيوية عدد يوليو أغسطس ١٩٠٤ بعنوان مصدر

جديد للقرآن حيث ورد ما يلي : في الخاتمة .

لا تسبح النصوص العربية ، التي عثر عليها ونشرت وبحثت منذ ذلك الوقت

بان نرى في الدور المسند الى هذا الراهب السوري الا مجرد قصة من تسج الخيال .

وكان الرسول قد خرج مع ركب أبى طالب وهو فى تجارته الى الشام
فمر على راهب فى صومعته فى بصرى : هو بحيرا ، من هو بحيرا ؟
قال ابن اسحاق : بحيرا كان اليه علم أهل النصرانية .
ووقع فى سيرة الزهرى : بحيرا كان حبرا من يهود تيمان .
وفى المسعودى : أنه كان من عبد القيس واسمه سرجيس ، تلك رواية
بحيرا .

ثانيا - رواية نسطورا الراهب .

رآه الراهب تحت ظل شجرة ، وهو فى رحلته بتجارة خديجة الى الشام .
وتذكر الرواية : أنه ليس بحيرا الراهب لأن هذه الرواية كانت بعد
العشر .

الروايتان يفيدان معا :

التقاءهما بالرسول : وهو فى رحلة تجارية مع قبائل قريش ، وأن
الرسول لم يجالسهما ، وإنما تكلم فى شأنه وشأن مستقبله مع شيخ الركب .
وأنهما نصحا بعودته خوفا عليه : من الروم أو اليهود ، ولم يقترحا استبقاءه
معهما حتى عودة القافلة من رحلتها ، فالمسيحية الاولى : قامت بالدور
التبشيري لمستقبل رسالة الاسلام ونبيه . وهذا ما تقرره الروايتان :
أنهما لم يتحدثا اليه ، لا من قريب ولا من بعيد : فى شأن تعلمه .
وعلى احتمال : أنه تعلم منهما واستمع اليهما ، فياثرى أى شىء تعلمه
منهما ؟

وعقيدة أى مذهب تعلم ؟

هل العقيدة النسطورية ؟

أو عقيدة مذهب الطبيعة الواحدة ، وكلاهما كان منتشرا فى تلك
المنطقة ؟

ثم ما هى المدة الزمنية التى تكفى لاحاطته بالمسيحية ؟

بعض المستشرقين يرى : أن وراء هذه الروايات دورا تاريخيا فى صلة

الرسول بالمسيحية ، ومثل هذه الآراء ، وجدت من أبحاث المستشرقين :
ما ناهضها ، وناقضها ، ووفق مناهج أبحاثهم اثبتوا تفاهتها من عدة أمور
منها :

— عدم تعرض القرآن لمشكلات المسيحية .

— تناقض ما جاء في القرآن عنها مع شعراء العرب المعاصرين للنبي ،
والذى ثبت من تحرير شعرهم أنهم كانوا على صلة بالمسيحية : كإعشى
شاعر الغساسنة . وكأمية بن أبي الصلت الذى بات أسفا على نفسه وخيبة
رجائه فى فشل قيادته الدينية ، وهم على ذلك الحال لم يتقولوا على محمد
بأنه أفاك .

— الحاجز اللغوى : الذى أشار اليه القرآن — بين الرهبان ومحمد
يمنع ما يفتج من هذه الروايات .
— يقرر هوارت : Huart

مهما كان اغراء الفكرة التى تقول : بأن تفكير المصلح الشاب (محمد)
قد تأثر بقوة عندما شاهد الديانة المسيحية بسوريا ، فإنه يتحتم استبعادها ،
نظرا لضعف الأسس التاريخية للوثائق التى كانت أمامنا ، وعدم وجود
روايات صحيحة غيرها .

وسوف نرى رأيا لمستشرق قدم بحثا مفصلا ودقيقا فى هذه الموضوعات (١)
يقول : ومن البهتان ما شاع من القول أن النبي سمع من هؤلاء قصص
التوراة التى تحتل مكانا بارزا من القرآن .
وقد قال أعداؤه : « ثم تولوا عنه وقالوا مجنون » .
وقال : ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه
أعجمى وهذا لسان عربى مبين .

(١) علوم البيان وسبل انتقالها الى العرب : د / لاسى أو ليرى ترجمة
دكتور / وهيب كامل مراجعة زكى على ص ٨١ ، ٩٠ ، ١٢٤ .
Voir it Arapie a ccidutal avant l'Hegie La mance.

وقال أيضا : وقال الذين كفروا ان هذا الا لفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا » .

وهؤلاء المسيحيون المستضعفون في مكة : لم يكونوا هيئة منظمة ، ولم تكن لهم كنيسة ، ولم يكن لهم أسقف .

ويقول عن أصحاب الطبيعة الواحدة :

وكانت مدينة نجران ، في بلاد العرب ، غير بعيدة من مكة وهي الأخرى مسيحية تدعى بمذهب الطبيعة الواحدة . ولا نستطيع أن نحدد مركزا لأصحاب الطبيعة الواحدة يدعى نقل الثقافة اليونانية الى العرب بنفس الثقة التي حدثنا بها مركز النساطرة في جند يسابور .

ومع ذلك لا يمكن اغفال هذه الصلة ، لأن مراكز أصحاب الطبيعة الواحدة كانت في الحق أديرة ، ولم تكن الجامعات ، كما كان الأمر في جند يسابور ، ولذلك لم تكن مراكزهم وثيقة الصلة بالعرب ، كما كانت مدرسة النساطرة .

ويقول عن مدرسة نصيبين :

وكانت مدرسة نصيبين مزدهرة ابان الفتح الاسلامي ، ولكنها لم تكن فيما يبدو ذات أثر مباشر على العرب ، ولعل السبب في ذلك أنها كانت لاهوتية صرفة .

ثم يقول : لم تكن (في المنطقة العربية) كتب بالعربية ، ولم تكن في العربية : ترجمة للكتاب المقدس ، ولم يكن هناك قداس باللغة العربية .

ثم قال : ان الثقافة اليونانية لم تنتقل الى العرب عن طريق الاتصالات الأولى ، ولقد تحقق انتقال العلوم اليونانية الى العرب : عندما استقرت الخلافة العربية في مدينة بغداد .

ثم يقول : « ان الفتح العربي في سنة ٦٣٢ لم يوقف الحياة الدينية او الفكرية لطائفة النساطرة أو أصحاب الطبيعة الواحدة » .

ويتكلم صاحب تاريخ سورية عن علاقة المسلمين بالمسيحيين فيقول :

« لقد فرض العرب الجزية وتركوا الطوائف التي تدفع الجزية حرة
تتبع قوانينها وديانيتها وتقاليدها وتحيا حياتها الفكرية الخاصة (١) » .
ولقد كتب أحد بطاركة الكنيسة الشرقية :

ان العرب الذين أولاهم الله السلطة على العالم في هذا العهد هم كما
تعلمون يقيمون ديننا ولا يتخفون من النصرانية موقف عدا بل هم على
عكس ذلك يمتحنون ديننا ويجلون الكهنة والقديسين ويجودون بالتقدمات
للكنائس والمناسك (٢) » .

بعد ذلك نقول عن المسيحية في المنطقة العربية :

أ - عجزت المسيحية - قبيل الاسلام - رغم تعدد مراكزها وانتشار
رجالها في المنطقة العربية أن تكون ديناً للمنطقة العربية - سوى بعض قبائل
اعتنقوها نزلاً سياسياً ، ولعل عدم انتشارها يرجع الى عدة عوامل كامنة
في المسيحية ذاتها :

- التنافس بين مذاهبها .
- انشغالاتها العقائدية حول : طبيعة المسيح والموضوعات المتعلقة بها .
- الاضطهاد السياسي للمذاهب التي تسربت - من اضطهاد القيصر
لها - ثم اعتنقها الناس .
- عدم رضا بعض رجال الكنائس على عملية التوفيق بين المسيحية
والتراث الفلسفي اليوناني التي اظهرت المسيحية من حيث معارفها الفلسفية
كأنها منظمة مزيجاً يوناني وروماني ، ومخلطة البنيان من حيث بذاتها
الديني .

هذا وغيره ساعد الناس أن يرغبوا عنها لأن الوجه الهليني الذي ظهرت
به أصبح عليها أخص خصائصه : وهو الوثنية ، إذ الفلسفة اليونانية لا تحب
إلا أن تكون وثنية في جوهرها .

(١) - ربيع سورية ص ١٤٢ .

(٢) - مدخل الى القرآن الكريم - عرض تاريخي وتحليلي مقارن - الدكتور

محمد عبد الله دراز ص ١٣٧ .

وبات عجز المسيحية واضحا عن الانتشار في المنطقة العربية ، وبلغ من عجزها : أن ظهرت عبادات قريبة الشبه كالزرادشيتة والبوذية بين الجماعات المسيحية نفسها .

وظهرت المانوية وهي من أخطر العبادات الجديدة ، وقد أسسها مانى حوالى ٢٤٦ م وقد مات مانى فى السجن بسبب معتقداته . هذا وغيره أدى الى انصراف الناس عنها الى اعتناق هذه المذاهب ، فكانت هذه المذاهب على خطورتها - كانت فى نظرهم - أقل تعقيدا فى قضاياها ، وأجمع للقلوب لقلة اختلاف نواياها ، ولا تناظر المسيحية من حيث جفاف روحها الدينى .

يقول تايلور فى كتابه « المسيحية القديمة » : أما ما قأبله محمد وأتباعه فى كل اتجاه : فلم يكن الا خرافات منفرة ، ووثنية منحطة ، ومخجلة ، ومذاهب كنسية مغرورة ، وطقوسا دينية منحطة ، وصبيانىة ، بحيث شعر العرب ذور العقول النيرة : بأنهم رسل من قبل الله ومكلفون باصلاح ما ألم بالعالم من الفساد (١) .

يقول الدكتور شوقى ضيف : على أن هناك آفات كانت تشيع فى هذا المجتمع الجاهلى لعل أهمها الخمر واستباحة النساء والقمار . ثم يقول وأكثر من كان يتجر بها (أى الخمر) اليهود والنصارى وكانوا يجلبونها لهم من بصرى وبلاد الشام ومن الحيرة وبلاد العراق .

ويقول : أنهم كانوا يضربون خيامهم فى بعض الأحياء أو فى بعض القرى ، ويضعون فوقها راية تعلن عنهم : فيأتيهم الشباب ليشربوا ، وليسمعوا بعض القيان ممن يصاحبهم « (٢) » .

ومن جانب المقابلة بين التراث الشرقى والتراث الغربى نقول :

استطاع الشرق بعد أن هزم سياسيا : أن يرفض بعنف سيطرة التراث اليونانى الرومانى ، وحاول حصره داخل مدرسة الاسكندرية وأن يصر بعنف بالغ - كما رأينا موقف اليهودية - على رفض الوثنية الدينية ، وتعرض

(١) مدخل الى القرآن - عرض تاريخى مقارن د . محمد عبد الله دراز ص ١٢٧ .

(٢) العصر الجاهلى ص ٧٠ .

اليهود من أجل ذلك : الى شتات وذلك في سبيل عقيدتهم • وذلك موقف يصم السياسة : بأنها لا تستطيع أن تغير من عقائد الناس • هذا من ناحية الموقف الرفض للتراث الهليني من قبل اليهود •

أما المسيحية بعد ما بينا موقفها فانذا نلاحظ في النهاية - وهي دين شرقي - أنها سيطرت من جانبها على الوثنية الرومانية وتشكلت الدولة الرومانية بالمسيحية وحملت - ضمن أعبائها - عبء مشاكلها وتبعية نشرها • وليس في الأهر - كما رأينا عجز في طبيعة العقل الشرقي أو انحطاط الشرق عن الغرب كما يزعمون • إنما كل ما في الأمر أن الرومان تبني - والغرب بعده - الثقافة الهلينية وهي ما كانت تعنيهم •

أما حضارة الشرق فان الاسكندر ما استطاع - ولا خلفاؤه من بعده - أن يقهرها وان هزمه سياسيا وحربيا غير أنه لم يقهره ثقافيا ، لأنه لا يجب أن يكون دنتهيا الا الى نفسه من خلال تراثه السماوى أو الوضعى ، وليس لعة مرضية كما يزعمون حين يعللون رفض الشرق التراث اليونانى ووثنيته ، واذا كان كذلك فكيف يكون مريضا وعنده من الوعى الحضارى الذى به فرض رسالته الدينية عليه ، وهذا أعقد ما فى المسألة ؟

وفى ذلك ما يفيد - من وجه آخر للمسألة : أن رسالة الشرق الحديثة ضرورية للانسانية ، وذلك يفسر فيما بعد ظهور الاسلام : والا فلماذا أخذ الغرب بالدين الشرقى ؟

السنا امام مشكلة فيها نقابل الاستفهام وهو : لماذا رفض الشرق التراث الهليني ؟ ولماذا قبل الغرب الدين الشرقى ؟

وفى النهاية نقول : وحقيقة دور المسيحية واليهودية من خلال مصادر تاريخية أنهم كانوا وفق نصوصهم يعتقدون فى « مسيا » (١) جديد - أى : المسوح بالطيب أو الذى مسحه يهوه بالطيب - وكانوا يذهبون الى تفسير اضطهادهم بأن التاريخ - وفق تصورهم - يدور ليحقق عودة مجتمعهم الذى تتحقق فيه الارادة الالهية واستفاضت نبوءتهم • يقول ابن سعد :

(١) تراث العالم القديم ص ٩٤ •

كان في بني تميم : محمد بن شعبان بن مجاشع وكان أسقفا يذكر بسبب تسميته محمدا : قيل لأبيه : انه يكون للعرب نبي اسمه محمد ، فسماه محمدا (١) .

يقول ابن اسحق عن عاصم بن عمر بن قتادة عن رجال من فوقه قالوا : ان مما دعانا الى الاسلام مع رحمة الله تعالى وهداه مما كنا نسمع من رجال يهود - كنا أهل شرك : أصحاب أوثان ، وكانوا أهل كتاب ، عندهم علم ليس لنا ، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور ، فاذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا : انه تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وارم . فكننا كثيرا ما نسمع ذلك منهم (٢) .

كان اليهود دائما يبشرون بمسيا يخلصهم من وطأة ما وقع عليهم من شدايد حتى بعد مجيء المسيح (٣) .

فهذه النصوص التاريخية تفيدنا : أن المسيحية أو اليهودية على حد سواء قامتاً بدور تبشيري بنبي قرب مبعثه فكيف بعد مجيء محمد رسولا يفكرون عليه رسالته ؟ لا أرى باعنا على ذلك على سوى أنهم يحاولون تزيف التاريخ الديني للرسالات الالهية وتلك قضية أثبتتها القرآن حين أثارها عليهم .

مناقشة العرب الرسول في مصدر القرآن

نسوق هذا النموذج ، بعدما قدمنا ما تعرضت له المنطقة من اتجاهات : فكرية ، ودينية ، يتميز هذا النموذج : بأنه جمع لجنة تمثل اتجاه المثقف ثقافة عقلية في مدرسة « جنديسابور » : وهو النضر ، واتجاه رجال الدين اليهودي وذلك عندما أفلست الوثنية العربية اتجه رجالها الى يهود يثرب ليسألوهم عن مسائل يختبرون بها الرسول وذلك كان بعد أن اتخذ الاسلام

(١) الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٦٦ .

(٢) نفس المرجع ص ١٦٦ ج ١

(٣) نرات العائم القديم ص ٦٤ .

طريقه في قبائل قريش : من الرجال والنساء ، وقريش تحبس من قدرت على حبسه ، وتفتن من استطاعت فتنته من المسلمين ، دعا رجال من أشراف قريش من كل قبيلة الى اجتماع بينهم فاجتمع :

- عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة .
- وأبو سفيان بن حرب .
- والنضر بن الحارث ، أخو : بنى عبد الدار .
- وأبو البختري بن هشام .
- والأسود بن عبد المطلب بن أسد .
- وزمعة بن الأسود .
- والوليد بن المغيرة .
- وأبو جهل بن هشام .
- وعبد الله بن أبي أمية .
- والعاصي بن وائل .
- ونبيه ومنبه ، ابنا : الحجاج السهميان .
- وأميه بن خلف .
- اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهور الكعبة .

قال بعضهم لبعض : ابعثوا الى محمد ، فكلّموه ، وخاصمّوه حتى تعذروا فيه ، فبعثوا اليه : أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلّموك : فاتهم فجاءهم رسول الله سريعا - فهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بداء وكان عليهم حريصا يحب رشدهم ويعز عليه عنّتهم - ودار ذلك في نفسه حديثا نفسيا • حتى جلس اليهم •

فقالوا له : يا محمد : انا قد بعثنا لنكلمك - وانا والله ، ما نعلم رجلا من العرب ، أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك : لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وشتمت الآلهة ، وسفّهت الأحلام ، وفرقت الجماعة ، فما بقى أمر قبيح . الا قد جئتكم فيما بيننا وبينك ، فان كنت انما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا : جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا •

• وان كنت انما تطلب به الشرف فينا : فنحن نسودك علينا •

• وان كنت تريد به ملكا : ملكناك علينا •

وان كان هذا الذى يأتيك رثيا نراه قد غلب عليك – وكانوا يسمون التابع من الجن رثيا – فربما كان ذلك : بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك •

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما بى ما تقولون ؟

ما جئت بما جئتم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ،

ولكن الله بعثنى اليكم : رسولا ، وأنزل على كتابا ، وأمرنى : أن أكون لكم بشيرا ونذيرا •

فبلغتكم رسالات ربي ، ونصحت لكم ، فان تقبلوا منى ما جئتم به : فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وان تردوه على : أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم •

قالوا يا محمد : فان كنت غير قابل منا شيئا مما عرضناه عليك فانك قد علمت : أنه ليس من الناس أحد أضيق بلدا ، ولا أقل ماء ولا أشد عيشا منا • فسل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به : فليسير عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا ، وليفجر لنا فيها أنهارا كأنهار الشام ، والعراق ، حكى القرآن ذلك فقال : (١)

فقال لهم رسول الله : ما بهذا بعثت اليكم ، انما جئتم من الله بما بعثنى به ، وقد بلغتم ما أرسلت به اليكم ، فان تقبلوه : فهو حظكم في الدنيا

(١) وأنزل الله علينا نبيا سألهم قومهم لانفسهم من تسيير الجبال ولتطيع الارض وبعث الموتى قال : ولر أن قرأتا سبوت بسه الجبال أو قطعت به الارض أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعا .

والآخرة ، وأن تردوه على : أصبر لأمر الله حتى يحكم بيني وبينكم ، حكى القرآن فقال : (١)

قالوا : فإذا لم تفعل هذا لنا : فخذ لنفسك (٢) سل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك .

وسله فليجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة ، يغنيك بها عما نراك تبتغي ، فانك تقوم بالأسواق كما تقوم وتعلمس من المعاش ، كما نلتمسه ، حتى نعرف فضلك ، ومنزلتك من ربك ان كنت رسولا - كما تزعم - .

فقال لهم رسول الله : ما أنا بفاعل ، وما أنا بالذي يسأل ربه هذا ، وما بعثت اليكم بهذا ، ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا ، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وان تردوه على أصبر لأمر الله ، حتى يحكم الله بيني وبينكم . قال القرآن حاكيا ذلك منهم (٣) :

(١) وانزل عليه في قولهم : خذ لنفسك ما سألوه ان يأخذ لنفسه ان يجعل له جنانا وقصورا وكنوزا ويبعث معه ملكا يصدقه عما يقول ويرد عنه : وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا انزل عليه ملك ليكون معه نذيرا ، او يلقى اليه كنز او تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا ، انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ، تبسارك انذرى ان شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا . وقا : وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة انصبرون وكان ربك بصيرا ...

(٢) وانزل عليه فيما قال عبد الله بن أمية . وقالوا ان نؤمن بك حتى تلجئ لنا من الأرض ينبوعا . او تكون لك جنة من نخيل وعنب تلجئ الانهار خلالها تترجئ ا ، او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا او تأتي بالله والملائكة تبيلنا ، او يكون لك بيت من زخرف او ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل . سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا .

ورد عليهم فيما عرضوا عليه من اموال : قل ما سألتكم من أجر فهو لكم ان

أجرى الا على الله وهو على كل شيء شهيد .

قالوا : فأسقط علينا كسفا كما زعمت أن ربك لو شاء فعل فإنا لا نؤمن لك
إلا أن تفعل .

فقال رسول الله : ذلك إلى الله إن شاء أن يفعله بكم فعل .

قالوا : يا محمد : أفما علم ربك : أنا سنجلس معك ونسألك عما سألتناك
عنه ، ونطلب منك ما نطلب ، فيتقدم إليك : فيعلمك ما تراجعنا به ويخبرك
ما هو صانع بنا إذا لم نقبل منك : ما جئتنا به .

ثم يقولون : أنه قد بلغنا ، أنك : إنما يعلمك هذا : رجل باليماة .

فقد أعزنا إليك يا محمد ، وإنا والله لا نتركك وما بلغت هنا ، حتى
نهلك أو تهلكنا .

وقال قائلهم ، فمن نعبد ؟ الملائكة أو بنات الله ؟

وقال قائلهم : لن نؤمن لك : حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا .

فلما قالوا ذلك لرسول الله : قام عندهم ، وقام معه : عبد الله بن أبي
أمية بن المغيرة ، بن عبد الله ، بن عمر ، بن مخزوم ، وهو ابن عمته : فهو
لعاتكة بنت عبد المطلب .

فقال له : يا محمد : عرض عليك قومك ما عرضوا : فلم تقبله منهم .

ثم سألوكم لأنفسهم أمورا ، ليعرفوا بها منزلتك من الله ، كما تقول ،
ويصحبوك ، ويتبعوك ، فلم تفعل ، ثم سألوكم : أن تأخذ لنفسك ما يعرفون
به فضلك عليهم ، ومنزلتك من الله : فلم تفعل . ثم سألوكم : أن تعجل
لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب : فلم تفعل .

✽ قال الله تعالى : انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون .
فقال نبي الله بن الزبير : أكل ما يعبد من دون الله حصب جهنم . قال : فنحن
نعبد الملائكة واليهود تعبد عزيرا ، والنصارى تعبد عيسى ، فعجب الوليد ومن كان معه
في المجلس من قولي عهد الله بن الزبير وراوا أنه قد احتج وخاضم فذكر ذلك لرسول
الله من قول ابن الزبير فقال رسول الله : كل من أحب أن يعبد من دون الله مع من
هو معه ، أنهم يعبدون الشياطين .

فوالله لا أومن بك أبدا ، حتى تتخذ الى السماء سلما ثم ترقى غيه ،
وأنا انظر اليك ، حتى تأتيها ، ثم تأتي معك : بصك أربعة من الملائكة ،
يشهدون لك أنك كما تقول ، وإيم الله : أنك لو فعلت ذلك ، ما ظننت أنى
أصدقك ، ثم انصرف عن رسول الله •

وانصرف رسول الله الى أهله : حزينا أسفا مما كان من قومه حين
دعوه • ولما رأى من مباعدهم إياه •

فلما قام عنهم رسول الله ، قال أبو جهل : يا معشر قريش : ان محمدا
قد أبى ، الا ما ترون منه من عيب ديننا ، وشتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ،
وشتم آلهمتنا •

وانى أعاهد الله : لأجلسن له غدا بحجر ، ما أطيق حمله ، فاذا سجد
لرسول الله ، لأهوى بسخرة على رأسه ، فأسلمونى عند ذلك ، أو امنعونى فليصنع
بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم •

قالوا : والله لا نسلمك لشيء أبدا فامض لما تريد •

فلما أصبح أبو جهل : أخذ حجرا - كما وصف - ثم جلس لرسول الله
ينتظره : وغدا رسول الله كما كان يغدو ، وكان رسول الله بمكة وقبلته
الشام ، فكان اذا صلى بين الركنتين : البرانى ، والأسود ، جعل الكعبة
بينه ، وبين الشام فقام رسول الله يصلى : وقد غدت قريش •

فقالوا له : مالك يا أبا الحكم ؟

قال : قمت اليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة ، فلما دفوت منه ، عرض
لى دونه فحل من الابل ، ما رأيت مثل هامته ، ولا أنيابه : لفحل قط ، فهم
بى ان يأكلنى • فلما قال لهم ذلك أبو جهل : قام النضر بن الحرث بن كلفة
فقال : يا معشر قريش : انه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم بحيلة بعد •
قد كان محمد فيكم : غلاما حدثا ، أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثا ، وأعظمكم
أمانة ، حتى اذا رأيتم فى صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به قلتم :
ساحر ، لا والله ما هو بساحر ، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم •

وقلتم كاهن : لا والله ما هو بكاهن ، قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا
سجعهم •

وقلتم شاعر : لا والله ما هو بشاعر ، قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه
كلها هزجه ورجزه •

وقلتم مجنون : لقد رأينا الجنون ، فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا
تخليطه •

يا معشر قريش : فانظروا في شأنكم ، فانه والله قد نزل بكم امر
عظيم •

وكان النضر بن الحرث من شياطين قريش ، ومن كان يؤذى رسول
الله وينصب له العداوة ، وكان قد قدم الحيرة : وتعلم فيها أحاديث ملوك
الفرس وأحاديث رستم واسفنديار فكان اذا جلس رسول الله مجلسا :
يذكر فيه بالله ، وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من نقمة الله ، خلفه في
مجلسه اذا قام ثم قال :

انا والله يا معشر قريش : أحسن حديثا منه ، فهل الى : فأنا أحدثكم
أحسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار ، وكان
قد تعلم في فارس :

ثم يقول : بماذا محمد أحسن حديثا مني ؟

قال ابن هشام : وهو الذي قال فما بلغني : سأنزل مثل ما أنزل الله •

وكان ابن عباس يقول : نزل فيه ثمانى آيات من القرآن •

قول الله عز وجل : اذا تقلى عليه آياتنا ، قال أساطير الاولين •

وكل ما ذكر عن الأساطير في القرآن : وردت فيه •

فلما قال لهم النضر بن الحرث بعثوه وبعثوا معه : عقبة بن أبي معيط
الى أحبار يهود بالمدينة ، وقالوا لهما : سلامهم عنه ، وصفا لهم صفته ،
وأخبراهم بقوله ، فانهم أهل الكتاب وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء ،
فخرجوا حتى قدما المدينة •

فسألا أحبار اليهود : عن رسول الله ، ووصفا لهم أمره ، وأخبراهم ببعض قوله .

وقالا ، لهم : انكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا .

فقالا : لهما أحبار يهود : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن : فان أخبركم بهن فهو نبي مرسل ، وان لم يفعل : فالرجل مقتول ، فروا فيه رأيكم .

١ - سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول : ما كان أمرهم ؟ فانه كان لهم حديث عجيب .

٢ - وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها : ما كان نبأه ؟

٣ - وسلوه عن الروح : ما هي ؟

فان أخبركم بذلك فاتبعوه فانه نبي ، وان لم يفعل فهو رجل مقتول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم .

فأقبل النضر بن الحرث وعقبة بن أبي معيط حتى قدما مكة على قريش ، فقالا يا معشر قريش : قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد . قد أخبر أحبار يهود : ان نسأله عن أشياء أمرونا بها ، فان أخبركم عنها ، فهو نبي ، وان لم يفعل فالرجل مقتول فروا فيه رأيكم .

فجاءوا رسول الله .

فقالوا : يا محمد أخبرنا :

عن فتية ذهبوا في الدهر الأول : قد كانت لهم قصة عجب ؟

وعن رجل كان طوافا : قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ؟

وأخبرنا عن الروح : ما هي ؟

فقال لهم رسول الله : أخبركم بما سألتكم عنه غدا ، ولم يستثن ، فأنصرفوا عنه . فمكث رسول الله - فيما يذكرون - خمس عشرة ليلة ، لا يحدث الله في ذلك وحيا ، ولا يأتيه جبريل ، حتى أرجف أهل مكة فقالوا :

وعدنا محمد غدا ، واليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحنا منها لا نخبرنا بشيء مما سألناه عنه ، أحزن رسول الله مكث الوحي عنه وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة . ثم جاءه جبريل من الله : بسورة أصحاب الكهف ، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم ، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية ، والرجل الطواف والروح في سورة الاسراء .

رواية علاقة الرسول بحكمة لقمان :

دعا رسول الله سويد بن صامت الى الاسلام .
فقال له سويد : فلعل الذى معك مثل الذى معى .
فقال له رسول الله : وما الذى معك ؟
قال : مجلة لقمان (يعنى حكمة لقمان) .
فقال له رسول الله : اعرضها على : فعرضها عليه .
فقال له : ان هذا الكلام حسن ، والذى معى - افضل من هذا - قرآن أنزله الله على هو هدى ونور ، فتلا عليه رسول الله القرآن ودعاه الى الاسلام فلم يبعد منه .

وقال : ان هذا القول حسن ، ثم انصرف عنه .
فقدم المدينة على قومه فلم يلبث أن قتله الخزرج ، وقيل أسلم .
يظهر من المحاوره : يعنى مناقشة الرسول في مصدر القرآن :

- أن محمدا : أعلن اعلانا ذاع بين قومه ومسجلا في القرآن . انه لم يتلق علما من انسان ، وسمع ذلك النضر بنفسه ، وغيره ممن شك فيهم العرب : أنهم يعلمون الرسول . لم يعلن أى انسان منهم ، أو من اليهود ، أو من المسيحيين : أنه هو الذى يعلم الرسول فضلا عن أنه لم يدع أحد منهم ذلك .

- وكما تفيد الرواية أن النضر بن الحارث على ما كان يدعيه من علم تلقاه من مدرسة جنديسابور كان يعلمهم أخبار الفرس فقط .

- وسويد بن الصامت صاحب مجلة لقمان : سمع منه الرسول وقال له : هذا كلام حسن ، ثم أسمعته الرسول فقال له : ان هذا القول حسن . ولم يدع سويد أنه علم الرسول أو أن الرسول أخذ منه شيئا .

وأن اختيار اليهود له ، كان يعنى : اظهار علامات النبوة وهم أعلم الناس بها وبدلائلها ، وقالوا للنضر ان أفتاكم فهو نبي مرسل • واليهودية وهى دائما ضد الوثنية الرومانية أمدت الوثنية العربية بعد أن أفست فى جدلها مع الرسول بأسلحة ماضية لتختبره بها ، ثم تشاء ارادة الله أن تفتى الوثنية ومعها اليهودية بأسلحتها ويصير سفراء العرب الى دعاة رغم أنفسهم فيظهرون علامات النبوة •

علاقة القرآن بهما :

خلاصة القول : أن القرآن حدد موقفه من اليهودية والنصرانية على حد سواء •

أولا : من حيث المبدأ :

- اعترف بهما : ديننا سماويا ، وموسى وعيسى رسولين أوحى اليهما (١)
- حض على الايمان بهما : وأن ايمان المسلم لا يصح الا بهما وغيرهما من الرسل (٢) •

— وضح علاقة الاسلام بهما : أنهما تكميل وتتميم وتصحيح (٣)

— قام القرآن بما اشتمل عليه من التاريخ الدينى للرسالات السابقة

(١) قال تعالى . « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق بين أحد من رسله » . (البقرة ٢٨٥) •

(٢) قال تعالى . « قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » . « آل عمران ٨٤ » •

(٣) قال تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا اليك وما وحيينا به إبراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » (التورى ١٣) •
(م. ٨ — الفكر الدينى)

عليه : بنشر مضمون الكتب السابقة عليه ، مظهرا بذلك وحدة السلسلة
الدينية (١) .

ثانيا : من حيث التفصيل :

— أبدى ملاحظات أساسية عليهما منها :

— تنازعهم بعضهم بعضا :

قال تعالى : « وقالت اليهود : ليست النصراني على شيء ، وقالت
النصارى : ليست اليهود على شيء ، وهم يتلون الكتاب » (٢) .

— ففرقهم في العقيدة إلى فرق لكل فرقة كتابها :

قال تعالى : « ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في
شيء » (٣) .

(١) قال تعالى : « قل يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد
الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا اربابا من دون الله فان تولوا فقولوا
اشهدوا باننا مسلمون »
(آل عمران ٦٤)
وقال : « وقولوا آمنا بالذي انزل اليك واليهما والهكم واحد ونحن له
مسلمون » .
(العنكبوت ٤٦)
وقال : « ان هذا لى الصحف الاولى : صحف ابراهيم وموسى »
وقال : « قل للذين اتوا الكتاب والاميين اسلمتم فان اسلموا فقد اهتدوا ،
وان تولوا فانما عليك البلاغ » .
(آل عمران ٢٠)
ونسوق قولا لفيليب حتى يشهد على حسن معاملة الرسول لأهل الكتاب .
« وكانت الطبقة الثالثة تتألف من اهل الذمة وهم الذين قيل منهم على انه دين
منزل ، والمراد بين النصارى واليهود والصابئة ذلك ان الاسلام شملهم بالامان وصانهم
بالعهود والمواثيق » .
...
وقد اتاح النبي نفسه « انظر آيات سورة التوبة : ٢٩ والبقرة ، ٩٩ ، ١٠٣
وآل عمران ، ٦٢ — ٦٥ . الخ » . للنصارى واليهود هذا الوضع المسموح على اعتبار
انهم اهل الكتاب ، ومرد ذلك انما هو اجلال النبي للكتاب المقدس . انظر تاريخ سورية
ص ٦٨ ج ٢ .

(٢) البقرة : ١١٣

(٣) الانعام : ١٥٩

— اهمالهم للتوراة :

قال تعالى : « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا » (١) .

— تحريفهم لكتبهم المقدسة :

تحريف في العقيدة : « كقولهم المسيح ابن الله • وعزير ابن الله » (٢) .
تحريفهم مفهوم علاقة البشرية بالله الى بنوة له : قال تعالى « وقالت اليهود والنصارى : نحن أبناء الله وأخباؤه » (٣) .

— تحريفهم في شريعتهم :

قال تعالى : « وأخذهم الربا : وقد نهوا عنه ، وأكلهم أموال الناس بالباطل » (٤) . وفي القرآن الكثير عن قضية التحريف منها :
قال تعالى :

(أ) وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عتلوه وهم يعلمون (٥) .

(ب) يحرفون الكلم عن مواضعه .

(ج) وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون (٦) .

(د) ان الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا (٧) .

ثم بعد ذلك رسم القرآن للرسول الغاية النهائية من بيان ذلك قائلا :
« واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت : بما أنزل الله من كتاب وأمرت : لأعدل بينكم » (٨) .

(٢) من الانجيل
(٤) النساء : ١٦١
(٦) البقرة : ٤٦
(٨) الشورى : ١٥

(١) الجمعة : ٥
(٣) المائدة : ١٨
(٥) البقرة : ٧٥
(٧) البقرة : ١٧٤

لهذه الغاية النبيلة : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد
إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق » (١) .
نقد كان موقف أهل الكتاب من القرآن عجيبا :
فان وجدوا بعض ما في القرآن يتفق معهم قالوا : أخذه محمد من
الكتاب (٢) .

وان وجدوا روايات لا تنتمى الى كتبهم مع أنها خاصة بتاريخهم
قالوا هذا حديث مفترى (٣) .

(١) البقرة : ١٠٩

وفي عصرنا هذا أخرج يوسف الياس الحداد سلسلة دروس قرآنية :
(١) الانجيل والقرآن (ب) القرآن والكتاب ج ١
قال الأستاذ محمد عزه دروزه عنهما في كتابه (القرآن والمبشرون) وقد كتب
الخوري لكل من كتبه الاربعة مقدمة براهيه الظاهر وفيها دعوة الى التفاهم وتبادل الثقة بين
المسلمين والنصارى لانهم يدينون بدين كتابي متحد المصدر والمبادئ والاهداف . غير انه
حشا كتبه بأقوال وبيانات وروايات وتحليلات عن القرآن ومحتوياته ونظمه ولفته
وترتيبه وعن شخصية النبي وسيرته ورسالاته وصلتها بأهل الكتاب وتجديد أكثر باليهودية
والنصرانية وكتبها فيها الغريب العجيب المذهل من التخرص والتعسف والتجنى والمجازفة
وتحريف الكلام واللعب بالالفاظ وعدم التورع عن أقوال فيها افتراء وسوء أدب نحو القرآن
ورسوله وكتاب وحيه واصحابه الاولين وتابعيهم ونسبة الدس والزيادة في القرآن ص ٧٢٦ .
(٢) يقول فيليب حتى في كتابه تاريخ سورية ج ٢ ص ١٤٤ : ولقد كانت عقيدة
التوحيد ويوم الحساب من أروج المواضيع في الادب القرآني وفي الانجيل المرموزة والرسائل
الصوفية على السواء ثم يقول : حتى أنهم جعلوا الاسلام من وجوه عديدة وريفا للنصرانية
والسريانية .

(٣) يقول الاستاذ محمد عزه دروزه في كتابه القرآن والمبشرون ص ٣٩ : على أن
هناك أشياء كثيرة وردت في القرآن من هذه القصص ولم ترد في الاسفار المذكورة . ومنها
ماورد في القرآن والاسفار متغيرا في الجزئيات بل وفي الصور المهمة معا فليس في سفر
التكوين مثلا ما ورد في القرآن من أمر الله الملائكة بالسجود لادم وعصيان ابليس والموسوس
لادم وحواء في الجنة هو الحية في حين انه في القرآن ابليس . وليس في هذا السفر ما في
القرآن من قصص ابراهيم مع قومه وتخريب لاهناتهم ونظرة في النجوم وحجابه مع قومه
ومحاولتهم احراقه في النار واسكانه بعض ذريته عند بيت الله المحرم أي مكة واشتراك
ابراهيم واسماعيل في بناء الكعبة .

وليس في هذا السفر ما في القرآن من محاوره بين نوح وابنه الكافر وعدم ركوب
هذا في السفينة وغرقه ومحاوره نوح مع الله تعالى في ذلك . وليس في السفر ما في تنزيق
امراة العزيز قميص يوسف ولا كلام النسوة ودعوة امراة العزيز اياهن وتقطيعهن ايديهن .
وليس في أسفار الخروج والعدد وتثنية الاشتراع التي فيها موسى وفرعون وبنى اسرائيل

وإذا تقدمت الأبحاث وعلم الحفائر وأظهرت دلائل تؤيد روايات القرآن وتثبت لهم ما حرفوا في كتبهم بالزيادة أو الحذف ، وهذا ما قاله القرآن عنهم ، دعوا الى التقائهم وتبادل الثقة ما دما ندين بدين واحد ، من حيث المصدر والغاية (١) .

وحقيقة أن الدعوى الى التفاهم اشتدت في عصرنا ، ولكنها دعوى مغلوطة ، لأننا نؤمن بالمسيحية واليهودية وبالأديان السماوية مع الاسلام على حد سواء . فليس بين الاسلام وبين التوراة والانجيل : أزمة ثقة ، أما هم : فاننا نراهم يعانون أزمة الثقة بينهم كطوائف وبين اليهودية كدبن ، وهذا قديم تاريخيا ثم أخيرا بينهم جميعا وبين الاسلام أما نحن المسلمين فبراء منها لماذا ؟

لأن الدعوة طرحها القرآن — وما زالت مطروحة — وعليهم الاستجابة لها وبالتالي : فالمشكلة التي بيننا وبينهم هي في مدى قدرتهم على الاستجابة نحو الكلمة سواء (٢) .

بعد خروجهم من مصر وحياتهم في سيناء ما في القرآن من خبر سحرة فرعون والتفاف الثعبان لحبالهم ومصيدهم وسجودهم وإيمانهم ومحاورتهم مع فرعون وغرق فرعون وجنوده حينما خرجوا لمطاردة بنى اسرائيل . والقرآن يذكر أن الشخص الثاني الذي أراد موسى أن يبطش به هو عدو في حين أن سفر الخروج يذكر أنه عبراني . قال الاستاذ دروزه : ونحن نعتقد أن ما ورد في القرآن ولم يرد في الأسفار المتداولة أو ورد فيها مبينا لما ورد فيه قد ورد في أسفار أخرى كانت متداولة بين أيدي اليهود لم يصل إلينا وهذه ظاهرة تثبتها الأسفار المتداولة التي ورد فيها أسماء عديدة ليست بين الأسفار المتداولة « . (١) وعجبنا عندما وقف البابا شنودة : ونادى بدعوة التعاون بين الأديان السماوية ثم ذكر شخصيات اسلامية تاريخية ولم يذكر الرسول فهل بذلك صدق مع نفسه أو صدق مع دعواه ؟ أو نقض بنفسه وفي نفس دعواه ما دعاه اليه ؟

(٢) أما من موانع التفاهم فهي كما ذكرها الامام عبد الحليم محمود ردا على رسالة كان قد بعث بها اليه د . ميغل دى ايبالنا سكرتير عام الصداقة الاسلامية المسيحية — مدريد — اسبانيا والرسالتان كما يلي :

السيد المحترم صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر شيخ الجامع الأزهر .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد :

نيسر جمعية الصداقة الاسلامية المسيحية في مدريد أن تتوجه الى فضيلتكم لتشرى باخباركم بما استقر عليه الرأي من انعقاد مؤتمر قرطبة العالي المسيحي الثالث خلال عام ١٩٧٩ . ان شاء الله وقد رأت ادارة الجمعية اختيار موضوع محمد وعيسى ملهمين للقيم =

.....

== الاجتماعية المعاصرة ليكون محور اللقاء الاسلامى المسيحى المقبل . والمقصود أن يشرح المسلمون كيف يعبر النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه القيم المعاصرة بالنسبة لاسلمى اليوم سواء برسائله وعقيدته ودعوته . أو بشخصيته وسلوكه ونفسيته المثالية . بينما يشرح المسيحيون كيف يعبر عيسى عليه السلام عن القيم الاجتماعية نفسها عند مسيحى اليوم .. ورغبنا أن يدرس هذا الموضوع مجموعة ممن يعيشون في مجتمع متكامل يلبض بالمودة والولاء . وان اختلفت عقائد مواطنيه وتنوعت أديانهم .

وسوف يتولى عملية تنظيم واعداد المؤتمر من الجانب المسيحى الكليات المتخصصة في علوم اللاهوت نذكر منها بصنة خاصة كلية اللاهوت بهدريد . والجامعة البابوية في روما .. وبعد الموضوع — بمشية الله — من الجانب الاسلامى الجامعات المتخصصة في بعض البلدان الاسلامية . ومؤسسات اسلامية وشخصيات مسلمة ، مستوى في ذلك من يعيشون داخل اسبانيا ومن يقيمون خارجها .

ونعتقد أنه من الممكن دراسة رؤوس الموضوعات التالية في نطاق الموضوع العام للملتقى وهى : الحرية والعدالة والمساواة في مختلف مظاهرها وجوانبها المتعددة في هذا الدين أو ذاك . ولا يعنى هذا — بطبيعة الحال — أن هذه هى الكلمة النهائية ، على العكس نحن نتوجه اليكم منذ الآن وفي لحظة نشأة الفكرة آمليين أن تثروا الموضوع بمسا تقترحونه وأن تفضلوا باضافة ما ترونه مفيدا ونافعا ، ولسنا نشك أنكم ستزودونا بسديد الراى وصائبه — باذن الله . نأتم ادرى بهذا الحقل منا ، ولكم في هذا الميدان خبرة قد لا تتوافر للكثيرين بحكم احتكاكم بالمجتمعات ، وحبوبكم في القارات المختلفة . وقد سبق أن شرفتمونا حين تفضلتم بايجاد وفد مثل بلادكم في مؤتمر قرطبة الاسلامى المسيحى الاول الذى عقد في عام ١٩٧٤ م .

وما نبغيه في هذه الرحلة — مرحلة الاعداد والدراسة — هو النصيحة وتبادل الراى ، الاستفادة بالمشورة دون الزام أو التزام بحضور المؤتمر . وسوف نتصل بكم في مرحلة أخرى ان شاء الله من أجل توجيه الدعوة لحضور جلسات الملتقى نفسه اذا رغبتم في ذلك .

في انتظار كريم ردكم نرجو أن تتقبلوا خالص تحياتنا وأطيب أمثياتنا بالصحة والسعادة .

وسلام الله عليكم وتحياته وزحمته وبركاته ..

سكرتير عام جمعية الصداقة الاسلامية المسيحية

(امضاء)

دكتور : ميغيل دى أيبالنا مدريد أبريل ١٩٧٨ م

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد المحترم د . ميغيل دى أيبالنا

تحية طيبة وبعد :

فقد وصلنى خطابكم المؤرخ : أبريل ١٩٧٨ م

== وانى أشكر لكم هذه الرغبة في التفاهم بين المسلمين والمسيحيين واثراء الفكر المعاصر بالحلول التى أوحاها الله تعالى الى محمد وعيسى صلى الله عليهما وسلم . وذلك فيما يتعلق بالمشاكل المعاصرة .

وقد وصلنى أخبار المؤتمرين السابقين .

واحب ان انبه ، في مودة ، ومن أجل تفاهم عميق الى بعض الامور :

١ - ان الاسلام - منذ ان بدأ - خالف الجو العالمى : اليهودى الوثى ... في امر عيسى عليه السلام . لقد أعلن الاسلام مباشرة تقديره واحترامه لعيسى وأمه . وأما عيسى عليه السلام فهو وجيه في الدنيا والاخرة وأما أمه فهى صديقه . نبوة عيسى عليه السلام جزء من ايمان المسلم . وبراءة أمه وطهرها جزء من ايمان المسلم ولم يقف الاسلام من عيسى عليه السلام ومن أمه موقف اليهود الذين ما زالوا على موقفهم الى الان من عيسى وأمه . لقد افتروا - وما زالوا - على عيسى وعلى أمه ورموها ببهتان شنيع .. أما الاسلام فانه مجدهما وما زال مستمرا في تمجيده لهما .

فماذا لقى المسلمون من المسيحيين في مقابل ذلك ؟

٢ - انه لابد من الاعتراف بالدين الاسلامى وبرسوله حتى ينال المسلمون في اوربا ما يناله اليهود من الاعتراف بأعيادهم وبشعائهم . . . وانه لا يتأتى التفاهم بين اتباع رسول يحترمه المسلمون هو عيسى عليه السلام واتباع رسول لا يعترف به المسيحيون وهو محمد صلى الله عليه وسلم .

٣ - ان المسلمين والمسيحيين يعملون على مقاومة الانحراف والانحلال والمادية والاحاد وكان يجب ان يسيرا في خط متعاون متساند ضد التيارات المنحرفة .. ولكن للأسف - يسير المسيحيون في طريق تنصير المسلمين بقوة : فهم يعملون ليل نهار على أن ينصروا المسلمين في كل مكان في العالم . وكل الدول الغربية وأمريكا ترسل ارساليات لتنصير المسلمين بأسلوب مكشوف واضح أو بأسلوب خفى مستور ، ويضيق المسلمون بذلك ضيقا شديدا . ورغم ذلك نان ملايين الجنيهات تنفق في سعة للتنصير بكل الطرق .

ومما هو ملاحظ أن الدول الاسلامية ليس لها ارساليات تشرية .. وقد أرسل المسيح عليه السلام لهداية خراف بنى اسرائيل الضالة . ومع ذلك فان المسيحيين تركوا بنى اسرائيل الضالة واخذوا يعملون على تنصير المسلمين .. تساعدتهم الثروة . وتساعدتهم وسائل الحضارة الحديثة .

ولو، حصروا نشاطهم على تنصير الوثنيين لما اثار ذلك ضيق المسلمين الشديد وكراهيتهم للأسلوب ولوضوح التنصير نفسه .

٤ - والمسلمون اقلية في بعض الاقطار المسيحية مثل الفلبين . وهذه الاقلية المسلمة ينكل بها باسم المسيحية : تؤخذ أرضها ويتم أطفالها وتترمل نساؤها . ولا تجد الا ارضاحا في نفوس الاغلبية المسيحية .. ونحب أن ينتهى التنكيل بالمسلمين في الاقطار التى بها الاغلبية المسيحية : نحن نحب أن ينتهى ذلك : انسانيا ونحب أن ينتهى ذلك دينيا : وغيرها هناك أسلوبان للحديث :

٥ - وفي المؤتمرات التى تعقد في اسبانيا وغيرها هناك أسلوبان للحديث .

(١) التزام العقل . وهنا يتحلل المسلمون من مبادئ دينهم ليتناولون المسيح عليه السلام وأمه بالاسلوب العقلى فيكون موقفهم منها موقف اليهود : يقولون على مريم وعلى ابنها ما يضيق به المسيحيون ضيقا شديدا . ويقولون على المسيحية نفسها ما يضيق به المسيحيون ضيقا شديدا .

ولكن المسلمين في هذه المؤتمرات يتبعون مبادئ دينهم فيحترمون المسيح عليه السلام ==

بيد أن موقفهم السيكولوجي ما زال كما قرره القرآن في قوله :
 « ود كثير من أهل الكتاب : لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسداً ،
 من عند أنفسهم » .

فالحرب الصليبية — وهي تعتبر أول غزو مسلح ذي شكل ديني قامت
 به أوروبا لغزو الإسلام في داره — وضعت هدفها الظاهر الدعوة التبشيرية
 للمسيحية كما هو واضح في اسمها — وفي حقيقة الأمر : كانت أطماعاً في
 لجن الشرق وعسله — والدعوة التبشيرية لمن ؟ للإسلام . وتلك دعوة في ظاهرها
 مغلوطة فضلاً عن رفضها من حيث البدأ من عدة جوانب : لأن الإسلام كدين
 يعترف بالأديان السماوية ويعتبر الإسلام نفسه أنه مكمل لها ، وعلى هذه
 الأديان أن تعاود دراسة تلك العلاقة التي قررها الإسلام . ومن حث
 الإسلام ، كدولة ذات سيادة ، فإنها تعترف بالدين المسيحي وتحترم المسيحية ،
 فغزو أوروبا لحمل دولة الإسلام على الاعتراف بالدين السماوي غير وارد .

== واه . . أما المسيحيون فإن البعض منهم لا يبالي فيتحدث من رسول الإسلام بما يشق به
 المسلمون : فلا تكون هذه المؤتمرات وسائل تفاهم ، وإنما تكون وسائل تناثر ، وذلك كما
 حدث في المؤتمرات السابقين من بعض المسيحيين .

(ب) التزام ما تملبه روح التفاهم : فلا يساء إلى المسلمين في مقدساتهم .
 ٦. — واجب أن أقول أن الإسلام هو العامل الأكبر في تثبيت المسيحية حين اعترف
 السلام ، احترام أمه عليها السلام . . .
 فماذا قدم المسيحيون ؟ لا شيء ! !
 بل على العكس من ذلك لقد هاجموا وما زالوا يهاجمون رسول الإسلام ومبادئ الإسلام
 فهل يمكن مع ذلك التفاهم ؟

٧. — وأحب أن أقول أن الإسلام هو العامل الأكبر في تثبيت المسيحية حين اعترف
 بوجود المسيح عليه السلام وحين برأ أمه . ومع ذلك فقد قوبل بجحود لا مثل له وما زال
 يقابل بهذا الجحود من المسيحيين على أكبر خدمة أدب للمسيح عليه السلام .
 وبعد فإني أحب صادقاً أن نتعاون في صد كل انحراف . . وأحب أن أقول أنه لولا
 تقديري لكم لما كتبت لكم هذا . وأنتي يسرنى أن أقرأ لكم .
 سأحدث اليكم عن رأيي في موضوع المؤتمر في المستقبل إن شاء الله .
 ولكم تحيتي وتقديري . . .

« د . عبد الحليم محمود » شيخ الأزهر

نشر في مجلة الأزهر — الجزء الثالث — السنة الخمسون .

رجب ١٣٩٨ هـ الموافق يونيو ١٩٧٨ م .

وأما من ناحية علاقة الاسلام - من كونه ديناً ودولة - بالأقليات الدينية فإن حقوقهم قد كفها لهم الاسلام وباتوا اخوة مع المسلمين فغزاهم لتأمين هذه الأقليات غير وارد أيضاً كاسباب لغزو مسلح .

لذلك قلنا أن الصليبية حملت الصليب رمزا للتعذيب ، ولم ترفع الكتاب رمزا للحب والسلام .

وفي النهاية يقول كارلو نلينو (١) : التشريع عند النصارى عمل بشرى ليس له ارتباط متين بأقوال الانجيل ، أما التشريع في الاسلام فلا يتصور الا كفرع من العلوم النقلية الدينية ، أصوله في القرآن ، والسنة ، والاجماع .

فلهذا السبب أيضاً تنطوى كتب الفقه الاسلامية على العبادات التي لا مكان لها في فقه الأمم النصرانية وكفى ذلك برهاناً على عظيم شأن القرآن في الهيئة الاجتماعية الاسلامية ودخول أحكامه في أمور دنيوية فقط عند النصارى — ص ٩٩ .

ومما ذكرته كتب التاريخ الاسلامي عن علاقة المسلمين بالمسيحيين - وفق التوجيه النبوي .

ما ذكره ابن سعد في طبقاته عن كتبه ورسائله الى الأساقفة وديار المسيحية في العرب وما أوصى به سفراءه : يذكر ابن سعد فيروى :

وكتب رسول الله لأسقف بنى الحارث بن كعب وأساقفة نجران وكهنتهم ومن تبعهم ورهبانهم أن لهم على ما تحت أيديهم من قليل وكثير من بيعهم وصلواتهم ورهبانيتهم وجوار الله ورسوله لا يغير أسقف عن أسقفيته ولا راهب عن رهبانيته ولا كاهن عن كهنوته ولا يغير حق من حقوقهم ولا سلطانهم ولا شيء مما كانوا عليه ما نصحوا أو أصلحوا فيما عليهم غير مثقلين بظلم ولا ظالمين (٢) .

(١) تاريخ الاداب العربية - كارلو نلينو ط ٢ - دار المعارف .

(٢) طبقات بن سعد ج ١ ص ٢٦٦

وكتب الى ضباط الأسقف :

سلام على من آمن أما على أثر ذلك فان عيسى بن مريم روح الله وكأمة
 ألقاها الى مريم الزكية واني أومن بالله وما أنزلنا اليها وما أنزل الى ابراهيم
 واسماعيل ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من
 ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون والسلام على من اتبع الهدى ..
 وفي بعض كتبه لأهل نجران يقول صلى الله عليه وسلم : وانجران
 وحاشيتهم جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على انفسهم وملتهم
 وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وبيعهم وصلواتهم لا يغير أسقفا عن
 أسقفيته ولا راهبا عن رهبانيته ولا واقفا عن وقفانيته وكل ما تحت أيديهم
 من قاييل أو كثير وليس ربا ولا دم جاهلية وهن سأل منهم حقا فبينهم النصف
 غير ظالمين ولا مظلومين ..

الى ان قال : وعلى ما في هذه الصحيفة جوار الله وذمة النبي أبدا حتى
 يأتي الله بأمر ان نصحو وأصاحوا فيما عليهم غير مثقلين بظلم .. (١)

البَاب الثالث

الصابئة والجوسية

✱ تاريخ الصابئة

✱ الصابئة في جزيرة العرب

✱ أقسامها

✱ أصول فكرها

تاريخ الصابئة وجغرافيتها الفكرية :

من المال والنحل التي تحدث عنها القرآن - وهو يذكر الأديان والمال :
الصابئة ، والصابئة من المال التي أثار القرآن بعض قضاياها ، وعرض لها
بالنقاش والجدل في أكثر من موضع ، وكان من أهمها : « بشرية الرسول » .
كذلك عرض لها : حين عرض لمقابلها وهو الحنيفية ملة إبراهيم الكبرى
كما وصفها القرآن ، فالصبوة - كما يذكرها المؤرخون للأديان - في مقابلة
الحنيفية (١) .

فمن الناحية التاريخية : الصابئة سابقة على الحنيفية التي جاءت
مجادلة ومناقضة لها ، يقول الشهرستاني :
وكانت الفرق في زمان إبراهيم راجعة الى صنفين اثنين :

— الصابئة .

— الحنفاء .

فإن كان هذا النص يفيد : أن الفرقتين متساويتان في النشأة التاريخية
فنرى أن هناك من النصوص التي ذكرها الشهرستان : ما تصرح بأسبقية
الفكر الصبائي على الدين الحنفي ، وذلك حينما : رد فكرهم - بتصريحهم -
الى « عاذيمون » و « هرمس » ورد الحنيفية الى رأس الحنفاء «إبراهيم» (٢) .
والصابئة كذلك : أقدم من المجوسية ، التي تتردد في نشاطها الى
«زراشت» (٣) الذي ظهر في ملك «بختنصر» الذي جاء بعد «النيروز» بكثير
وهو الذي أرسل اليه نبي الله إبراهيم على بعض الروايات التاريخية .
من هنا كانت الصابئة من أقدم المذاهب فكرا .

(١) المال والنحل ص ٦ ج ١ للشهرستاني المتوفي ٥٤٨ هـ تخريج د / محمد بن فتح الله
بدران ، الاتجلو ج ١ ، ٢ . وفتح الباري لابن حجر المتوفي سنة ١٨١ ج ١٠ عن أبي بكر
الرازي قال : وهم الذين بعث اليهم إبراهيم . والنيسابوري في تفسيره على هامش الطبري
المسمى غرائب القرآن وغرائب الفرقان ص ٢٠١ قال : الذين جاءهم إبراهيم .

(٢) الشهرستاني ص ١٠ ج ١ .

(٣) مروج الذهب للمسعودي ص ١٧١ ج ١ - دار الشعب المتوفي سنة ٣٤٦ .

يروى الطبرى : أنهم كانوا بجزيرة « الموصل » (١) ويؤكد هذا النقل المسعودي فيقول : وديارهم بين : بلاد واسط ، والبصرة من أرض العراق (٢) . وينقل ابن حجر : كان أهل بابل قوما صابئين (٣) .

ويقول النيسابورى : وينسب هذا المذهب الى الكلدانيين (٤) . ويتوسع الشهرستاني فيجعلها تشمل : النبط — الفرس — الروم — الهند (٥) . فهذا المذهب كان واسع الانتشار الجغرافى ، وأمه من الأمم الكبار . وقد اختلف فيه اختلافا كثيرا بحسب ما وصل اليهم من معرفة هذا المذهب . ويفيد نسل الشهرستاني : أنه شمل دولا من الشرق ، ودولا من الغرب .

والنقل السابقة — عدا توسع الشهرستاني — تفيد : أن هذا المذهب نشأ فى بلاد شرقية ، وكانت الدول التى تميزت وتفردت بالسيادة فى الشرق هى دولة الفرس .

ودولة الفرس : هى التى حكمت تلك المناطق الجغرافية التى ذكرها الرواة والدولة الرومانية تارة أخرى . فالفرس أخذت الملك من البابليين ، كذلك العراق كانت تحكم تحت حكم ملوك الفرس الأولى ، والثانية .

ويقول المسعودى : وان أنهار العراق احتفرت فى عهدهم آخذة من الفرات (٦) فيكون أول الصابئة ظهر فى إحدى ولايات دولة الفرس .

يتابع ويقول : ظهر فى ملك « ظهمورث » — من ملوك الفرس الأولى — رجل وفد من الهند ، يقال له : « يوداسف » أحدث مذاهب الصابئة (٧) .

(١) تفسير جامع البيان فى تفسير القرآن للطبرى المتوفى سنة ٣١٠ ص ٢٥٢ ج ١ ط الاميرية .

(٢) مروج الذهب نفس الصفحة .

(٣) فتح البارى ص ١٨١ ج ١٠ .

(٤) تفسيره السابق ج ١ ص ٤٠٣ .

(٥) الملل والنحل ص ٢١٠ ج ١ .

(٦) مروج الذهب ص ١٦٥ ج ١ .

(٧) نفس المرجع ص ١٨٨ ج ١ .

ويقال أن هذا الرجل : أول من أظهر آراء الصابئة من الحرائيين والكيمايين .

وهذا النوع من الصابئة مباين للحرائيين في نحلته القديمة .

وقول المسعودي يفيد : أن نشأتها الأولى في حران ، وما ينسب لبوداسف هو أنه أظهر آراءهم القديمة ، ونرجع ظهور نشاطها بين ملوك فارس الأولى لميولهم الدينية ، فورد في وصايا أردشير لابن سابور :

يا بنى : إن الدين والملك : أخوان ، لا غنى لواحد منهما عن صاحبه ، فالدين أس الملك ، والملك حارسه ، وما لم يكن له أس : فمهدوم ، وما لم يكن له حارس : فضائع .

كذلك من ينظر في موضوعات عبادتها : يجد بينها وبين اهتمامات الدولة الفارسية شجها كبيرا ، فالمسعودي تحدث عن أعمال ملوك فارس الأولى قائلا :
وتكلم هؤلاء القوم في مراتب الألوان : من الحمرة ، والسواد ، ومراتب الأنوار : وما وراء ذلك من أسرار الطبيعة .

ثم قال : وتدخل القوم في هذه المعاني : إلى ما علا من الأجسام السماوية من النيرين والأفلاك واختلافها في ألوانها وإلى غير ذلك من الأشخاص العلوية .

هذا التسطيح الفكري : قابل لأن يجعل منه « بوداسف » مظاهر العبادة ميتول : إن معالي الشرف الكامل ، والصالح الشامل ، ومعدن الحياة في هذا السقف المرفوع ، وفي النجوم السيارة ، وفي أفلاكها : التسدير الأكبر (١) .

وفي المناظرة التي أوردها الشهرستاني في كتاب المل والنحل : ما يفيد أن صاحبها الأول « هرمس » ، « وعاذيمون » لكن بعد انتهاء المناظرة استبعد (٢) الشهرستاني : أن يكون « هرمس من الصابئة » .

(١) نفس المرجع ص ٦٩ ج ١ .

(٢) يقول : وكان في الخاطر بعد : زوايا ، نريد نملها ، وفي القلم خبايا : أكاد أخفيها ، بعدلت عنها : إلى ذكر « حكم هرمس العظيم » لا على أنه من جملة نرق الصابئة ، حاشاه ، على أن حكمته تدل على تقرير مذهب الحنفاء « ص ٤٦ ج ٢ .

وربما يقصد الشهرستاني من ففيه عن « هرمس » : أن يكون من الصابئة ، يقصد ذلك النوع الذي نص عليه المسعودي — وهو متقدم على الشهرستاني — : الذي ينسبه الى « بوداسف » الهندي الذي أظهر نوعا معيناً من « الصابئة » هذا النوع من الكيماريين .

ويبدو أن « بوداسف » الهندي أظهر نوعاً معيناً من الصابئة « هذا النوع من الصابئة مباين للحرانيين في نحلته » كما يروى المسعودي .

وفي نظرنا : يمكن أن ينصرف استبعاد الشهرستاني لـ « هرمس » أن يكون من الصابئة أي هذا النوع الذي أظهره « بوداسف » وهذا النوع الذي أظهره . هو الخاص بعبادة الكواكب .

ويؤكد احتمالنا ما رواه ابن النديم عن الكندي أنه قال : أنه نظر في كتاب يقربه هؤلاء القوم : وهو مقالات « لهرمس » في التوحيد كتبها لابنه علي، غاية من التقانة في التوحيد ، لا يجد الفيلسوف إذا أتعب نفسه مندوحة عنها والقول بها (١) .

فهرمس يعتبر مؤسس مذهب التوحيد : في الصابئة و « بوداسف » أحدث الوثنية : في التوحيد .

وعلى ذلك يكون « هرمس » و « عاذيمون » أوجدا الصابئة الأولى : التي تدعو الى الروحانية ، و « بوداسف » أحدث مذاهب عبادة الكواكب وذلك ما تقرره مصادر الاسلاميين (٢) .

وسواء أكانت الصابئة الأولى — تعبير الشهرستاني — أم صابئة بوداسف تعبير المسعودي : فانهما معا ثبت فكرهما في الشرق في بعض المناطق العربية في بلاد الرافدين .

يقول صاحب بلوغ الأرب (٣) : والصابئة قوم ابراهيم : كانوا بحران، فهي دار الصابئة الأولى وكانوا قسمين :

(١) الفهرست لابن النديم المتوفي ٣٨٥ هـ ص ٤٤٥ المكتب التجاري .

(٢) يقول ابن حجر في فتح الباري ج ١ ص ٣٧ رواية عن غيره : هم منسوبون الى

صابي بن متوشلخ عم نوح وهذا رأى ثالث يذهب بها بعيد الى نوح .

(٣) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ص ٢٤ ج ٢ السيد محمود شكري اللوسى

البغدادى سنة ١٢٧ هـ بنشره محمد بهجة الاثرى ج ٢١ سنة ١٩٤٢ .

— صابئة حنفاء •

— صابئة مشركون (١) •

قال ابن حزم : وكان الذى ينتحله الصابئون أقدم الأديان على وجه الأرض والغالب على الدنيا ويقول : وهم المكذبون بنبوذة ابراهيم (٢) •

انتقالها الى جزيرة العرب :

ولما كانت صلة جزيرة العرب بالفرس قديمة ، من حيث متاخمة الحدود والعلاقات السياسية ، فانه لمن المنتظر : أن نرى انتقالا فكريا ، يتناسب مع طبيعة عقل البدوى ، وهذه العلاقات قديمة ، حتى قيل : أن من ملوك الفرس الأولى من عرب الضحاك (اسمه : بيوراسب) ، وزعموا أنه من اليمن قال الشاعر العربى :

وكان من الضحاك تعبده الـ جامل والوحش فى مساربها (٣)
ويذكر المسعودى : أن الناس تنازعوا فى ملوك الطوائف أمن الفرس كانوا ، أم من النبط ؟ أم من العرب ؟

وكانت ملوك العرب من مضر بن نزار بن معد من اليمن •

وقد قيل أن أول من نزل من الملوك ببلخ وانتقل عن العراق « يكادوس »
وقد كان سار نحو اليمن بعد أن كان له بالعراق — تمرد على الله — ببنيان
بناه لحرب السماء •

وملك اليمن الذى سار اليه « كيكاووس » فى ذلك الوقت « شموين
فريقس » •

- (١) يقول مهر بن الخطاب عندما سأله نعيم بن عبد الله : أين تريد يا عمر ؟ فقال :
أريد محمدا : هذا الصابئ الذى نرق أمر تريش •
قال جميل : يا معشر تريش قد صبا مهر ؟
رد عليه مهر : كذبت ولكنى أسلمت وشهدت أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده
ورسوله • يراجع بن هشام ص ٢١٦ •
(٢) الفصل لابن حزم ج ١ ص ١٠٢ •
(٣) الجامل : جماعة الجمال •

(م ٩ — الفكر الدينى)

قال المسعودي :

« وقد كانت أسلاف الفرس تقصد البيت الحرام وتطوف به تعظيماً له » .

وكان آخر من حج منهم — الفرس الأولى — « ساسان » و « ساسان ابن بك » أهدى غزالتين من ذهب وجواهر قذفها في زمزم .

قال المسعودي : وقد ذهب قوم من مصنفى الكتب فى التواريخ وغيرها من السير أن ذلك كان لجرهم حين كانت بمكة (١) .

قال معلقاً : وجرهم لم تكن ذات مال فيضاف لها .

فمناخمة الجزيرة لتخوم الفرس ، وعلاقاتها بها من الناحية الاقتصادية والسياسية ورحلات العرب التجارية : صيفا وشتاء ، تحدث عنها القرآن فقال :

لا يلاف قريش أيلافهم رحلة الشتاء والصيف . . . السورة .

يفيد أنه كما تبولت السلع التجارية بين العرب وجيرانهم ، تبادلوا معهم افرازات العقول والآراء على قدر ما لهم من حظ العقل ونصيب من الفكر والرأى .

وهذا طريق طبيعى لروافد انتقال الآراء الفكرية لى أمة من الأمم ، وأمة العرب ليست بدعا فى ذلك .

فاتصالات العرب التجارية بالعراق والشام زودت فى العرب خبرة النفل التجارى والفكرى . بيد أن الشهور الطوال التى كان يضربها بابله عبر الصحراء ظلت من اهتماماته الفكرية فكان حظه من النقل الثقافى يبدو متواضعا، بل وساذجا ، لا يتكافأ مع نقله التجارى . كذلك ميلهم الى الشعر يجعلهم يتأون عن استبطان الأمور . ومع ذلك يمكن أن نقول : من عذا الاهتمام الضئيل بالمعرفة انتقلت ألوان شاحبة من الصائبة الى الجزيرة العربية .

(١) المسعودي : مروج الذهب ص ١٦٦ — ١ عن كتاب « المسككين » ترجمة : عبدالله بن المقفع من الفارسية الاولى ذكره المسعودي واخذ منه النص السابق وقال منه : الكتاب تعظمه الفرس لما قد تضمنه من خبر أسلافهم .

فلم يتفرغ دارس من العرب لحراستها انما نقل منها شوائب الم بها
العربى : من تاجر عامله معاملة الصائبة ، فاذا أعجبته نقلها ، وان عافها
نبذها من غير سؤال عنها في الحالين . ينقل الشهرستاني « ان لهم حدودا
وأحكاما » أى أن للصائبة شريعة عملية وذات كيان فكري وان صح ما قلناه
تكون انتقلت الى جزيرة العرب اسما من غير مضمون فكري لان استعمالها
في اللسان العربى جعلها بمعنى : مال أو خرج ، أو طلع ، وليست اسما لمذهب
فهو لفظ أطلقه العرب على خوارج الجاهلية ، أى الذين خرجوا عن دين
الجاهلية ، وعلى كل من استحدث دينا غير دينه . وهم الذين أطلق عليهم
صائبة الحنفاء . هذا الاطلاق في حد ذاته يرشح رأينا أنها انتقلت اليهم
من غير مضمون فكري .

أو يكون المذهب الصبأى انتقل بمضمونه الفكرى منذ رحلة ابراهيم
واسماعيل . ونحن نعلم : أن ابراهيم واسماعيل استوطنوا الجزيرة العربية .

هذا الفرض له من آيات القرآن ما يؤيده .

منها ما ورد في سورة ابراهيم : قال تعالى : « واذا قال ابراهيم رب
اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني أن نعبد الأصنام . رب انهن أضللن
كثيرا من الناس فمن اتبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم .

ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم : ربنا
ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات
لعلهم يشكرون » (١) .

ومنها ما ورد في سورة البقرة في قوله تعالى : واذيرفع ابراهيم القواعد
من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا . . . الآية .

كذلك ذكر القرآن الكثير من مجادلات ابراهيم للصائبة .

وهناك جانب آخر ذكره أنتونى ننتج (٢) ، أنه خلال فترة قصيرة حكم
الكلدانىون الشام وبلاد شبه جزيرة العرب وجنوب تركيا خلفا للأشوريين .

(١) سورة ابراهيم الا ٢٧ .

(٢) يراجع : العرب ص ٦ ترجمة : د . راشد البراوى ، الناشر الانجلو المصرية .

ومع هذا تكون الصابئة دخلت الجزيرة العربية منذ نبى الله ابراهيم واسماعيل بمضمون فكرى غير أنها على هذا الفرض ، دخلت مقابلة للحنيفية وبناء على هذا جعل القرآن - والعرب قبله - كل من يقابل الحنيفية صابئاً .

فمن يوم أن دخل مذهب الصابئة العقدى شبه الجزيرة العربية دخل مضطهدا تحدوه لعنات نبى الله ابراهيم أبى الأنبياء . وبهذا نستطيع أن نفسر عدم انتشاره فى الجزيرة العربية . كذلك نستطيع أن نفسر اضطهاد الذين اعتنقوه لأنهم كانوا فى عرف الجاهلية : خارجين عن دين الجماعة .

وعندما جاء الاسلام : أكد نبذ هذا المذهب ، ولما لم يكن له كتاب يحمل مكوناته الفكرية ، فقد ضاع ولم يبق منه سوى : مسائل وقضايا عرض لها القرآن .

بسبب كل ذلك تعرض المذهب الصابئ لوسائل الضياع المتعددة الكفيلة بمحوه : من عدم كتاب له ومن اضطهاد ومكافحة الى نبذ معتنقيه ، كل ذلك لازم المذهب الصابئ منذ دعوة نبى الله ابراهيم . والاسلام عندما عرض لها مناقشا كان ذلك منه لخطورة قضاياها الدينية وأهمها :

منعهم : أن يكون النبى وسيطا يبلغ عن الاله لأنه بشر وأحلوا دحله فى الوساطة « النيرات » ثم عبدوها .

والاسلام اذ يعرض لها بالنقد الجدلى ، لا يستقى معلوماته من صحف ابراهيم ، فانها لم تكن موجودة لدى العرب ، ولا يستقيها من مصادر أصحابها ، لأنهم لم يكونوا على علم كامل بها ، انما ذكرها له الوحي من حيث قضاياها الفكرية التى قد يثيرها العقل الانسانى ، ويحبب له الجدل فيها . فما أثار القرآن من قضايا حولها كانت تهم الصابئة الأولى والصابئة الأخرى وذلك ما لم يتح للعربى الاضطلاع به أو الاطلاع عليه . ففكر القرآن عن الصابئة كان وحيا لكونه أوسع مما كان يعرفه العرب عنها بل وأوسع مما يعرفه الصابئ العربى وغيره عن مذهبهم ، وفى هذا ما يؤكد : أن فكر القرآن عن

الأدبان كان فكرا عالميا ، أى يهتم النوع الانسانى المفكر ، دون نظر منه الى مكونات العرب الفكرية خاصة .

وفي القرآن آيات تدل على أن عبادة الكواكب دخلت اليمن كما قصتها علينا سورة الفمل :

قال تعالى : وتفتقد الطير :

فتال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ؟

لأعذبته عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتنى بسلطان مبين .

فمكث غير بعيد فقال : أحطت بما لم تحط به وجئتكم من سبأ نبأ يقين .

انى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم .

وجئتها وقومها : يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان

أعمالهم فصدحهم عن السبيل فهم لا يهتدون .

الا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون

وما تعلنون ٠٠٠ آيات ٢٠ - ٢٥ .

وفي هذا يقول البلخى فى كتاب البدء والتاريخ : من قبائل الصابئة :

سبأ الحميرية أول من دان بها من العرب : يعبدون الشمس .

وكذانة : تعبد القمر .

وجرهم : المشتري .

قريش : عبدوا الشعري « الشعري اليمانية » .

فقد ساد فى جنوب الجزيرة العربية ثالث من الكواكب — وفى أرض

الرافدين منشأ الصابئة :

— اله نجمة الصباح :

هو عشتار : لدى البابليين والآشوريين .

وعشترت : لدى الكنعانيين .

— اله القر : هو ود : عند المعينيين .

والمقد : عند السبئيين .

وعم : فى قتبسان .

وسين : فى حضرموت .

— اله الشمس : اسمه في قتيان ، وحضرموت : شمس • وشمش : في رصى
الرافدين •

فهذه الصلات تؤيد أن كثيرا من العناصر الدينية في الشعوب السامية
كان يتوقف بعضها على بعض (١) •
ولعل في تسميتهم : بعبد شمس ، وعبد اللات ، وعبد الشعرى ، ما يفيد
عبادتهم للكواكب •

انبحثت مظاهر الصابئية في الوثنية العربية فارتفعت من مظاهر مادية
في الأرض الى عبادة النيرات أو أفلاكها في السماء ، فالذهب الصبأى أثر كثيرا
في الوثنية العربية . ورضى العربى أن يأخذ منه ما يعدل به وثنيته • ففي
وثنيته الكثير من العناصر الصبئية مثل عبادة الأفلاك ، والحنيفية مثل
الكعبة ، والوثنية اليونانية مثل عبادة التماثيل ، فخلطوا بينها وبين وثنياتهم
وبينها وبين الحنيفية ، لذلك قلنا : أن ما لديهم من مذاهب الصابئية يعتبر
ألوانا شاحبة •

وينقل الرواة — كما نقلوا من قبل أن عمرو بن لحي أول من نصب
الأمثال — ينقلون أيضا : أن أبا كبشة هو أول من أتى بعبادة النجوم
اليهم ويصبح مفاد الروايتين أن الوثنية العربية قد وفدت الى العرب من
بلاد خارج الجزيرة العربية •

معنى الصابئية :

رابنا فيما سبق من القول : أن الصابئية نشأت أول ما نشأت في العراق ،
سواء أكانت الصابئية الأولى التي أنشأها « هرمس » ، أو الصابئية الأخرى
التي نسبت الى « بوداسف » ، فإن النشأة كانت في العراق وبعض من
بلاد فارس •

فهل يا ترى عندما نقلت الكلمة الى الجزيرة العربية نقلت من مصدرها
الى العربية كما هي ؟ أم ترجمها العرب عن أصلها الفارسي أو الآرامي ؟

(١) الحضارة السامية القديمة .

تأليف سبتيانو موسكاتى

ترجمة : د . السيد يعقوب بدر •

لا نجد لدينا ما يرجح الاحتمال الثانى ، لأن الكلمة مجهول نسبها الى لغة معينة فيبقى الاحتمال الاول : وهو انها نقلت الى الجزيرة العربية : واصبحت من الكلمات المشتركة بين اللغتين واللسانين العربى أو غير العربى وذلك جائز .

وهناك احتمال ثالث : وهو أن الكلمة وضع عربى ، وأصبحت علما على مذهب غير عربى ، وهذا ما نراه قريبا : الى الصواب .

وفيما وصل اليه بحثنا عن أصل الكلمة هو اننا لم نجد لها أو حولها بيتا من الشعر :تناول معتنق هذا المذهب ، مدحا ، أو قححا — قوى النسبة لشاعر أو منحول اليه — وهذا يجعلنا نميل الى أن هذا اللفظ : أطلقه القرآن اصطلاحا على مقابل الحنيفية وعلى من خالف وثنية الجاهية الأولى وليس من أهل الكتاب .

يقول الألوسى : اختلف فى اللفظ .

— فقيل : غير عربى .

— وقيل : عربى (١) .

ثم يترك الألوسى نقله « غير عربى » على عمومه من غير تعقيب يبين فيه أصل هذه الكلمة : أفارسى أم هندى أو سريانى ، أعرض عن هذا ثم راح يبين اشتقاقها العربى (٢) فقال :

— صار معتلا : بمعنى مال/قال الشاعر :

— صار معتلا : بمعنى مال/قال الشاعر :

الى هند صبا قلبى وهند مثلها يصبى

— وصبأت النجوم : اذا طلعت .

يقول ابن منظور : عنوا : انه خرج من دين الى دين ، ونقل عن ابن اسحاق الزجاج قوله فى الصابئين : فمعناه : الخارجين عن دين الى دين .

(١) روح المعانى ج ١ ص ٢٣١ — المتوفى سنة ١٢٧٠ .

(٢) لسان العرب ابن منظور ج ١ ص ١٠٨ يقول ابن منظور يزعمون انهم على دين

نوح وهم كاذبون .

وفي حديث بنى جذيمة : كانوا يقولون لما أسلموا : صباانا صباانا .

وكانت العرب تسمى النبی الصابی*(١) :

في اللسان العبري :

نرى كذلك الكلمة في اللسان العبري تفيد ما يفيدده الوضع العربي :

ففي الأسفار :

— فصباوا على مدين (٢) .

— هصبثتم على أريئيل : (٢) .

— أي الصابئون على بيت المقدس .

— وردت (أريا) (٤) بمعنى : سد ، وال في العبرية بمعنى : الله ، يعنى :

ان الصابئين على بيت المقدس أسد الله (٥) .

— وورد بمعنى : الحند (٦) .

— بمعنى : الجهاد أو القتال والحرب (٧) .

(١) نفس المرجع ، كذلك يراجع كتاب تهذيب اصلاح المنطق شرح ابن الخيب التبريزي
لن اصلاح المنطق لابن السكيت قال : صبا — صبا — خرج من دين الى دين .

* لم نجد فيما رجعنا اليه من مصادر اللغة العربية المختلفة بيتا واحدا من الشعر الجاهلي
يفيد مدح مذهب الصابئة ، أو ذمه ، وذلك — ربما — يرجع — في نظرنا — الى
انه كان مضطهدا ، ولا يستبعد هذا الاحتمال ، لان العربي وان اشتهر بالصلابة والاحتمال ،
مان التاريخ لا يروى في عصره الجاهلي : موثقا يشهد لعرب الجاهلية بحبهم للاستشهاد في
سبيل عقيدتهم الدينية ، وانما تواتر اليها التاريخ مأثورا عندما هبوا لمنازلة أبرهة ، انصرفوا
عنه عندما عرفوا وجهته : انه يقصد البيت ، قائلين له على لسان سفيرهم المفاوض : أما
الابل فهي لى ، وأما البيت فله رب يحميه . فالعربي لا يأتيه لدينه ، وأثر تاريخيا أنه
استشهد في سبيل الحب : مجائين الهوى ، وبلغت شجاعتهم : انهم كانوا لا يتهيبون من
وعيد قومهم واثارهم بالبطش .

(٢) سفر العدد ٣١ — ٧ .

(٣) أشعيا ٢٩ — ٧ .

(٤) أيوب — ١٨ — ١٠ .

(٥) ملقى اللغتين العربية ص ٦٢ ج ١ مراد مرج سنة ١٩٣١ .

(٦) الرجس المخرب كما جاء في دانيال ١١ : ٣١ وتجعل الرجس المخرب .

(٧) سفر العدد ٣١ — ٣ .

— وأطلق على ما بالسموات من كواكب ونجوم (١) .

فالفعل في اللسان العبري يشمل : المعنى العربى وزيادة ، فيفيد معنى :
تقدموا ، وتجمعوا ، أعدوا أنفسهم للجهاد لله والعمل لما يقضى به
أمر الله (٢) .

« وصبا » الأعداء زحفوا وهجموا ، فيها ما يحتمل أنها أطلقت لغويا
وليس فيها ما يحتمل أنها أطلقت على نحلة ، أو دين ، أو مذهب معين .
وتقول دائرة المعارف الإسلامية : أن اسم الصابئة مشتق من الأصل
العبرى (ص . ب . ع) أى غطس . ثم أسقطت اليمين وهو يدل بلا ريب :
على المنديا ، أو الصبوء وهى فرقة يهودية نصرانية تمارس شعيرة التعميد
في العراق (نصارى يوحنا المعمدان) (٣) .

ويبدو أن اصطلاح صابئة : أطلق على جماعتين من اليهود :

الجماعة الاولى : هم اليهود الذين خرجوا على المسيح : فهؤلاء صابئة
مؤمنون .

الجماعة الثانية : هم اليهود الذين وافقوا . . أبو للونيوس « عندما
فتح اورشليم ١٦٧ ، وهو أحد قواد أنطونيوس ، هدم السور ، وبنى فى
مدينة داوود قلعة جديدة ، وملأها بالجند ، وجاء فى أعقابهِ هندوب يحملهُ
أمرا بتحريم الديانة اليهودية ووضع هيكل اغريقى : هو الرجس المخرِب(٤)
فوق المذبح اليهودى بفناء المعبد . ليحل الوثنية محل اليهودية ، أو كما يقول
الآؤرخون(٥) ليوحد الديانة بالبلاد ، وافق كثير من اليهود على الدخول فى تلك
العقيدة الوثنية — واليهودى لا يصنع تماثيل للأرباب — وانضموا للحزب

(١) سفر العدد ٤ — ١٩ — ٢٧ .

(٢) تكوين ٢ — ١ ثنية ٤ — ١٩ واسعيا ٣٤ — ٤ .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية ج ١٤ ص ٨٩ .

(٤) جاء فى سفر دانيال ١١ : ٣١ وتعمل الرجس المخرِب .

(٥) الحضارة الهلينستية : قارن ص ٢٢٩ .

المشايخ للهليستنية ، المناصر لأنطيوخوس ، فهؤلاء صابئة وثنيون من اليهود . *

فالمعنى في الوضع اللغوي لكلمة صابئ لا ينبىء ، من قريب أو من بعيد ، عن معنى مقدس ، أرادته العربى منها :

فالصابئ عند العربى — مع العبرى — كلمة وصفية تعطى معنى « زنديق » فى العهد العباسى أو فى عصرنا .

فالعرف الجاهلى استعملها وأطلقها : على كل من خرج عن دين الجماعة أو القبيلة ، وعبر بها عن سخطه عندما أراد أن يسخط على كل من جانب دينه الرسمى أو مألوف وثنيته .

وعلى ذلك يكون معناها عند العربى واسعا : يتسع لمن استحدث ديناً غير دين قومه ، ووسعت أيضا كل من خرج من دينه الى غير دين . يقول الطبرى : والصابئون : جمع صابئ ، وهو : المستحدث بمسوى دينه دينا ، كالمرتد من الاسلام عن دينه ، وكل خارج من دين كان عليه الى آخر غيره تسميه العرب : صابئا .

ثم قال : اختلف أهل التأويل فيمن يلزمه هذا الاسم من أهل الملل :

— فقال بعضهم : يلزم ذلك : كل من خرج من دين الى دين .

— وقالوا : الذين عنى الله بهذا الاسم : قوم لا دين لهم (١) .

وهذا يذهب اليه الشهرستاني : عندما عدها لحظة ولم يجعلها ديناً (٢) *

* يروى ابن حجر فى فتح البارى ج ١ ص ٢١٠ رواية عن أبى العالىة تقول : الصابئون فرق من أهل الكتاب : يقرعون الزبور ، هذا يؤيد ما ذهبنا اليه أن فى اليهود صابئة .

* وتقول دائرة المعارف الاسلامية ج ٨٩ ص ٨٩ : ومن الواضح أن الصابئة الذين ذكرهم القرآن وجعلهم فى ثلاثة مواضع : هم من اليهود والنصارى : يعدون من المنديا ، تلاحظ أن النص يحتوى على خطاين .

الخطا الاول : أن القرآن ذكر الصابئة والنصارى من أهل الكتاب فى ثلاثة مواضع ومعها اليهود والنصارى .

الخطا الثانى : قوله أن اليهود والنصارى يعدون من المنديا . فان القرآن لا يستنتج منه هذه النتيجة وأن ما فى القرآن يفيد : أنه مذهب يفاير لما عليه اليهود والنصارى لان القرآن ذكر الصابئة معها كما فى سورة البقرة أو بينهما كما فى سورتى الحج والمائدة .

(١) تفسيره ص ٢٥٢ ج (جامع البيان فى تفسير القرآن المتوفى ٣١٠ .

(٢) روح المعانى للالوسى ص ٢٣١ ج ١ .

* يذكر صاحب فتح البارى : رواية عن ابن مردويه بإسناد حسن عن ابن عباس قال : الصابئون ليس لهم كتاب .

فعندما يستعملها العربى فانه يستعملها بمعناها اللغوى : الخروج أو الميل ، أو طلع • قال المشركون للرسول : قد صبأ •

لذلك لم يؤمن بعض العرب : برسول الله لأنهم وضعوا فى اعتبارهم : أن الرسول واصحابه من الصابئة ، أى الخارجين على دين الجماعة • فلم يستعمله العربى بمعنى : مذهب معين ، أو نقطة معينة ، لجماعة معينة أو يكون قد استعمله لكفنا لم نر لذلك نصا انما اطلاقه كان على الخارج مطلقا •

أما الاسلام : فأطلقها على صنف ذى عقيدة ، أخطأت تنزيه الله ، فوسطت الكواكب بينها وبينه ، اذ الكواكب فى عرفهم : تحتوى على النور الالهى •

وبعضهم عبد الملائكة لخاصتها الروحانية ، وكان ذلك اجتهادا منهم أو توجيها من بعض حكمائهم •

يقول أبو حنيفة : انهم ليسوا بعبدة أوثان ، وانما يعظمون النجوم كما تعظم الكعبة (١) •

وقيل : هم قوم موحدون يعتقدون تأثير النجوم ويقرون ببعض الأنبياء كىحيى (٢) •

لعل هذا النص ظاهر الوضع والانتحال لأنهم يقولون بالوسائط الروحانية ولا يقولون : بوسيط بشرى مثل وساطة الأنبياء وهذا من أهم عقائدهم التى صادمهم فيها القرآن ، ويمكن حمله على صنف معين : صابئة المنديا أى الذين اتبعوا يوحنا المعمدان وخرجوا على تعاليم اليهود وهذا ما ذهبى اليه دوائر المعارف الأجنبية واختارته لكن المصادر الاسلامية عدتها فرقة من فرقهم • أما نص أبى حنيفة فان القرآن يؤيده لأنه عدنها وسطا بين اليهود والنصارى • ويورد الطبرى : نصا عن ابن وهب يؤكد ما ورد عن أبى حنيفة فيقول :

(١) نفس المرجع •

(٢) تفسيره ص ٢٥٢ ج ١ •

الصائبون ليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبي الا قول : لا اله الا الله (١) .
فهم قوم يعظمون الكواكب بناء على تفسيرين :

- الاول : أن خالق العالم : الله الا أنه أمر بتعظيم هذه الأجرام .
- الثاني : أنه خلق الأفلاك والكواكب وفوض التدبير اليها فيجب على البشر تعظيمها لأنها هي المدبرة لهذا العالم .

يتول الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرزاق (٢) :

« ومذهب الصابئة — على ما يحيط بتاريخه من غموض — يكاد يتم الاتفاق على أنه يقر بالالوهية ويرى أننا نحتاج في معرفة الله ومعرفة أوامره وأحكامه الى متوسط يكون روحانيا لا جسمانيا ففزعوا الى هياكل الارواح وهي الكواكب فهم عبدة الكواكب » .

بعد ما سبق نقول : ان الكلمة في الاستعمال العربى الجاهلى اطلقت على من خرج من دينه سواء الى دين او الى غير دين . يقول ابو حيان المفسر : الصائبون : قيل هم الخارجون من دين مشهور الى غيره .

وفي الاستعمال الاسلامى تطلق على جماعة بعينها معتنقة مذهباً معيناً غير الحنيفية . لأن القرآن عندما يذكر الصابئة يذكرها مقترنة بدعوةها الى الاسلام أما الحنيفية فان الاسلام يصف بها نفسه .

وتبقى كلمة ذكرها المستشرق الألمانى يوليوس فلهوزن يقول فيها :

« واذا كانت أقدم تسمية أطلقها على المسلمين من لم يدخل في زمريتهم هي تسميتهم بالصائبين فلا يمكن أن يكون لها سبب غير ذلك » (٣) .

يعلق الدكتور أبو ريده على هذا الهامش فيقول :

-
- (١) غرائب القرآن ورفائب القرآن ص ٢٠١ ج ١ للنيسابورى .
 - (٢) تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرزاق ص ١٠٢ .
 - (٣) تاريخ الدولة العربية . نقله من الألمانية وعلق عليه دكتورا محمد عبد الهادى أبو ريده ص ٣ راجعه د . حسين مؤنس — الإلف كتاب ١٣٦ .

ربما يكون قصد المؤلف ما لوحظ من شبه بين بعض عبادات الصابئة وبعض العبادات الإسلامية (١) .

نقول : ربما هذا ما قصده المؤلف ، أى أن الشبه بين المسلمين والصابئين هو الذى سوغ للمشركين أن يطلقوا على المسلمين صابئة بينما لو لاحظ — المؤلف — الآيات الثلاث التى تناولت الصابئين لم تفهم من الدعوة الى الايمان والعمل الصالح وفي الأخرى تناولتهم بالانذار الشديد من الله فلم يهادنهم الرسول ، ولم يصطنع معهم دون غيرهم لينا في القول ، انما كان موقفه يتسم بالوضوح والحسم مع سائر الأديان ولم يؤثر أن ادعى عليه أنه افتراه من الصابئة أو ادعت عليه الصابئة هذه الفرية .

أما من جهة اطلاق المشركين على المسلمين : صابئة ، فان هذا كما بينا كان من باب وصفهم بأنهم خرجوا على دين الجماعة الرسمي ومالوف عقائدها . يقول الألوسي : وأهل دين هؤلاء فيما زعموا أنهم يأخذون محاسن ديانات العالم ومذائبهم ويخرجون من قبيل ما هم عليه : قولا وعملا : فقد خرجوا عن تقييدهم بجملة كل دين وتفصيله الا ما رأوه فيه من الحق (٢) .

قال ابن كثير : وأظهر الأقوال : قول مجاهد ومتابعيه ووهب بن منبه : أنهم قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين انما هم قوم باقون على فطرتهم ولا دين مقرر لهم يتبعونه ويتفهمونه . ولهذا كان المشركون ينبذون من اسلم : بالصابيء ، أى : أنه قد خرج من سائر الأديان ، أديان أهل الأرض اذ ذاك (٣) .

(١) سألت امرأة عربية : صحابين من صحابة رسول الله : الى أين ؟ قالا : الى رسول الله ، قالت : الذى يقال له الصبائي ؟ ، قالا : هو الذى تعنين . ثم لما رجعت الى قومها قالت : العجب ، لقينى رجلان : فذهبا بى الى هذا الذى يقال له الصابيء : الى آخر الحديث . يقول ابن حجر في فتح الباري ج ١ ص ٢١٠ هناك فرق بين الصابيء : المراد في هذا الحديث ، والصابيء المنسوب للطائفة المذكورة .

(٢) بلوغ الأرب ص ٢٥٢ ج ٢ : الألوسي .

(٣) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٠٣ .

أقسام الأصابئة(*)

أولا - الصابئة الأولى أو صابئة الحنفاء :

أصل فكر الصابئة الأولى من وجهة نظرنا : القول باحتياجها في معرفة الله ، ومعرفة طاعته وأوامره وأحكامه : إلى متوسط . والتي يقال عنها : انها تنسب إلى « هرمس » و « أنماثاذيمون » على ما تذهب إليه مصادر الاسلاميين .

(*) ولعل أحسن من توسع في هذا البحث وبين الفرق الصابئية مستندا إلى العقل والنقل هو بن الإمام أبو الحسن علي بن محمد المكنى بأبي علي بن سالم التغلبي الفقيه الأصول الملقب بسيف الدين الأمدي المتوفي عام ٦٣١ هـ . فقد ذكر في كتاب خطي له يدمى (كتاب إيكار الإنكار) حقق بعضه د . أحمد المهدي . أن أشهر فرق هذه الة أربع وهي :

الفرقة الأولى

أصحاب الروحانيات : وقد يقال ذلك بالرفع أخذاً من الروح وهو جوهر . وقد يقال بالنسب وهو حالة خاصة به . وقد زعم هؤلاء أن أصل وجود العالم يتقدس عن سمات الحدث وهو أجل وأعلى من أن يتوصل إلى جلاله بالعبودية له والخضوع من السلفيات وذوات الانفس المنغمسة في عالم الرذائل والشهوات وانما يتقرب إليه بالمتوسطات بينه وبين السلفيات وهي أمور روحانية مقدسة عن المواد الجرمانية (نسبة إلى الجرم) والقوى الجسمية والحركات المكانية والتغيرات الزمانية في جوار رب العالمين . مجبولون على تقديسه وتمجيده وتعظيمه دائما وسرمدا . قالوا . وهم آلهتنا وأربابنا ورسائلنا إلى حاجتنا وبهم يتقرب إلى الله تعالى . وهي المدبرة للكواكب الفلكية والمدبرة لها على التناسب المخصوص حيث يتبعها انفعالات في العناصر السفلية . وحركات بعضها إلى بعض وانفعال بعضها عن بعض عند الاختلاط والامتزاج المفضى إلى التركيب الموجب لتنوع المركبات إلى أنواع المعادن والنباتات والحيوانات وتصريف موجودات الاعيان من حال إلى حال ومن شأن إلى شأن إلى غير ذلك من الآثار العلوية والسفلية .

وزعموا أن الكواكب الفلكية هي هياكل هذه الروحانيات وأن نسبة الروحانيات إليها في التقدير لها والدوير ، نسبة الانفس الانسانية إلى أبدانها وأن لكل روحاني هيكل يخصه ولكل هيكل فلكا يكون فيه . وزعموا أن المعرف لهم (غارميون وهرمس) اللذان هما أصل علم الهيئة وصناعة النجامة . وهرمس هو أول من قسم البروج ووضع أسماءها وأسماء الكواكب السيارة ورتبها في بيوتها وبين الشرف والوبال والوج والحضيض والمنظر والتثليث والتسديس والتربيع والمقابلة والمقارنة والرجوع والاستقامة والليل والتعديل . واستقل باستخراج أكثر الكواكب وأحوالها . وقيل أن غارميون هو شيت وهرمس هو ادريس (ع) .

الفرقة الثانية

أصحاب الهياكل : فانهم قالوا إذا كان لابد للإنسان من متوسط فلا بد من أن يكون ذلك المتوسط كما نشاهده ونراه حتى نتقرب إليه . والروحانيات ليست كذلك فلا بد من متوسط بينها وبين الإنسان ، وأقرب إلى الهياكل هي الآلهة والأرباب المعبودة والله تعالى

رب الأرباب واليه التوسل والتقرب . فان التقرب اليها ، تقرب الى الروحانيات التي هي كالأرواح بالنسبة اليها . ولا جرم أنهم دعوا الى عبادة الكواكب السبعة السيارة ثم أخذوا في تعريفها وتعريف أحوالها بالنسبة الى طبيعتها وبيوتها ومنازلها ومطالعها ومغاريبها واتصالاتها ونسبتها الى الأماكن والأزمان والليالي والساعات وما دونها الى غير ذلك . ثم تقربوا الى كل هيكل وسألوه بما يناسبه من الدعوات فيما يناسبه من الأماكن والأزمان واللباس الخاص به والتختم بالخاتم المطبوع على صورته . والهيكل عندهم أحياء ناطقة بحياة الروحانيات التي هي أرواحها ومتصرفة فيها . ومنهم جعل هيكل الشمس رب الهيكل والأرباب . وهذه الهيكل هي المدبرة لكل ما في عالم الكون والفساد على ما سلف في تعريف مذهب الفريق الأول . وربما احتجوا على وجود هذه المدبرات وأنها أحياء ناطقة بأن حدوث اذ الكلام فيه إما أن يكون مستندا الى حادث أو قديم ولا جائز أن يكون مستندا الى حادث اذ الكلام فيه كالكلام في الأول والتسلسل والدور محالان فلم يبق إلا أن يكون مستندا الى ما هو في نفسه قديم وذلك القديم إما أن يكون موجبا بذاته أو بالاختبار . فان كان الأول ، فما أن يكون كل ما لأبد منه في إيجاد الحوادث متحققا معه ، أو أنه متوقف على تجدد . فان كان الأول فيلزم قدم المعلوم والقدم علته وشرطه مجاه . وان كان الثاني ، فالكلام في تحديد ذلك الأمر . كالكلام في الأول وهو تسلسل . فلم يبق إلا أن يكون فاعلا مختارا وليس في عالم الكون والفساد فاعل قديم مختار إلا الأتلاك والكواكب ولذلك حكموا بكونها أحياء ناطقة .

الفرقة الثالثة

أصحاب الأشخاص : وهؤلاء زعموا أنه اذا كان لأبد من متوسط مرئى فالكواكب وان كانت مرئية ، إلا أنها قد ترى في وقت دون وقت لطلوعها وأبولها وظهورها وصفتها نهارا فدمت الحاجة الى وجود أشخاص مشاهدة نصب أميننا تكون لنا وسيلة الى الهيكل التي هي وسيلة الى الروحانيات التي هي وسيلة الى الله تعالى . فأتخذوا لذلك أصناما وصورة على صور الهيكل السبعة . كل صنم من جسم مشترك في طبيعته لطبيعة ذلك الكوكب ودعوه وسألوه بما يناسب ذلك الكوكب في الوقت والمكان واللبس والتختم بما يناسبه والتحيز المناسب له على حسب ما يفعله أرباب الهيكل إلا أنها هي المعبودة على الحقيقة . وهذا هو الأشبه بسبب اتخاذ الأصنام . ويحتمل أن يكون اتخاذ الأصنام بالنسبة الى غير هذه الفرقة وتعظيمها لاتخاذها قبلة لعبادتهم أو لأنها على صورة بعض من كان يعتقد فيه النبوة والولاية تعظيمها له . أو لان قدماء أرباب الهيكل والأصنام وعلماءهم ، ركبوا فراغ طلاس ووضعوها فيها وأمرهم يتعظيمها لتبقى محفوظة بها . والا فاعتقاد الألوهية فيما اتخذوه صوراً من الأخشاب والأحجار وكونه خالقا لن صورته ومبدعا لها وجودة قبل وجوده من العالم العلوى والسفلى ، مما لا يستجيزه عقل عاقل . بل البداة شاهدة برده وأبطاله وان وقع ذلك معتقدا لبعض الرقاع (كذا) ومن لا خلاق له من العوام منهم ، فلا يلتفت اليه ولا معول عليه .

الفرقة الرابعة

الحلولية . (وقد سماها ابن بطوطة وغيره من ثقات المؤرخين بالحرانية وهو الأصح عندنا) وهؤلاء زعموا أن الاله المعبود واحد في ذاته وأنه أبدع أجرام الأتلاك وما فيها من الكواكب وجعل الكواكب مدبرة لما في العالم السفلى فالكواكب آباء أحياء ناطقة والعناصر

والحنفاء : هم الذين اتبعوا ملة ابراهيم . وعندما يرتبط الاصطلاحان ببعضهما يصبح المعنى الاصطلاحي مغايرا لكل من الاصطلاحين على حدة وينفرد بمعنى جديد وسوف نتتبع معاله : فالصائبة كانوا يرون في الوسيط : وجوب روحانيته ، وذلك لزكاء الروحانيات وطهارتها ، وقربها ، من رب الأرباب . وروحانية الوسيط — يرون فيها — أنها تتنافى مع الجسماني ، فجسمانية الوسيط تجعله بشرا مثلنا ، يحتاج مثل ما نحتاج اليه : من أكل وشرب ، ويمثلنا ، في المادة ، والصورة ، عبر ، عن هذا المعنى الفكري القرآن فقال عنهم حاكيا :

« ولئن أطعتم بشرا مثلكم انكم اذا لخاسرون » .

فهم يرون : أن بشرية الوسيط تتنافى مع وساطته وعدم الجمع بينها وبين النبوة ، فبشريته تحجبه عن الاتصال بالله ، يبنون ذلك على أصل فكري لديهم يقول : أن أصل وجود العالم يتقدس أن يتوسط بينه وبين عالم الأرض بشر من الأرض أو النفس الانسانية لتغلبها في عالم الرذائل والشهوات وانما يقترب اليه وسيط من القوى الروحانية المفارقة للمادية قالوا عنها : هي آلهتنا وأربابنا ورسائلنا الى حاجتنا وبهم يقترب الى الله وهي المدبرة للكواكب .

ثم قالوا — من وجهة نظرهم — : أن الكواكب الفلكية هي هياكل هذه الروحانيات وأن نسبة الروحانيات اليها في التعبير لها نسبة الأنفس

امهات وما تؤديه الآباء الى الامهات ، تغلبها بأرحامها فتحمل من ذلك المواليد وهي المركبات والاله تعالى يظهر في الكواكب السبعة ويتشخص بأشخاصها من غير تعدد في ذاته وقد يظهر أيضا في الأشخاص الأرضية الخيرة الفاضلة وهي ما كان من المواليد وقد يتركب من صفات العناصر دون كدرها واختص بالمزاج القابل لظهور الرب تعالى فيه ، أما بذاته وأما بصفة من صفات ذاته على قدر استعداد مزاج ذلك الشخص . وزعموا أن الله يتعالى عن خلق الشرور والقبايح والاشياء الخسيسة الدنيئة كالحشرات الأرضية ونحوها بل هي وادمة ضرورة اتصالات الكواكب سعادة ونحوسة واجتماعات العناصر صفوة وكدورة . وزعموا أيضا أنه على رأس ستة وثلاثين ألف سنة وأربعمائة وخمسة وعشرين سنة يحدث روحاني على رأس الدور الآخر وكذا الى ما يتناهى ، وأن الثواب والعقاب على أعمال الخير والشر كل دور واقع لكن في الدور الذي بعده في هذه الدار لا في غيرها . من كتاب السيد عبد الرازق الحسيني : الصائبة قديما وحديثا .

أعطانا نسخه منه زميلنا الدكتور مصلح بيومي

الانسانية الى ابدانها ، وأن لكل روحاني هيكل يخصه ولكل هيكل فلكا يكون فيه (١) :

— فهم يؤمنون بالله •

— يؤمنون بالوسيط من العالم العلوي مثل : النيرات لشفافية نورها وروحانيتها ، فهم يقدسونها دون العبادة •

— ينكرون : أن النجوة تجامع البشرية •

وهؤلاء هم الذين قال فيهم أبو حنيفة : أنهم ليسوا بعبدة أوثنان إنما يعظمون النجوم كما تعظم الكعبة • وقول أبي حنيفة : يلقي مزيدا من الفهم للوسيط حيث يجعل تعظيمهم للنجوم ليس تعظيم عبادة إنما تعظيم تقديس كما تعظم الكعبة •

لكن ابن كثير قال : اختار الرازي أن الصابئين قوم يعبدون الكواكب بمعنى أن الله جعلها قبلة للعبادة والدعاء ، أو بمعنى أن الله فوض لها تدبير أمر هذا العالم •

ثم قال : وهذا القول هو المنسوب الى الحرانين الذين جاءهم ابراهيم ردا عليهم ومبطلا لقولهم •

قال ابن كثير : قال القرطبي والذي تحصل من مذهبهم فيما ذكر بعض العلماء : أنهم موحدون ويعتقدون تأثير النجوم وأنها فاعلة • يبدو أن ما اختاره الرازي وما حصله القرطبي متعلق بنوع معين هم الكلدانيون (٢) • وما قاله أبو حنيفة يصدق على اتباع « هرمس » •

ويرجع تقديسهم الكواكب لما يقررونه عن « روحانية الوسيط » فلما

(١) تراجع الصابئة : قديما وحديثا ص ١٧ السيد عبد الرازق الحسني تقديم أحمد زكي باشا ط ١ ١٩٢٥ المطبعة الرحمانية — مصر •

(٢) يطلق على أنصار العادات التنجيمية اسم عام وهو الكلدانيون ويشمل المذهب الكلداني مجموعة من المعارف المختلطة نوعا ما •

وأولها وأهمها كشف الغيب بواسطة النجوم وخاصة التنبؤ على أساس تاريخ الميلاد فالكلدانيون مجرد قراء طوالع واطلق عليهم هذا الاسم بحكم وظيفتهم لا بحكم أصلهم •
(م ١٠ — الفكر الديني)

وجدوا في النيرات ونورها شفافية الروحانيات : قدسوها — كما نقدر الكعبة
أو كما نقدر الرسل تقديسا دون العبادة (١) .

يقول الألوسي : انهم قوم موحدون يعتقدون تأثير النجوم .

فهؤلاء هم الصابئة الأولى أو صابئة الحنفاء قال فيهم الألوسي : صابئة
الحنفاء شاركوا أهل الاسلام في الحنيفية .

منهم هلال بن محسن الصابيء صاحب الديوان الانشائي والرسائل .

وأبو اسحاق الصابيء كان صابئا وعرض عليه عز الدولة أن يسلم فامتنع
وقيل بذل له ألف دينار على أن يأكل الفول فلم يفعل . والصابئون يحرمون
الفول والحمام .

يقول الدكتور زكي مبارك : ولكن حرصه على دينه لم يحل بينه وبين
التحلي بأكرم الخصال في رعاية الاسلام . فقد كان يصوم رمضان مساعدة
وموافقة للمسلمين وحسن عشرة منه لهم ويحفظ القرآن حفظا يدور على طرف
لسانه وسن قلمه .

حتى لما مات بكاه الشريف الرضي في قصيدة واستكثر الناس عليه
في دينه وجاهه ، أن يبكي رجلا صابئا : بمثل هذا الشعر الحزين ولكنه
أجاب بأنه إنما بكاه لفضله (٢) .

نأخذ على الدكتور زكي مبارك قوله : مساعدة وموافقة للمسلمين وحسن
عشرة منه لهم . قد يكون هذا التعليل راجعا الى حفظه للقرآن وقد يكون

(١) قال أبو حبان في تفسيره البحر المحيط ج ١ ص ٥٣٦ .

وقيل : قوم يعبدون الكواكب ثم لهم قولان :

أحدهما : إنه خالق العالم وهو الله إلا أنه أمر تعظيم الكواكب واتخاذها قبلة للصلاة
والتعظيم والدعاء . والثاني : أنه تعالى خالق الأملاك والكواكب ثم إن الكواكب هي المدبرة لما في
هذا العالم من الخير والشر والصحة والمرض : فيجب على البشر : تعظيمها لأنها هي الإلهة
المدبرة لهذا العالم ثم إنها تعبد الله وهذا المذهب هو المنسوب للذين جاءهم إبراهيم عليه
السلام رادا عليهم : البحر المحيط : أثر الدين عبدالله محمد ابن علي بن يوسف بن حبان
الاندلسي الفرناطي الجبلي الشهير بأبي حبان المولود في ٦٥٤ المتوفي بالقاهرة ٧٥٤ .

(٢) الفهرست في القرن الرابع الهجري ج ٢ ص ٢٩٠ دكتور زكي مبارك

حفظ القرآن راجعا الى حرصه على الأدب لا على الدين الاسلامى أما صومه رمضان فهذا يرجع الى شريعة الصابئة الحنيفية •

وأما تحليه بأكرم الخصال فهم قوم يخرجون على رذائل الخصال ودفاء الطبع الى كريم السجايا وظهارة الطوايا : راجع قول الألوسى السابق في تسميتهم صابئين ، فاسحاق الصابىء كان صابئا مخلصا فما ظنه الدكتور زكى مبارك فيه وحمله على محمل حسن عشرة منه للاسلام والمسلمين هو في واقع الأمر شريعة صابئية كما قدمنا وأما بكاء الشريف عليه انما هو كما قال بكاه لفضله •

ونرجع فنقول : أما تسميتهم صابئة حنفاء فمرد ذلك في نظرنا الى أنهم وافقوا الحنيفية من حيث العقيدة : في التوحيد ومن حيث الشريعة : في بعض مبادئها ، لذلك صبح تسميتهم بحنفاء •

وفارقوا الحنيفية في انكارهم أن يكون الوسيط — النبى — بشريا •

وقولهم : بوسائط الكواكب لروحانيتها ونورانيتها •

فيقول الألوسى : ولهذا لم تكن الصابئة من الأمم المستقلة التى لها كتاب ونبى ، وان كانوا من أهل دعوة الرسل فما من أمة الا وقد أقام حججه وقطع عنه حجتها لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وتكون حجته عليهم (١) •

فلكونهم من قوم ابراهيم وأخذوا ببعض دينه وأعرضوا عن جانب منه أطلق عليهم « صابئة حنفاء » أى فيها جانب من الفكر الصبائى ، وجانب من الدين الحنيفى •

فالصابئة الاولى : كان منهم الصابئة الحنفاء ، بيد أننا بعد التعرض لشرح تسميتهم نضيف بعض تمايز رأينا تمايزا مهما هو :

ان الصابئة الاولى : هى التى نشأت بعيدة عن الجزيرة العربية •

ويذكر عن بعض الباحثين :

« ان الصابئة الذين ورد ذكرهم في القرآن سكنوا بلاد العرب ومصر

(١) بلوغ الارب ص ٢٢٥ ج ٢ •

قبل الاسلام ، وقبل النصرانية ، واليهودية ، وقد انقرضوا وعفت أخبارهم
فأصبح من المتعذر علينا بيان معتقدتهم بالتفصيل « (١) » .

وصابئة الحنفاء يكونون هم الذين خرجوا من الحنفية العربية الى تعاليم
الصابئة التي وفدت الى الجزيرة العربية واعتنقتها « سبأ الحميرية » من هنا
أصبحت صابئة الحنفاء مذهباً عربياً له مكوناته الفكرية من أهمها انكار
بشرية الرسول مع بقائهم على روحانياتهم وبقايا من دين ابراهيم . كذلك
ينفرد واقع تسميتهم أنهم جوزوا بفكرهم العقلي : الجمع بين دينهم ، ومذهبهم
« مابى » . أى الأخذ ببعض مبادئ الوحي — مذهبهم الحنيفى — مع بعض
« بادئهم الوضعية » فحلقتهم البشرية يذكر البيرونى أنه كانت لهم أصنام
وحياكل كما يذكر حكاية أن الكعبة وأصنامها كانت لهم (٢) .

ثانياً — صابئة بوداسف : أو صابئة مشركون :

التراث الهندى :

ظهر « بوداسف » بأرض الهند ، وكان هندياً ، وتنبأ وزعم أنه رسول
الله وأنه واسطة بين الله وخلقه .

وفيحننا التراث الهندى : أن دعوة « ابراهما » من الدعوات الدينية
(الوضعية) التى ليس لله فيها وجود ، واعتبرها الباحثون الاجتماعيون
نموذجاً قوياً على أن الأديان ليس جميعها تدعو الى الله .

يصدر معتقد هذه الطائفة عن فكرة تقول : « ان أول من هبط من العالم
الأسفل الى العالم السفلى (عقل سماوى) اكتسى بكسوة بشرية لكى يتناسل
فى الأرض ويسعى فى عمارها واسمه (برهما) (٣) » .

فالهنود — حسب دينهم — يعتقدون أن الله جسم ، وأن الملائكة أجسام ،
ويرون : أن عليهم تقديس علمائهم ، وحكمائهم ، ورفع صورهم فى معابدهم

(١) الصابئة : قديما وحديثا : السيد عبد الرزاق الحسنى تقديم أحمد زكى باشا —
ط ١ المطبعة الرحمانية بمصر ١٩٢٥ .

(٢) الآثار الباقية من ٢٠٤ للبيرونى المتوفى سنة ٤٤٠ هـ .

(٣) مفتاح الابواب من ١٠ هـ / ميرزا محمد مهدى خان رئيس الحكماء ط ١٢١ .

تقديساً لهم دون عبادتهم فهؤلاء — حسب دينهم — مجسمة ومشبهة .
 قال المسعودي : وظلوا على هذا حتى نبههم بعض حكمائهم على أن
 الأفلاك والكواكب أقرب الأجسام المرئية له ، وأنها حية ناطقة ، وأن كل
 ما يجرى في هذا العالم : فانما هو على قدر ما تجرى به الكواكب من أمر الله .
 فغظموها وقربوا لها القرابين (١) .

ومن هنا يظهر لنا أن دعوة « بوداسف » الهندي أخذت منابعها من
 التراث الهندي ، الحافل بألوان من الوثنية والشرك والزندقة ، واتخذ
 (بوداسف) روافد لدعوته عبر السند ، وسجستان ، إلى أن بلغ فارس وذلك
 في أوائل ملك « ظهمورث » .

يقول المسعودي : وهو — بوداسف — أول من أظهر مذاهب الصائبة .
 وجدد « بوداسف » عند الناس عبادة الأصنام والسجود لها ، لشبهه
 ذكرها ، وقرب لعقولهم عبادتها بضروب من الحيل والخدع .
 فصائبة « بوداسف » : صائبة مشركون ، جانبوا الصائبة الأولى :
 في توحيدها ، وانزال الوسيط معبوداً غاية ، وليس وسيلة وزلفى ، وفارتوا
 الحنيفية : في وحيها السماوى ، واتبعوا وثنية « بوداسف » الهندية ،
 ويرى المؤرخون أنها أصناف :

- صائبة الفبط والفرس والروم : مفزعا للسيارات .
- صائبة الهند : مفزعا الثوابت .
- صائبة فزعت إلى الأشخاص التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغنى عنهم شيئاً .
- صائبة الحرانية .
- صائبة الفلاسفة .
- صائبة البطائح .

فهؤلاء الاصناف من الصائبة يمكن ردهم إلى مسمى واحد أطلقه القرآن
 ويدخلون تحته هو : « الذين أشركوا » .

(١) مروج الذهب ص ٤٨٩ ج ١ .

وذلك عندما صيروا مفهوم الوسيط في الصائبة الأولى — وكان عندهم له صفة التقديس والوسيلة — الى غاية ومعبود ، كذلك حولوا مفهوم الوسيط الروحاني : الى أشكال مختلفة من الصور المادية ، فأدى هذا التحول الى دراسة الفلك وتكوين علم له ، فالذين فزعوا الى الهياكل ، التي هي السيارات السبع ، درسوا : بيوتها ومنازلها ، ومطالعها ، ومغاربها ، واتصالاتها على أشكال الموافقة والمخالفة ، مرتبة على طبائعها ، وتقسيم الأيام والليالي والساعات عليها ، ثم تقدير الصور والأشخاص والأقاليم ، والأمصاير عليها واستطاعوا من خلال رصدتهم لها : أن يعينوا اليوم «زحل» أو غيره مثلا ليوم السبت ، وراعوا فيه ساعته الأولى ، وتختموا بخاتمه ، والمعمول على صورته ، وهيئته ، وصنفته ، ولبسوا اللباس الخاص به ، وتبخروا ببخوره الخاص ، ودعوا بدعواته الخاصة به ، وسألوا حاجاتهم منه ، وترتب على هذا الاتجاه الديني نحو الكواكب : أن تسرب الى الدين نوع من الوثنية وأخلاق من الشرك هذا من جانب ، ومن جانب آخر ، نتجت دراسة طيبة تكون منها علم الفلك ، ثم النهاية : خطوا الطلسمات المذكورة في كتب السحر ، والكهانة ، والتنجيم ، والتعزيم ، والخواتيم ، خطوها كلها بعلم الفلك .

يقول ابن حجر معللا :

وكانت علومهم أحكام النجوم ، مع ذلك فكان السحرة منهم : يستعملون سائر وجوه السحر ، وينسبوننها الى فعل الكواكب ، لئلا يبحث عنها وينكشف تمويههم (١) .

وهؤلاء هم صائبة الفرس ، والنبط ، والروم ، والهند .

صائبة الأشخاص :

أما الصائبة الذين فزعوا الى الأشخاص ، فقالوا : اذا كان لابد من متوسط يتوسل به اذا كان من الروحانيات ، فاننا لا نستطيع رؤيته ، ولا مخاطبته ، واذا أخذنا هياكلها وسائط ، فان الهياكل قد ترى في وقت ، ولا ترى في آخر ، لأن لها أفولا وظلوعا .

(١) فتح الباري ص ١٨١ ج ١٠ .

لذلك كان لا بد لنا من صور أشخاص موجودة قائمة منصوبة نصب
اعيننا نعكف عليها فاتخذوا : أصناما (أشخاصا) على مثال الهياكل السبعة
صوروها بصورتها وراعوا في ذلك : الزمان ، والوقت والساعة والدرجة
الدقيقة ، فان أرادوا حاجة : تبخروا بالبخور ، وتجنبوا الساعة وراحوا
يسألونه حاجاتهم .

فأصحاب الهياكل : هم عبدة الكواكب اذ قالوا بالهيئتها .

وأصحاب الأشخاص : هم عبدة الأوثان وهذا النوع من الصابئة : انتقل
الى الجزيرة العربية على يد عمرو بن لحي ، وسوف نعرض له .

وصابئة الحرنائية(١) قالوا : ان الصانع المعبود واحد وكثير ، .

أما واحد : ففي الذات ، والأول ، والأصل ، والأزل .

وأما كثير : فلانه يتكرر بالأشخاص في رأى العين وهى المدبرات السبعة .

والأشخاص الأرضية ونماذجها : الخير ، والعلم ، والفضيلة ، فانه يظهر
بها ويتشخص بأشخاصها ولا تبطل وحدته في ذاته (٢) .

وواضح أن صابئة الحرنائية : أخلاط : من فلسفة اليونان ، وفلسفة
هندية ، ففيها : مثل أفلاطون ، وفيها : تجسيد « برهما » الديانة الهندية .

وهؤلاء هم من قال فيهم دييور :

وقد أخذوا عن حسن نية بحكم وبأراء موضوعة ترجع للعصر الاغريقى
المتأخر وربما يكون بعض هذه الحكم قد وضع بين ظهرانيهم (٣) .

ويذهب ابن الفديم الى أن الصابئة ليست مذهباً للحرانيين انما هى
منحولة لهم :

(١) مدينة حران ظلت مركزاً دائماً للثقافة اليونانية وكانت الى جانب هذا نقلاً مهمة
للتبادل والاتصال وكان جيرانهم من النصارى ينظرون شزراً الى الحرانيين وكانوا يسمون
مدينتهم (هليوليس) مدينة اليونانيين احتقاراً لهم وتهكماً عليها وكانت الدراسات : رياضية
سحرية فلسفية طبية وعند الصابئة كانت للملك المكانة الاولى وكانت حران مشهورة بوانبيها
في منطقة مسيحية ، ووثنيتها : مزيج من الديانة البابلية ومن الوثنية الاغريقية والانلاطونية
المحدثة .

(٢) الملل والنحل ص ٥٣ ج ٢ الشهر ستانى تحقيق د / محمد بن فتح الله بدران .

(٣) تاريخ الفلسفة في الاسلام ص ٢٥ نقله د / محمد عبد الهادى أبو ريدة .

فيقول :

قال أبو يوسف أيثع القطيعي النصراني في كتابه في الكشف عن مذاهب
الحرثانيين المعروفين في عصرنا بالصابئة : أن المأمون اجتاز في آخر أيامه
بديار مصر ، يريد بلاد الروم للغزو ، فتلقاء الناس يدعون له ، وفيهم جماعة
من الحرثانيين ، وكان زيهم اذ ذاك لبس الأقبية ، وشعورهم طويلة بوفرات(١)
كوفرة قرّة جد سنان بن ثابت ، فأنكر المأمون زيهم ، وقال لهم : من انتم
من الذمة ؟

فقالوا : نحن الحرثانيون .

فقال : أنصاري أنتم ؟

قالوا : لا .

قال : أمجوس أنتم ؟

قالوا : لا .

قال لهم : أفلكم كتاب أو نبي ؟

فمجمجوا في القول .

فقال لهم : فأنتم اذا الزنادقة ، عبدة الأوثان ، وأصحاب الرأس في أيام

الرشيد والدي ؟ وأنتم حلال دماؤكم لا ذمة لكم ؟

فقالوا : نحن نوّدي الجزية . فقال لهم : انما تؤخذ الجزية من خالف

الاسلام من أهل الأديان ، الذين ذكرهم الله في كتابه ، ولهم كتاب ، وصالحهم

المسلمون عن ذلك .

فأنتم لستو من هؤلاء ولا من هؤلاء فاختاروا الان أحد أمرين :

أما أن تنتحلوا دين الاسلام ، أو ديناً من الأديان التي ذكرها الله في

كتابه .

والا قتلناكم عن آخركم ؟ فأنى قد أنظرتكم الى أن أرجع من سفرتي

هذه فإن أنتم دخلتم في الاسلام ، أو في دين من هذه الأديان التي ذكرها

(١) قال أبو حبان في البحر المحيط ج ١ ص ٢٢٩ : قال قتادة والكلبي هم بين اليهود والنصارى يخلقون أوساط رؤوسهم ويحبون مذاكيرهم ثم قال انه رأى غريب قرأته وذكرته ولم يتحقق لدي .

الله في كتابه ، والا أمرت بقتلكم واستئصال شأفتكم ، ورحل المأمون يريد بلد الروم فغيروا زيهم وحلقوا شعورهم وتركوا لبس الأقبية وقد قصر كثير منهم شعورهم ولبسوا زناير ، وأسلم منهم طائفة وبقى منهم شذمة بحالهم ، وجعلوا يحتالون ويضطربون حتى انتدب لهم شيخ من أهل حراة فقيه ، فقال لهم : قد وجدت لكم شيئا تنجون به وتسلمون من القتل فحملوا اليه مالا عظيما من بيت ما لهم أحدثوه منذ أيام الرشيد الى هذه الغاية وأعدوه للنوائب .

فقال لهم : اذا رجع المأمون من سفره فقولوا له : نحن الصائبون فهذا اسم دين قد ذكره الله جل اسمه في القرآن فانتحلوه فأنتم تنجون به ، واتفق أن المأمون توفي في سفرته تلك عام ١٢٨ هـ .

انتحلوا هذا الاسم منذ ذلك الوقت ، لأنه لم يكن بحران ونواحيها قوم يسمون بالصابئة ، فلما اتصل بهم وفاة المأمون : ارتد كثير ممن كان تنصر منهم ورجع الى الحرمانية ، وطولوا شعورهم ، حسب ما كانوا عليه قبل مرور المأمون بهم على أنهم صابئون ، ومنعهم المسلمون من لبس الأقبية ومن أسلم منهم لم يمكنه الارتداد خوفا من أن يقتل فأقاموا متسترين بالاسلام فكانوا يتزوجون بنساء حرانيات ويجعلون الولد الذكر مسلما والانثى حرمانية وهذه كانت سبيل كل أهل « قرعوز » « سلمسين » القريتين المشهورتين العظيمتين بالقرب من حران الى منذ نحو عشرين سنة هـ . .

فان الشيخين المعروفين : بأبى زرارة ، وأبى عروبة علماء أهل حران : بالفقه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وسائر مشايخ أهل حران وفقهائهم : احتسبوا عليهم ومنعهم من أن يتزوجوا بنساء حرانيات أعنى صابئات وقالوا : لا يحل للمسلمين نكاحهم لأنهم لسن من أهل الكتاب . وبحران أيضا منازل كثيرة الى هذه الغاية بعض أهلها حرمانية ممن كان أقام على دينه في أيام المأمون وبعضهم مسلمون وبعضهم نصارى ممن كان يدخل في الاسلام وتنصر في ذلك الوقت مثل : قوم يقال لهم : بنو أيلوط ، وبنو قبطران وغيرهم مشهورون بحران (١) .

(١) النهرست لابن النديم ص ٤٤٥ ، ٤٤٦ .

فما ذكره ابن النديم المتوفى ٣٧٨ هـ يفيد من ظاهر نصه أن نحلة الصابئة انتحلت لهم في عصر المأمون وهو قابل للطعن وغير قابل للرفض .

أما قابليته للطعن : فإن ما ذكره الشهرستاني عند الحرانانيين « بأنهم جماعة من الصابئة (١) هذه العبارة : تتيح مجالا للطعن فيما قاله ابن النديم فضلا عن كتب التاريخ الفكرى التى تجعل حران مركزا مهما للتبادل الثقافى فى تلك المنطقة ، وتجعل أهلها وثنيتين يعبدون الكواكب مما دفعهم الى ملاحظة السماء والتعمق فى الدراسات الفلكية ، هذه الدراسات لها عند الصابئة مكانتها الأولى العلمية والتقديسية ، ومما يضاف الى الطعون السابقة قول الألوسى : وهؤلاء أى الصابئة كانوا قوم ابراهيم وهم أهل دعوته وكانوا بحران (٢) .

ونرى أنفسنا أمام روايات متعددة تسند لحران مذهب الصابئة حينما وتجعلها مركزها القديم سوى نص ابن النديم الذى يقرر : أن الصابئة منحولة للحرانانيين .

لذلك قلنا أن النص قابل للطعن وتيار الطعن قوى .
 فالشهرستاني : يجعل الحرانانيين جماعة من الصابئة .
 والألوسى : يقول أن الحرانانيين أصل الصابئة .
 المسعودى : ينسب الى بوداسف أول من أظهر آراء الصابئة من الحرانيين والكيمايين وهذا النوع من الصابئة مبين للحرانيين فى نحلته .
 هذه أقوال يمكن أن تتيح مجالا للطعن فى رواية دون أخرى .

فاذا اعتبرنا قول ابن النديم منصرفا الى هذه الجماعة بذاتها فانا نصدم بتعقيب داخل النص نفسه يقول : « وانتحلوا هذا الاسم منذ ذلك الوقت لانه لم يكن بحران ونواحيها قوم يسمون بالصابئة » فنص ابن النديم هو رواية عن كتاب ذكره على أنه حكاية فى أمرهم من غير استقصاء تاريخى وعلى

(١) الملل والنحل ص ٥٨ ج ٢ .

(٢) بلوغ الأرب ص ٢٢٤ ج ٢ يذكر أحمد أمين رواية ابن النديم ويأخذ بها يقول : وهم الذين تسموا بعد ذلك - فى مصر المأمون وبعده بالصابئين وكان منهم كثيرون من المؤلفين ومن تولوا الترجمة : نجر الاسلام ص ١٢٠ ج ١١١ .

ذلك فقد نقبلها ونصرفها الى هذه الجماعة بذاتها وأنها غير الصابئة ، ونرفض ما فيها من تعليقات ، ولا سيما أن ابن النديم نقلها من غير تعليق وأسندها الى غيره ، وبذلك تتعاون النصوص على اثبات الصابئة للحرثانيين .

وسواء قوى نص ابن النديم أو ضعف أمام نسبة الصابئة الى حران فإن هناك شيئا جوهريا ينبغي للتعقيب عليه وهو أن الصابئة المذكورة في القرآن ليست هي صابئة حران (١) .

ثالثا : صابئة الهند :

صابئة الهند مفزعها الثوابت من حيث أنهم ربطوا عبادتهم بزحل وزحل من شأنه البقاء والثبوت وهم الذين قالوا : بالتناسخ والحلول .

١ - التناسخ : يعنى لديهم أن تتكرر الأدوار والأكوار الى ما لا نهاية به له ويحدث في كل دور مثل ما حدث في الأول .

والثواب والعقاب في هذه الدار لا في دار اخرى لا عمل فيها .

٢ - الحلول : يعنى لديهم الشخص ربما يكون ذلك بحلول ذاته وربما يكون بحلول جزء من ذاته على قدر استعداد مزاج الشخص .

والهياكل تحل فيه فينطلق بلسانها ويبصر بعينها ويسمع باذانها ويقبض ويبسط بها. (٢) . وفي هذا يقول مجاهد : هم قوم لا دين لهم ليسوا بيهود ولا نصارى .

(١) يقول السيد عبد الرزاق الحسيني في كتابه : الصابئة قديما وحديثا ص ٢١ . من المتعذر جدا أن يتوفق الباحث الى معرفة ما بين هذه الفرق من الرابطة . فقد ذكر القرآن قسما من الصابئة ولسرها المسلمون بعد أن نسبوا لها أصولا وتقاليدها تختلف كثيرا عن الصابئة الحرائية ، كما أن هذين التسميين من الصابئة يختلفان كثيرا عن صابئة البطائع المبتولين الآن في مدن العراق النهرية .

والحق أن كل فرقة من هذه الفرق تختلف في أصول معتقداتها عن الاخرى اختلافا واسعا فقد سكن الصابئة الذين ورد ذكرهم في القرآن بلاد العرب ومصر قبل الاسلام وقبل النصرانية واليهودية وقد انقروا وعفت أخبارهم فأصبح من المتعذر علينا بيان معتقدتهم بالتفصيل .

(٢) الملل والنحل ص ٥٠١ ج ٢ تحقيق د / محمد بن فتح الله بدران .

رابعاً : صابئة الفلاسفة :

وهم الذين بدعوا عبادة الكواكب وأبراجها ، وصفهم المسعودى بقوله :
« ألا أنهم من حشوية الفلاسفة » ويقول : إنما أضفناهم الى الفلاسفة
اضافة سبب لا اضافة حكمة .

يقول الألوسى : والفلاسفة يأخذون بزعمهم بمحاسن ما دلت عليه العقول
وعقلاؤهم يوجبون اتباع الأنبياء وشرائعهم ، وبعضهم لا يوجب ذلك ولا
يحرمه ، وسفهاؤهم وسفلتهم يمنعون ذلك (١) .

ويبدو أن فلاسفتهم اتصلوا باليونان وكان بينهم وبين اليونانيين
محاورات مما سوغ اطلاق فلاسفة على حكمائهم ، وآية ما ينسبه ابن النديم
للكندى أن له «رسالة فى ماجرى بين سقراط والحرانيين» بذا لا يجانبنا الصواب
ان اعتبرنا لهم ففلاسفة بمعناها اليونانى على خلاف ما يرى المسعودى .

يقول الألوسى :

فهؤلاء الصابئة كفروا بالأصلين اللذين جاءت بهما جميع الرسل والأنبياء
من أولهم الى آخرهم .

أحدهما : عبادة الله وحده لا شريك له ، والكفر بما يعبد من دونه من اله .
والثانى : الايمان برسله وما جاءوا به من عند الله تصديقاً واثاراً
وانقياداً وامثالاً .

وليس هذا مختصاً بمشركى الصابئة كما غلط فيه كثير من أرباب المقالات
بل هذا مذهب المشركين من سائر الأمم ، لكن شرك الصابئة كان من جهة
الكواكب والعلويات (٢) .

(١) نفس المرجع ص ٢٢٦ ج ٢ .

* لابن تيمية بعض الملاحظات خاصة بالصابئة غير دقيقة مثل قوله : وهكذا تكون
مناظرة الصابئة للفلاسفة والمشركون ونحوهم وقوله : الصابئة الفليسوف ، وقوله : وهو الغالب
على الصابئة المبدين مثل أرسطو واتباعه .

ثم يقول : وعريت طائفة من كتب الاعلم من الجوس والفرس والصابئين الروم ،
والمشركين العند براجع الفتاوى ج ١ ص ٦٥ ، ٧٧ ، ١٢٠ ، ٢٩٧ و ج ٤ ص ١١٢، ١١٥

والمعتمد عند علماء الاسلام أنهم ليسوا أهل كتاب ولا نبي أى هؤلاء
الفلانفة الصابئة •

خامسا صابئة أهل الكتاب :

(أ) صابئة اليهود :

وهم نوعان :

النوع الأول : هم الذين اتبعوا المسيح من اليهود فهم فى عرف اليهود
صابئة •

النوع الثانى : وهم الذين وافقوا أبر للوثيوس عندما أعلن الوثنية
فى معبدهم ووضع تمثالا لهيكل اغريقى •

(ب) صابئة : مسيحيون :

وهم الذين اتبعوا القديس يوحنا المعمدان فى شعيرة التعميد (وهؤلاء
هم المنديون) ولا يزال قوم منهم يسكنون الى الآن الأغوار المحاذية لمصب
الفرات (١) •

لهذه الاصناف الكتابية يمكن أن تحمل عليها ما ذكره من آثار :

قال ابن أبى نجيح قوم تركب دينهم بين اليهودية والمجوسية لا تؤكل
ذبائحهم •

— قال ابن عباس هم قوم من اليهود والنصارى لا تحل مفاكتهم ولا
تؤكل ذبائحهم •

— وقال أبو العالية : قوم من أهل الكتاب ذبائحهم كذبائح أهل الكتاب
يقرءون الزبور ويخالفونهم فى بقية أفعالهم •

— وقال الخليلي هم أشباه النصارى قبلتهم مهب الجنوب ويقرءون الزبور
ويعبدون الملائكة (٢) •

(١) تاريخ سورية ص ٩٨ ج ٢ •

(٢) تفسير البحر المحيط لأبى حبان ج ١ ص ٢٣٦ •

سادسا : صائبة البطائح :

« يعيش بين ظهرانينا في العراق قسم من الناس لهم تقاليدهم ، وعاداتهم ولغتهم . ويكادون أن يكونوا ممتازين بكل مظاهر حياتهم وحتى بأشكالهم وسحنة وجوههم ، ويطلق عليهم اسم (الصابئة) وقد يكون هؤلاء هم الصابئة الأصليون وقد لا يكونون . الا أن الشيء المحقق هو أن قسما كبيرا من عبادة الصابئة القديمة وطقوس دينهم ، بارزة بين معتقدات وطقوس هؤلاء القوم . فعبادة النجوم واستقبال نجم القطب وتآليه الكواكب وغير ذلك من أصول الدين الصابئي مما يتدين به هذا المجموع الممتاز .

وقد يتعرف الباحث من اللغة التي يتكلم بها هؤلاء ومن أسباليهم شعور لحاحهم ورؤوسهم ، أنهم شعب غريب نزع الى هذه البلاد واستوطنها واحتفظ بما له من تقاليد وعادات والتزم بالسكنى على ضفاف الأنهر وبقرب المياه الجارية نظرا لما يقيمه من الطقوس التي لا تتم الا بالارتماس في الماء الجارى لذا عرف هذا القسم من الناس بصابئة البطائح نسبة الى بطائح العراق المشهورة .

اما هذا الشعب قد انحدر من الصابئة الحرائية أو أنه من بقية الصابئة الأقدمين ، فامر مشكوك فيه وموكول الى فحص التاريخ الحقيق .

ونظن أن احسن رواية — وقد تكون اقربها الى الحقيقة — هي التي اثبتها الهنرى يونيون في كتابه الفرنسى الموسوم بـ (الرقم المندائية) المطبوع في عام ١٨٩٨ فقد جاء في ص ٢٢٤ منه تحت عنوان (الفرقة الدستائية) وهي المندائية التي اشتهر بها الصابئة الحاليون ما مضمونه : ان صاحبها (أى صاحب هذه الفرقة) كان متسولا وقد جاء من بلاد ما بين الزابين الى ميسان (أى جنوب العراق) للتسول وكان مسيحيا اسمه (دبدا) واسم أمه (أم كسطا) ثم توطن ضفاف نهر قارون وأسس ديانة جديدة وعقائد مأخوذة معظمها من المرقيونيين والمناويين والكفتيين وغيرها من الفرق الصائبة ، ثم توسعت هذه الطائفة على ممر السنين وسموا بالصابئة المغتسلة لأن جميع طقوسهم الدينية لا تتم الا بالاغتسال في الماء الجارى ا ه .

والذى يؤسفنا كثيرا ويجعل تاريخ الصابئة مفصّولا وغير مرتبط
الحلقات ، خلو هذا التلخيص من الزمن الذى يعين قدوم (حيدا) الى جنوبى
العراق (ميسان) الأمر الذى يوقفنا على تاريخ منشأ صابئة البطائح
والصلة بينهم وبين الصابئة الحرائية . ومع ذلك فهو لا يخلو من فائدة
تاريخية تكشف لنا عن تاريخ غامض من تاريخ الصابئة (١) .

حول نسبة مذاهب الصابئة

هرمس وعازيمون :

نسب الشهرستاني مذهب الصابئة الأولى الى هرمس قائلا :
قالت الحنفاء : بم عرفتم — معاشر الصابئة وجود هذه الروحانيات ؟
والحس ما دلکم عليه ، واللیل ما أرشدکم اليه ؟
وقالوا ، أى الصابئة : عرفنا وجودها وتعرفنا أحوالها من : «عازيمون»
و «هرمس» و «ثبيت» و «أدرس» عليهما السلام .

هذا النص يعطى الباحث ارتياحا نفسيا لما يفيد ويكشفه عن واضع
هذا المذهب ، ولكن عندما يأتى الباحث على آخر المحاور التى عقدها
الشهرستاني بين الحنفاء والصابئة يرى نصا يقول فيه الشهرستاني : وكان
في خاطر بعض زوايا : نريد نمليها ، وفي القلم خفايا أكاد أخفيها فعدلت
عنها الى ذكر «حكم هرمس العظيم» لا على أنه من جملة فرق الصابئة ،
حاشاه ، بل على أن حكمه مما يدل على تقرير مذهب الحنفاء في اثبات الكمال
في الأشخاص البشرية وإيجاب القول باتباع النواميس الإلهية على خلاف
مذاهب الصابئة .

يفيد النص استبعاد «هرمس» أن يكون واضعاً لمذهب الصابئة وحاشاه
كما يقول : الشهرستاني ، فوق في النفس سؤالان :

من هو هرمس العظيم ؟

ومن يكون اذا واضع مذهب الصابئة اذا لم يكن واضعه ؟

(١) تراجع الصابئة تديبا وحديثا ص ٢٥ ، ٢٦ .

فانتقلنا معه في كتابه لنعرف من هو هرمس العظيم ونتعرف على سر عظمته فالفينا يقول : عندما أراد أن يحقق شخصية « هرمس » وشخصية « عازيمون » : يقال : أن عازيمون ، وهرمس ، هما : شيث ، وادريس عليهما السلام .

وأسند الشهرستاني لعازيمون وضع المبادئ الأولى وهي خمسة (١) :
البارى — والعقل — النفس — المكان — والخلاء . وبعدها وجود المركبات ولم ينقل هذا عن « هرمس » .

ثم أسند أيضا لهرمس طائفة من الحكم وهو — في نظر الشهرستاني — :
الذي وضع أسامي البروج والكواكب السيارة ورتبها في بيوتها وأثبت لها :
الشرف ، والوبال ، والأوج ، والحضيض ، والمنظر : بالتثليث والتسديس ،
والتربيع ، والمقابلة ، والمقارنة ، والمراجع ، والاستقامة ، ويبين : تعديل
الكواكب وتقويمها . وأما الأحكام المنسوبة الى هذه الاتصالات فغير مبرهن
عليها عند الجميع .

وللهند والعرب طريقة أخرى في الأحكام أخذوها من خواص الكواكب
لا من طبائعها ورتبوها على الثوابت لا على السيارات .

فهرمس عند الشهرستاني غير واضح في تاريخه وفي نسبه وفي موطنه
وكل ما يعرفه به قول جاء على صيغة المجهول لا يلتبس من ورائه شيء
سوي دفع الى مزيد من البحث يقول فيه : يقال هو ادريس النبي عليه
السلام . فالحبارة فيها احتياطها العلمي للمتشكك في أمره أو الذي يحاول
على وجه من التاريخ اثباته .

وأورد الشهرستاني نصا يفيد : أنه عايش الصابئة وحمل معهم مسئولية
فكرهم وهو قوله : « انظروا — معاشر الصابئة — كيف عظم الرسالة حتى
قرن طلعة الرسول — الذي عبر عنه بالناموس — بمعرفة الله تعالى » .

على أي حال فإن الشهرستاني لم يحقق شخصية هرمس لا لنفسه ولا
للتاريخ وإن كان أسبغ عليه لقب العظيم ربما كان ذلك منه لكي يخفي قلقه

(١) يقول ابن تيمية : مذهب اليونانيين يقول أن القدماء خمسة : الرب . النفس —
المادة الدهر — القضاء . الفتاوى ج ١ ص ٦٥ تفصيل الخمسة فيه خلاف بين ابن تيمية
والشهرستاني .

من عدم معرفته وإن ما ذكره عنه من حكم : يبدو عليها التكلف ، وطابع التأليف الشهرستاني .

وأما قوله : يقال هو أدریس التبی .

فإن المقارنات الحقيقية بين نصوص الشهرستاني فقط لتستبعد هذا القول وربما هذا ما جعل الشهرستاني يقف عند قوله « يقال » مرتين دون تعقيب مريح أو غير مريح ، ونأخذ على الشهرستاني عبارات تجعل هرمس في فترة تاريخية بعد الحنفاء منها : « أن حكمه تدل على تقرير مذهب الحنفاء » . فلو كان هرمس معاشيا للحنفاء لكانت حكمه مؤسسة لمذهبهم أو واضحة له فوصف حكمه بأنها متبررة لمذهب الحنفاء فيها ما يفيد بأنه وجد في فترة تالية لهم .

وعبارة هو أدریس ، تفيد : أنه مقدم على نوح أو هو جده ، والحنفاء يرجع نسبتهما إلى إبراهيم .

وصاحب كتاب فقر الحكماء ونوادر القدماء والعلماء (١) : اختار مجموعة من الفلاسفة ، وذكر عنهم بعضا من حكمهم ، ونوادرهم ، ذكر من بينهم : « هرمس الفيلسوف » فذكر حكمه ونوادره ، دون ذكر شيء عنه ، وعند مطالعنا تلك الحكم تبيننا منها : أنها هي الأخرى مجموعة تأليفات أخذت من حكم « لقمان » في القرآن ، يقول الدكتور : عبد الرحمن بدوي : ويلوح أن المؤلف كان أديبا في غالب أمره ولم يكن من المشتغلين بالفلسفة أو علوم الأوائل إلا على سجل الثقافة العامة وقيل ذلك قال : على أن نقد المصنف لا يستطيع أيضا أن يعتمد على النقد الباطن لمضمون الكتاب وإنما تهجم المشاكل حين يتعرض الباحث لما فيه :

وأولها مشكلة الأسماء التي نسب إليها حكما نادرة فبعضها لا نعرف

(١) هذا الكتاب نشر للدكتور عبد الرحمن بدوي ضمن رسائل فلسفية للكدي والباربي وابن باجة وابن عدي من منشورات الجامعة الليبية — بنغازي ج ١ ١٩٧٣ ص ٢٧٧ .
يراجع الشهرستاني لان التديم ص ٥٦ ذكر فيها كتبه ومدعى ثلاثة عشر كتابا أو رسالة في صفحة ٩٧ ذكر أسما الفلاسفة الذين تكلموا في الصنعة .

بالدقة من هم ؟ وهذا ينطبق على : زيمون الشاعر — أرطيبوس — زيموس •
وعند مراجعتنا ابن النديم وجدناه يقول : قد اختلف في أمره •

ف قيل : أنه كان أحد السبعة السدنة الذين رتبوا لحفظ البيوت السبعة •
وقيل : أنه كان إليه بيت عطارد وباسمة يسمى ، فان عطارد باللغة
الكلدانية (هرمس) •

وقيل : أنه انتقل الى ارض مصر لأسباب وأنه ملكها وكان له اولاد
عدة منهم : طاطا وصا ، وأشمن ، وأثريب ، وققط ، وأنه كان حكيم زمانه
ولما توفي : دفن في البناء الذي يعرف بمدينة مصر بأبي هرمس ، ويغرفه
العبادة بالهرمي ، فان أحدهما : قبره ، والاخر قبر زوجته ، وقيل : قبر
أبنه ، الذي خلفه بعد موته • وذكر لهرمس كتباً منها : كتب في النجوم ،
والفِرَنجات ، والروحانيات ، وكتاب قيلادس ، تلميذ هرمس ، في رأى
هرمس • وعده ابن النديم من بين أسماء الفلاسفة الذين تكلموا في الصنعة
فقال : وهم : هرمس وأغاذيمون •

والآراء : والأقوال ، التي ذكرها ابن النديم : نراها لا تذكر ما رواه
الشهرستاني بأنه : قيل ادريس ، فاذا أضفنا ما قاله الشهرستاني وهو ، لم
يذكره ابن النديم فإنه يعتبر قولاً رابعاً لأنه لا يلتقى مع ما ذكره ابن النديم
وينبغي أن يذكر : أن ابن النديم ذكر أقوالاً هي في مجموعها لها علاقة
باسم « هرمس » ، ومن جانب آخر أن ابن النديم يجزم أنه اسم لشخص
وذكر مؤلفاته وأبناءه ، فالمؤلفات العربية ترى في هرمس انساناً له دوره
التاريخي •

ونحن في سبيل التحقيق رجعنا الى معجم اللغة الفارسية واستعرضنا
المادة فوجدناها تطلق على الاتي : هرماس : شيطان • أهريمن •

هرمز : اسم كوكب المشتري • اليوم الأول من كل شهر شمسي •
واسم يوم الخميس ورب النوع لدى الزرشتيين •
وتلفظ : أرمزد • أورمز • أهرامزدا •

هرمس • هومزة : عطارد : رب النوع الـمصريين (١) •

فقواميس اللغة الفارسية لم تذكر أنه أطلق على شخص ما انما كل ما ذكرته أنه أسما لاله أو لكواكب أى يحمل معنى من معانى المقصسات •

ويذكر اميل برييه عن كرنوس

في كتابه : نصا يقول فيه :

أتر هرمس . « هو اللغوس الذى أرسلته الالهة من السماء نحونا » ثم يقول : كلمة هرمس ترجع الى أن اللغوس هو وسيلة دفاعنا وأنه كقلعة لنا • ثم يقول : وهرمس هو رئيس النعم •

واللغوس : غند فيلون : هو رسول الالهة :

وهرمس : قائد الأرواح •

وهرمس ولد عن زوس •

فاتخذ زوس ومايا (ابنه أطفلس ومه عطارد) هذا الاتحاد

كان منه هرمس •

فهرمس كائنات غير واضح تاريخيا ونسبا وموطنا وزمنا ، والمصادر

التي تكلمت عنه يناقض بعضها فضلا عن ضعف روايتها الكائن فيها •

ويقرتب على ذلك ضرورة ظهور السؤال الثانى وهو : لمن ينتسب مذهب

الصائبة ؟ على فرض عدم نسبيتها . (لهرمس ، وهذا ما ذكره الشهرستانى

ضمنا في مخاورة الخفاء للصائبة عندما نفاها عنه • مع أنه نفسه لا يعرف

من هو « هرمس » حين تكلم عنه في كتابه الذى حصصه بلث تلك البحوث

التاريخية الدينية وهو الملل والنحل : وصنعتة فيه تحقيق التاريخ الدينى

وسوف يظل السؤال : لمن تنتسب الصائبة ؟

أما ابن النديم وهو الذى توسع فيه توسعا يغلب عليه الاحاطة فاننا نراه

(١) يراجع المعجم المعجم الذهبى فارسى - عربى الدكتور محمد التونجى فريهك طلائى

ص ٦٠٢ دار العلم للملايين - بيروت

خدم منهجه . وهو جميع المعلومات عن المؤلف ومؤلفاته . فهو كوراق .
ليس مطلوباً منه أكثر مما قدم وهو فهرسته . ومن العناصر التاريخية .
من خلال ما ذكره ما يؤكد أن هناك ارتباطاً بين هرمس وبين عناصر مقدسة
ويطعن في نحلة الاسم لشخص .

يقول الدكتور : أبو العلا عفيفي :

من بين الوثائق اليونانية الهامة : مجموعة من المقالات الفلسفية الدينية
كتبها متأخروا العصر اليوناني بالاسكندرية فيما بين القرن الأول والثالث
المسيحيين على وجه التقريب وتعرف هذه المجموعة باسم :

أى الكتابات الهرمسية نسبة إلى هرميس الإله اليوناني المصري (١)
المعروف باسم : هرميس المثلث الحكمة أو « المثلث العظمة :

(٢) وقد كان لهذه الكتابات أثر بالغ في تشكيل

الحياة الروحية المسيحية وتشكيل العقيدة الإسلامية والفلسفة والصوفية .
وهذه الكتابات الهرمسية هي الحلقة المفقودة في تاريخ التراث اليوناني
والفلسفة الإسلامية .

ثم يقول : لا عبزة لما ذهب إليه المؤرخون القدماء وتابعهم في القول
مؤرخو العرب من أن الكتابات الهرمسية منسوبة خطأ إلى هرميس المثلث
الحكمة الذي عاش في زمن موسى أو قبله ، وأنه كان «مصدر علوم اللاهوت
والأسرار التي اختص بها كهنة مصر منذ عصور سحيقة» فقد أظهر التحليل
التاريخي النقدي بطلان هذه الأسطورة منذ أواخر القرن السادس عشر وبرز
على أن هذه المقالات صدرت عن أقلام كتاب عديدين لا كاتب واحد وأن

(١) الآراء الدينية والفلسفية (ميلون الاسكندري) قاله الاستاذ أميل بروجيه قريظة
الدكتور محمد يوسف موسى ، ومبد التحريم للتجارة من ١٩٣٠ .

(٢) بينما جورد اليهود محتمة بينهم وبين السلطات الرومانية تكتب « يودايسموس »
إلى «إنها» أبو للونيوس في ٢٠ يونيو من عام ١١٦٠ مؤكدة له أنه شخصية إلهة وخاصة هرميس
(«إله هرموس» بوليس) الذي لا يظهر .

لعله هو الذي لا يظهر . من ١٩٤٥ .

يراجع مصر والامبراطورية الرومانية في ضوء الأوراق «البردية» . مبد المثلث العظمة

على .

الفلسفة اليونانية ، الأفلاطونية والفيثاغورية بوجه خاص — كانت أصلا لها ومصدرا على عكس ما كان يعتقد من أن فلسفة هرميس كانت الأصل الذى استقى منه الفيلسوفان اليونانيان فلسفتهم ويختلف شرح هذه الرسائل باختلاف كتابها ، فأحيانا ترى الحديث : يحور بين هرميس وابنه طاط ، أو بينه وبين اله الطب اسقليبوس ، أو بينه وبين الملك آمون : وأحيانا يصور هرميس بصورة التلميذ الذى يتلقى الوحي أو عن الاله بويمذريس كما هو الحال في الرسالة الأولى أو عن الاله اغاثا فيمون .

وتدبر الشواهد التاريخية : على أن كتابات هرميس قد وصلت الى المسلمين لا عن طريق الاسكندرية التى هى منبعها الاصلى ، بل عن طريق « حران » التى ورثت ثقافة الاسكندرية وحافظت عليها قرونا عديدة قبل الاسلام وبعده . ولكننا لا ندرى على وجه التحقيق كيف بدأ وصول هذه الكتابات الى حران ولا في أى زمن بدأ ولا الرجال الذين تم على أيديهم نقل هذه الثقافة .

ويحدثنا التاريخ ايضا : أن جماعة الحرانيين الذين كانوا يعرفون باسم الصابئة . قد اتخذوا فلسفة هرمس : دينا لهم ، واعتبروا هرميس واغاثا فيمون وغيرهما من الحكماء الذين وردت أسماؤهم في الرسائل الهرميسية : انبياءهم ، كما اعتبروا هذه الرسائل : كتابهم المقدس ، وأن وثنيى حران عندما آمنوا جانب المسلمين ونال بعضهم النظرة عند خلفاء بنى العباسيين تدفق سيلهم على بغداد وأسسوا المدرسة الأفلاطونية الحديثة أشبه بالمدرسة الأفلاطونية الحديثة التى كانت قائمة في أثينا حتى أغلقها الامبراطور جوستنيان حوالي سنة ٥٢٩ م غير أن مدرسة بغداد الحرانية جعلت من أول اقواضها نشر تناليم هرميس واذاعها بينما أغفلت أختها الاثينية هذه التناليم وأهملتها. (١) .

(١) الاثر الفلسفي الاشكدرى في قصة حى بن يعقوب أبو الملا عتيلى لجنة التاليف والترجمة والنشر ، بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب
الآن المجلد الثاني ١٩٦٤ م

منذ ذلك الوقت اشتهر اسم هرميس في الأوساط الإسلامية وقبل استحدث عنه ومن عجائب حكمته وعلمه وظل موضع اجلال المسلمين واحترامهم حتى نهاية القرن السادس الهجرى ورفع المسلمون لا الى مصاف الآلهة كما فعل اليونان والمصريون بل الى مصاف الأنبياء مما ثبت قطعا أن الفلسفة الهرميسية لم تصل الى المسلمين في صورتها اليونانية الخالصة بل وصلتهم بعد أن امتزجت ببعض الأفكار والعقائد الاسرائيلية . ومما يثبت تأثر الفلسفة الهرميسية التي وصلت المسلمين بالأفكار اليهودية أن تعدد الهرامسبة عندهم وأصبحوا ثلاثة :

الأول : هرميس الهرامسة الذى قالوا : أنه ادريس النبى أو اخنوخ .
ذكروا : انه ولد بمنف ، وعاش قبل الطوفان ، وعنه ظهرت كل العلوم التي عرفها الانسان في ذلك العهد .

الثانى : هرميس البابلى ، الذى اعتبروه من تلاميذ فيثاغورث ، ذكروا : أنه عاش بعد الطوفان ، وأنه كان عالما بالطب والفلسفة وطبائع الأعداد والكيمياء . ونسبوا اليه : ثيرا من الروحانيات والطمسات بل قالوا انه انتقل الى مصر وحكمها كان له اولاد منهم طاط واشمن وقفط وغيرهم
الثالث . هرميس المثلث الحكمة : قالوا سمي كذلك لأنه ثالث الهرامسة الحكماء ونقلت العظمة .

وليس من شك في أن هرميس الأول من خلف الخيال اليهودى وأن هرميس الثانى اسم اخترعه العرب لمؤلف المقالات الهرميسية التى تدور حول العالم علوم الأسرار من السحر والطمسة والكيمياء وما إليها .

أما هرمس الثالث : المثلث الحكمة فلم يعرفه للعرب بالاسم فقط بل عرفوا الرسائل المنسوبة اليه ، يقول القفطى فى تاريخه ونقلت من صحف هرمس المثلث بالحكمة : نبذا ، هى من مقالاته الى تلميذه طاطى على سبيل سؤال وجواب بينهما وهى على غير نظام وولاء ، لأن الأصل كان باليبا مقرقا ، وتغير القفطى كتاب كثير من يشيرون الى رسائل هرميس ونحوها فى أصل عربى ، أو ترجمة سريانية والى اقتباسهم منها مما لا يدع مجالاً للشك .

في أن العرب عرفوا هذه الرسائل في صورتها الأصلية • نرد على ذلك أن كتبنا عربية وضعت برمتها ملخصة الفلسفة الهرميسية مما ساعد كثيرا على ذبوع هذه الفلسفة وشيوعها بين المسلمين • من هذه الكتب : كتابان اشار اليهما العلامة الأستاذ « سانتلانا » في محاضراته في الفلسفة الإسلامية بالجامعة المصرية القديمة وهما :

« كتاب « سر الخليفة » المنسوب لبليقتوس (وهو ابن (لونقيوس الطياني من أهل طيانة) الفيثاغوري من حكماء القرن الأول المسيحي : وهذا الكتاب مخطوط بمكتبة باريس وهو يحمل طابعا هرميسيا لا يشك فيه الأستاذ سانتلانا •

✽ والثاني : رسالة « هرميس المثلث بالحكمة في معاتبة النفس أو معازلة أوزجر النفس » • وقد تعرف أيضا باسم (رسالة المعاني) وتنسب خطأ الى سقراط وأحيانا الى أفلاطون أو أرسطو •

وقد طبع الأبواب السبعة الأولى منها الأستاذ « فلايشر » سنة ١٨٧٠ وطبع الباقي منها الأستاذ (باردنهافر) سنة ١٨٧٣ • ونشر الرسالة برمتها في العصر الحديث الراهب الخوري « فليمون » الكاتب أحد رهبان دير المخلص سنة ١٩٠٣ ببيروت (١) • من كل هذا يتبين الى أي حد انتشرت تعاليم هرميس في الشرق القديم قبل الاسلام ويعده •

بوداسف :

ذكر المسعودي صاحب كتاب مروج الذهب : أن الذي جدد مذاهب الصابئة « بوداسف » وفد من الهند الى فارس في حكم طهمورث من ملوك الفرس الأولى : وما ذكره المسعودي لم نره لغيره •

(١) اتمدنا في الكتابة الخاصة من هذين بملة أساسية على البحث السابق ، دكتور أبو العلا ميني •

فرايت أن أقتبع تاريخه في المعاجم الفارسية ولا سيما بعد ما انتهينا من البحث عن تاريخ «هرمس» الذي ذكره الشهرستاني في المحاوراة التي وقعت بين الحنفاء والصابئين ورأينا ما وصل إليه البحث من نتائج .

فقتبعت في المعاجم الفارسية فلم أعث له على ذكر فيها غير أنه غلب على ظني أن «بوداسف» الذي أورده المسعودي محدثا لمذهب الصابئة ولا سيما أنه نشأ في الهند — كما ذكر أيضا — هو : «بوذا» واضع الديانة البوذية .

و «بوذا» «ينطق بالفارسية» بوذا ويبدو أن المسعودي — وهو الذي انفرد بذكره — نقله محرفا ، أو نقله ترجمة عن الفارسية ، بتلك الزيادة من بعض الرسائل القديمة . وإذا كان «بوداسف» هو بوذا ، فهناك علاقة بين ما ذكره المسعودي — وبين تعاليم «بوذا» ؟

يقول الدكتور محمد غلاب .

ليس عندنا من المصادر عن الديانة الفارسية السابقة على (زرادشت) القدر الكافي لأعطائنا عنها صورة واضحة تمكفنا من تحليلها على الطريقة العلمية القيمة . وإنما كل ما نعرفه في هذا الصدد : هو أن نقوشا أثرية ، يرجع تاريخها إلى القرن الرابع عشر قبل المسيح وجدت في الشمال الغربي من بلاد فارس ووجدت فيها : أسماء آلهة هندية وهي و

✱ ميتهرا .

✱ ادرا .

✱ فارنا .

ولما كان من غير الممكن أن تصل هذه الآلهة الهندية إلى ذلك المكان دون أن تخترق البلاد الفارسية استفتج بعض الباحثين ونخص منهم بالذكر الأستاذ «تينيس سوريه» : أن للديانة الهندية أثرا عظيما على الفارسية الأولى . ثم يقول الدكتور غلاب : ومهما يكن من الأمر فإن تأثير الفارسية بالهندية أمر مقطوع به إذ أننا نجد مثلا في الكتاب الفارسي المقدس أسطورة. تحثنا «بيما» أول انسان أطمع أبناءه لحما محرما ولعله «لحم ثور» ليصيرهم خالدين .

وبالاحظ : أن بيما الذي هو أول-الإنسان عند الفرس هو نفس (باما) أول
إنسان في الديانة الهندية- (١) .

هذا من وجهة النظر العامة ولا يبعد عما يفهم من كلام المسعودي وهذا
نصه : ويقال أن هذا الرجل أول من أظهر آراء الصابئة من الحرائين
والكيمايين . وهذا النوع من الصابئة مباين للحرائين في نطقتهم .

لفهم هذا النص ينبغي توضيح بصفة عامة : آراء الحرائين والكيمايين .

حراة مدينة من مدن العراق وعرفت مدرستها في التاريخ الفكري بأنها
مدرسة وثنية . كانت ذا أهمية كبرى لمرور طرق القوافل وأن اشتقاق اسم
المدينة في البابلية « خراؤو » أو « حراؤو » تعني الطريق .

كما اشتهرت في التوراة في سفر التكوين : ٢٤ : ٤ ، ٢٩ : ٢١ ، وأنها
كانت الموطن الأصلي للابناء العبرانيين الأوائل قبل ذهابهم الى فلسطين ،
والمرجح كثيرا أن ابراهيم وأحفاده من أراضى هذه المنطقة كما تشير الى ذلك
التوراة نفسها (٢) في هذا المركز عاشت الصابئة وهي كما يقول الشهرستاني :
الحرائية هم جماعة من الصابئة .

ثم يقول : عن مذهبها الحلولى :

« ثم من المواليد قد يتفق شخص مركب من صفوفها — أى العناصر —
دون كدرها — ويحصل له مزج كامل الاستعداد فيتشخص الاله به في العالم .

هذا فضلا عن فصل آخر للشهرستاني عنهم عنوانه بقوله : « مزاعم
الحرائية (٣) » .

(١) يراجع الفلسفة الفترية : بحوث تحليلية — الدكتور محمد غلاب مقالات نشرت
بمجلة الرسالة سنة ١٩٢٧ السنة الخامسة .

(٢) يراجع : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ص ٢٢٣ . د . طه باقر .

(٣) المل والنحل الشهرستان ص ٥٨ ج ٢ .

ويصفها « أوليري » بصفة عامة فيقول :

هذا وكان هناك بعض مصادر ثانوية متفرقة للعلوم اليونانية مثل مدينة حران التي كانت مستعمرة يونانية ظلت متشبثة بوثنيتها في منطقة مسيحية ويغلب على الظن أنه كان لها نصيب في نقل العلوم اليونانية الى العرب ولو في أضيق نطاق ، فمدرسة حران عرفت وتخصصت في الوثنية ولا نرى مؤلفا أو باحثا في تاريخ الفكر العربي يذكرها دون أن يصفها بالوثنية .

فمدينة «حران» ظلت مركزا مهما دائما للثقافة اليونانية في المنطقة التي يتكلم أهلها اللغة الآرامية الشرقية ، وكانت الى جانب هذا نقطة مهمة للتبادل والاتصال ، أما أهلها فكانت الغالبة منهم وثنيين يعبدون الكواكب مما دفعهم الى ملاحظة السماء والتعمق في الدراسات الفلكية. (١) .

فالآراء التي حملها «بوداسف» تتميز بالوثنية كوثنية حران وليست هي آراء حران انما تتفق في الوثنية فقط مع الحرانيين . وديانة (بودا) من الديانات التي تتميز بالالحاد ومن أقدمها التي لا تعترف باله خارج عن عناصره .

فنتساءل : ما هو الاله ؟

هل هو نفس العناصر ، اذا كان ذلك فلا يكون في الأمر جديد سوى وضع اسم مكان آخر ، واذا كان غيرها ولها هذه الخواص التي نشاهدها فقد ثبت خلوه هو من بعض الخواص الثابتة للعناصر ، وهو نقص فيه واذا كان له كل خواصها فلم يكن في حاجة اليها ، لاتخاذها وسيلة لايجاد العالم ، واذا ف نحن أمام خلاء من الالهية يؤيده منطقها (٢) .

أخذت هذه الآراء عدة تحويرات حتى تطورت الى « حلولية » على يد « سانكرا » الذي قرر : أن هذا العالم الظاهر ، ليس هو حقيقة الاله انما هو كائن أدنى محدث ، ولكن كل جزئية منه ، تشتمل على طرف من تلك الحقيقة الالهية . غير أن « سانكرا » لم يكذب يعلن هذه الآراء حتى وصفه البزاهمة

(١) علوم اليونان وسبل انتقالها الى العرب . دلاسى أوليري ترجمة د. وهيب كامل

ص ٣ .

(٢) الفلسفة الشرقية : بحوث تحليلية لكون محمد غلاب .

بأنه بوذى ، يتقمص : جسم « براهمى » ، أو زنديق يرتدى . ثوب متدين ، وكان ذلك مؤافقا بالمصادفة لأوان الفتح الاسلامى وعلى بدء تاريخ جديد بجرر الباحثين اثر الاسلام فى تلك الأصقاع على صورته الحقيقية فالالحاد الوثنى يتغلغل فى البوذية وتعاليمها وذلك أول ديانة — كما تزعم لنفسها — تتخلى عن الله ولا تخرجه عن العناصر الكونية .

يقول الدكتور ميرزا مهدى

وأهل هذا الدين ، يعتقدون أن (بوذا) : هو أول من ظهر فى الأرض على صورة البشر ويجبر هذا الدين تابعيه : بأن ينزهوا ملوكهم عن الغلطات ويقدمونهم عن الهفوات ، فلذا نرى معابذهم : مزيئة بصور سلاطينهم ، وأكابر رجال كهنوتهم ، وأعاظم ملتهم ، وهؤلاء القوم ليس عندهم خبر نصي ، أو أثرى رمزى عن ظهور مجدد أو مصلح جديد فى المستقبل ليقوم ما اعوج من دعائم دين (بوذا) الا أنهم يزعمون : أن بوذا سوف يظهر مرة أخرى بنفسه عندما يرى عودته (١)

لاحظ « ميجاشنيس » وهو عامل يونانى فى بلاط مجازا وقد وضع كتابا وصف فيه الهند : أن بعض الهنود كانوا يرفعون بوذا الى مرتبة الاله يقول أوليرى معلقا : ملاحظة لها طرافتها لأنها ترينا أن البوذية فى عهده كانت قد جاوزت فعلاً طورها البدائى الذى كان فيه بوذا يعتبر مجرد معلم دينى وأنها كانت فى هذا الحين تنتقل الى طورها الثانى الذى أله فيه بوذا والتي أدت الى تصوير بوذا فى صورة انسانية (٢) .

إذا هذه الديانة البوذية كانت ترى فى الاحاد والوثنية عقيدة لها غير أن وثنياتها ليست عبادة الكواكب كما كان يرى أهل جران فمن هنا حصل التباين بين عقيدتين وثنيتين كما ذكر المسعودى .

(١) مفتاح الأبواب : رعيم الدولة الدكتور ميرزا محمد مهدى خان رئيس الحكماء الايرانى والاذرباجانى التبريزى نزيل مصر ص ٨ — ١٥ الطبعة الاولى بمطبعة النار الاسلامية بشارع درب الجمايز بمصر فى شرة رجب ١٣٢١ .
(٢) علوم اليونان ص ١٧٢ .

هل البوذية خرجت من الهند ؟

يرى المؤرخون أنها خرجت من هناك بيد أنهم يختلفون حول أسباب خروجها فبعضهم يرى ذلك عندما اغتال برهمي متعصب اسمه سنجأ آخر ملوك أسرة (ماوريا) وهو بوشيا ميترا سنة ١٨٤ ثم اغتصب العرش وأخذ يضطهد البوذيين ، أي أن الاضطهاد السياسي كان وراء خروجها .

وبعضهم يرى أن الديانة البوذية كانت في بدايتها طائفة زهدية صغيرة ولكنها فيما بعد نمت وانتشرت حتى صارت إحدى ديانة العالم الكبرى ويرجع أصل هذا الدين — في نظر أوليى — إلى نظام السانخيا الفلسفي الذي كان قائما من قبل والذي بداه كابيلا .

أما الدكتور غلاب فيرى : أن « كامبيلا » وبوذا متعاصران ، إذ قد أثر في هذا المذهب ، وفي المذهب البوذي : على تأثيرات قوية متبادلة بين المذهبين مما يدل على أنهما متعاصران تقريبا .

ثم يقول الدكتور محمد غلاب : ولكن هذه الديانة حينما أجلتها البراهمية في القرون الأولى للميلاد المسيحي لم تكن قد انعدمت من الوجود وإنما كانت قد تفرقت شذوا وجنوبا إلى الصين : واليابان وسومطرا (١) .

أما إلى أي حد انتشرت البوذية فعلا في العالم القديم فمسألة مستعصية . لكن يمكن القول أن الديانة البوذية في عهد « سوكا » : ASOQS ثالث ملوك أسرة « ماوريا » التي اعتبرها الهندوك أسرة نجسة لأنها لا تنتمي لطبقة الكهنة ، أو طبقة الجنود ، هذا الملك اعتنق البوذية لأنها لا تعر نظام الطبقات أي أهمية ، فالديانة البوذية لقيت تعصيذا قويا من هذا الملك ودعا إلى عقد مجمع بوذي ثالث في (الأسو كاراما) في ياتالي بوترا ، وتلك قرية كان بوذا قد زارها في سالف الزمان ، ونوقشت في هذا المجمع ثمانى عشرة مشكلة مذهبية وتم التصالح بشأنها . ولكن الأهم من كل هذا أنه قد ققرر فيه : أن البوذية ينبغي أن تنهج سياسة تبشيرية تدعو فيها شعوب العالم كلها ،

(١) الفلسفة الشرقية نفس المرجع .

الى اعتناق ما يقضى به (قانون التقوى) وطبقا لهذا القرار أوقدت الى الجنوب
والى الغرب (١) . فالقرار الذى اتخذته أسوكا : جعل الدعوة الى الديانة
البوذية دعوة عالمية وعلى الداعين أن يحملوا عبء الدعوة اليها ما انتشروا في
أفناء الأرض ثم أخيرا زاد من انتشار اتباعها اضطهاد البرهمن ولاتباعها .
فالعنصر البوذي الذى ظهر في شرق فارس يرجع الى مدينة « باميان »
جنوبى بلخ وكان فيها مركز بوذى عام .

وفي القرن الثالث عشر يصف ياقوت : صنمين كبيرين لبوذا في هذه
المدينة ويقعان في بهو واسع محفور في جانب الجبل . وهما صنمان يعرفان
باسمهما :

✽ سشق بد : أى بوذا الأحمر .

✽ وخنج بد : أى بوذا الأشهب .

وكانا قائمين في أيامه :

وذكرهما القزوينى كذلك .

وقد دمر (جنكيز خان) مدينة باميان هذه (٢) .

فالبوذية خرجت من الهند واختلطت بتراث فارس هربوا من الاضطهاد
الذى لاحقها من البراهمة ، كذلك من ناحية انتهاجها الدعوة التبشيرية التى
قررتها لنفسها أخيرا .

وأصبحت مدرسة (جند يسابور) التى أنشئت في النصف الثانى من
القرن الثامن أيام الملك خسرو وأنو شروان وبفضل العلماء الذين طردوا من
الرها آنذاك تقوم بعبء المزج بين التراث اليونانى والشرقى وفي هذه المدرسة
ايضا اتصل العلماء اليونانيون والبربريان والفارس بعلماء الهند وتأثر
بعضهم ببعض وزاد ازدهارها حين أقفل « جوستينيا » مدارس أثينا

(١) مراجع علوم اليونان ومنبل انتعاليها الى العرب ص ١٦٦ .

(٢) المعجم الذهبى : فارسى - عربى د . محمد التويخى برهك ثلاثى ص ٢٦٠ . ٥٦٢

دار العلم للملايين .

وتولى الفلاسفة عنها الى جند يسابور ، وجلبوا معهم كتباً في الفلسفة والعلوم الهند . ومن بين تلاميذ « جنديسابور » الحارث بن كلدة وابنه النضر .

ثم لما ظهر مانى (١) أو « ماتيس » مؤسس الديانة المانوية (ولد في بابل ٢١٥) من أم فارسية من خسل الملوك الأشكانيين وابنة من (رجالات همدان) هاجر الى بابل في تلك البلاد وادعى مانى للتجوة وسمى نفسه «مارقليط» الذى أخبر عنه المسيح وقتله أحد الملوك الفرس سنة ٢٧٥ بعد المسيح كانت عقائده مزجاً من الهندية ، والزرادشتية ، واليهودية ، والمسيحية قبل وضع قواعد الكنيسة ثم تبعه مذك من الطرف الشرقى من نهر دجلة في بلدة اسمها (مازاريا) في عهد الملك « قباد » الذى حكمه سنة ٤٨٨ م ليقتل اشتراكية في الأموال والنساء وقتل هو الآخر مع ثمانين ألفاً من أتباعه

ويقول ابن قتيبة أن قباد بنى فارس والأهواز مدينة « أريجان » فأسكن فيها سبى (همدان) فوثب فيها « مردق » وقال بدعوته (٢) .

فبوداسف الذى أظهر مبادئ الصابئة في ملك طهمورث ربما يكون هو « بوذا » .

أصول فكر الصابئة الأولى :

مدار مذهبهم . التنصب للروحانيين .

والصابئة ترى : أن مذهبها الاكتساب . .

هذا من جهة الصفة العامة الغالبة على المذهب أما تفصيلاته فهي

أولاً : الاقرار بالقوة الالهية :

يعتبر أن، للعالم صانعاً فأطرا حكماً مقدساً عن سمات الخدشان

(١) ينقل صاحب حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى ج ٢ ص ١٧٢ أن الصابئة تبتل من المانوية .

(٢) المعارف لابن قتيبة تحقيق د ثروت عكاشة ص ٦١٢ .

ثانيا : الاقرار بالمعجز الانساني :

في الانسان عجز عن ادراكه ، أى لئله وعلينا الاقرار بهذا العجز ، وفي نفس الوقت علينا التقرب اليه لحاجتنا اليه ، فاتخذوا سبيلهم اليه بالتوسّطات المقربين لديه .

ثالثا : الاقرار بإمكانية الاتصال به :

أدى شعورهم بالحاجة اليه الى اعمال الفكر لكيفية تصور إمكانية العلاقة بينهم وبين القوة الالهية ، بيد أن هذه العلاقات كما تصورها أنها لا يمكن أن تكون مباشرة. لما عليه الانسان من دنس النفس واطلامها بالشهوات الطبيعية، لذلك رأوا أن الوسيط يجب أن يكون روحانيا .

والروحاني — في نظرهم — هو : المقدس من المواد الجسمانية المبرء عن القوى الجسمانية المنزهون عن الحركات والتغيرات الزمانية .

فلاتصال به علينا أن نطهر أنفسنا من علائق القوى الشهوانية حتى تحصل مناسبة ما بيننا وبين « الروحانيات » فحينئذ نسال حاجتنا منهم ونعرض احوالنا عليهم .

وهذا التطهير والتهديب لا يحصل الا باكتسابنا ورضتنا وفطامنا عن دنيا الشهوات .

والاستمداد هو : التضرع واقامة الصلوات وبذل الزكاة والصيام وتقريب القربان وتبخير البخور . وفي هذه الحالة قد لا يحتاج الانسان الى وسيط .

لذلك رفضوا، كل وساطة من البشر فقالوا عن الأنبياء أنهم أمثالنا في النوع واشكالنا في الصورة يشاركوننا في المادة يأكلون مما تاكل ويشربون مما نشرب ويساهموننا في الصورة .

اناس بشر مثلنا فمن أين طاعتهم ؟

وباية مزية لهم لزمّت متابعتهم ؟

قال تعالى : حاكيا ذلك عنهم : « ولئن أطعتم بشرا مثلكم انكم اذا
لخسرون » .

انواع المتوسطات :

والوساطة قد تكون عبادة العناصر الطبيعية وقد تكون عبادات تنجيمية
ظهرت على أنها عبادة واحدة ثم انقسمت الى نجوهم وسماء .

١ — منها محبذات الكواكب السبعة السيارة في افلاكها وهي : هياكلها
فلكل روحانى : (هيكل) ، ولكل « هيكل » : « فلك » ، ونسبة الروحانى
الى ذلك الهيكل الذى اختص به نسبة الروح الى الجسد فهو ربه ومدبره
ومريده .

وكانوا يسمون العناصر : أمهات .

وفعل الروحانيات فيها هو : تحريكها على قدر مخصوص ليحصل من
حركاتها انفعالات في الطبائع والعناصر لمزج المركبات فتتكون القوى
الجسمانية وتتركب عليها نقوش روحانية مثل :

✳ انواع النبات .

✳ انواع الحيوان .

٢ — والتاثير قد يكون إليا صادرا عن روحانى كل : فمع جنس المطرملك
هو هذا الكلى .

والتاثير قد يكون : جزئيا صادرا عن « روحانى » جزئى اى مع كل قطرة
ملك : هذا هو الجزئى .

٣ — ومنها مدبرات الآثار العلوية :

✳ الظاهرة في الجو مثل : الأمطار والثلوج والبرق والبرق .

✳ الظاهرة في الأرض مثل : الزلازل والابخرة .

٤ — ومنها متوسطات القوى مثل : قوى الحس .

- هـ ومنها : مدبرات الهداية مثل : العقل .
- وهذه الروحانيات لها طعامها الذي يتناسب معها وهو :
- التسبيح والتقديس والتهليل والتمجيد وأنسهم يذكر الله وطاعته .

أعمال الصابئة كلهم :

- يصلون ثلاث صلوات ، ويغتسلون من الجنابة ومن مس الميت وخرموا
- أكل الجذور والخنزير والكلب .
- ومن الطير ما له مقلب ، والحمام .
- ونهوا عن السكر في الشراب وعن الاختتان .
- وأمروا : بالتزويج بولي وشهود .
- ولا يجوزون الطلاق إلا بحكم حاكم ولا يجمعون بين امرأتين .
- هياكلهم :

بنى : الصابئة هياكلهم على أسماء الجواهر العقلية الروحانية وأشكال
الرواكب السماوية فمنها : ميكل الخلة الأولى : وتونها : ميكل العقل وهيكل
السياسة وهيكل الصورة وهيكل النفس — مدورات الشكل .

- وهيكل زحل : مستطيل .
- وهيكل المشتري : مثلث .
- وهيكل المريخ : مربع مستطيل .
- وهيكل الشمس : مربع .
- وهيكل الزهرة : مثلث في جوف مربع .
- وهيكل عطارد : مثلث في جوف مربع مستطيل .
- وهيكل القمر : مئمن .

يقول المسعودي : والذي بقي من هياكلهم المعظمة في هذا الوقت وهو
(سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة) ٣٣٢ بيت لهم بمدينة حران في باب الرقة
يعرف بمغليتيها هو ميكل أبى ابراهيم غدهم .

رؤسائهم : ذكرهم ابن النديم في فهرسته من أراد الوقوف عليهم فليرجع

لها (❖) .

تعقيب حول فكر الصابئة :

ثم أخيرا ، ولقد خلفت الصابئة أثرا شاهدا على تاريخها : وهو عبادة النجوم التي تولد منها التنجيم .

ذلك أن النجوم وفوق كل شيء الكواكب كانت قيما يبدو وفق قوانين ثابتة . تقول بالتقابل والتوافق : أى أن السموات من فوق والأرض من تحت شقيقتان متكاملتان ، فما كان يحدث في العالم النجمي كان يعاد إخراجة على الأرض ، وهذا هو الأمر الحيوي في الموضوع .

بيد أن حركات العالم النجمي ثابتة فإذا كان هناك إذن تقابيل فكل ما يحدث على الأرض كان ثابتا ، ذلك والحال بالمثل بالنسبة لأفعال الناس أيضا فهي ثابتة وذلك لأن الإنسان هو كون مصغر فهو الشقيق المكمل للعالم الكبير ، وروحه شرارة من تلك النار السماوية التي تتوهج في صفحة النجوم . من هنا نشأ مذهب من أفضح المذاهب التي عذبت الانسانية على مر الزمان وهو المذهب البابلي المسمى (انقضاء المحتوم) الذي كان يتحكم على السواء في النجوم والأرض والناس .

فحركات هذه الكائنات جميعا ثابتة بفضل قوة باقية لا تقبل وهي قوة لا علاقة لها بالأخلاق . قوة لا تحب ولا تكره ولكنها تواظب على مسارها بطريقة لا هوادة فيها مواظبة النجوم في مسارها عبر القبة الزرقاء .

وقد استقطاع التنجيم في النهاية أن يتغلغل في كثير من الديانات ويصبغها بلونه . وكان هناك أكثر من نظام للتنجيم .

❖ عبادة الكواكب .

❖ أبراج القلك وعلاماتها الاثنتا عشرة .

بيد أن التنجيم القائم على الكواكب كانت له قوة أعظم . فالكواكب

(١) الملل والنحل للشهرستاني ص ٦٠ ، ١١٠ ، كذلك برآجع المسعودي ص ٤١٧ . - ج ١
مراجع الذيب .

السبع هي : الشمس والقمر وعطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل
كانت في عبادتها الميسرات للقضاء والقدر وفي النهاية هي مستقر عروش
« حكام هذا العالم » الذين أصبحوا فيما بعد معادين لروح الانسان وشرا
عليها بصورة قاطعة لانهم أصبحوا يجرون المقادير عليها بلا هوادة .

كذلك خصص للكواكب السبعة ألوانها الخاصة المقابلة للطوايق السبعة
للمعبد البابلي

كما خصص لها معادنها الخاصة ونباتاتها وحيواناتها
* أما أبراج الفلك فقد كانت تحكم في مصائر الشعوب ومدتها المنهجية
وتشهد العملة بأن أنطاكية ونصيبين كانتا تحت سيطرة برج الحمل
والرها تحت سيطرة برج الدلو .

وإن سنجار أو « ريساينا » تحت برج القوس (١) .

ولن الذي كان يهيم الناس هو أن مصائرهم كانت ثابتة منذ الولادة
بفضل نجومهم كما أن النجم المقتدر كان يستطيع أن يتنبأ لهم بالمستقبل عن
طريق حساباته لطوالهم وساهم التنجيم في انخراط عناصر كثيرة غير منطقية
مثل

الحظ

الفرص

ثم تحدد مسار الكفاح الانساني ضد سيطرة النجوم عليه بثلاثة خطوط
رئيسية حاول بها الانسان الفرار من تأثير تجومه عليه وكلها تعتمد على الاعتقاد
في اللذة الاقوى من كل شيء أغطى الانسان كثيرا من الحرية والارادة ، والعقل
البشري سيادته من خلال توجيهات البوحى الذى استغل به أن يثور ضد
ثقل : « الجبرية » - للقاهر بسبب الاعتقاد في تأثير النجوم بأفلاكها عليه
وعلى مصيرهم .

(١) الحضارة الهيلينية ن.ن. تارن ترجمة عبد العزيز جاويد ص ١٤١ - ١٤٢ .

• والخطوة الثالثة هي •

• الدين •

• المعرفة الروحية •

• السحر •

• وكفاح الدين ضد سيطرة التجوّم على الإنسان سوف تعرض له من خلال محاورة نبي الله إبراهيم معهم •

أما المعرفة الروحانية : فهي العلم بكنه الأشياء وليست هي المعرفة التي تتوافر للفيلسوف •

فالمعرفة الروحانية الحقيقية تجعل الإنسان يأمن من قضاء وقدر التجوّم على أساس اعتقاده أن روحه بعيدة عن مآلها ، وهذا من المبادئ الرفيعة للمعرفة الروحانية التي تساعد الإنسان ألا يذل لغير الله وهذا ما يوفق مع للعقل •

السحر :

لما للسحر فالفكرة الأساسية فيه : هي أنه باستخدام للوسائل الصحيحة يمكن إجبار القوى الخفية على العمل فمن أهداف السحر التي يراها الإنسان القديم أن يعود بالحرية اليه من سيطرة الكواكب عليه ، ويعطى الإنسان مزيدا من السيادة على القوى الخفية وتصبح كل عبادة للتجوّم التي تعطى لنفسها السيادة على الإنسان في نظر السحر والسحرة مرفوضة •

فالسحر طريق اتخذه الإنسان للحصول على رغائبه المادية والروحية ، وفلسفته قائمة على منح الإنسان قدرته على تغيير ما قضت النجوم عليه •
وأوشك السحر أن يصبح نظما دينيا •

وكانت للسحر صلات بأشكال المعرفة الروحانية السفلى فانت تستطيع أن تجبر القوى الروحية أن يطلع الإنسان على ما لديها من خفايا وأسرار ، بيد أن المعرفة الروحية في أسمى مراتبها تنبذ السحر كذلك الدين ينبذه ، لأن

السحر اذا كان يغير من قضاء المقدر من لحن الأرواح ، فان الدين يرفعك فوق
قضاء التنجيم اذ الهدف العام للدين هو أن يجعلك مرتبطا بالله مؤثرا كل
قضاء خارج عنه .

من قضايا الصابئة وموقف القرآن منها :

من مشاكلهم التي أثارها القرآن :

- ١ — ابطال عبادة الكواكب . وعبادة الأصنام كما في محاوره ابراهيم .
- ٢ — ابطال القول بأن بشرية النبي تمنعه من الاتصال بالله ولا تتفق معه
ليكون وسيطا .

المشكلة الأولى : ابطال عبادتهم للكواكب والأصنام .

ابراهيم والصابئة :

ساق القرآن محاوره من الأدب الراقى بين نبي الله ابراهيم وعبادة
الكواكب تعتبر تأسيسا لعلم الكلام الدينى وبياننا مقارن بين علم الكلام
الدينى وعلم الكلام الوثنى .

ونلاحظ من تحاور ابراهيم مع قوميه أن علم الكلام الوثنى قد نشأ
بجانب علم التوحيد . وابراهيم نبي الله اذ يهدم العبادات الطبيعية التي
انتشرت ابان بعثته — وهى التى ألهمت العالم الطبيعى — كان بعضها من النيرات
مثل الكواكب ، والبعض الآخر له شكله الأدنى من حيث الاشرار ايضا
مثل عبادة الأصنام وعرض لها نبي الله ابراهيم وهو اذ يهدم هذه المظاهر
يبين لهم فى النهاية أن الآلهة التى تحتوى عليها وثنيقتهم ليست الا أسماء كاذبة
أطلقت على بعض أجزاء من العالم المادى .

يقول الله تعالى :

« واذا قال ابراهيم لأبيه آزر : اتخذ أصناما آلهة انى أراك وتومك فى

ضلال مبين » .

« وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين » .

« فلما جن عليه الليل رأى كوكبا ، »

« قال : هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين » .

« فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهتدى ربى
لأكونن من القوم الضالين » .

« فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم
اننى برئ مما تشركون »

« انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من
المشركين » .

« وحاجة قومه قال اتحاجونى فى الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون
به ألا أن يشاء ربى شيئا وسع ربى كل شيء علما أفلا تتذكرون » .

« وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون انكم أشركتم بالله ما لم ينزل به
عليكم سلطانا فإى الفريقين أحق بالأمن ان كنتم تعلمون » .

« الذين آمنوا ولم يلجسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون »

« وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ان
ربك حكيم عليم » ، ٧٣ : ٨٣ الانعام .

الواضح : ان نبي الله إبراهيم قدم سعيه تدريجيا مصحوبا بنقد حقيقى
لهذا اللون من العبادة ، والسعى واضح من محاوره نبي الله إبراهيم لأبيه —
وليس لذات أبيه — وانما هو لكل عباد هذا اللون من العبادة — عبادة مظاهر
الطبيعة — ونقدا حقيقيا للتنجيم وللعبادات الكونية وذلك ليس نقدا جدليا
بل هو وصف تدريجى لنحتى النفس الداخلى آخذا نقطة بدئته من المحسنات
منتھيا به الى اللامعقول .

والشك الذى أراد نبى الله لحدائه في نفوسهم حول هذه العقائد فانه ليس الا طريقة تمهيدية لحكمة ارفع شأننا وهي معرفة الانسان لنفسه . هذه المعرفة هي التي تميز فينا ثنائيتنا وهي .

✳ الروح وهي غير مرئية غير ان لها قدرة السيطرة على الجسم .

✳ والجسم وهو مرئى وخاضع للروح .

كذلك معرفة الانسان لنفسه الذى أراد نبى الله ابراهيم ثقت النظر اليها هي التي تحملنا على تأمل المعقول واللامعقول كذلك تتيح للانسان الانتقال من الكون الى الانسان ثم من الانسان الى الكون انتقالا عن علم وبصيرة نافذة وسبيل ذلك كله : هو الوحي الالهى أساس علم التوحيد .
 . وأفادت المحاور ان هذه الكواكب ليست شيئا من حيث عبادتها او الاعتقاد في انها مدبرة انما كما قررها القرآن آيات كونية فقط .

.. قال تعالى : « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن ان كنتم اياه تعبدون »
 (٣٧ فصلت) .

ويقول الرسول : « ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان ولا ينخسفان لموت احد » . كذلك درأ القرآن انحرافهم بعلم الفلك الى علم تنجيم ليستطيع الانسان من خلاله التنبؤ بمصير الانسان ، فربطوا مثلا : بين الدب الأكبر ، وبين الاتجاد بين الناس ، وبين انضاج الثمار والقمر كذلك مبدأ قراءة المستقبل بالتنجيم : موجود لدى عبادها . ويمكن التنبؤ بالحوادث : من شروقها ، وغروبها ، وكسوفها ، وخسوفها وفي نظرهم اذا كانت النبوة لها قدرة التنبؤ بالمستقبل ، فوسائلهم لها أيضا : قدرة التنبؤ ، وهي في نظرهم ارفع شفافية ، لذلك عرض الاسلام هذا الاتجاه فقرر : انها ليست محلا للعبادة وليس لها علاقة بمشيئة الانسان .

فالاسلام : لا يقرر ما يقول به علم التنجيم ، لأنه يسند كل شيء الى غير مشيئة الله فلا يمكن أن تجري الحوادث طبقا لسلطان الكواكب كما يعتقد الصابئة .

وأصبح هذا الرأي : هو السائد بين المسلمين وعقيدتهم ، فلم يعد ينظر الى الكواكب علي أنها هي المسيطرة والموجهة للحوادث كما كانت في علم التنجيم الوثني بل أصبحت تعد مظاهر كونية وآيات من آيات الله .

وهذه النظرة التي ترونها الاسلام تخالف ما عليه الصابئة وما كانت عليه اليهودية والمسيحية .

فاليهود يعتقدون صراحة بالكواكب علي أنها (حكام) . استنادا علي ما جاء في سفر التكوين ١ ، ١٤ ، ١٦ : أن الله وضع أنوار السماء ليحكم الأرض .

وقد جرى المسيحيون علي نهجهم في هذا الصدد :

وفي هذا الصدد نعرض لكلمة قالها : ديلاسي أولبري في مقدمة كتابه الفكر العربي ومكانه في التاريخ .

قال فيها : والحق أن هذه الثقافة الاسلامية في أساسها وفي جوهرها جزء من المادة الهلينية الرومانية . بل انه حتى علم التوحيد الاسلامي قد تحدد وتطور بواسطة منابع هلينية .

ثم يقول : وتظهر أعظم قوة لها في أنه قد عرض المادة القديمة في شكل جديد جدة تامة ، فهنا مثلا أي تشبه : بين اليهودية والاسلام ، أو المسيحية والاسلام في هذا المقام الذي عرضناه .

ثم أخيرا نقول : أي تشابه بينه وبين الهلينية ، التي قررت الوثنية منذ أن بدأ الأتسان اليوناني يفكر من خلال مدارس الطبيعة عندما أجاب علي سؤال : ممن تكون العالم ؟

أبالماء أم التراب أو النار ؟ وحصر فكره فيها ، من هنا تأسست الوثنية التي قررت أن مظاهر الطبيعة صالحة للعبادة حينما أسندت لها قدرة الكون والفساد أو التدبير .

المشكلة الثانية : أن الاتصال بالله لا يحتاج الى وساطة الوحي :

الوساطة بين الانسان والله :

ان اتخاذ وسيط بين الله والروح الانسانية ، سمة كل الأديان والمذاهب الروحية القديمة من صابئة ومجوسية ووثنية وشرك . والوساطة قد تتنوع بشتى المذاهب المختلفة :

✽ ففي الدين السماوى : تظهر فى الوحي الالهى فى الاسلام ، او «الكلمة» فى المسيحية ، أو اليهودية ، هذه الوساطة لا شرك معها ولا تأثيم ، لأنها توجه صاحبها الى عبادة الله وتوحيده . فالوساطة هنا ليست معبودة ، وإنما لها مظهر من مظاهر العبادة : وهو التقديس .

✽ وفى الفلسفة : تظهر فى العقل الفعال ، وبواسطته كان الفيض الالهى ، وهذه فكرة فلسفية ترجع الى التراث اليونانى ، وهذا أول ميل فكرى نحو الشرك المنزه عن المادة .

✽ والديانات الوضعية فى الشرق : تميل الى فكرة الوساطة المجسدة ، اما فى شكل نار ، أو حيوان ، أو جمادات ، ويشترك مع نزعة الشرق الفلاسفة الطبيعيين الأول فى اليونان وذلك حينما اعتبروا العناصر من ماء وهواء ونار وتراب أصل العالم .

فالمظاهر المادية التى رافقت الانسان فى تفسيره لله وشابت علاقته به كانت أصلا لفشاة الوثنية لأنها اعتبرت مبادئ متبصرة والهيبة لا مادة للعالم .

فالوساطة : اما أن تكون موجهة الى التوحيد ، وإلى السلوك الطبيعى للعبادة ، وذلك : كالوحي أو الكلمة فلا شرك فيها ولا ميل فيها الى الشرك .

واما أن تكون الوساطة شركا ، أو داعية الى الشرك ، وذلك اذا كان الوسيط يقوم مقام الله أو يشترك مع الله ويقوم الانسان بعبادته أو يعتقد فيه أنه فى حاجة الى وسيط .

واضح : أن فكرة الوساطة (الشريك) نشأت بعيدا من الدين السماوى وليس ذلك وحسب بل أن الدين السماوى نبذها وحاربها بمختلف وسائل المحاربة .

فالوساطة التى أنشأها الانسان ليعبدها تجدها نشأت اما فى مجتمع خال من الدين فابتدعها الانسان تعبيرا عن ميله انطوى للعبادة ، أو نشأت فى مجتمع حافل بالفكر الذى يكثر القول عن السبب الاسمى ، فان استطاع الفيلسوف تصور قيمة هذه الفكرة ، فان عوام المجتمع لسوف

يهربون من تلك التصورات المفطية الجافة ثم يقعون وهم يفرون من فكرة العقل الفعال في نظر الفلاسفة في حوزة الوسيط المتخندق لأن الوضول اليه عسير .

واضح : ان فكرة الوساطة (الشريك) نشأت تبعيدا من الدين السماوى وليس ذلك وحسب ، بل ان الدين السماوى نبذها وحاربها بمختلف وسائل المحاربة .

والكائنات التى رشحها الانسان للعبادة ليست وسطاء بين الله والعالم فقط بل وبين الله والنفس الانسانية المتعطشة للدين حتى — لاستحالة صعودها الى أعلى وانبهار بصرها من التأمل — لا يسمعها الا الوقوف عند درجة أدنى .

ففذهب الوسطاء ليس مؤداه استحالة خلق الله للعالم بل استحالة وصول النفس مباشرة الى الله .

وما نستخلصه من وراء مذاهب عبادة الوسطاء وجود الروح الدينية العميقة المتغلغلة في النفس الانسانية ، وانها سلكت بالانسان طريق العبادة وطريق الفكر الميتافيزيقى .

واذا كان فراغ المجتمع الاغريقى من الدين فانه لم يستطع أن يلغى الاحساس بضرورة الحاجة الى العبادة ، وذلك باستحداثه أنماطا من الوساطات الدينية ليدين لها . واذا كان الفكر الفلسفى لم يستطع أن يقدم للانسان شيئا عن الله وعن علاقته به سوى الدعوة الى التأمل فقط ، وكان في ذلك توسعه لمعنى المقدس ، فان الدين السماوى — الاسلام وهو المقدس الحقيقى — هو الدعوة الطبيعية والأمنة من فراغ المجتمعات من الدين ولنبد وثنية الوساطة والشرك التى يحوم حولها عندما ينعدم الدين الالهى منها .

ملاحظات على ما أورده الشهرستانى في المناظرة بين الصابئة والحنفاء :

أورد الشهرستانى مناظرة بين الحنفاء والصابئة وكان لنا عليها ملاحظات:

أولا : أنها خالية من تاريخ زمنها ومكانها فهل كانت أيام بعثة ابراهيم

رأس الحنفاء ؟

هذا الفرض لا نجد له في المناظرة ما يؤيده لأن الشهرستانى ضمنها

ببيتين من الشعر لزمير :

أمر المرء لم يحنس من اللؤم عرضه فكل . رداء يرتديه جميل
وإن هو لم يخمل على النفس ضيمها فليس إلى حسن الثناء سبيل
كذلك ضمنها آيات من القرآن .

كذلك ضمنها اصطلاحات فلسفية منها ما يرجع إلى الفكر اليوناني
وبعضه إلى افلاطون كقولہ : ان النفوس كانت في البدء في عالم الذكر ثم
هبطت إلى عالم النسيان .

وبعضه إلى أرسطو مثل : الهيولى والصورة والحيوانية الناطقة .
ومنها ما هو منسوب إلى مدرسة الاسكندر أو التراث الهليني مثل :
العقل الفعال : ماهيات مجردة من المادة ، العقل المستفاد ، العقل
المفارقة .

ومنها ما هو منسوب إلى اصطلاحات صوفية اسلامية مثل : وما أشرق
عليه من الأنوار القدسية : وخيا والهاما ومناجاة واکراما .

ومنها ما هو تأليفات شهرستانية مثل : النفس النبوية — الحيوان الناطق
المائت ، المتكلم الخفيف ، المتكلم الصائب .

فالمناظرة حوت الكثير من المصطلحات المختلفة من حيث الزمن والمكان ومن
حيث الألوان الكفرية ففيها الفلسفي القديم والوسيط والديني الاسلامي وغيره
والعربي وغير العربي .

وهذا مما يجعلنا نميل إلى أنها ثقافة شهرستانية — صياغة ، وفكر ،
ويصبح الاعتماد عليها لبيان أصولها الفكرية مقدوحا . قينه لتصرف
الشهرستاني فيها ، ولقد ضرح بهذا التصرف فقال :

وقد جرت مناظراته ومحاوراته بين الصابئة والحنفاء في المفاضلة بين
الروحاني المحض وبين البشرية النبوية .

« ونحن أردنا أن نوردما على شكل سؤال وجواب » .

هذا فضلا عما يظهر فيها من التكلف المنطقي الذي يجانب الفكر الشرقي

القديم .

ثانيا : ومما يلاحظ — وهو شيء غريب — أن المناظرة خالية من النصوص
القديمة التي تمثل صحف إبراهيم . . انما اعتمدت على الجدل المنطقي .
فاستوفاهما الشهرستاني من كل شيء عدا نصوص من صحف إبراهيم .

ثالثا : لم يذكر الشهرستاني من صاحبها ولا تاريخ نشأتها ولا مكانها
وفي المناظرة ما ينبغي — من خلال كلام الصابئة أنفسهم، ويتصريحهم — أنها
تنسب إلى «هرمس» و «عازيمون» .

غير أن الشهرستاني فقط — أي على لسانه هو دون لسان الحنفاء —
استبعد أن يكون هرمس من الصابئة ، وهذا تصرف جرى لا يقدر عليه
إلا إذا كانت المحاور من تأليفاته .

رابعا : وفي المناظرة فكر يخدم الفكر الانساني من حيث النظرة العامة ،
وفيها :

ما لا ينفع الحنفاء — حيث انهم ورثة ابراهيم يل ويناقض مذهبهم .
وهذا وقع فيه الشهرستاني وهو يصوغ فكره معتمدا على أسلوبه الفلسفي
دون الرجوع إلى مستندهم الحقيقي .

خامسا : ومما ينبغي لفت النظر إليه أن الشهرستاني حاول — وهو غير
مسبق إليها — أن يضع تمييزا بين الحنفاء والصابئة .

ملاحظات على ما ذكره المسعودي عن الصابئة في كتابه مروج الذهب :

ذكر المسعودي أخبارا عن الصابئة في موضوعين :

الموضوع الأول :

ذكر فيه تاريخا عن أحدث مذاهب الصابئة واسم الملك الحاكم . وذلك
في صفحة ١٦٨ .

الموضوع الثاني :

عاود القول عنهم فذكر البيوت المعظمة والهيكل المشرفة للصابئة .
وغيرها ، وغير ذلك مما لحق بهذا الباب واتصل بذلك المعنى وذلك في صفحة
٤٦٧ — ٤٧٠ .

ومما نلاحظ عليه :

أنه قدم معلومات محددة ودقيقة فيها استقصاء لبعض استقهامات يحاول
المسعودي وهو مؤرخ أن يثيرها مثل قولهم « هيكل العقل » .

يقول المسعودي متعاقلا : وما أدري أشاروا إلى العقل الأول أم الثاني ؟

حول هذا الاستقهام الذي يدل على نزعة المسعودي الفلسفية — وهو

مؤرخ — يقدم اجابات مسندة إلى مراجعها القديمة .

وعندما أخذ في شرح الهياكل قدم لنا شواهد كثيرة تؤيد ما يسوقه
لنا منها :

- حكاية رجل من ملكانية النصارى من أهل حران يذكر اسمه فيقول :
- يعرف بالحارث بن سنباط للصابئة الحرائين حكى للمسعودى أشياء
قال عنها : امتنعنا عن ذكرها مخافة التطويل .
- وقدم ما شهد به من هياكلهم وحدد السنة التى شاهد فيها هيكل آزر .
- وذكر لابن عيشون الحرانى القاضى — المتوفى بعد الثلاثمائة — قصيدة
طويلة يذكر فيها مذاهب الحرائين المعروفين بالصابئة .
- وروى شيئاً مما رآه فى وصفه : ورأيت على باب مجمع الصابئة
بمدينة حران مكتوباً على مدفنه بالسريانية قولاً لأفلاطون فسرّه مالك
ابن عقبون وغيره : من عرف ذاته تاله .
- وما ذكره المسعودى من مشاهدة العيان يفيد بوضوح الأثر الأفلاطونى
فى مبادئ هذا المذهب .

ثم تكلم عن مراجع الصابئة قرأ فيها أخباراً عن مذاهب الصابئة الحرائية .
ومن ذلك كتاب رآه لأبى بكر محمد بن زكريا الرازى الفيلسوف صاحب
كتاب المنصورى فى الطب وغيره : ذكر فيه مذاهب الصابئة الحرائين دون
فيه مذهب الصابئة الحرائين منهم دون من خالفهم من الصابئة الكيماريين .
ثم قال وقد خاطب مالك بن عقبون وغيره منهم بشيء مما ذكرناه وغيره
مما عنه كتبنا . . ثم قال ممتحناً ما دونه عنهم :

فمنهم من اعترف ببعض وأنكر بعضاً من ذكر القرايين وغيره من الآراء
مثل : فعلهم بالثور الأسود .
ومن ذلك أيضاً ما قدم من روايات تاريخية مسندة الى روايات سمعها
بنفسه أو شاهدها لآثارهم كل ذلك وفق منهجه التاريخى .

وما قدمه عن الصابئة من الناحية التاريخية فيه جديد لم يذكره
الشهرستانى — أكبر مؤرخ دينى كتب الكثير عن الصابئة . مثل : بوداسف
الذى أحدث مذاهب الصابئة فى فارس وفى الهند : كذا أقام صلة حران
بالصابئة من تقديم على خلاف ما ذكره ابن النديم .

وفي كلامه ما يفيد : صلة المذهب الصابئي بالأفلاطونية ،
 كذلك ذكر أن للصابئة فلاسفة بيد أنهم حشوية يقول فيهم افمتنا
 أضفناهم الى الفلاسفة اضافة سبب لا اضافة حكمة .
 وخلاصة القول : أن ما ذكره المسعودي ليغثير مصدرا مفيدا عن الصابئة
 وهو بتقديمه الزمنى والتاريخى على الشهرستانى قدم مادة تاريخية فيها كثير
 من الالتزام العلمى ، كما قدم مراجع وشخصيات تاريخية تخدم الباحث في
 تكوين تصور ما عن الصابئة وهذا ما لم يتوافر للشهرستانى .
 وللمسعودي : كتب في الدين المقارن ، هذا الفن الدينى نراه كثيرا ما كان
 يذنبه اليها ويحيل القارىء عليها منها :

- * المقالات في أصول الديانات .
- * الاستبصار .
- * الصفوة .
- * سر الحياة .
- * الدعاوى .

في هذه الكتب ما يشير الى عنايته بهذه القضايا رغم أن هذه الكتب
 مفقودة الى الآن ، غير أننا كنا نلاحظ من خلال النصوص التى كان يذكرها
 المسعودي في كتبه منها أنه كان متخصصا في تاريخ المذاهب والديانات ،
 واللمحات التى ذكرها لتنبىء عن أصالة ثقافته في هذا المجال .
الزندقة عند عرب الجاهلية :

ملاحظات على ما ذكره ابن قتيبة عن أديان العرب وزندقتهم :

ذكر ابن قتيبة أديان العرب في الجاهلية فقال (١)

- * كانت النصرانية في « ربيعة » و « غسان » وبعض قضاة .
- * وكانت اليهودية في « جمر » و « بنى كنانة » و « بنى الحارث بن
 كعب » و « كندة » .
- * وكانت المجوسية في بنى « تميم » .

منهم زراة بن عدس التميمي وابن حاجب بن زراة وكان تزوج ابنته

(١) المعارف ، ابن قتيبة ، تحقيق د . ثروت عكاشة ٢٧ دار المعارف . وابن قتيبة حرر :

ابن محمد عبدالله بن مسعود ٢١٢ هـ .

ثم ندم . ومنهم الأقرع بن حابس - وكان مجوسيا ، وأبو سودة جسد وكيع بن حسان - وكان مجوسيا .

✽ وكانت الزندقة في قريش أخذوها من « الحيرة » وكان « بنو حنيفة » اتخذوها في الجاهلية الها من « حيس » فعبدوه دهرا طويلا ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه فقال رجل من « بنى تميم » شعرا :

أكلت ربها حنيفة من جو ع قسديم ومن أعواز

فلاحظ أن المادة العلمية التي قدمها ابن قتيبة غير دقيقة. لا من جهة الموضوع ولا من جهة الحصر ولا من جهة تحديد القبائل التي تدعى بالدين الذي نسبهم اليه .

فهو أولا لم يعد الصابئة ضمن أديان العرب ،

وثانيا : أنه ذكر الزندقة من أديان العرب .

فأخرج الصابئة وهي داخلة في أديانهم وأدخل الزندقة وهي خارجة عنهم .

وفي نظرنا يعتبر الوحيد الذي ذكر الزندقة والوحيد أيضا الذي لم يعد الصابئة .

يقول الألويسي : (١) .

والذي يظهر أن مراد ابن قتيبة من الزندقة التي نسبها الى بعض العرب الذين اعتنقوا الثنوية أو القائلين بالنور والظلمة بمقتضى قوله : أخذوها من الحيرة فإنها من بلاد الفرس .

وان كان سكانها وملوكها العرب المتدينون بدين الفرس أو دين المسيحية لو كان مراده من لا يؤمن بالآخرة وبالربوبية لما كان لقوله (أخذوها من الحيرة) وجه فان كثيرا من قبائل العرب كانوا كذلك فتعين أن مراده ما فكرنا .

(١) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، النسخة: محمود شكرى الألويسي : ٢ ص

ثم يقول في لفظ زندقة : وهو أى الزندقة اصطلاح جديد ولا مشاحة فيه
والزندقة اصطلاح فارسي يرجع الى العصر العباسي اتهم به البرامكة .
يقول ابن مقتيبة :

وكذا البرامكة يرمون بالزندقة وفيهم قال الأصمعي :

إذا ذكر الشرك في مجلس أضاعت وجوه بني يرمك
ولن تليت عندهم آية أتوا بالأحاديث عن مزدك

يقول صاحب لسان العرب : (٢) .

الزندق القائل ببقاء الدهر فارسي معرب .

وليس في كلام العرب زندق .

وانما تقول العرب : زندق وزندقى اذا كان شديد البخل .

فاذا ارادت العرب معنى ما تقوله العامة قالوا ملحد ودهرى بفتح الدال .

أما معناه في المسموع : دهرى بضمها .

ويرجع اصطلاح الزندقة الى (ماني) وذلك أن الفرس حين اتاهم
(زرادشت) اتاهم بكتابه المعروف : « بالبستاه » باللغة الاولى من الفارسية
وعمل له التفسير وهو : « الزند » وعمل لهذا التفسير شرحا سماه « البازند »
وكان الزند بياناً لتاويل المنزل .

ومن أورد في شريعتهم شيئا بخلاف المنزل الذى هو البستاق وعدل الى
التاويل الذى هو الزند قالوا : هذا زندقى فاضافوه الى التاويل وإنه منحرف
عن الظواهر من المنزل الى التاويل وهو بخلاف التنزيل .

فلما أن جاءت العرب أخذت هذا المعنى من الفرس وقالوا : زندق
وعربيه ، والثنوية : هم الزنادقة .

قال المسعودى : وألحق بهؤلاء : سائر من اعتقد القدم وأبى حدوث
العالم (١) .

يقول الشهرستاني : ومما اتفقت نحوه الأديان والملة : أن للعالم قوة

(١) لسان العرب لابن منظور .

(٢) مروج الذهب ص ١٧٢ .

الهيّة مدبرة له ، بيد أنها لها أسماء شتى :

- * تسمى عند : « زرادشت » : « مشاسيد » .
- * وعند الصابئة : المدير الأقرب .
- * وعند الفلاسفة : العقل الفعال ومنه الفيض الإلهي .
- * وعند المانوية : الأرواح الطيبة .
- * وعند العرب : الملائكة .
- * وفي الإسلام : الله .

ولعل ما لاحظته الشهرستاني كان موضع تقدير لدى الذين حاولوا توحيد الأديان ، وذلك على أساس أن الشعوب المختلفة إنما تعبد في الحقيقة : الإله نفسه ، تحت أسماء مختلفة ، وأنه يمكن بناء على ذلك توحيد الأسماء والنحل وهذا الاعتقاد هو ما جعل أنطيوخوس الرابع يعتقد أنه لن تكون هناك صعوبة شديدة تستعصى على إدخال عبادة « زيوس » حتى في بلاد اليهودية نفسها .

على هامش لصابئة

المجوسية أقدم من زرادشت :

ترتد الديانة المجوسية من حيث تشابه عناصرها الى التراث الهندي وتناقضها مع ديانة جيرانهم الساميين . . يقول دى بروج :

في ازمان ما قبل التاريخ ترك فرع من الاسرة الهندية — الأوربية موطنهم الأصلي في اراضى السهوب شمال قزوين ، وهاجر في اتجاه جنوبى شرقى . ولقد سار بعضه عبر ممر خيبر الى البنجاب بينما استقر البعض الآخر في شرق الهضبة الايرانية العظيمة . وفي بواكير السنوات الالف الثانية ، يمت هذه القبائل الايرانية (سمت نفسها آرية ومن هذه التسمية اشتق الاسمان المحليان آريا وايران) صوب الغرب الى المرتفعات التى تحف سهول ما بين النهرين وكدليا ، وبعد ذلك بآلف سنة ، نجد الميديين الى الجنوب من بحر قزوين والبرتيين في خراسان والبكتريين في منحدرات الهندوكوش الشمالية والفرس في الجبال التى تشرف على الخليج الفارسى الى الشمال الشرقى . وكانت سلاسل جبال الهندوكوش وسليمان تقوم حاجزا من جهة الهند . ولقد أحضر هؤلاء الآريون معهم الحصان وهو من نتاج سهول السهوب ولم يكن للبابليين أيام حمورابى عهد به ولكن استخدمه الآشوريون كعدة حرب (١) . ولقد حملوا معهم كذلك دينا متميزا ، يتناقض تناقضا يسترعى البال مع دين جيرانهم الساميين المستوطنين السهل ، وكان يختلف ايضا — على الرغم من أساس مشترك دأب على المحافظة على نفسه بين الفرس الى الى يومنا — عن دين الآريين ذوى قرابتهم في الهند (٢) . وبينما أخضعت العقيدة الهندية كل الآلهة الأخرى الى اله أعظم أوحد فان الدين الايرانى

(١) كما يدل على هذا الاسم البابلى للحصان « جعش الشرق » .

(٢) بين العناصر المشتركة عبادة ميترا وهو اله الشمس وذابح المارد (اندرا الهى)

وعبادة النار والاعتقاد بشرمة تدر يتفوق على الآلهة والاشنان . انظر ب . كيمون (F. Cumont)

ص ١ — ٢ (Les mysteres de) وكان وارونا أعظم اله خلقى في مجمع الآلهة

الفيدية تطورا موازيا لاهور مزدا ومن أصل أرى مشترك .

كان له مظاهر ثنائية (١) وكان مجمع آلهتهم يأتلف حول قوتين لهما السيادة، الواجدة قوة الخير وهي ايجابية خالقة ومصدر النور والحياة والأخرى قوة الشر وهي الظلمة والموت ، وهي سبالية ، وكانت القوتان تسميان على التوالي ، أهور أمزدا (أورمزد) وأهريمن . والصراع خارق العادة ، بين هاتين القوتين الالهيتين غدا ينعكس في مجرى تاريخ البشر . وبين الاثنتين ، يقف الانسان وقد وهب الحرية الخلقية التي يتوقف على استخدامها مصيره في العالم الذي يقع فيما يلي اللحد . وكان الدين الايراني يفرع الى آداب السلوك ، ولم تكن آلهته كالهة الآريين الهنود . معان مجردة تصورية ولكنهم كانوا شخوصا خلقيين ولم يكن هدف الجهد الانساني الاندماج التآلفي في مطلق وحدة الوجود ولكن سعادة أبدية في السماء حيث يحكم أهوزا أمزدا وما كانت الحياة الانسانية وما يلزمها من فروض اجتماعية وأفراح وأحزان بخدعة ولكنها المجال للغفل في همة والقيام بالواجب الخلقى . وفي اعترافه بقيمة الثقافة الدنيوية واتجاهه الى غاية يكون فيها الخلاص الفردي وليس الخلاص القومي ، فان دين ايران كان يختلف عن دين العبريين وان تشابهه معه في تعليمه الخلقى الرفيع . وكان الفرس يتسامحون مع الديانات المحلية عندما لا تناصب دينها العداء ، ومع هذا فان عقيدتهم انتشرت صوب الغرب بتوسع امبراطوريتهم . وفي نقاوته كما نهض به النبي زرداشت ، كان دون ريب ، عقيدة القلة أكثر من أن يكون عقيدة الكثرة ، وكان من شأنه ، بين أيدي المجوس (وهم طبقة من الكهنة) أن يتدهور الى فرائض رسمية بينما أصبحت الجماهير تفسر تعليمه في صبح ديانة ما قبل زرداشت القديمة (٢) . وكان مرجع قوته الحقيقية الى اصراره على المسئولية الخلفية .

(١) ولكن براهما الاعلى في دين التوحيد الهندي كان لا سبيلا للوصول اليه وكان الناس مشتاقين الى استرضاء الهين اقل شأنها سيوا ووشنو .
 (٢) هاتين زرداشت على الراجح حوالي عام ٦٥٠ ق.م وتحتوي الأسفار الفارسية المقدسة التي يطلق على مجموعها لفظ أوبنا ، الجانات وهي ترانيم ربما كتبها النبي نفسه . ويقرب المذهب الزرداشتي أن يكون توحيدا . وكانت عبادة النار لها شأن عظيم اذ كانت النار انقى مظهر لاهورا أمزدا ، ويظهر أن المجوس الاوائل كانوا معادين لمذهب زرداشت ولم يحفل

زراشت :

يرجع تطور المجوسية في نشأتها إلى رجل فارسي يدعى « زادرشت » ،
ظهر في عهد سلطنة (كشتاسب) أو (هيستاسب) ملك الملوك الفارسي
(شاهنشاه) وأتى بكتاب - قال أنه سماوى - وأوستوزند .

وهذه الديانة لا تجيز عبادة الأصنام أو احترام الأوثان مطلقا ولا يقرون
إلا باله واحد أزلى سرمدى أبدي ليس له شريك في الملك ومنه الأمر واليه
يرجع ويسمون الله : (أورمزد . أو . هرمز . أو هرمس) والاله (ايزد)
ويعتقدون بخلود النفس وبالعالم آخر بعد الموت يكون فيه العقاب والثواب .
ولكن يعتقدون بأن الله خلق مع الخلق قوتين عظيمتين :

اسم أولاهما : بزدان مصدر الخير .

واسم الثانية : أهرمن أى مصدر الشر .

فجميع الخيرات والشر في هذه الدنيا ينسب إلى هاتين القوتين ويفسرهما
حكماؤهم : بالعقل والنفس .

وهم يبجلون ويعظمون كل الأقمار والكواكب والنجوم وجميع المنيرات
المضيئات بقولهم : انها مظاهر الأنوار الأحندية ، لا سيما الشمس فانهم
يتعاونون في تعظيمها . لاعتقادهم فيها أنها مصدر النور والحرارة وهما أصل
مادة الحياة وأعظم واسطة عند الله وأكبر مظهر من مظاهر الله ولولاها
لما وجد كائن حي في العوالم التى تحت نظامها .

ويوجد في كتبهم أخبار متعددة عن ظهور مجدد ومصلح جديد يوجد

مخبين همودوت بهم كثيرا . ولقد اثيرت عبادات فارس ، كعبادات مصر وبابل في الدين القبري
أول ما اثير في العهد الذي أعقب غزوات الاسكندر . وفي العهد الرومانى ، كما سنرى فيما
بعد ، كانت عبادة ميترا أجد شائعة في عالم البحر المتوسط واثرت اللثائية الفارسية على
المنىحية في الشرق أنها أصل الاعتقاد في شيطان شخصى . انظر كيون Cumont في
الكتاب السابق الإشارة إليه ، المقدمة ص ٦ - ٨ ، وفصل الله (عند الإيرانيين) تاموس
التوراة لبيستنج .

Hastings' Dictionary of the Bible

براجع : تراث العالم القديم ج ١ ص ٥٣ ، ٥٤ .

لهذا المصلح علامات في تلك الكتب ينطبق البعض فيها صراحة على أحوال

حضرة صاحب الرسالة (الرسول) • والبعض تلميحا وتأويلا (١) •

والمجوس إنما يعظمون النار لعمان فيها منها : أنها جوهر شريف علوى •

ومنها : أنها ما أحرقت إبراهيم •

ومنها : ظنهم أن التعظيم لها ينجيهم في « المعاد » من عذاب النار •

وبالجملة : هي قبلة لهم : ووسيلة وانارة •

ومن عجيب الأمر أن نار فارس المقدسة لو كانت في عصرنا لدلت العلماء

على آبار البترول التي تغذيها ، فالنار كان وراءها سر عجيب وهو البترول

كم أفنت تلك النار آبارا •

يقول الشهرستاني : ولقد كان في كل أمة من الأمم قوم مثل الأباحية

والمزدوكية والزنادقة والقرامطة وكان تشويش ذلك الدين منهم وفتنه الناس

مقصورة عليهم (٢) • •

ويقول فيليب حتى : عبدة النار (المجوس) من أتباع زاحشت (٣) •

هي أصفى وأطهر العناصر المخلوقة لأعلى أنها هي الخلاق المعبود •

وقال مشيرا إلى أن المجوسية سابقة على أن زاحشت قد استخلص

من اختلاط المجوسية وسطا بين العقيدة الوثنية الأولى والعقيدة الإلهية

الحديثة (٤) •

ويقول الشهرستاني : فارقا بين المجوسية والحنيفية :

ان الحنيفية هي إلهة الكبرى والشرعية العظمى وذلك هو الدين القيم •

والتوحيد من أخص أركان الحنيفية ولهذا : يقتزن نفى الشرك بكل

(١) يراجع : مفتاح باب الأبواب زعيم للدولة الطغتون. ميرزا. محمد مهدي. خان رئيس

الحكام الإيراني والأذربيجاني التبريزي نزيل مصر ط ١ مطبعة. مجلة المشرق سنة ١٣٢٩ •

(٢) راجع الملل والنحل ج ١ ص ٢١٦ • كذلك يراجع المسعودي مروج الذهب ج ١

ص ١٧٣ •

(٣) تاريخ سورية ج ٢ ص ٦٦ •

(٤) الله ص ١٠٩ ، ١١٠ •

موضع ذكر فيه الحثيفية « حثيفا » وما كان من المشركين .

ويقول : .

« حنفاء لله غير المشركين » .

ثم ان التنية اختصت بالمجوس اثبتوا اصلين اثنين مدبرين قديمين :

يقتسمان الخير والشر والنفع والضرب والصلاح والفساد . يسمون أحدهما :

النور والآخر الظلمة ، وبالفارسية : يزدان وأترامان .

ومسائل المجوسية كلها تدور على قاعدتين اثنتين :

أحدهما : بيان سبب امتزاج النور بالظلمة .

والثانية ، بيان سبب خلاص النور من الظلمة .

وجعلوا الامتزاج مبدأ والخلاص معادا (١) .

وقد أصاب الشهرستاني حين قال : ان هذه الثنوية هي انزم سمات

المذاهب المجوسية لأنها تتراءى في كل مذهب منها بلا استثناء . وهي كذلك

أبقى منها في مجال التفكير ومجال الاعتقاد على السواء لاننا نرى منها ملامح

اليونان (١) .

المجوسية والعرب :

يقول ابن قتيبة : وكانت المجوسية في تميم :

منهم : زريارة بن عدس التميمي وابن حاجب بن زرارة وكان تزوج ابنته

ثم نحم .

ومنهم الأقرع بن حابس . وكان مجوسيا .

وأبو سودة جد وكيع بن حسان . وكان مجوسيا (٢) .

قال أبو حاتم : ان المجوسية لم تكن فيهم (العرب) على ما ذكره

الرواة .

(١) الشهرستاني — الملل والنحل ج ١ ص ٢١٢ .

(٢) الله — للمعتمد ص ١١٩ .

(٣) كتاب المعارف — حقه وقدمه د . ثروت عكاشة دار المعارف ص ٢١ وهو أبو محمد

عبدالله بن مسلم ٢١٣ هـ .

وقالوا : سمى ابنته (دقثوس) باسم ابنة كسرى وتزوجها فغيره بذلك
أهل بيته .

فقال : أليست لى حالا فى دينى ؟ ثم قدم على ذلك وأنشأ يقول :

لحس الله دينك من أغلف تحل البنات لفسا والخوات
أحشت على أسرتى سوءة وطوقت جيلى بالمخزيات
وأبقيت فى عقبى سنة مشاتم تحيا بعييد المات (١)

ثم قال : ولم يتمجس منهم أحد قبل .

ويقول : ويقال : ان المجوسية كانت فى بنى تميم .

ويقول : وروى عن أبى عمرو بن العلاء أن نسرا كان صنما لبعض
حمير وكانوا فيما يزعمون مجوسا .

وهم الذين ذكروا فى كتاب الله .. وجدتها وقومها يسجدون للشمس
من دون الله . النمل ٢١ ، ٢٤

ويقال أن بقايا المجوس الذين كانوا باليمن والبحرين منهم .
علاقة الاسلام بهم :

سنن ابن داود :

قال رجل من الاسبنفنيين من أهل البحرين (١) — وهم مجوس — هاجر
الى رسول الله فمكث عنده ثم خرج .

(١) وقال أبو حاتم الرازى وهو الشيخ أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازى المتوفى سنة
٣٢٢ هـ . وفى كتابه الزينة فى المصطلحات الاسلامية ماضيه وعلق عليه حسين بن نيفس الله
المهدانى البعيرى سنة ١٩٥٦ .

ونكر مراجعة : المعارف لابن قتيبة ٢٢٩ .

الشعر والشعراء : ٤٤٦ .

المعقد الفريد : ج ١ ص ١٧٤ .

اعلام النبوة للماوردي .

١٦٨ سنن أبى داود فى الخراج من محمد بن المسكين والذخائر عن عبد الله بن عباس

.. ٣١٢

١ بمك رسول الله العلاء بن الحضرمي الى المنذر بن ساوى العبدى وهو بالبحرين
يدعوه الى الاسلام وكتب اليه كتابا .

نكتب الى رسول الله يقول : وانى قد قرأت كتابك على أهل هجر فمنهم من أحبب الاسلام .
وبارض مجوس ويهود .. (مطبقات ابن سعد) .

فسألته ما قضى الله ورسوله فيكم ؟

قال : بشر .

قلت : مه .

قال : الاسلام او القتل .

قال : وقال عبد الرحمن بن عوف قبل منهم الجزية .

قال ابن عباس : فأخذ الناس بقول عبد الرحمن وتركوا ما سمعت أنا

من الأسبندی ، (الأسبندیون منسوبون الى أسبند بلدة بهجر بالبحرين) .

وقيل الكلمة فارسية ومعناها في : عبدة الفرس وكانوا يعبدون فرسا

والفرس في لغة الفرس : أسب .

وفي حديث آخر عن عمر بن أوس :

فرقوا بين كل ذي محرم من المجوس .

ثم قال : وفرقنا بين كل رجل من المجوس وحرمة في كتاب الله .

مرويات لم تحقق :

عن ابن عباس قال : ان أهل فارس لما مات نبيهم كتب لهم إبليس

كتابا .

القدرية والمجوس :

قال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر (ج ٤ ص ٨٥)

من حديث أبي هريرة .

القدرية مجوس هذه الأمة .

قيل : انما جعلهم مجوسا لمضاهاة مذهبهم المجوس في قولهم بالأصلين

وهما : النور والظلمة .

يزعمون أن الخير من فعل النور والشر من فعل الظلمة .

وكذا القدرية : يضيفون الخير الى الله ، والشر : الى الانسان والشيطان ،

والله تعالى خالقهما معا لا يكون شيء منهما الا بمشيئة الله فهما مضافان اليه

خلقا وإيجادا والى الفاعلية لهما : عملا وكتابا .

المشركون والمجوس :

• الذين أشركوا

قال : الألوسى : هم المجوس : ووصفوا بالاشراك لانهم يقولون بالنور والظلمة (روح المعانى ج ١ ص ٢٧٠)

• النيسابورى على هامش الطبرى يقول : ج ١ ص ٩٧

• ومن الذين أشركوا عبدة النار وهم المجوس

لماذا حاجب بن زرارة هو الذى تمجس ؟

• يقول صاحب السيرة الحلبية ص ١٠ :

لما أجذبت أرض تميم « بدعاء » النبی عليهم ذهب سيدهم حاجب بن زرارة والد عطارد رضى الله عنه الى كسرى ليأخذ منه أمانا لقومه لينزلوا ريف العراق لأجل المرعى

فقال له كسرى : أنتم قوم غدر وأخاف على الرعايا منكم

فقال له حاجب أنا ضامن أن لا نفعل شيئا من ذلك

فقال له كسرى ومن لى بوفائك ؟

قال : هذه فرسى رهينة

فحمقه كسرى وجلساؤه وضحكوا منه

فقال له : العرب لو رهن أحدهم شيئا لا بد أن يفى به

فكانت بنو تميم تعد ذلك القول من مفاخرها

أورد البلاذرى فى فتوح البلدان • حيث قال : أخذ رسول الله الجزية من مجوس هجر • ومجوس أهل اليمن وفرض على كل من بلغ الحلم من مجوس اليمن من رجل وامرأة دينارا • هذه روايات تفيد ان المجوسية هى دين زارذشت فى المفهوم العربى

وأما الروايات التاريخية الخاصة بتمجس حاجب بن زرارة فهى من وجهة نظرى غير صحيحة لأننا نتبعنا كلمة وفد بنى تميم بين يدى الرسول فما وجدنا فيها ما يشير من قريب أو من بعيد الى نسبة المجوسية اليهم أو نسبتهم اليها سواء أكان قول خطيبهم أم كان القول قول حسان بن ثابت

واذا كان رفضنا الرواية الخاصة بحاجب بن زرارة فاننا لا نمنع أن يكون
بينهم من تمجس ولا سيما أنهم كانوا من غسان وهم ملوك الشام وهم وسط
الأعاجم ، يقول حسان :

فلا تجعلوا لله ندا وأسلموا ولا تلبسوا زيا كزي الأعاجم
وجاء في كلمة وفد بنى تميم ما يفيد على لسان الزبرقان (من أسماء
القمر) :

نحن الكرام فلا حى يعادلنا منا الملوك وفينا تنصب البيع
يقال عن الزبرقان يرفع بيتا من عمائم وثياب وينضح بازعفران والطيب ،
وكانت بنو تميم تجح ذلك البيت ، قال الشاعر وهو المخبيل السعدى واسمه
كعب بن ربيعة :

وأشهر من عوف جلولا كثيرة

الباب الرابع

الكعبة مركز العرب الدينى

- * بناء البيت والدعوة الى التوحيد *
- * المرحلة العبثية *
- * الاتجاه التوفيقى بين المظهر القبلى والدينى *
- * مذهب قريش الدينى ومحتواه الفكرى *
- * التشكك فى الأوثان وسحب الثقة منها *

مكة وبناء البيت

رأينا من عرضنا السابق لتاريخ المنطقة العربية وخاصة شبه الجزيرة العربية أنها لم تكن معزولة عما حولها : سياسيا ، أو اقتصاديا ، أو ثقافيا ، أو دينيا ، فرأينا قامت هنا أو هناك تحت اشراف الكنيسة التي انشأتها وساعدت على قيامها مدارس وليول مذهبية تقطر المدرسة ويشتت أبناءها . وهكذا كنا نرى : أنها ما تكاد توجد الا ويعطل رثتها الهواء . وهذه المدارس الوليدة كانت ذات صبغة دينية ولسانها لا يرطن غير السريانية لغتها القومية . ومع هذا الاضطهاد وجدت قبائل عربية ذات مظهر حضارى اعتزلت الأوثان الى المسيحية وكنا نلاحظ أن الدافع الى هذا التغير ليس ديفيا خالصا انما بعضه كان سياسيا .

ووجدت قبائل يهودية الأصل ، أو يهودية التين ، غير الجنس ، اى قبائل عربية في يثرب ، يختلف المؤرخون : حول تاريخ نزولهم ، وأصلهم ، في هذه المنطقة ، وهل هى قبائل يهودية الأصل ؟ أو قبائل عربية تهودت ؟ والاحتمال الثانى له من أسمائهم العربية ما يبرره هذا فضلا عن التيارات الأخرى .

كانت هذه التيارات حول مكة ، مركز المنطقة العربية ، فهل تجاوزت مكة مع هذه التغيرات ؟ أو بمعنى آخر هل مكة أحست بهذه التغيرات وما هى دلائل هذا الاحساس ؟ لا شك أن هذه الأشياء بددت سكون المنطقة العربية ، وأحلت فيها تغيرات شاهدها محصورة على مستوى أفراد من القبائل ولم يبلغ مستوى عمقها الى الشعور الاجتماعى .

- فوجنا من تمرد على الوثنية ، وأطلقوا على أنفسهم : « المحنثين » .
- ومن اعتنق المسيحية .
- ومن اعتنق الحنيفية وأتى بها من الشام .
- ووجدنا من تثقف ثقافة عامة تلقاها في مدرسة جنديسابور مثل :
النضر بن الحارث ووالده الحارث بن كلدة .

- ومن كان عنده مجلة لقمان مثل سويد بن صامت .
- والداعون الى توحيد الله بفطرتهم مثل : قس بن ساعدة .
- وطبقات من الحكماء : مثل أكثم بن صيفي .
- والاباحيون الذين يسعون أصنامهم : مثل امرئ القيس .
- ورواية تاريخية تسند الى عمرو بن لحي : أنه أتى بصنم من بلاد
البلقاء بعد غزو الاسكندر للشرق .
- ووجدنا فيها الصابئين والمجوس .

ونلاحظ أن هذه التغيرات كان منها ما هو شرقي وما أكثره ومنها ما هو
هيليني ، وذلك يظهر في الأصنام . كذلك لم تبق الجزيرة العربية بمنأى عن
دينى التوحيد الكبيرين اللذين قاما على حدودها فقد نفذت اليهودية والمسيحية
الى الصحراء .

لكن السؤال هو : إذا كانت الاتجاهات الدينية وجدت في مكة وكلها
أو أكثرها وفد إليها فما هو الاتجاه الدينى لمكة ؟

نبي الله إبراهيم والجزيرة العربية (١) :

عصر ابراهيم الخليل يرجع تاريخه الى القرن التاسع عشر قبل الميلاد
وهو عصر عربى بحت قائم بذاته بلغته وهى مرتبطة بالجزيرة العربية وبلغتها
وبقبائلها التى سميت فيما بعد بالعرب البائدة لانقراضها .

وقد كانت القبائل العربية المعروفة بالقبائل البائدة آنئذ على قيد الحياة
في جزيرتهم في هذا العهد وقد لعبت دورا مهما في تنمية الحضارة العربية
السامية .

وقد نبه القرآن الكريم على ذلك بربط صلة ابراهيم الخليل بالجزيرة
العربية وبيت الله العتيق وليس بفلسطين .

ان الأثرين ميزوه عن الأذوار التالية واطلقوا عليه تسمية (عصر
الحوالين) .

(١) من كتاب الدكتور أحمد مومنة .

ومن المهم ذكره في هذا الصدد أن القرآن الكريم كان أول من كشف لنا عن هذه الحقيقة ، وقد جاءت المكتشفات الأثرية حول الهجرات السامية ودراسة علم المقارنة بين اللغات مؤيدة لهذه الحقيقة نفسها التي تربط صلة إبراهيم بجزيرة العرب .

والتوراة ترى أن أرض فلسطين باعتراف التوراة ذاتها كانت أرض غربة بالنسبة إلى آل إبراهيم وآل اسحاق وآل يعقوب ، إذ كانوا مغتربين في أرض فلسطين بين الكنعانيين سكانها الأصليين ، والتوراة تتحدث عنها بصفتهم غرباء وافدين طارئین على فلسطين (١) .

أما وطنهم الأصلي فهو (أرام النهرين) أي منطقة حران (حران الحالية) حيث كانت العشائر الآرامية المنتقمون إليها قد استقرت عند منابع نهر البليخ بعد هجرتها من الجزيرة العربية (٢) .

ثم نزلت فروع من هذه القبائل إلى جنوبى العراق (منطقة بابل) فكان إبراهيم الخليل من ذريتها . وقد وردت كلمة (اغتراب) كلما ذكر تنقل إبراهيم الخليل في فلسطين وفي مصر ، فقليل : (تغرب إبراهيم في أرض الفلسطينيين) (٣) .

(١) وقال إبراهيم لعبده كبير بيته المستولى على ما كان له . « فمع يدك تحت لخدّى واستحلّك بالزيب اله السماء وآله الأرض لا تأخذ زوجة لابنى من بنات الكنعانيين اللذين أنا ساكن الذين أنا ساكن بينهم . بل إلى أرضى وإلى عشيرتى تذهب وتأخذ زوجة لابنى اسحاق (تلك . ٢٤ : ٣ - ٤) » ثم أخذ العبد عشرة جمال من خمال موله ومضى وجميع خيرات موله في يده فقام وذهب إلى آرام النهرين إلى مدينة ناحور » (تك ٤٠ : ٢ - ١٠) راجع أيضا (تك ٢٤ : ٢٣ - ٢٨) .

(٢) ليست هذه عادة أصيلة لا علاقة لها بالتقاليد اليهودية ! ثم ألا يستشف منه أن سيدنا إبراهيم الخليل (ع) كان غريبا وفردا في أرض كنعان ! أو لم يكن بإمكانه نيا لو كان هناك يهود من عشيرته تزويج ولده من إحدى بناتهم بدلا من إرسال عبده إلى آرام النهرين لجلبه مروسا لابنه من هناك فلا يفرح بزواج ولده الوحيد : راجع أيضا : ٢٨ : ١ - ٢ . (تك ٤٧ : ٦) .

(٣) يجب التمييز هنا بين بنى إسرائيل عند هجرتهم إلى مصر في القرن السابع عشر قبل الميلاد وهم أسرة واحدة لم يتجاوز عدد أفرادها السبعين شخصا ، وبين قوم موسى عندما نزحوا إلى فلسطين في القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، لأن أسرة إسرائيل انصهرت وذابت في المجتمع المصرى على مر الزمن بحيث لم يبق لها أى أثر عندنا فزاد النبي موسى عليه السلام وأتباعه أرض فلسطين بعد خروجهم من مصر بعد مرور حوالى ستمائة عام على زمن دخول أسرة يعقوب إلى =

و « انحدر ابرام مصر للتغرب هناك » (١) وانتقل ابراهيم الى ارض الجنوب وسكن بين قادش وشور في جرار (٢) . . ولما اشترى ابراهيم مغارة المكفيلة من الحيشيين في حبرون قال لهم : « أنا غريب ونزِيل عندكم أعطوني ملك قبر معكم لأدفن ميتي (٣) ومثل ذلك ورد في التوراة فيما يخص اسحاق ويعقوب : « وسكن يعقوب في ارض غربة أبيه كنعان (٤) » وجاء يعقوب الى اسحاق أبيه الى حبرون . حيث تغرب ابراهيم واسحاق (٥) » تصرح وتقول أمام الرب الهك : أراميا تائها كان أبي فانحدر الى مصر وتغرب هناك » وهكذا فلا يمكن أن تكون كلمة « تغرب » بمعنى اتجه نحو الغرب لأن ورود كلمة (ارض الغربة) تنفي هذا الاحتمال .

ثانيا : أن أبناء اسرائيل الاثنى عشر ولدوا كلهم باعتراف التوراة في فران آرام منطقة حران (٦) حيث مكث يعقوب. المسمى اسرائيل عشرين سنة (٧) ويعنى ذلك أن مولدهم ونشأتهم كانوا خارج فلسطين وهؤلاء هم بنو اسرائيل الذين ورد ذكرهم في التوراة .

« ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا » (قرآن كريم)

يتضح مما تقدم أن تسمية ابراهيم (ابراهيم الخليل) بالعبراني كما في

= مصر . لقد كان هؤلاء يؤلفون حملة مصرية بحثة اكثرها من بقايا الهكسوس ومن الجنود المصريين النارين كما سنوضح ذلك فيما بعد .

(١) ٢٢ : ١ : ١٠ .

(٢) تك : ٢٠ : ١

(٣) تك : ٢٣ : ٤

(٤) تك : ٢٧ : ١

(٥) راجع أيضا (وظهر الرب لاسحاق وقال لا تنزل الى مصر اسكن في ارض التي

اقول لك تغرب في هذه الارض) تك ٢٦ : ١ — ٣ .

(٦) تك ٢٥ : ٢٧ راجع ايضا لم اخذ عيسو نساءه وبنيه وبناته وجميع نفوس بيته من

وجه اخيه يعقوب لان املكهما كانت كثيرة على السكن معا ولم تستطع ارض غربتهما أن تحلها من أجل مواشيهما . « تك ٢٦ : ٦ — ٧ » .

(٧) وكان بنو يعقوب اثني عشر. اخا : بنو ابنه : روبين وشمعون ولاوى ويهوذا

وعساكر وزبولون وابنا راحيل : يوسف وبنيامين ، وابنا بلهة جارية راحيل : دان ونفتالي

وابنا زلفة نجارية. ليثة جاد واشير وهؤلاء بنو يعقوب للذين ولدوا في حران. آرام (تك ٢٣ : ١٥ — ٢٦)

التوراة كان يراد بها معنى (العبريين) القبائل البدوية العربية ، والقبائل الأرامية التي ينتمى إليها الخليل نفسه ، وبهذا المعنى جاءت كلمة (عبيرو) التي عثر عليها في النصوص المصرية والتي تعود الى القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد ، ويعترف جورج بوست في مصنفه « قاموس الكتاب المقدس » بأن لقب ابرام بالعبراني لم يقصد به الاسرائيلي وإنما يمكن تأويله على تعبيره بابرام السائح أو المهاجر (١) فقد عثر في تسل العمارنة بمصر على ست رسائل من أحد ملوك منطقة اورشليم الكنعانية اسمه « عبد - خيبا » موجهة الى فرعون مصر أمفوفيس الرابع « العبيرو » الذين اجتاحت بلادهم . ولما كانت أرض فلسطين في هذا الدور محمية مصرية فإن « عبد - خيبا » يقول في رسائله : لم يبق في أرض مولاى الملك شيء . . . نهب (العبيرو) كل البلاد من سيدى الملك . . . البلاد وقعت في أيدي (العبيرو) ومن الواضح هنا أنه يمكن أن يكون (العبيرو) الذين ورد ذكرهم في هذه الرسائل هم اليهود . وهكذا فإن التوراة حين تصف ابراهيم الخليل بالعبراني تسائر واقع الحال باعتباره من قبائل الخبيرو (العبيرو) التي ينتمى إليها ، أى القبائل الأرامية ، قبل أن يكون لليهود وجود بعد . . . ويؤيد ذلك المستشرق توردارسون ، استاذ اللاهوت في جامعة أيسلندا ، فيرى أن ابراهيم شبه بدوى ينتمى الى القبائل القديمة المسماة بالعبيرو ولعله ينحدر من هذا العرق القبائلى نفسه (٢) فقد عاش ابراهيم في القرن التاسع عشر قبل

(١) يلاحظ أن هذه العبارة قد حذفت من الطبعة الجديدة لقاموس الكتاب المقدس لعام ١٩٧١ بل وأكثر من ذلك حذفت جميع الدراسات العلمية التي قام بها العلامة جورج بوست ليوضح مكانها ، خلافا لما جاء في المقدمة ما يؤكد ربط اليهود بمصر ابراهيم الخليل واعتبار كلمة عبرانيين أو عبرانيين شاملة لكل ادوار اليهود التاريخية التي تبدأ بابراهيم الخليل وتنتهي للتقاليد اليهودية التي تعتبره جد اليهود ، ويلاحظ أيضا أن هذا القاموس الجديد يدمج النظرية المسيحية الحديثة التي تعتبر جميع الاسماء الواردة في التوراة من أسماء أشخاص وأماكن عبرية أى يهودية بقصد ارجاعها الى عهد العبريين (العبيرو) عن طريق الاستغلال في ذلك الخلط بين العبري واليهودية الذي تثار عليه في وقت متأخر للتصويه . أن العبرية القديمة هي في الحقيقة لغة عهد (العبيرو) أى الكنعانيين لان العبرية بمعنى اليهودية متأخرة ولم يكن قد وجدت في ذلك العهد القديم من ملاحظات - د . . سوسة في كتابة السابق .

(٢) انظر ما تقدم من الاخلاص والخبر في بحث الارانيين في الفصل الاول .

الميلاد ، أى فى زمن يسبق عهد موسى بسبعمائة عام • وقد ظلت هذه التسمية أى تسمية عبرى وعبرانى ، تطلق على الجماعات من القبائل النازحة من البادية ومن جهة فلسطين الى مصر وعلى هذا الأساس صار المصريون يسمون الاسرائيليين بالعبرانيين باعتبارهم من تلك الجماعات البدوية (١) • وأما ما أورده الباحثون من أن كلمة « عبرى » مشتقة من عبر أى قطع نهرا أو غيره أو من « عابر » أحد أسلاف ابراهيم (٢) فغير مستند الى أى دليل أو أساس وهى من قبيل الحس والاجتهاد وقد نجه القرآن الكريم الى هذه الناحية حيث قال تعالى : (يا أهل الكتاب لم تحاجون فى ابراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده أفلا تعلقون ... ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفيا مسلما وما كان من المشركين (٣) •

ولهذه الآية الشريفة معنيان : المعنى الأولى : هو أن ابراهيم ما كان على دين (يهوه — اله اليهود — بل كان حنيفا مسلما) كما تقدم • والمعنى الثانى : هو أن نور ابراهيم الخليل هو غير نور اليهود ولا يتصل بنور اليهود الأخير •

يتضح من التنبيه الذى ورد فى القرآن الكريم أن هناك من وقع فى نفس الخطأ الذى وقع فيه الكتاب العرب بربطهم عهد ابراهيم الخليل باليهود ، وأن هذا التنبيه الى أن ابراهيم الخليل ظهر قبل وجود اليهود وأنه لا يمكن أن يكون يهوديا ثم الإشارة الى اتصاله بالجزيرة العربية (بيت الله العتيق) يتفق تماما مع ما توصل اليه العلماء فى ضوء الاكتشافات الأخيرة وعلى الباحثين أن يتبعوا ما نبه اليه القرآن الكريم فى هذا الموضوع ، لأن استعمال كلمة عبرى بمعنى يهودى عندما يبحث عن تلك الأزمان القديمة

(١) دائرة المعارف البريطانية ١٩٢٥ ، م ١ ، ص ٤٥ •

(٢) بك : (٣٩ ، ١٤ ، ١٧ ، ٤٠ ، ١٥ ، ٤١ ، ١٢) خر ١ — ١٥ ، ١٦ ، ١٥ — ٢ ، ٧ ، ١١ و ١٣ •

(٣) بك : (١٠ ، ٢٤ ، ١١ : ١٤) •

(٤) فتحى رضوان : « اليهود وبنو اسرائيل » الاطرام (١٧ : ١٠٪ ١٩٧٢ ص ٧) •

(٥) سورة آل عمران : الإيتان : ٦٤ ، ٦٦ •

لا يتفق مع المستند العلمى التاريخى فضلا عما يحدثه من ارتباك اذ يربط اليهود بأدوار تاريخية قديمة .

اله ابراهيم الخليل غير اله اليهود :

ان الاله الذى كان ابراهيم الخليل يدعو لعبادته هو غير اله اليهود الذى تصفه التوراة ، لان دعوة ابراهيم الخليل لعبادة الاله الواحد كانت دعوة عامة موجهة الى جميع السكان الوثنيين فى عصره بلا استثناء . الاله الاوحد خالق السموات والارض وجميع البشر ، رب جميع المخلوقات بدون تمييز بين الاقوام (١) ومما يؤيد ذلك ان ابراهيم الخليل لما استدعى عبده وامره بان يذهب (٢) الى « حاران » لياخذ زوجة لابنه اسحاق من عشيرته هناك قال له : فاستحلفك بالرب اله السماء واله الارض ان تأخذ زوجة لابنى من بتات الكنعانيين الذين انا ساكن معهم (٣) وقد ورد ذكر هذا الاله الذى دعا ابراهيم الى عبادته باسم (ايل) فى التوراة (٤) وهو مفرد لكلمة (اباهييم) الكنعانية المراد بها الجمع والتعدد ، اى الآلهة ، ومنه جاءت تسمية « بيت » (٥) و « ايل » هو الاله تكلم مع هاجر (٦) وقد ورد هذا المصطلح نفسه فى النصوص الكنعانيين والآرامية ثم فى النصوص المصرية التى ترجع الى عهد الهكسوس بهذا المعنى فقيل (يعقوب ايل) و (يوسف ايل) اى يعقوب الاله او يوسف (٧) عملا بالطريقة التى كانت متبعة باضافة اسم الى اسم الشخص تبركا به كما هو متبع الآن بتسمية الأشخاص بعبد الله وعبد الاله الخ . . . وذلك مما يدل على ان كلمة (ايل) بمعنى الاله الواحد كانت معروفة فى كنعان فى عهد ابراهيم الخليل وفى عصر الهكسوس

(١) لى رضوان : « اليهود دينو اسرائيل » الاهرام (١٧ ٪ ١٠ ٪ ١٩٧٢ ص ٧) .

(٢) تك ١٤ : ١٩ .

(٣) تك ٢٤ : ٣ .

(٤) تك ١٢ : ٨ ، ٧٣٥ - ٨ .

(٥) تك ١٢ : ٨ ، ١٣ : ٣ .

(٦) تك ١٦ : ١٣ - ١٤ .

(٧) انظر ما تقدم عن الهكسوس فى الفصل الاول وما تقدم عن عصر ابراهيم واسحق ، ويعقوب فى هذا الفصل .

الذى يليه أى قبل أن يظهر موسى واليهود بعدة قرون ، ولما ظهر اليهود عبدوا الههم الخاص بهم الذى سمي باسم (يهوه) الاله الذى لا يهमे من العالم والخلق سوى اليهود و شعبه المختار ، وذلك على غرار مبدأ التفريد وهو المبدأ الذى اعتنقه الأقوام القديمة عندما كانت كل مدينة تختص بـاله واحد من بين مجموعة الآلهة بدون نبذها عبادة الآلهة الأخرى والقضاء عليها (١) . وهو حاكمها وهو قائدها على صورة البشر والبشر على صورة الاله ، مسكنه فى السماء وينزل أحيانا الى الأرض ، فيتفحص الأشكال البشرية ، ويكلم البشر بصوت ولفظ ويأكل ويشرب الخ (٢) . وهكذا كان الاله الذى تصوره اليهود الها قبلياً خاصاً بهم ويفاقش آلهة الأقوام الأخرى ويحارب معهم كما كانت الحال عليه فى عصر دويلات المدن فى العراق القديم ولا يخفى أن دعوة ابراهيم الخليل للوحدانية الخالصة بدأت من العراق وليس من فلسطين وهى موجهة الى جميع الوثنيين فى عصره ولم تخطر على بال ابراهيم الخليل فكرة الشعب المختار ، وهى البدعة التى اختلقها مدونو التوراة وادخلوها فى الكتاب المقدس بعد ربطها بابراهيم الخليل ، اذ لا يمكن أن تكون هذه الادعاءات منزلة من الاله خالق السموات والأرض الذى دعا ابراهيم الخليل الى عبادته قبل أن يكون ظهر اليهود بعدة قرون . لذلك كله تعتبر دعوة ابراهيم الخليل الى الوحدانية الخالصة أول دعوة عامة للتوحيد بالمعنى الدقيق لمصطلح التوحيد فى تاريخ البشرية ، وهى عربية لغة ووطناً ، كما جاءت بعدها رسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، النبى العظيم خاتم الأنبياء ، وقد نزلت عليه باللغة العربية أيضاً . لأن اللغة التى كان يتكلم بها ابراهيم الخليل والآراميون معه فى تلك الأزمان هى اللغة العربية الأم التى يرجع وطنها الاصلى الى الجزيرة العربية ، وكانت لغة واحدة تتكلم بها جميع القبائل وذلك قبل أن تتفريق هذه اللغة الأصلية الى لهجات مختلفة ضمن كتلة اللغات السامية ، وما كان الاسلام الا ملة

(١) طه باقر ، (مقدمة ... ج ٢ ، ص ٢٠٣) .

(٢) تصور التوراة الاله كشخص يحارب بنفسه من أجل اسرائيل (خر ١٤ : ١٤) .

يش ١٠ : ٤٢ ، ٢٣ ، ٢٤) وله رجلان ويمشى كالإنسان (خر ٢٤ : ١٠) ويكتب بأصبعه (خر ٣١ : ١٨ ، ٢٢ : ١٥ — ١٦ ، ١٩ ، ٢٤ :) ويندم على بعض أعماله (١ سم ١٣ — ١٤ الخ ...) .

ابراهيم حنيفا فيقول الدكتور هوميل : « ومما لا شك فيه ان اللغة الآرامية في عصر ابرام (ابراهيم الخليل) كانت لهجة عربية ، ويقصد هنا اللغة الأصلية التي كان يتكلم بها الأراميون في الجزيرة العربية قبل هجرتهم منها ، لان التي كان يتكلم بها الأراميون في الجزيرة العربية قبل هجرتهم منها ، لان ما نسميه بالآرامية لم يظهر الى حيز الوجود إلا بعد زمن متأخر جدا وأن ما يعرف بأرامية التوراة أرامية عصر المسيح يرجع الى زمن الفرس وفترة العصر المسيحي (١) » .

وقد ورد اسم الاله (ايل) مضافا الى أسماء عدد من الملوك المعينيين في اليمن ومنهم : « وقه — ايل » ، « يصدق ايل » ، ملك حضرموت ومعين الذي كان حكمه حوالي سنة ٢٠١ ق.م و « يثع ايل » كما ورد اسم الاله ايل مضافا الى أسماء بعض ملوك سبأ والمعروف منهم « يدع ايل » « كرب ايل » وقر الأول والثاني والثالث والرابع والخامس « وهب ايل » ، ففي ذلك دليل واضح على ارتباط ابراهيم الخليل بالجزيرة العربية وأن الاله الواحد الذي كان يدعو الى عبادته ابراهيم الخليل كان معروفا في جزيرة العرب بصفته « الاله العلى » مثل ما كان معروفا عند الكنعانيين والآراميين بهذه الصفة ، وأن اضافة اسمه الى أسماء بعض ملوك اليمن دليل على ان اسم « ايل عربي الأصل أى الاله » .

ومما يدل على ان عبادة ابراهيم الخليل للاله « ايل » منفصلة تماما عن عبادة اليهودية للاله « يهوه » التي ابتدعها كتبة التوراة بعد عهد ابراهيم الخليل بأربعمائة واثلاثين سنة ، ان أسرة ابراهيم الخليل في ثلاثة أظهر كانت تضيف اسم الاله « ايل » الى أسماء زعمائها ، فابراهيم الخليل نفسه هو النبي الوحيد الذي سمي « خليل الله » كما ورد في القرآن الكريم (واتخذ الله ابراهيم خليلا) (٢) .

ومن المرجح ان كلمة خليل عربية مركبة من (خل) وايل ، بمعنى

(١) Dr. F. Hommel «The Ancient Hedrew Tradition» p. 202

(٢) سورة النساء الآية ١٢٥ .

صديق الاله (ايل) • ومثلها اسم اسماعيل الذى معناه ليسمع الاله (ايل)
وكذلك اسم يعقوب (اسرائيل) الذى معناه عبد الاله « ايل » •

ويؤيد المستشرق ثورير ثوردارسون أستاذ اللاهوت في جامعة ايسلندا
كون ديانة التوحيد التى دعا ابراهيم الخليل الى عبادتها هى خاصة به
بعشيرته ولا صلة لها باليهودية فيقول فى ذلك : « لقد أظهرت المدونات
الآشورية من القرن العشرين قبل الميلاد والكتابات التى تعود الى انعمصور
التى تلى ذلك العصر أن ديانة ابراهيم تستند الى الايمان بالاله العلى ، وهذا
يتفق مع الصورة التى نجدها فى التوراة (أنا اله ابراهيم أبك) (١) فابراهيم
اذن هو مؤسس وحامل لواء هذه الديانة التى تدعو الى عبادة الاله العلى
وأصبحت تقترن بصلة وثيقة بعشيرته (٢) •

ومما يذكر فى هذا الصدد أن التوراة عندما تتحدث عن ابراهيم الخليل
وعن كلامه مع الاله تستعمل كلمتى « الله » و « ايل » وقال الله لابراهيم (٣) •
مع أنها تستعمل أحيانا كلمة « الرب » ومثل ذلك هى الحال بالنسبة ليعقوب
ثم قال « الله » ليعقوب قم واصعد الى بيت « ايل » وأقم هناك واصنع
هناك مذبحا لله • • • (٤) وظهر الله ليعقوب الخ (٥) •

أما الاله « يهوه » فإنه لم يبدأ استعماله الا فى عهد النبى موسى (٦)
اله اليهود وحدهم (٦) •

النبوة الالهية عربية لفظا ومعنى :

ويؤكد المرحوم الأستاذ العقاد أن الاسرائيليين (اليهود) تعلموا النبوة
الالهية بلفظها ومعناها من شعوب العرب ، ولم تكن لهذه الكلمة عند

(١) تك ٢٦ : ٢٤ •

(٢) دائرة المعارف البريطانية طبعة ١٩٢٥ ، ج ٥ ص ٤٥ •

(٣) تك ١٧ : ١

(٤) تك ٣٥ : ١

(٥) تك ٢٠ : ١

(٦) خر ٦ : ٣ ، ١٥ : ١ ، ٦ : ٦

الاسرائيليين (اليهود) لفظه تؤديها قبل وفودهم على أرض كنعان ومحاورتهم العرب المقيمين في أرض مدين ، فيقول :- « ان كلمة نبي عربية لفظا ومعنى لأن المعنى الذى يؤديه لا تجمعها كلمة واحدة في اللغات الاخرى والعبريون قد استعاروها من العرب في شمال الجزيرة بعد اتصالهم بها ، لانهم كانوا يسمون الأنبياء القدماء بالآباء ولم يفهموا من كلمة النبوة في مبدأ الأمر الا معنى الانذار ... فكانوا يسمون النبي بالرائى (١) أو الناظر أو رجل الله ، ولم يطلقوا عليه اسم النبي الا بعد معرفتهم بأربعة من أنبياء العرب المذكورين في التوراة ، وهم ملكى صادق وأيوب وبلعام وشعيب الذى يسمونه يثروب وهو معلم موسى الكليم » (٢) . وقد سمي ابراهيم الخليل برئيس الآباء (٣) ويستشهد العقاد ببعض علماء الأديان الغربيين الذين ذهبوا الى تأييد اقتباس اتباع موسى كلمة النبوة من العرب مثل الأستاذ هولسر والأستاذ شميدت اللذين يرجحان أن الكلمة دخلت اللغة العبرية بعد وفود القوم على فلسطين . فتشير التوراة الى أن عاموس اغتاض وغضب لما أطلق عليه اسم نبي وقال : « لست انا نبيا ولا انا ابن نبي بل اسرائيل (٤) » .

انا راع وجانى جميز » .

فاخذنى الرب من وراء الضان وقال الرب اذهب تنبأ لشعبى

(١) ما ٧ : ١٢ .

(٢) العقاد ، « الثقافة العربية » . ص ٧١ .

(٣) عب ٧ : ٤ .

(٤) عا ٧ : ١٤ - ١٥ .

الكعبة بيت الله الحرام

الكعبة مركز ديني قديم عده المؤرخون من أحد البيوت السبعة المقدسة ووصفه القرآن بأنه أول بيت وضع للناس وهو الذى بمكة مبارك فيه آيات بيئات ، ويسند القرآن تجديد بنائه الى ابراهيم واسماعيل فيقول .
 « وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود » ويقول : واذا يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم .
 وليس فى القرآن ما يدل على أن ابراهيم دعا سكان البلد الحرام أو جاورهم الى دعوته الحنيفية ، وكل ما أشار اليه القرآن أن ابراهيم كلف بأمرين :

الأمر الأول : ايداع اسماعيل وأمه فى جوار البيت .

الأمر الثانى : بناؤه واسماعيل البيت الحرام .

كانت مكة وهى المدينة الرئيسية بالحجاز التى اشتق اسمها من كلمة (محراب) بلغة أهل سبأ (١) تضم ما لا يقل عن ثلثمائة وثن ترضى كل فوق .
 أى أوجدت كل قبيله وكل اسرة بل كل محراب مستقل طقوس دينه ومادة عبادته كما عمدت الى تغييرها ولكن الأمة العربية فى كل عصر خضعت لدين مكة كما أحنى الرأس أمام لهجتها .

ويرجع تاريخ الكعبة حقا الى ما قبل العصر المسيحى . وقد لاحظ المؤرخ اليونانى « ديودوروس » فى وصفه لشاطئ البحر الأحمر أن هناك معبدا شهيرا يقع بين رض ثمود وارض سبأ يبجله العرب لما له من قدسية سامية .

وجدير بالذكر ان الكسوة المصنوعة من التيل أو الحرير كان أول من قدمها ملك تقى من ملوك حمير عاش قبل زمن محمد بسبعمئة سنة (٢) .

(١) العرب ص ٢٢ نتج ترجمة د . راشد البراوى .

(٢) اضحلال الامبراطورية الرومانية وستوطها تأليف : ادوارد جيبون .

ترجمة : د . محمد سليم سالم مراجعة محمد أبو حرة .

تعتبر مكة من البلاد القديمة قدم بيتها • وكان اليونانيون يعرفون مكة ويطلقون عليها « ماكواريا » يقول جيبون : وهذا اللفظ يدل على عظمة هذه البلدة • (١)

ويبدو أن اسم مكة (٢) لم يكن معروفا قبله وذلك يظهر من قول ابراهيم حكاية عنه في قوله تعالى : ربنا انى اسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم •

واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام • (ابراهيم)

واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئا • (الحج)
وواضح من الآيات أن نبي الله ابراهيم لم يدعها مكة وانما دعاها : بواد غير ذى زرع مرة ، وبلدا آمنا مرة أخرى ، والبلد الأمين الثالثة •
ثم يذكره الله بقوله : واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت •

فلم تذكر مكة في الروايات التاريخية للقرآن — كما رأينا — وفي هذا مدخل لبعض مؤرخى اليهود أو المسيحية لينكروا رحلة ابراهيم الى مكة وبناءه البيت حيث لم يسمعوها ذكرا لمكة ، ويذكر المؤرخون المنصفون بعض الاسماء القديمة التى تشير الى ذلك : يقول الشهرستاني : نقلنا عنهم : وكما ورد في التوراة : أن الله تعالى : جاء من « طور سيناء » وظهر « بساعير » واستعلن « بفاران » •

(١) المرجع السابق ص ١٢ ج ٢ •

(٢) أسماء مكة : من تمكنت العظم اذا اجتذبت ما فيه من الخ وتمكك النمل ما في فرع النانة • فكانها تجذب الى نفسها ما في البلاد من الناس والآلات التى تأبها من المواسم • وقيل لما كانت في بطن واد هى تمك الماء من جبالها عند نزول المطر وتنجذب اليها السيول : قال الراجز :

اذا الشريب أخذته اكبه مخلصه حتى يك بكه

مالكه : الشدة ، واكاك الدهر : شدائده •

بكة : من انها بك الجبابة أى تكسرهم وتقرعهم وتيل من البك وهو الاوجاع •

قال ابو عبيدة : أن بك اسم البطن لانهم يتباكون فيها أى يزعمون •

وايضا يذكر من اسمائها : الرامى — وحلاح — وأم زهم — وكونا •

ساعير : جبال بيت المقدس التي كانت مظهر عيسى عليه السلام : وفاران : جبال مكة التي كانت مظهر المصطفى صلى الله عليه وسلم . فمن يتمعن الآيات القرآنية نجدها لا تشير من خلال رواياتها التاريخية أن ابراهيم سماها مكة .

ويغلب على وجهة نظري من خلال آيات القرآن : أن ابراهيم سار بهاجر وابنه اسماعيل بوحي الهى وليس كما تزعم الروايات الأخرى أن سارة طردتها ولطمتها فتلك نزعة عرقية من اليهود تراودهم في كل وقت : « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه » . هذه النزعة صورت لهم دائما انهم سلالة واحدة وعنصر لا يزاوج العناصر الغريبة عنه وهذا الاسراف في فهم الذات جعلهم مولعين بتزييف بعض الروايات التاريخية التي تخدم فكرتهم . ولذلك فان نبي الله ابراهيم سار بهاجر واسماعيل وفق نداء الله وحكمته في قوله « وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل » فكانت المسيرة ذات هدف وظيفي وليس طردا أو غضبا ولنا في ذلك حجة بالغة هي قوله تعالى : أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود » ، وأما تساؤل أهل الكتاب عن مصير معرفة الرسول من أين استقى أخباره عن ابراهيم وبعضها غير موجود في التوراة والانجيل فان الله رد عليهم بقوله : « يا أهل الكتاب لما تحتاجون في ابراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده أفلاتعقلون . ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحتاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم ونتم لا تعلمون » .

« ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مبسلا وما كان من المشركين . ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين » آلى عمران : فروايات التوراة والانجيل كانت من بعده فلا تنهض حجة لموقف سارة من هاجر (١) . ومما نحب أن نقوله : أن

(١) يقول ابو حيان صاحب المسير ج ١ ص ٣١٧ أنهم فكروا فصلا كثيرا واستطردوا من ذلك للكلام في البيت المعمور والحجر الأسود وطردوا في ذلك بايشياء لم يضمنها القرآن ولا الحديث الصحيح وبعضها يباغض بعضه وذلك على حرى عاداتهم في نقل ما رآوا وما درج ولا ينبغي أن يعتمد الا على ماصح في كتاب الله وسنة رسوله . قال ابن عطية . والذي يصبح من هذا كله أن الله الر ابراهيم برقع القواعد من البيت .

الآيات القرآنية الخاصة باسماعيل وصفته بالفجوة والرسالة معا فهو نبي ورسول واشترك مع والده في بناء البيت واعداده مثابة للناس وامنا . غير أن القرآن لم يوضح أو لم يشير الى أى قوم كان مبعثه ، من العرب أو غيرهم ويبدو أن رسالته كما أشار القرآن كانت الى أهله .

قال تعالى : « واذكر في الكتاب اسماعيل انه كان نازقا الوعد وكان رسولا نبيا . وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا » « وأهله هم الذين خطوا بجوار زمزم وتزوج منهم . ومما أشار اليه القرآن انه كان من الصابرين . قال تعالى : « واسماعيل وادريس وذا الكفل كل من الصابرين » . (الأنبياء)

وبالرغم من أن دعوة اسماعيل كانت الى ذلك الرهط الذى نزل بجوار زمزم وتزوج منهم اسماعيل فانه كان من الصابرين ، ويبدو أن قريشاً خلفهم لم يكونوا بأحسن حال من سلفهم نسب ابيهم اسماعيل .

ومما يحسن الالتفات اليه أن رسالة اسماعيل كانت لا تخرج عن ملة ابراهيم لأن القرآن كثيرا ما كان يذكر العرب بأن الاسلام ملة ابراهيم حنيفا وهو الذى سماكم المسلمين من قبل . وفى هذا ما يشير الى أن ملة ابراهيم هى دعوة اسماعيل غير أنه أسند اليه أمر الدعوة فى قومه العرب . فمنذ أن أقام ابراهيم واسماعيل قواعد البيت مثابة للناس وامنا ودين التوحيد أقيم معه لو لا ما طرا غايه من عوامل التغيير ، وتصبح رحلة ابراهيم تعنى إقامة أهله حول البيت ثم رفع قواعده وتأسيس دين التوحيد ، ومن بقى من العرب فلى بقية من دين اسماعيل : « معد وربيعه ومضر كانوا جميعا على بقية من دينه » (١) .

« والدين العربى القديم هو الخطوة السابقة للدين البابلى الآشورى المعقد ، كما أن ذلك الدين العربى القديم هو الذى مهد لهذا التطور التاريخى للدين العربى لليهودى مع حرصه على الاحتفاظ بدين الآباء دين الصحراء البدائي الذى دان به آباء الشعب وأجداده الأولون كما أنه بقى زمنا طويلا موضوع نزاع وعراك شديدين بين العقيدتين الدينيتين : السامية الشمالية والسامية الجنوبية والذى تطور أخيرا الى الثالوث الالهى (أب وابن

(١) الاصنام ص ١٢ للكلبى تحقيق أحمد زكى باشا .

وروح قدس) ومن ثم خطأ خطوة الى التوحيد المسيحى فى صورته القديمة التى نعرفها فى الحضارة العربية القديمة * (١) .

ومن بين الباحثين المتخصصين الذين أكدوا الدور الفعال الذى لعبه الساميون العرب من شبه جزيرتهم العربية فى التطور السياسى والحضارى لمنطقة الشرق الأدنى وعلاقته الوثيقة بالعنصر السامى الألمانى نكتور أنطون موتكات اذ يقول : لا تعتبر بلدان الشرق الأدنى مركز الديانات وحسب بل مصدر الاشعاع الدينى الذى أنار الأرض بكاملها (٢) .

ويؤيد هذا ما يشير اليه الكلبى فى رواية أخرى غير رواية عمر وبن لحي الى أن الوثنية طارئة والأصل عندهم عبادة التوحيد التى كانت اثرا من دعوة ابراهيم واسماعيل فيقول : وكان الذى سلخ بهم الى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يطعن من مكة طاعن الا احتمل حجرا من حجارة الحرم تعظيما للحرم وصبابة بمكة فحيثما طوا وضعوا وطافوا به كطوافهم بالكعبة تيمنا منهم بها أو صبابة بالحرم وحبا له ففكرة الأحجار المقدسة نشأت من حبهم لمكة .

وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة ويحجون ويعتبرون على ارث ابراهيم واسماعيل ، ثم سلخ ذلك بهم الى أن عبدوا ما استحبوا ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين ابراهيم واسماعيل غيره فبدوا الأوثان وصاروا الى ما كانت عليه الأمم من قبلهم (٣) . ويقول المقدسى : وكان فى مشركيهم بقية من دين اسماعيل كالنكاح والختان والمناسك وتعظيم الأشهر الحرم وغير ذلك (٤) .

وذكر الشهرستانى من سئتهم التى وافقهم عليها القرآن الكريم فقال : قال محمد بن السائب الكلبى : كانت العرب فى جاهليتها تحرم أشياء نزل القرآن بتحريمها : كانوا لا ينكحون الأمهات ، ولا البنات ، ولا الخالات ، ولا العمات .

(١) يراجع العرب واليهود فى التاريخ ص ١٦٨ د . أحمد شوسة .

(٢) التاريخ العربى القديم ص ٥٢ د . دنكل نيلش ورفاته .

(٣) الاصنام ص ٦ .

(٤) البدء واى تاريخ ج ٤ ص ٢٢ .

وكانوا : يطلقون ثلاثا على التفرقة ، قال « عبد الله بن عباس » رضى الله عنهما : أول من طلق ثلاثا على التفرقة « اسماعيل بن ابراهيم » عليهما السلام . وكان العرب يفعلون ذلك ، فيطلقها واحدة وهو أحق . الناس بها ، حتى اذا استوفى الثلاث : انقطع السبيل عفا ومنه قول « الأعشى : ميمون بن قيس » حين تزوج امرأة فرغب قومها عنه ، فأتاه قومها ، فهددوه بالضرب أو يطلقها ،

أيا جارتى بينى فانك طالقة كذلك أمور الناس غاد وطارقة
قالوا : ثنه ، فقال :

وبينى ، فان البين خير من العصا وأن لا ترى لى فوق رأسك بارقة
قالوا : ثلث ، فقال :

وبينى حصان الفرج غير ذميمة ومومومة قد كنت فينا ، ووامقة
قال : وكانوا يحجون البيت ويعتمرون ، ويحرمون ، قال « زهير » :
وكم بالقيان من محل ومحرم .. ويطوفون بالبيت سبعا ، ويمسحون
بالحجر ، ويسعون بين الصفا والمروة ، قال أبو طالب :

وأشواط بين المروتين الى الصفا وما فيهما من صورة وتخايل
وكانوا يلبنون ، الا أن بعضهم كان يشر كفى تلبيته ، في قوله : « الا
« الا شريك هو لك ، تملكه وما ملك » ، ويقفون المواقف كلها ، قال
« المعوى » :

فأقسم بالذى حجت قریش وموقف ذى الحجيج على اللالى
وكانوا يهدون الهدايا ، ويرمون الجمار ، ويحرمون الأشهر الحرم ،
فلا يغزون ويقاقلون فيها ... الا « طى » وخثعم وبعض « بنى الحارث بن كعب » .
فانهم كانوا لا يحجون ، ولا يعتمرون ، ولا يحرمون الأشهر الحرم ولا البلد
الحرام وكانوا يكرهون الظلم في « الحرم » ، وقالت امرأة منهم تنهى ابنها
عن الظلم :

أبنى ! لا تظلم بمكة
أبنى ! من يظلم بمكة
أبنى ! قد جربتها
لا الصغير ولا الكبير
يلق أطراف الشرور
فوجدت ظالمها يبور

قال صاحب الروض الأنف :

وينسبون الى الوليد بن المغيرة قوله : يا معشر قريش لا تدخلوا في
بنائنا من كسبكم الا طيبا لا يدخل فيه مهر بغى ولا بيع ربا ولا مظلمة
أحد من الناس .

ثم قال معلقا :

يدل على أن الربا كان محرما عليهم في الجاهلية كما كان الظلم والبغاء .
يعلمون ذلك ببقية من بقايا شرع ابراهيم ، كما كان بقى فيهم الحج
والعمرة وشيء من أحكام الطلاق والعق .

وفي هذا ما يفيد ويقوى ما نحن بصددده : وهو أن الدعوة الى التوحيد
راغقت بناء البيت ، وإذا كانت ملة ابراهيم الملة الكبرى ، فإن رحلته في
التاريخ الرحلة الكبرى ، فكان لها أثرها في فلسطين وكان لها أثرها في مكة
وأن الأله « ايل » لفراه منتشرا من مكة الى فلسطين وما دعا الى الله الا بعد
أن حارب الصابئة وأبطل عبادة التتجيم وحارب الوثنية وحمل مسؤولية
تحطيمها الى صنتهم الاكبره امعانا في الزاوية بهم .

الكعبة والمرحلة العبثية :

ولقد كانت الكعبة حرم الله الآمن : موطننا لدعوة اسماعيل واهلها من
نسله فكانت منذ أن عهد الله ببنائها الى ابراهيم واسماعيل هي محل تقديس
وأرضا لدين سماوى أقامه اسماعيل فيها وحولها الى أن آلت مقاليدها الى
جرهم — ظلما من ولد اسماعيل — ورأى ولد اسماعيل عدم منازعتهم لختولتهم
من جهة واعظاما لحرمة البيت من جهة أخرى .

بيد أن جرهم بغوا بها واستحلوا حلالا من الحرمة : فظلموا من دخلها

من غير أهلها واكلوا مال الكعبة الذى يهدى لها فرق أمرهم فلما رات بنو بكر عبد مناة بن كنانة وغبشان من خزاعة ذلك أجمعوا على حربهم وإخراجهم من مكة فلأذنبوهم بأحرب فاقتلوا فغلبتهم بنو بكر وغبشان فنفؤهم من مكة وآل امر البيت الى رئيسهم عمرو بن لحي .

وكانت مكة فى الجاهلية : لا تقر فيها ظلما ولا بغيا ولا يبغى فيها أحد
الا أخرجته .

الاتجاه نحو الوثنية وكيف نشأت :

إمامنا روا يتين نتحدث عن نشأة الوثنية العربية الأولى نرى أنها وافده والثانية نرى أنها نشأت نشأة محلية أما عن الرواية الأولى فإنها وفدت .
مع عمرو بن لحي حين غلبت خزاعة على البيت ونفيت جرهم عن مكة قد جعلته العرب ربا لا يبتدع لهم بدعة الا اتخذوها شرعة لأنه كان يطعم الناس ويكسو فى الموسم . . تذكر الرواية التاريخية أنه اول من أدخل الأصنام الحرم .

يقول الرازى المفسر : اعلم ان اليونانيين كانوا قبل خروج الاسكندر عمدوا الى بناء هياكل لهم معروفة بأسماء القوى الروحانية والأجرام النيرة واتخذوها معبدا لهم على حدة وقد كان هيكل العلة الأولى وهى عندهم :
الامر الالهى .

- وهيكل العقل الصريح .
- وهيكل العامة المطلقة .
- وهيكل النفس والصورة مدورات كلها .
- وكان هيكل زحل مسحسا .
- وهيكل المشتري مثلثا .
- وهيكل المريخ مستطيلا .
- وهيكل الشمس مربعا .
- وهيكل عطارد مثلثا فى جوفه مستطيل .
- وهيكل القمر مئنا .

فزعّم التاريخ : أن عمرو بن لحي لما ساد قومه وترأس على طبقاتهم وولى أمر البيت الحرام اتفقت له سفرة الى البلقان فرأى قوما يعبدون الأصنام فسألهم عنها فقالوا هذه أربابنا نستنصر بها فنصر ونستسقى فيها فنسقى فالتمس اليهم أن يكرموا بولحدها. فاعطوه الصنم المعروف « بهبل » فسار به الى مكة ووضع في الكعبة ودعا الناس الى تعظيمه وذلك في أول ملك « ساجور ذى الاكتاف » .

واضح من الرواية أنها تسند أن أول من ادخل الأصنام الحرم : الى عمرو ابن لحي تى بها من اليونان ، فالوثنية اليونانية دخلت مكة ، وهذا من الآثار اليونانية ، وهذه الرواية يجب أن تكون أكيدة لأن الأصنام غير « هبل » كانت حجارة خالية من الفن ، والذوق الجمالى ، فلو أنهم أبدعوا لألبسوها مسحة فنية جمالية ، وفي هذا ما يشير : الى أن العرب غير من دينه الحنيفى ، لكنه ظل محبا لرمزياته المقدسة ، ومن أهمها : الكعبة فحينما ابتدغ أصناما او حينما أتى بها من الخارج في بعض رحلاته فانا نراه يودعها في الكعبة ، فالرمزيات المقدسة عند العربى ، لا تخرج عن معنى : الالف ، والعادة ، والارث ، ولا تحمل لحيه : مضمونا. فكريا أو دينيا ، لذلك كنا نراه : لا يعنى بالدين فى شىء ، فالمعنى الدينى عنده : لا يخرج عن معنى العصبية القبلية ، ولعل ما قاله لهم عمرو بن لحي : تستنصر فننصر ، وقرت عقيدة بينهم توارثوها ، ونراها : ظهرت فيما بعد على لسان عبد المطلب وهو يفاوض أبرهة حينما قال : أما الابل فهى لى وأما البيت فله رب يحميه . ، وتعنى هذه العبارة فى نظرنا : أن العربى يتميز بنظرة المادية ، هذا من ناحية وأما من ناحية الموقف العربى القبلى أمام أبرهة فلم يظهر بالمستوى اللائق به فانه كان قبليا فى تشنته وليس عربيا ، فالوحدة العربية ظهرت مع الدعوة الاسلامية ، ولعل ذلك يرجع فى نظرنا : الى العربى نفسه ، حين أيد وجهة نظر العربى المفاوض : أن الأمان حين يأمن الاقتصاد ولو أودى الدين وليس

(١) راجع : تفسير الفخر الرازى ج ١ ص ٢٣٢ وفتح البارى ص ٤٧٢ ج ٨ وسجده

ابن هشام ص ٦٢ ط والروض الاتى ص ٦٢ ج ١

الأمان في الدين حين يهدد الاقتصاد ، وكانت هذه النظرة من أهم ما كافحها الاسلام ، ونظرتة المادية هذه هي التي دفعتهم وفقاً لما يقول المؤرخون الاسلاميون أن فكرة الحجر المقدس نشأت أساساً من حبه الكعبة وأرتباطه الديني بها منذ أن بناها أبوه إبراهيم وربط بها ملته الحنيفية غير أن العربي أكثر من الرمزيات المحسوسة دون مضمون فكري وراءها فكانت وثنيته من غير مضمون فكري وأصنامة من غير مسحة فنية والوثنية العربية ساذجة .

وأما عن الرواية الثانية فإنها ذكرت في أكثر من مصدر يقول الألوسي :
وقد بلغ تعظيم العرب لمكة أنهم كانوا يحجون البيت ويعتَمرون ويطوفون فإذا أرادوا الانصراف أخذ الرجل منهم حجراً من حجارة الحرم فنحته على صورة أصنام البيت فيجعله في طريقه قبلة ويطوف ويصلي له تشبيهاً بأصنام البيت وأفضى بهم الأمر بعد طول المدة إلى أن كانوا يأخذون الحجر من الحرم فيعبدونه فلذلك أصل عبادة العرب للحجارة في منازلهم شغفاً منها بأصنام الحرم وليس تذوقاً للمعنى الديني القويم .

ثم نعود فنقول نحن بين روايتين :

رواية عمرو بن لحي تقرر أن الأصنام وافدة من اليونانيين ، أي نشأت عن مصادر خارجية .

والرواية السابقة : تقرر أنها ليست وافدة وإنما هي منهم ، أي نشأت نشأة محلية ولا مانع لدينا أن نأخذ بالروايتين معاً على أساس أن عمرو بن لحي استقدم التماثيل مما يوافق هوى قومه من حبهم للأحجار وتصبح رواية عمرو بن لحي مخصوصة بالأحجار المصورة المنحوتة وليس بأصل عبادتها .

مظاهر معبوداتهم

- ثم انتشرت الأصنام والأوثان بعد دخول الوثنية بين العرب فرأينا :
- غمدان : الذي بناه الضحاك على اسم الزهرة بمدينة صنعاء — ضربه
 عثمان بن عفان •
- نوبهار وبلخ : الذي بناه « متوشهر الملك » على اسم القمر •
- ثم كان لقبائل العرب أوثان معروفة مثل :
- « ود » بدومة الجندل لكلب بن وبرة من قضاة •
- « وسبوع » لبني هذيل برهاط أرض ينبع •
- « ويغوث » لبني مذحج •
- « ويعوق » لهمدان بأرض اليمن •
- « ونسرا » بأرض حمير لدى الكلاع •
- « عميانس » بأرض خولان لخولان •
- « واللات » بالطائف لثقيف •
- « ومناة » بيثرب للخزرج •
- « والعزى » لكنانة بنوإحى مكة •
- « وأساف ونائلة » على الصفا والمروة •
- « أوال » كان لبكر بن وائل وتغلب بن وائل من عرب اليمن •
- « سعد » لبني ملكان •
- صنم دوس : لدوس •
- مبل : لقريش •
- قال ابن هشام : يقال لكل صنم من حجر أو غيره صنم •
- ولا يقال وثن إلا ما كان من غير صخرة كالنحاس ونحوه •
- أورد ابن هشام نصا يفهم منه خلاف ذلك وهو رواية عن عمر بن الخطاب يقول فيه : اللهم غفرا ، لقد كنا في الجاهلية على شر من هذا نعبد الأصنام ونعتنق الأوثان •
- يفهم من قول عمر أن الأصنام تطلق على مظاهر عبادتهم والأوثان على

فمقائدهم ، فهي على القولين ليسنا من المتزادفات فنقول مثلا أن آلهة الوثنيين أصنام فالوثني يتزادف مع الشرك ويتقابل مع الموحّد فالزواية التي ذكرها ابن هشام وتشير إلى التفريق بين الصنم والوثن نراها غير دقيقة فالوثنية عقيدة والصنم مظهرها .

سدنتها

من هم السدنة ؟ هم الذين يقومون بأمر الكعبة أو بطواغيتها . فكان لثلاث سدنتها وحجابها من بنى معتب من ثقيف وإنما سدنتها من الأوس والخزرج والعزى سدنتها من بنى شيبان خلفاء بنى هاشم . يقول صاحب الروض الأنف :

وهذه أسماء سرنيانية (١) وقعت إلى الهند فسموا بها أصنامهم التي زعموا أنها الحزاري السبعة ثم أدخلها عمرو بن لحي . ثم أصبحت عبايتها تقليداً حتى خلفت الخلفاء وقالوا : ما عظيم هؤلاء آباؤنا إلا لأنها تزرق وتنفخ وتضر وتخذوها آلهة . فأتخذت العرب مع الكعبة هذه الطواغيت وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة لها بندية وحجاب وتهدي إليها كما تهدي للكعبة وتطوف بها كطوافها بها وتنحر عندها مع عرفانها بفضل الكعبة . والطواغيت أطلقها القرآن على كل معبود من دون الله والحبث : الكاهن .

قال الرازي : كلمتان وضعتا علمين علي من كان غاية الفساد (٢) .

٣٠٥١٦

(١) الروض لمس ٦٤ .

(٢) الرازي في تفسيره ص ٤٤١ ج ٣ .

قال عكرمة : الحبث بلسان الحبشة شيطان . الطاغوت الكاهن .

قال ابن عباس : الحبث الأصنام والطواغيت الذين كانوا يعبدون من الأصنام بالكذب

أو يترجمون للناس عنها الأكاذيب .

(٣) يقول ابن جرير في فتح الباري ص ٤٧ ج ٨ هذه الأصنام كانت آلهة يعبدونها العرب في عبادة الأصنام بعد نوح أم من الشيطان ؟

قال بعض الجراح : يحصل بها علة في هذه الأصنام تولى : لجديها أنها كانت قوم

نوح الناني الناني : أنها كانت أسماء رجال صالحين ثم أرجع ابن جرير إلى رأي واحد

وأنها كانت في المبدأ أسماء رجال صالحين .

قال ابن الكلبي : وكان لأهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسح به وإذا قدم من سفره كان أول ما يصنع إذا دخل منزله يتمسح به أيضا (١) .
واستهترت العرب في عبادة الأصنام :

فمنهم من اتخذ بيتا ومنهم من اتخذ صنما ، ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت : نصب حجرا أمام الحرم وأمام غيره مما استحسن ، ثم طاف به كطوافه البيت ، وسموها : الأنصاب ، فإذا كانت تماثيل دعوها الأصنام ، والوثان ، وسموا طوافهم : الدوار ، وكان الرجل إذا سافر فنزل منزلا ، أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها ، فاتخذها ربا ، وجعل الثلاث : أثاق القدرة ، وإذا ارتحل : تركه فإذا نزل منزلا آخر فعل مثل ذلك . فكانوا يفحرون ، ويذبحون عندهم كلها ويتقربون إليها ، وهم على ذلك : عارفون بفضل الكعبة عليها ، يحجونها ويعتصرون إليها ، وكان الذين يفعلون من ذلك في أسفارهم إنما هو للاقتداء بما يفعلون عندها ولصيابة بها . وكانوا يسمون ذبائح الغنم التي يذبحون عند أصنامهم وأنصابهم تلك : المعتائر ، والعتيرة في كلام العرب : الذبيحة والمذبح الذي يذبحون فيه لها العتر .

ويقول الكلبي : وكانت للعرب حجارة غير منصوبة يطوفون بها ويعتزون عندها يسمونها الأنصاب ويسمون الطواف بها الدوار (٢) .

ما زالت بداية ظهور الحاد العرب سرا غامضا ولكننا نعتقد أن الحادهم كان يختلف عن أي نوع من الإلحاد عند الأمم الأخرى .

وإذا نظرنا إلى تقدمهم العقلي نجد أفكارهم الدينية ساذجة وبسيطة وإذا سلطنا عليهم أضواء التاريخ نجد لديهم نوعا من انحطاط أنواع الوثنية .

ففي العصر الجاهلي : لا نجد أي تعاليم جوهريّة ، ولكن رغم ذلك فإن الأحداث كما يقول « كرهل » : لا تثبت إذا ما كان الشعب السامي الذي هاجر إلى بلاد العرب من الشمال الشرقي قد اعتنق العبادة التي وجدها

(١) كتاب الأصنام لأبي المنذر محمد بن السائب الكلبي تحقيق الأستاذ أحمد زكي .

(٢) الأصنام ص ٢٢ .

في البلاد ، أم دخل نوعا جديدا من العبادة التي انتشرت وتطورت تدريجيا بين العرب (١) .

فتحولهم من التوحيد الى الوثنية والاحاد ، لم يكن مباشرة وانما تم بعد مرحلة جرهم العبثية ، فسد فيها الدين وشوه ، فلما ولي عمرو بن لحي : دفعه الى الوثنية لون من العصبية ، وليست قضايا عقلية شغلته ، فاراد لها حلا فتحول بسببها الى الاحاد ، انما كانت العصبية ، والتقليد ، وهجر ماكان عليه جرهم من افساد وعبث .

وهذا التعدد في الأصنام والأوثان والانصباب واختلاف أسائها ليس نتيجة فكر شغل به العقل العربي انما كان ذلك ناشئا من مجاورتهم لأهل هذه الملل والنحل « ان أديان العرب كانت مختلفة بالمحاورات لأهل الملل والانتقال الى البلدان والانتجاعات » (٢) .

ولم تأت هذه الآلهة جميعها من التراث القومي فبعضها وفد من الشعوب المجاورة طبقا لاستعداد عام بين العرب الجنوبيين يحذوهم الى النقل والاستيعاب استعداد يسر في مراحل متأخرة دخول عقائد اليهودية والمسيحية .

الاتجاه التوفيقى بين المظهر القبلى والدينى :

ولى قصى : البيت وأمر مكة ، وجمع قومه من منازلهم الى مكة ، وتملك على قومه وأهل مكة فملكوه ، فكان قصى : أول بنى كعب بن لؤى أصاب ملكا أطاع له به قومه ، ثم أعطوه مقاليد الأمور فكان له أمر :

• الحجابة

• والسقاية

• والرفادة

• والنحو

• واللواء

وبها حاز شرف مكة كله .

(١) حضارة الاسلام صلاح الدين خردا بختى ص ٢٥ .

(٢) اليعقوبى في تاريخه ج ١ ص ٢١٠ .

فأعاد تخطيط مكة ، فمُقطعتها رِباعاً بَيْنَ قَوْمِهِ : فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة التي أصبحوا عليها ، وأصبحت داره بيت شوري لقريش والعرب فلا يقضى أمر من مورها إلا فيها تشريعاته .

أقر للعرب ما كانوا عليه ، وذلك إنه كان يراه ديناً في نفسه ، لا ينبغي تغييره ، فأقر : آل صفوان ، وعدوان ، والنسأة ، ومرة بن عوف : على ما كانوا عليه حتى جاء الاسلام .

على أي شيء أقرهم ؟

آل صفوان :

كان صفوان هو الذي يجيز للناس بالحج من عرفة ، ثم بنوه من بعده ، حتى كان آخرهم الذي قام عليه الاسلام كرب بن صفوان .

وعدوان :

كانت الافاضة من المزدلفة ، في عدوان ، يتوارثون ذلك كابرًا عن كابر حتى كان آخرهم الذي قام عليه الاسلام : أبو مبيدة بن الأعزل .
والنسأة :

هي التي كانت تحرم صفرا أو غيره ، من الأشهر بدلا من الشهر الحرام

ومرة بن عوف :

يلى للناس الاجازة بالحج من بعد عرفة

والغوث :

وكان الغوث اذا دفع بالناس يقول :

لا هـ . انى تابع تباغـه ان كان اثم فعلى قضاة

وتقول بعض الأخبار أن ولاية الغوث بن مر كانت من قبل ملوك كنده .

ثم بعد تقسيمهم على مكة ، فرض على قريش : رفادة الحاج وهي : وضع طعام لمن لا زاد له من الحجاج فقال :

يا معشر قريش : انكم جيران الله ، وأهل بيته ، وأهل الحرم ، وأن

الحجاج ضيف الله وزوار بيته ، وهم أحق الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم

طعاما وشرابا أيام الحج ، حتى يصدروا عنكم ، ففعلوا . وظلت سنة ،

حتى بعد الاسلام ولم تنقطع الا في عصرنا هذا ، وأصبح قصى في قومه :

لا يخالف ولا يرد عليه شيء صنعه فكان أمرة في مؤمه من قريش في حياته
ومن مماته كالدين المتبع لا يعمل بغيره .

لاحظت تشريعات قصى هذه الاعتبارات فأعطت لقبيلة قريش : امكانية
السيطرة على من جاورهم من العرب ، فأصبح لها الزعامة السياسية ،
والدينية ، فزعامتها السياسية مكنتها من تخطيط مكة مرة ثانية ، وحفظت
عليها وضعها وقيادتها ، وزعامتها الدينية أعطتها سلطة تشريعية في الدين ،
فشرعت مذهبها الديني : وهو ما عرف بتشريع الحمس .

وهذا التشريع : حفظ عليها دينها ، وعصبيتها القبلية ، وساعد على انتشار
ما ورثوه من وثنية عمرو بن لحي ، وبقايا دين اسماعيل ، ويفضل هذا
أصبحت أسرة ذات كيان مقدس وذلك بمظهرها الطبقي الديني .

ولقريش محامد تنسب اليهم .

* فمنهم كعب بن لؤى : هو أول من جمع يوم العروبة ولم تسم العروبة
الجمعة الا منذ جاء الاسلام .

* والياس : أول من اهدى البجن للبيت .

* وعبد بن قصي : أول من أدخل الكتاب العربي أرض الحجاز قبل
تعلمه بالحيرة وتعلمه أهل الحيرة من أهل الأنباء .
* واسعد الحميري : قال الرسول لا تسبوا اسعد الحميري فانه أول من
كسى الكعبة .

* ودار قصي : دار الندوة جعل بابها الى مسجد الكعبة ففيها كان
قريش تقضى أمورها

* وهاشم : أول من سن الرحلتين لقريش : رحلة الشتاء ، والصيف ،
وأول من أطعم الثريد للحجاج وكان يسمى : الفيض لسماحته .
بجانب طبيعتها الدينية كانت ذا مظهر حضارى أيضا .

» ويبتدى يقضى التاريخ ، تاريخ جديد ليس لقريش ولكنه لمكة
كلها . . . نظم أمور مكة على شكل مبتكر جمهورى - قبلى ، يمكن أن يشبه
بجمهوريتى : البندقية ، وقرطاجة ، لسيطرة المالىين من أرباب التجارة
ورؤوس الأموال عليها .

ولا يفترق قصي في وصفه هذا عن (الملك) في الملكية الرومانية الأولى ، الا بأنه لا يحمل لقب ملك ، والمؤرخون المسلمون منحوه فيما بعد هذا اللقب رمزا لهذه السلطة الواسعة (١) وكانت فوق ذلك تحوز أكبر الأصنام .

١ - العزى :

وكان الذين اتخذوا العزى : ظالم بن أسعد .

كان بواد من نخلة الشامية يقال له : حراض بازاء الغمير عن يمين المضعد الى العراق من مكة ، وذلك فوق ذات عرق الى البستان بتسعة أميال ، قبلى عليها بسا (يريد بيتا) وكانوا يسمعون فيه الصوت ، وكانت العرب وقريش تسمى بها عبد العزى . وكانت أعظم الأصنام عند قريش ، وكانوا يزورونها ويهدون لها ويتقربون عندها بالذبح . وكانت قريش تطوف بالكعبة وتقبول (٢) :

والسلات والعزى ومناة الثانية الأخرى
قائهن الخرائق العلى وان شفاعتهن لترتجى

كانوا يقولون : انها بنات الله وهن يشفعن اليه

وكانت قريش قد جمعت لها شعبا من وادى حراض يقال له : سقام ، يضاهون به حزم الكعبة ، وكان لها منحر : ينحرون فيه هداياهم ، يقال له : الغبغب ويقسمون لحوم هداياهم فيمن حضرها وكان عندها ، وتخصها بالأعظام ، وسدنة العزى : بنو شبان بن جابر بن مرة من بنى سليم وكان آخر من سدنها منهم دبية بن حرمى السلمى .

فلم تزل العزى كذلك حتى بعث الله نبيه فعابها وغيرها من الأصنام ونهاهم عن عبادتها ونزل القرآن فيها :

(١) الاسلام في حضارته ونظمه - ص ٥٢ الأستاذ أنوار الرفاعي - دار الفكر .
(٢) يقول ابن الكلبي : وقد بلغنا أن رسول الله ذكرها يوما فقال لقد أهديت للعزى شاه مفراء وأنا على دين موسى ص ١٩ . يكذب هذه الرواية حديث لرسول الله ورد فيه انه من عبد صنم قط .

« أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر له والأنثى تلك اذا قسمة ضيزى أن هي الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما انزل الله بها من سلطان » . (سورة النجم)

فاشتد ذلك على قريش ، ومرض أبو أحيحة مرضه الذى مات فيه ، فدخل عليه أبو لهب يعود فوجده يبكى ، فقال : ما يبكيك يا أبا أحيحة ؟ امن الموت تبكى ولا بد منه ؟

قال : لا : ولكنى أخاف ألا تعبد العزى بعدى .

قال أبو لهب : والله ما عبدت فى حياتك لأجلك ، ولا تترك عبادتها بعدك لموتك .

كانت للعزى شيطانة تاتى ثلاث سمرات ببطن نخلة فلما فتح النبي مكة بعث خالد بن الوليد فقال له :

أيت بطن نخلة . فانك تجد ثلاث سمرات ، فاعضد الأولى ، فاتاها فعضدها ، فلما جاء اليه ، قال : هل رأيت شيئاً ؟ قال : لا . قال : فاعضد الثانية ، فاتاها فعضدها ، ثم أتى النبي فقال : هل رأيت شيئاً ؟ قال لا : فاعضد الثالثة فاتاها فاذا هو بحبشية نافشة شعرها ، واضعة يديها على عاتقها تصرف باثيابها وخلفها دبية وكان سادنها . فلما نظر الى خالد قال :

أعزاء : شدى لاتكذبى على خالد ألقى الخمار وشمري

فانك الا تقتلى اليوم خالدا تبوئى بذل عاجلا وتنصرى

فقال خالد :

يا عز كفرانك لاسبحانك انى رأيت الله قد أهانك

ثم ضربها ففلق رأسها ، فاذا هى حممه ثم عضد الشجرة وقتل دبية السادن ، ثم أتى النبي فأخبره فقال : تلك العزى ، ولا عزى بعدها للعرب؟ اما انها لن تعبد بعد اليوم . قال أبو النخرة ولم تكن قريش بمكة ومن اقام بها من العرب يعظمون شيئاً من الأصنام أعظامهم العزى ثم اللات ، ثم مناة ، فأما العزى فكانت قريش تخصصها دون غيرها بالزيارة والهدية ، وذلك فيما أظن كان لقربها منها .

وكانت لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها وكان أعظمها عندهم هبل (بعل) وكان فيما بلغنى : من عقيق أحمر على صورة الإنسان مكسور اليد اليفنى أدركته قريش كذلك فجعلوا له يدا من ذهب ، وكان أول من نصبه خزيمه بن مدركة بن الياس بن مضره وكان يقال له هبل خزيمه وكان في جوف الكعبة قدماه : سبعة أقداح مكتوب في أولها : صريح ، والآخر : ملصق .

فاذا شكوا في مولود أدوا له هدية ثم ضربوا بالقداح فان خرج صريح الحقوه وان خرج ملصق : دفعوه .

وقدح على الميت ، وقدح على النكاح ، وثلاثة (١) لم تفسر لى على ما كانت .

فاذا اختصموا في أمر ، أو أرادوا سفرا ، أو عملا اتوه : فاستقسموا بالقداح عنده ، فما خرج عملوا به وانتهوا اليه ، وعنده ضرب عبد المطلب بالقداح على ابنه عبد الله ولد الرسول صلى الله عليه وسلم وهو الذى يقول له ابو سفيان بن حرب حين ظفر يوم احد : اعل هبل ؟ اى علا دينك . فقال رسول الله : الله أعلى وأجل (٢) .

٢ — هبل :

هو الصنم الذى أتى به عمرو بن لحي ونصبه على البئر الذى حفره ابراهيم

-
- (١) يقول بن هشام : وكان عند هبل قداح سبعة كل قدح فيها كتاب :
 (١) قدح فيه (العقل) اذا اختلفوا في العقل من يجمله منهم ضربوا بالقداح السبعة فان خرج العقل فعلى من خرج حملة .
 (٢) وقدح فيه (نعم) للامر اذا أرادوه يضرب به القداح فان خرج قدح نعم عملوا به .
 (٣) وقدح فيه (لا) اذا أرادوا أمرا ضربوا به في القداح فان خرج ذلك القدح لم يعملوا ذلك الامر .
 (٤) وقدح فيه (منكه) .
 (٥) وقدح فيه (ملصق) .
 (٦) وقدح فيه (من غيركم) .
 (٧) وقدح فيه (المياه) .
 اذا أرادوا ان يحفروا للماء ضربوا بالقدح وفيها ذلك القدح بحيثما خرج ضربوا به .
 (٢) — يراجع كتاب الأصنام ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ .

عليه السلام في بطن الكعبة وكان تمثالا من عقيق أحمر على صورة الانسان مكسور اليد اليمنى أدركته قريش كذلك، فجعلت له يدا من ذهب وكما هو واضح في الرواية أن الصنم واسمه مستعريان .

لذلك رأينا للمؤرخين خلافا حول أصل اشتقاق اسمه :

بعضهم يذهب الى أن أصل اشتقاقه من العربية يقول : هبل : اظنه من الهابل وهو الكثير اللحم والشحم ويستأنس بقول عائشة : والنساء يومئذ لم يهبلن اللحم أى : لم يسمن .

أو من الهبل والهباله : وهو الغنيمة أن يغتنم عبادته أو يغتنم من عبده (١) .

أو من الهبل والشكل يراد به ان لم يطعمه هبله : أى شكله .

نلاحظ أن هذا التحليل فيه تكلف التوجيه ومثقة الرد الى أصل عربي وخروج باللفظ عن حـد الاعتدال في تأويله

✳ وبعضهم يذهب الى أن لفظ هبل لا اشتقاق له في العربية من معناه . فهو غير مشتق من لفظ عربي . ويقول : انه عبرانى أصله هبعل ومعنى بعل السيد .

وزاد على ذلك فقال : ان الهاء في العبرى أداة التعريف مثل : ال العربية فبإضافة هذه الأداة الى بعل يريد الاكبر .

وقال أما العين الزائدة ، فسهل اهمالها بالتخفيف ، ثم ضياعها بالاستعمال وخصوصا في لفظ بعل ، لان الكلدانيين كانوا يلفظونه « بيل » باهمال العين وهو اسم هذا الاله عندهم . وقيل أن هبل القريشى هو بعل الاسرائيلى (٢) . وعلى ذلك : اذا صح تعليل الأستاذ جورجى زيدان اللغوى فلا يبقى شك في أن هبل هو بعل والذى هو يؤكد صحة هذا الرأى أن الله اورده في التنزيل « أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين » .

(١) معجم البلدان لياقوت ج ٤ ص ٩٧ .

(٢) التاريخ الإسلامى العام ص ٢٤٤ د . على حسن ابراهيم

فقال الله : بعلا ولم يقل هبلا .

وفي هذا يدل على أنه كان يسمى بعلا عند الاسرائيليين (١) .

والأوفق عندى من خلال الأبحاث الحديثة : أن بعلا كان اله العبرانيين ولكن متى عرف العبرانيين وثنية بعل يرجع ذلك عندما استقر العبرانيون في كنعان تمت عملية امتزاج بطيئة تركت عرضا علامات في دين العبرانيين مثل عبادات آلهة الكنعانيين (بعليم : اسباد البلاد) . ولم يكن هؤلاء البعليم على غرار بهوه آلهة حرب ولكنهم كانوا آلهة طبيعة مسالمين تتمثل في شخوصهم قوى الخصب والحياة المنتجة ويتألفون أزواجا : ذكرا (بعلا) وأنثاه (عشتاروت) .

ولهم ديانات محلية متباينة تصحبها الشهوة المخزية فربما كان دين العبريين قد هبط في يسر الى مستوى الدين الكنعاني ولكن بهوه قد اندمج في البعليم ولما ترك العبريون طابعا على تاريخ البشر الروحي . . وظل يهوه بين كل ما تمثلوه من العبادات الكنعانية كالمرفعات والصور الخشبية لعشتاروت او العمدة المقدسة اله شعبه المختار . وهذا أثر كنعاني على العبريين .

وأما العبراني فهو أقدم من بنى اسرائيل وان كان اسرائيل منهم غير ان العبراني أعم من جهة ثانية لأنه يشمل ابراهيم وقومه وهم غير اليهود « فكان بعل هذا هو اله قوم ابراهيم ويقارب أن يكون اسمه (هبل = البعل) ولعله يقابل (مردوخ) البابليين وبعل الكلدانيين فأصلة لاشك دخیل » (٢) .

حاول عمرو بن لحي : بأن يجعله اله الجزيرة الأكبر ، اذ بمقارنة وظائف هذه الآلهة مع ما روى عن هبل ، يتضح لنا : أنه كان اله الخصب ، والرزق ، ومن ثم اله السعادة عند العرب ، وربما أيضا كان اله الحرب ، فلا يرحل الراحل ولا يؤوب الآيب المغترب ، الا ويطوف به ، وكانت عنده أقداح الازلام ولا يستقسم بها الا أمامه ، ومراسم الأفراح والاحزان عنده أيضا .

(١) نفس المرجع .

(٢) الاسلام في نظره ص ٤١ الاستاذ انور الرفاعي .

يقول : على حسن ابراهيم : وتشير اقامة هبل على البئر الكائن في بطن الكعبة الى انه كان ذا علاقة بالرزق والخصب في عقيدة العرب « (١) » .
يقول محمد عبد المعين خان : لا اتردد ان اتول ان هبل كان اله الخصب والرزق ومن ثم اله السعادة وشبهه رب الأرباب في عقيدة العرب (٢) .

وفي الروايات ما يؤكد عدم تردد خان في أن هبل هو الاله الذى عناء عمرو بن لحي حينما قال : ان ربكم مصيف باللات لبرد الطائف ويشتو بالمزى لحر تهامة (٣) .

وبذلك يكون هبل أو بعل — رب الأرباب عند العرب وله جميع السلطات وأهمها : الخصب والتجارة والرزق — ومنه اللات والعزى ومناة — هم بناته يتشفع بهن لديه — تكون عائلة وثنية مقدسة . ابطالها الله بقوله : « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى الكم الذكر وله الأنثى تلك اذا قسمة ضيزى : ان هي الا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » .

معاهداتهم التجارية :

وكان لقريش معاهدات تجارية عرفت بالايلاف .

والايلاف كتاب امان : يعنى أن يأمنوا عندهم في أرضهم بغير حلف انما هو امان الطريق وكان في قريش يقول الهوى في الغربيين : الايلاف عهود بينهم وبين الملوك .

✽ تعاقد هاشم مع الروم على امان التجارة في طريق الشام ومات في احدى سفراته بغزة .

✽ وتعاقد المطلب بن عبد مناف الى اليمين وأخذ من ملوكهم عهدا لمن تجر اليهم من قريش وملك بردمان من اليمين .

✽ وتعاقد عبد شمس بن عبد مناف الى الجيش فأخذ ايلاف وملك بمكة فقبره بالحجون .

(١) الاساطير العربية من ١١٠ محمد عبد المعين خان .

(٢) نفس الموضع من ١١٧ .

(٣) اخبار مكة ج ١ ص ٧٤ .

✽ وتعاقد نوفل بن عبد مناف فأخذ عهده من كسرى لتجار قريش وإيلاناً ممن مربيه من العرب ثم خيم ورجع إلى العراق ومات بسلامان بهذه الأيلافات (الفهود الآمنة) لمسالك التجارة اتسعت تجارة قريش وكثرت أموالها (١) :

المحتوى الفكرى لأذهب قريش الدينى : الخمس (٢) :

الخمس جمع الأحمس وهم : قريش ، ومن ولدت قريش ، وكفانة ، وبجيلة ، وقيس ، سموا حمسا : لأنهم تحمسوا في دينهم ، أى تشددوا والحماسة الشجاعة ، بمعنى : أنهم كانوا يقفون بمزلفة ، ولا يقفون بعرفة ، ويقولون : نحن أهل الله فلا نخرج من الحرم ، وكانوا لا يدخلون البيوت من أبوابها وهم محرمون . وكانوا قد ذهبوا في ذلك مذهب التزهيد والقالة ، يقول ابن اسحق : لا أدري قبل الفيل . أو بعده ابتدعت رأى الخمس ، ويغلب على ظنى أنهم ابتدعوا هذا المذهب قبل عام الفيل منذ أن استقر أمرهم على البيت بعد قصى ووزعوا مقاليد الزعامة بينهم وأحسوا بعصبيتهم القبلية وتميزهم ، فبيتهم : بيت العرب ، ورب قبيلتهم : رب العرب ، فنشأت : فكرة الجمع بين فكرة الألوهية ، وفكرة الملكية للبيت ليصبح عليهم الصفة المقدسة

(١) يراجع الامالى والنوادر ملحق بالامالى لابن على اسماعيل بن القاسم القالى البغدادي ج ٢ ص ٢٠٤ .

دار الباز للدراس والتوزيع .

وحاشية الشهاب على البضاوى ج ١ ص ٢٩٦ .

(٢) ابن همام ج ١ ص ١٢٣ وكذا النهاية في غريب الحديث والائر لابن الاثير ج ١ في حديث : هذا من الخمس فما باله خرج من الحرم وكتاب مروج الذهب للمسعودى ج ١ ص ٢٠٧ قال النبى للانصار : انا رجل احمس :

عن قيس بن حازم قال دخل ابو بكر على امرأة من احمس يقال لها زينب بنت المهاجر لا تتكلم فقال ما لها لا تتكلم قالوا : جمعت مصمته ، قال لها تكلمى فان هذا لا يحل ، هذا من عمل الجاهلية ، تكلمت .

قال جبير بن مطعم حين رآه واقفا بعمره مع الناس - قبل الهجرة وقبل النبوة - قال : هذا رجل احمس : فما باله لا يقف مع الجاهل حيث يقفون ابن همام ص ١٣٥ ج ١ قال السهيلي : وذكر وقوف النبى بعمره مع الناس قبل الهجرة وقبل النبوة توفيقا من الله .

فقالوا عن سبب تميزهم الطبقي والديني : نحن بنو ابراهيم ، واهل
الحرمة ، وولاة البيت ، وقطان مكة وسكانها ، فليس لأحد من العرب :
مثل حقنا ، ولا مثل منزلتنا ، ولا تعرف له العرب : مثل ما تعزف لنا ،
فلا تعظموا شيئاً من الحل كما تعظمون الحرم ، فانكم ان فعلتم ذلك استخفت
العرب بحرمتكم وقالوا : قد عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحرم .
فتركوا الوقوف على عرفة والافاضة منها — وهم يعرفون ويقرون انها من
المشاعر والحج ودين ابراهيم — ويرون لسائر العرب أن يفيضوا منها .

الا أنهم قالوا : نحن اهل الحرم فليس ينبغي أن نخرج من الحرمة
ولا نعظم غيرها كما نعظمها نحن الحمس . والحمس : اهل الحرم ، ثم
جعلوا من ولدوا من العرب من ساكن الحل والحرم : مثل الذي لهم
بولادتهم اياهم قد دخلوا معهم في ذلك ، ثم ابتدعوا في ذلك امورا لم تكن
لهم حتى قالوا : يحل لهم ما يحل لهم ويحرم عليهم ما يحرم عليهم ، وكانت كنفانة
وخزاعة ترى : أنه لا ينبغي للحمس : أن يأتقوا ، ويأكلوا السمن وهم
لا يدخلون بيتا من شعر ولا يستظلون الا في بيوت الأدم ما كانوا حرما .

ثم رفعوا في ذلك فقالوا : لا ينبغي لأهل الحل أن يأكلوا من طعام
جاء به معهم من الحل الى الحرم اذا جاءوا حجاجا أو عمارا ولا يطوفوا
بالبيت اذا قدموا أول طوافهم الا في ثياب الحمس فان لم يجدوا منها شيئاً
طاعوا بالبيت عراة .

فان تكرم منهم متكرم من رجل أو امرأة ولم يجد ثياب الحمس فطاف
في ثيابه التي جاء بها من الحل لقاهما اذا فرغ من طوافه ثم لم يفتتح بها ولم
يمسها هو ولا أحد غيره ابدا . وكانت العرب تسمى تلك الثياب اللقى .

فحملوا على ذلك العرب فدانت به ووقفوا على عرفات وافاضوا منها
وطافوا بالبيت عراة أما الرجال فيطوفون عراة وأما النساء فتضع احداهن

ثيابها كلها الا درعا مفرجا ثم تطوف فيه (١) .

قال الشاعر يذكر شيئا تركه من ثيابه فلا يقربه — وهو يحبه :
كفى حزنا كرى عليها كأنها لقي بين أيدي الطائفين حريم
عليها : أي حرام لا تمس .

نلاحظ أن هذا المذهب الديني عندما وضعته قريش رمت به ربط قبيلتها
بقسسية البيت سواء أكانت اقبيلة قائمة في حرمة الأمن م كانت في الحل فكل من
ينتمي الى قريش توأدا : تشريعه الخاص في نسكه .

هكذا أصبح للعبادة في الكعبة مراسيم وثنية معينة : يحج الناس اليها
في التاسع من ذي الحجة : فيحرمون ، ويطوفون ، ويلبون ، ويرمون الحجارة ،
ويتمسحون بالأنصاب والأوثان التي فيها ، ويهدون ما هم مهدون ثم
ينصرفون . وكان أهل الحرم : يؤمون الناس في المناسك ، وسدانة البيت
عندهم : وراثية في آل (عبد الدار) « وهم يشبهون الأسر الدينية التي كان
بيدها تنظيم الأعياد الدينية لدى اليونان » (٢) .

ومن جانب آخر عززت قريش بكل قوتها مركزها المالي باستغلال
مركز مكة التجاري فنظمت القوافل فكان لها رحلتان : رحلة الشتاء : الى
اليمن ، ورحلة الصيف : الى الشام ، عدا الرحلات : الى الحيرة ، وتزيدت
في اليمن ، وبالغت في نشر قداسة البيت الحرام لحماية نفسها وحماية تجارتها
في الصحراء من غزو الفتاك .

وبهذا الايلاف ربطت علائقها مع الأمم المجاورة أي باتفاقاته .

عقد هاشم بن عبد مناف : أحدها مع أمراء الغساسنة والرومان ، فاذن
له ولقومه بالتجارة من الولاية العربية في بصرى ومع ولاية فلسطين في
غزة وعقد عبد الشمس أخوة : اذنا مع ملوك الحبشة بأكسوم ونال مثل

(١) والذين يطوفون بالبيت أصناف ثلاثة : هل الحصى : يطوفون في ثيابهم . وأهل
الحل : يطوفون همراة اذا لم يجدوا ثياب الحصى ، أو في ثيابهم ثم يلقونها محرمة عليهم .
وأهل الطلس : كانوا يأتون من أقصى اليمن من الغبار فيطوفون بالبيت في تلك الطلس . ولعلمهم
يقصدون من طرح الثياب الذنوب التي اقترفوها .

(٢) الاسلام في حضارته ونظمه ص ٥٥ أنور الرغامي .

هذا الاذن اخوانه نوفل والمطلب من الحميريين في اليمن ومن فارس والافاذرة في العراق ، وبذلك « نشأت في مكة بيوت تجارية » وكالات « للحبشة وللرومان ولعلها نتيجة لهذه الاتفاقات وبلغ من تغفل التجارة في قريش ان قيل من لم يكن من قريش تاجرا فليس بشيء » (١٦٠) .

عززت قريش ، وضعها الاقتصادي : برحلاتها التجارية ، وعززت أيضا وضعها القبلي : بتشريعاتها الوثنية ، وارتباطها بالبيت حتى أصبح كل من يتمرد على قريش : فهو يتمرد على مقدسية البيت ، وهن يتمرد على البيت : فهو يتمرد على قريش ، وبهذا أصلت الوثنية الوضع القبلي وأصبح هدم النظام القبلي يستدعي هدم النظام الوثني وهذه عقبات في سبيل الاصلاح

من نتائج التحوس القرش : الطواغيت

ولما رأت العرب ذلك طلبوا بيوتا يضاهون بها الكعبة . قال ابن هشام وكانت العرب قد اتخذت من الكعبة طواغيت وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة لها سدنة وحجاب وتهدي اليها كما تهدي للكعبة وتطوق بها كطوافها .

بيت رضى : فأصبح هناك بيت لبنى ربيعة : يدعى بيت رضى مدمه المستوغر في الاسلام .

وذو الكعبات بسنداد : لبكر وتغلب ابني وائل : وكان لاياد كعبنة أخرى بسنداد من أرض الكوفة والبصرة في الظهر ، وهي : التي ذكرها الأسود بن يعفر ، وقد سمعت ان هذا البيت لم يكن عبادة انما كان منزلا شريفا فذكره .

والقليس : وقد كان أبرهة الأشرم : قد بنى بيتا بصنعاء كنيسة ، سماها : القليس ، بالرخام وجيد الخشب المذهب وكتب التي ملك الحبشة يقول : انى قد بنيت لك كنيسة لم يبن مثلها أحد قط ولست تازكا العرب حتى أصرف حجمهم عن بيتهم الذى يحجون اليه فبلغ ذلك بعض نساء المشهور

(١) الاسلام في حضارته ونظمه ص ٥٢ .

فبعث رجلين من قومه وأمرهما أن يخرجوا حتى يتغوطا فيها . ففعلا . فلما بلغه ذلك غضب وقال من اجتراً على هذا ؟ (١) . فقليل بعض أهل الكعبة فغضب وخرج إلى الحبشة فكان من أله ما كان .

اللات : بيت لثقيف بالطائف كانوا يعظمونه نحو تعظيم الكعبة .

كعبة نجران : وكان لبنى الحارث كعبة بنجران يعظمونها وهي التي ذكرها الأعمش .

وكعبة نجران حتم عليـ

ك حتى تنسخ أبوابها

وقد زعموا أنها لم تكن كعبة عبادة إنما كانت غرفة لأولئك القوم الذين ذكرهم .

رثام : كان لحمير ، بصنعاء يعظمونه ويتقربون عنده : بالذبائح ، وكانوا فيما يذكرون : يكلمون منه ، فلما انصرف تبع من مسيره الذي سار فيه إلى العراق قدم معه الحبران اللذان صحبا من المدينة فأمرأ بهدم رثام .

قال : ما شأنكما به فهدماه وتهود : تبع وأهل اليمن ، ثم لم أسمع بذكر رثام ولا نسر في شيء من الأشعار ولا الأسماء .

بيت الحوراء : وكان رجل من جهينه يقال له : (عبد الدار بن حديب) قال لقومه : هلم نبني بيتا (بأرض بلادهم يقال لها الحوراء) نضاهي به الكعبة ونعظمه حتى نستميل به كثيرا من العرب فأعظموا ذلك وأبو عليه .

ولعل نشأة تلك البيوت المقدسة أو الطواغيت يرجع — في نظرنا — إلى نشأة مذهب قريش الأحمر الذي صبغ البيت الحرام بصبغة قبلية قرشية اضطرت القبائل المجاورة أن تحاكيها بمثل بيتها .

(١) القليس : هي الكنيسة التي بناها أبرهة في صنعاء وهو لفظ أخذ العرب من الروم ثم حرف فيما بعد إلى كنيسة ويظن بعضهم أن القليس لفظ عربي مبنى ومعنى يقول عبد الرحمن بن محمد : سميت القليس لارتفاع بنياتها من القلائس لأنها أعلى الرؤس . معجم البلدان : مادة قليس تاريخ الإسلام العام ص ٥٥ هامش د . على حسن البراهيم .

تقويم التحمس القرشي :

ينازعنا القول في محاولتنا الادلاء برأى يحدد بوجه تقريبي تاريخ ابتداء
قريش تحمسهم .

يغلب على ظني أن ابتداء الحمس القرشي كان قبل غزو أبرهة للبيت
لان مذهب الحمس يؤكد على عصبية قريش القبلية وكانوا يرون في ذلك
امتيازاً طبقياً « فليس لأحد من العرب مثل حقنا » فلا يساوى الحرم وساكنيه
بالحل وساكنيه وقالوا لبعض : « ان فعلتم ذلك لاستخفت العرب بحرمتكم »
واقترضهم رأيهم في تحمسهم أن يخرجوا فيه عن بعض دين ابراهيم « فتركوا
الوقوف على عرفة والافاضة منها وهم يعرفون ويقررون أنها من المشاعر
والحج ودين ابراهيم » .

فقالهم العصبى « العرقية » جرفاهم عن الالتزام بدين ابراهيم .

وكما أنهم خرجوا بتحمسهم عن دين ابراهيم ليرفعوا عصبيتهم على
دينهم فانهم فرضوا تحمسهم على العرب « فحملوا على ذلك العرب فدانت
به » وكان من نتائج ذلك على العرب وقريش أن اعتبر العرب أن مسئولية
البيت تقع بالدرجة الاولى على قريش وظهر ذلك عندما سأل أبرهة عن
سيد اهل هذا البلد وشريفها فقليل له : عبد المطلب فلما جاء اليه عبد المطلب
سأله أن يرد اليه البعير قال أبرهة لقرجمانه قل له : قد كنت أعجبتني حين
رايتك ثم زهدت فيك حين كلمتني أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك
وتترك بيتا هو دينك هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه !
قال له عبد المطلب : الابل لى والبيت له رب يحميه .

هذا يعنى أن قريشا عزلت نفسها والبيت عن العرب كذلك . مر حينئذ
أبرهة وغزوه للبيت لدى كتاب السير كما لو كان الأمر مكيدة لعبد المطلب
وبينه فقط فلم يتحرك له العرب وهم أشعلوا الحروب القبلية أو بين القبيلة
الواحدة لاتفه الأسباب وعلى ما نظمه أن الأمر في هذا لا يفهم الا من خلال
رأى قريش في التحمس وهو أنهم عزلوا أنفسهم به من حيث أرادوا تسيدا
ورفعة قبلية .

وكانت النتيجة أن ظهرت قريش وعليها طابع الذلة. عند مفاوضتها لأبرهه وتخلف العرب عنه يقول ابن هشام : ثم قام عبد المطلب فاخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستقصرونه على أبرهه وجنده .

ويبدو لنا أن حلف الفضول — وهو يحمل في طياته نزعة انسانية عالية حيث تعاهدوا وتعاهدوا على أن لا يحدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس الا أقاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى تزد عليه مظلومه .

قلنا يبدو لنا — ولا سيما أنه كان معه حملة أبرهه — أنه رد فعل لموقف العرب من قريش وأبرهه وتطوير للجانب السياسي والاجتماعي. لذهب الحمس القرشي وصفه الرسول بقوله : لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا لو دعيت به الى الاسلام لأجبت . نحالفوا أن ترد الفضول على أهلها والا يعز ظالم مظلوما » .

بينما قريش وصفته بقولها (١) :

لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر فلم يكن الحلف واقعا من قريش. موقع الرضى انما اعتبرته قريش تدخلا في فضل من الأمر . ونلاحظ أن الدعوة اليه كانت في دار عبد الله بن جدعان ولو رضيت عنه قريش لدعوا اليه في دار نحدوتهم .

على أي حال فإن ما ابتدعته قريش من رأى الحمس فاننا نراه يرجع الى ما قبل أبرهه بكثيرة منذ نزعت العرب الى تقليد الكعبة بطواغيتها . أورد ياقوت نصا فيه يؤيد ما وصلنا اليه. يقول فيه. كانت تحج اليها وفود حمير وكندة وغسان ونحن فيديفون للحمس من قريش ويرون تعظيمهم والاعتداء بآثارهم فرضا وشرفا عندهم .

واذا صح ما ذهبنا اليه وهو أن مذهب الحمس ان قرشي بانته أصوله

(١) ملجم البلدان :

اما الأزهري فانه يرى أن ظهور الحمس بعد محادثة الفيلى ج ١ ص ١١٨ أخبار مكة .

قبل حملة أبرهة الحبش وحملت قريش العرب عليه فتسكون مظاهر الوحدة العربية وأسياده القرشية بدأت تسبق العصر الاسلامي فدينهم الوثني دين الجزيرة وبيتهم بات مركزا للأصنام الممثلة للقبائل — كما حكى الأزرق أنه وجد في مكة ما يربوا على ثلاث مائة صنم — أي لكل قبيلة صنمها في ربعا وصنم في بيت الأصنام .

كذلك يتبع المظهر العام للوحدة ، المظهر اللغوي ونعني أن لغة قريش أصبحت سائدة ولا سيما في المناسبات الرسمية التي تقتضيهم قرض الشعر والمفاخرة به وإذاعته في منقدياتهم الرسمية : عكاظ ومجنة وذو المجاز . وهي في مجموعها ما يطلق عليه مؤرخوا الأدب « بالمعلقات » نقول اتجه العرب على اختلاف لهجات قبائلهم الى صياغة معلقاتهم بلغة قريش — وذلك واضحة من قراءتنا لها — حيث لا يبدو اختلاف لهجتهم عليها . وفي تعليقها على جدار الكعبة ما يؤيد ما نذهب اليه هو أن هذه المعلقات تكلف لها العرب لغة قريش لترفع على بيت قريش .

وتعتبر ظواهر الوحدة — أي «طابع قريش العام — لغة ودبنا ونسك الحج والاقتصاد — سيطرت على العرب قبل الاسلام عوامل ممهدة لنزول القرآن بلغة قريش اذ ليس من المعقول أن ينزل القرآن بلغة قبيلة من قبائل العرب دون أن يكون وراءه تبريرا تاريخيا يشهد لسمو هذه اللغة القرشية على غيرها وفي رأينا — وله شواهد التاريخية — أن هذه اللغة القرشية تعدت نطاق قبيلة قريش فحملوها معهم — وهم رسل التجارة — في بطن الجزيرة ومشارقتها وخارجها فكتبت بها اليهود التجارية التي أبرمتها مع الرومان — الفرس — اليمن — الحبشة وفي النقل التجاري عوامل حيوية الى سبيل التطور فعندما نزل القرآن بلغة قريش كان يتفق مع الروح العربية في اصطفاها لغة قريش : لغة ثقافة وحضارة وجين كتبت بها معلقاتها .

أما من ناحية المضمون الفكري فنرى أن القضايا الفكرية التي تناولتها لائحة قريش التنفيذية خالية من همق فكري فلا نرى فيها ما يشير من قريب

أو من بعيد الى مشكلات المجهول : كقضايا البشرية ، والخلق ، ويبدو أنها كانت لا تراود عقل العربى .

فدينهم الوثنى : لا حياة فيه ولا معنى له ، ولا يساعد أحدا منهم : على أن يحدد العلاقات التى تربط هذه الآلهة المتعددة بالبشر . وصرفهم عن فهم ما لديهم من فكر غامضة عن قوة عالية فكانوا يقصدسون الأوثان باعتبارها تمثل هذه القوة بواسطة طبقوس وثنية ورثوها عن أجدادهم . وثنية العرب لم تستطع أن تجيب اجابات مقنعة على الأسئلة البديهية التى تتزدد فى ذهن كل شخص مفكر :

من أين خلقت ؟ الى أى نهاية مصيرى ؟ ما هدفى وغرضى من الحياة ؟
« لم يشغل العربى ذهنه بشئ من القضايا أو من قبيلها انما كانت حياة العربى حياة حرية ومرح وسرور ومجون وكانت الخمر والنساء والحرب هى الأشياء الثلاثة التى يحبها العربى ويهتم بها » . فهو اما أن يستغرق فى الخمر أو ينصرف الى الفسق أو يستنفذ قوته وطاقته فى الحروب القبلية أو سلب جاره . وكانت حياة مرح لا يعكر صفوها افكار خطيرة أو تأملات دينية لم يكن هناك ميل للصدق أو رغبة فى عمل الخير .
« كان كل هدفهم من الحياة أن يتمتعوا بحاضرهم وأن يحرزوا النصر فى معاركهم ، والى يومنا هذا نجد البدوى محتفظا بهذه الصفات فهو فى غالب حالاته لا ينتقيد بالدين (١) .

« والدلائل تشير الى أن الوثنى فى الجاهلية على العموم لم يكن يتمسك فى دينه بعقيدة نابعة من شعور دينى عميق أو عاطفة روحية شديدة قائمة على عقل سديد أو تفكير سليم انما هى عادات تأصلت فى نفوسهم تقليدا بغيرهم أو تمسكا بسلوك آبائهم وأجدادهم السابقين » (٢) .

ويحل بلاشير (٣) : العاطفة الدينية عند الجاهلية فيقول :
ان العاطفة التى كانت تسيطر على النفوس فى المحيط العربى قبل ظهور

(١) تاريخ الاسلام العام ص ١٨ .

(٢) تاريخ الادب الجاهلى على الجندى ج ١ ص ١١٧ .

(٣) تاريخ الادب العرب ص ١٦ .

الإسلام شبيهة بالعاطفة التي كانت تسيطر على النفوس عند العبرانيين في مرحلة البداوة وهي :

الاعتقاد بتعدد الشياطين وهذا نوع من المذهب النفسي ومن صفاته : شعور الرجل بأنه محاط بقوى خفية يصعب عليه تحديد ما هيها وتسميتها بأسماء خاصة إلا أنه يعجز دوماً عن تشخيصها .

فإن عبادة الأوثان والإيمان بالحن والأغوال (وهي نفوس شريرة تهاجم الإنسان في الوحدة) كل هذا يشكل ساس الدين ومذهبه الفكري في علاقتهم بالحياة .

وإن تعد الآلهة في صلته الضيقة مع تعدد الشياطين يدل على استعداد العرب القدماء على تشخيص القوة الكامنة في الأشجار ونباتات المياه وتسميتها بأسماء وربطها مع الإلهيات ومهما يكن منشأ تعدد الآلهة فلا نرى أبداً أنه أفاد العرب باستثناء بعض النفوس المتزمتة في بعض المراكز الحضارية — إلى جعل الدين مصدر تأملات أو أبحاث نظرية .

على أن حوادث الحياة والتجارب مع العلم بأن قوى الطبيعة هي الغالبة في الصحراء قد نمت في العربي المحارب قدرية عميقة لا لأن العربي يشبه أيوب الصابر على الأذى بل لأن العربي المحارب بالاضافة إلى المتناقضات في خلقه لا يحتمل أحداث الحياة بصورة سلبية فإن موقفه منها في بادئ الأمر هو : موقف المناضل غير أنه إذا وجد أمام المقدور انحنى خاضعاً شاعراً بعقم الجهد أمام هذه القوى الهائلة المنطوية تحت كلمة « الدهر » .

ويميل هذا الاستسلام النهائي عليه حكماً ذاتاً ببساطة لا تخلص من سمو موحيه اليه بتصرفات مرضية ولكنها مؤثرة جداً في بغض الأحياء وهكذا فإن العربي بارتفاعه فوق نظراته القافهة للوجود قد عوض إلى حد ما عن فقر فكره الديني .

موقف القرآن من التحمس :

إذا كان التحمس مذهب قريش فإن من المتصور لرجل الإصلاح وهو قرشي أنه سوف ينهض بدعوته من هذا المذهب ليجذب أفراد قبيلته

اليه من جانب ، ويحي عصبيتها القبلية والدينية. من جانب آخر كان ذلك هو المتصور . لكن واقع الأمر كان غير ذلك فرسالة الاصلاح التي اضطلع بعثتها الرسول لم تكن نابعة من تصوره ولا مدفوعا اليها رغبة في زعامة او رياسة أو جاه حتى تكون وفق ما تصورنا انما كانت رسالة الهيبة تبغى الاصلاح ما استطاعت اليه سبيلا ، رسالة هزت كيان القبائل العربية وأوثانها وكان على رأس هذه القبائل جميعا قبيلته صلى الله عليه وسلم فهدم عصبيتها القبلية والدينية ليحل محلها معان جديدة مدلولها الانساني كمبدأ الأخاء والتضامن والتكافل ، هدم بها عصبيتها الدينية فألغى تشريعاتها التي عرفت بالحمس « وحل محلها دينه وفرض حجه » قال تعالى : ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله ان الله غفور رحيم .

يعنى على قريش أن تتساوى مع الناس فرفعهم معهم في فريضة الحج الى عرفات والوقوف عليها والافاضة منها .

وأُنزل عليه ، فيما كانوا حرموا على الناس من طعامهم ولبوسهم عند البيت حين طافوا عراة وحرّموا ما جاءوا به من الحل من الطعام ، قوله :

« يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المرففين ، قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك يبين الآيات لقوم يعلمون » .

وقال معيبا عليهم : سلوكهم الدينى : « وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء وتصدية » أى أنهم كانوا : يطوفون عراة ويصفقون ويصفرون .

وقال : وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها .

لأن الحمس لا يدخلون تحت سقف ولا يحول بينهم وبين السماء عتبة باب ولا غيرها فان احتاج احدهم في داره تسنم البيت من ظهره ولم يدخل من الباب فرد الله ذلك عليهم .

بقوله : وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون .

ثم بين أنهم يستندون هذه الشعائر الى ابراهيم .

وإذا كانت ملة أبيكم إبراهيم ، فإبراهيم لم يكن من المشركين .
وأخيرا : ألغى الوحي الالهي مظهر البيت القبلي القريش ، ومظهره الوثني
واتى على مذهب الحمير فعصف به ثم رفع الوحي من شأن البيت الحرام
وجعله مثابة للناس وآمنا وقبلة للناس جميعا وأصبحت عالمية البيت الحرام
بالاسلام حقيقة مقررة .

أسماء الذين أمرهم الرسول بتكسير الأصنام :

- ١ — مناة : بعث النبي عليا فهدهما وأخذ ما كان لها وقيل أبا سفيان
ابن حرب .
- ٢ — القلس : هدمه علي .
- ٣ — اللات : هدمها المغيرة بن شعبة وحرقتها بالنار .
- ٤ — المعزى : هدمها خالد بن الوليد .
- ٥ — أساف ونائلة :
- ٦ — هبل .
- ٧ — ذو الخلصة : هدمه جرير بن عبد الله البجلي (١) .
- ٨ — ذو الكفين : هدمه الطفيل بن عمرو الدوسي فصرقه .
- ٩ — ذو الشورى .
- ١٠ — الأقيصر : كسرها النبي صلى الله عليه وسلم .

(١) عن جرير قال : كان في الجاهلية بيت يقال له الخلصة وكان يقال له الكعبة اليمانية
الشامية .

فقال رسول الله : الله هل أنت مريحي من ذي الخلصة والكعبة اليمانية والشامية .
ففترت في مائة وخمسين . من أحسن كسرها وقتلنا من وجعنا عنده فأنخبرته . قال فدعا لنا
ولاحم .

قال النووي : ذي الخلصة بيت في اليمن كان فيه أصنام يعبدونها والمراد أن ذا الخلصة
يسمونها الكعبة اليمانية . وكانت الكعبة التي في تسمى الشامية .

قال القاضي عياض : تذكر الشامية وهم وغلط من بعض الرواة والصواب حذفه . وقد
ذكره البخاري بهذا الأبعناد وليس فيه هذه الزيادة والوهم صحيح مسلم ج ١٦ ص ٥٣
مسائل جرير .

وأمر بهدم بقية الأصنام والأوثان والانصاب ، أما الأصنام التي كانت منصوبة حول الكعبة فطعنها الرسول بسبة قوسه في عيونها ويقول : « جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا » ثم أمر بها فكفنت على وجوها ثم أخرجت من المسجد فحرقت .

من موقف الرسول مع المذهب الأحمسي القرشي ، وموقفه من الأوثان العربية وأصنامها وانصابها ، وضع : أن مصدر الاسلام لا يتصل بسبب الى الوثنية العربية ، انما مصدره الوحي الالهى .

التشكك في الأوثان وسحب الثقة منها :

يقول خودا بخش : كان العرب كما يبدو يقصدون آلهتهم فيحجون الى اماكنهم المقدسة ويقدمون الأضحيات في معابدها ويخضبون بدماء هذه الأضحيات الهياكل المصنوعة من الأحجار أو الخشب ويستجيرون بكهنتها في وقت الشدة ويسألونهم عما يخبئه المستقبل ولكن كان ذلك تظاهرا وتصنعا فلم يكن هناك شعور بايمان حقيقى .

يقول دوزى : كان العربى يبدى غضبه لأقل شئ على الآلهة ويخاطبهم وكأنه يعرف حقيقتهم فيسخر منهم .

من هذه المظاهر التى لوحظت عليهم وضع لنا : أن عرب ما قبل الاسلام كانوا فى حالة قلق دينى عاجزين عن الوصول الى ما هو أحسن بحيث يرضى حاجاتهم ومطالبهم ، يمارسون عبادة الأوثان ولكن بدون شعور بايمان حقيقى ، ووجود المسيحية واليهودية بينهم أبرزت حالة القلق الدينى وأدت ببعضهم الى تحويل أفكارهم من الوثنية الى أفكار أسمى وسعوا فى طلبها .

وسنقدم عدة نماذج من الذين سخطوا على أوثانهم وكان وراء هذا السخط بعض الخطوات الفكرية ومن أهم ما نشير اليه : تلك الخطوات الفكرية « عدم معقولية الاله أو المعبود » وهذا المعنى : يفيد موقف الساخطين ، ولازم أيضا للذين تشككوا فى أوثانهم ورغبوا عنها الى ملة سماوية :

أولا : موقف الساخطين على الأوثان :

١ - ذو الخلصة وأمرؤ القيس :

لما أقبل امرؤ القيس بن حجر ، يريد الغارة على بنى أسد ، مر بذي الخلصة ، وكان صنما يتبأله ، وكانت العرب جميعا تعظمه ، وكانت له ثلاثة أقداح : الأمر ، والناهي ، والمتربص ، فاستقسم عنده ثلاث مرات : فخرج الناهي ، فكسر القداح وضرب بها وجه الصنم وقال :

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا مثلى وكان شيخك المقبور

لم تنه عن قتل العداة زورا

لو كان أبوك قتل ما عومتني ثم غزا بنى أسد فظفر بهم •

فلما فتح رسول الله مكة وأسلمت العرب ووفدت عليه وفودها قدم عليه جرير بن عبد الله مسلما فقال له : يا جرير ألا تكفيني ذا الخلصة ؟ فقال : بلى فوجهه إليه ، فخرج حتى أتى بنى أحمر من بجيلة فسار بهم إليه فقاتلته خثعم ، وبأهله دونه فقتل من سدنته من بأهله يومئذ مائة رجل وأكثر القتل في خثعم وقتل مائتين من بنى قحافة بن عامر بن خثعم فظفر بهم وهزمهم وهدم بنيان ذي الخلصة • وأضرم فيه النار فاحترق • وذو الخلصة اليوم عتبة باب مسجد تبالة •

٢ - سعد :

وكان لمالك وملكاب ابني كنانة صنم يقال له : سعد ، وكان صخرة طويلة ، فأقبل رجل منهم بابل له ليقفها عليه يتبرك بذلك فيها فلما أدناها منه نفرت منه وكان يهراق عليها الدماء ، فذهبت في كل وجه وتفرقت عليه وأسف فتناول حجرا فرماه به وقال : لا بارك الله فيك الها نفرت على ابلى ثم خرج في طلبها حتى جمعها وأنصرف عنه وهو يقول :

فشتقنا سعد • فلا نحن من سعد
من الأرض لا يدعى لغى ولا رشد

أتينا الى سعد ليجمع شملنا
وهل سعد الا صخرة بتقوفه

٣ - وقال أوس بن حجر يحطف باللات :

وباللات والعزى ومن دان دينها وبالله ان الله منهم أكبر

٤ - وقال بعضهم حين وجد الثعلبان يال على رأس صنفه :

اله يببول الثعلبان برأسه لقد ذل من بالت عليه الثعالب

وقال شاعر :

أكلت ربها حنيفة من جوع قديم بها ومن أعواز

وقال آخر :

أكلت حنيفة ربها زمن التقحم والمجاعة

ولم يحذروا من ربهم سوء العواقب والتباعة (١)

ثانيا : المتشككون في أوثانهم :

الحنيفية :

خرج زيد بن عمرو بن نفيل : يطلب دين ابراهيم ، ويسأل الرهبان والأخبار حتى بلغ الموصل والجزيرة كلها ثم أقبل : فجال الشام كلها حتى انتهى الى راهب « بميفعة » من أرض البلقاء كان يفتي اليه علم اهل النصرانية فسأله عن الحنيفية دين ابراهيم ؟

فقال : انك لتطلب ديننا ما أنت بواجد من يملك عليه اليوم . ولكن قد أظل زمان نبى : يخرج من بلادك التى خرجت منها ، يبعث بدين ابراهيم : الحنيفية ، فالحق بها فانه مبعوث الآن ، هذا زمانه .

وقد كان سأم اليهودية والنصرانية فلم يرض شبيثا فخرج سريعا ، حين قال له ذلك الراهب ما قال ، يريد مكة .

ما معنى الحنيف ؟ فى معنى الحنيف أقوال :

١ - هو المائل عن الأديان كلها قاله ابن عباس .

٢ - أو المائل عما عليه العامة . قاله الزجاج .

(١) الأصنام ص ٤ هامش ، وتاج العروس مادة ت . ع . ل . ب .

- ٣ — أو المستقيم ، قاله قتيبة .
- ٤ — أو الحاج ، قاله ابن عجلان وابن الحنيفة .
- ٥ — أو المتبع ، قاله مجاهد .
- ٦ — أو المخلص ، قاله السدي .
- ٧ — أو المخالف لكل ، قاله ابن حجر .
- ٨ — أو المسلم ، قاله الضحاك .
- ٩ — قالوا : فإذا جمع الحنيف مع المسلم فهو الحاج أو المختار .
- ١٠ — أو الحنف هو الاختلاف وإقامة المناسك وتحريم الأمهات والبقات والأخوات والعمات والخالات .

روى أبو حيان المفسر (١) عشرة أقوال متقاربة في المعنى .

وانما خص إبراهيم بالإمامة لما سنده من مناسك الحج والختان وغير ذلك من شرائع الإسلام مما تبدى به إلى قيام الساعة .

وصارت الحنيفية علما مميزا بين المؤمن والكافر .

وسمى الحنيف من ابتعد واستقام على هديه وسمى المنكث عن ملته بسائر أسماء الملل . فقيل : يهودى ، نصرانى ، ومجوسى ، وغير ذلك من ضروب الملل .

والآراء الكثيرة المذكورة تتجه وجهتين :

وجهة الاتجاه اللغوى عند العرب ، وتعنى : المائل أو المخالف .

والوجهة الثانية اصطلاحية : وتعنى من اتخذ وجهته نحو إبراهيم دينا ،

(١) البحر المحيط ج ١ ص ٤٠١ وقال الراغب الأصفهاني ج ١ ص ٢٩٠ على هامش

النهاية في غريب الحديث لابن الأثير .

وسمى العرب : كل من حج أو اختار حنيفا تنبأ أنه على دين إبراهيم وابن الأثير في كتابه السابق أورد معاني أخرى نقلت عن عبادى حنفا : أى طاهرى الأعضاء من المعاصى ، وقيل أراد أنه خلقهم حنفا مؤمنين لما أخذ عليهم الميثاق « است بركم قالوا بلى » فلا يوجد أحد الا وهو مقرر بأن له زيا وان أشرك به « واختلفوا » فيه : والخلفاء جمع حنيف وهو المائل إلى الإسلام الثابت عليه .

والحنيف عند العرب : ما كان على دين إبراهيم .

من حيث التوحيد أو شريعته من اختتن أو شعائر الحج ، ومن حيث المفهـج
الاسلامى : سوى القرآن بين الحنيفية والاسلام والفطرة •

يجعل الشهرستانى : (١) أن الصبوة فى مقابل الحنيفية فيقول : وكانت
الفرق فى زمان ابراهيم راجعة الى صنفين اثنين : حنفاء وصابئة •

مدار مذهب الصابئة : التعصب للروحانيين •

والصابئة تدعى : أن مذهبها هو الاكتساب •

مدار مذهب الحنفاء هو : التعصب للبشرية الجسمانيين •

والحنفاء تدعى : أن مذهبها الفطرة •

وكانوا يقولون : انا نحتاج فى المعرفة والطاعة الى متوسط من جنس
البشر تكون درجته فى الطهارة والعصمة والتأييد فوق الروحانيات :

يمثلنا فى البشرية •

ويميزنا : فى الروحانية •

يتلقى الوحي بطرف الروحانية ، ويلقى الى النوع الانسانى بطرف
البشرية •

قال تعالى : « قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى انما الحكم اله واحد » •

وقال : قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا •

قررها : ابراهيم ، وأطلق عليها : الملة الكبرى ، والأنبياء بعده أطلقوا
على دينهم : وصف الحنيف ، ولا سيما القرآن فالتوحيد : كان من أخص
أركان الحنيفية ، ولهذا يقتزن عدم الشرك بكل موضع ذكرت الحنيفية فيه •

قال تعالى : حنيفا وما كان من المشركين •

وقال : حنفاء لله غير مشركين به •

والصابئة بمذهبها الروحي وعمقها التاريخي تضع أمامنا مشكلة وهى :

كيف عرف الانسان الاتجاه الروحي — وهو أعقد من الاتجاه المادى ؟

أعرفه بالعقل ؟ أم بالوحي ؟ وهل الانسان : فكر أولا ماديا أو روحيا ؟

يجيب الشهرستاني في المناظرة بين الصابئة والحنفاء : أنهم عرفوه أى الاتجاه الروحي من الأنبياء (١) .

بعد ما قلنا عن معنى الحنيفية نرجع الى الحنفاء الشاكين في أصنامهم نقول : ان التعدد في الأصنام ، والأنصاب ، وأنشاءهم لبيوت مقدسة ، يزاحمون بهكنا الكعبة ، مع نظرات الساخطين عليها ، الى وجود المسيحية ، بجانب اليهود ، واشتات من الصابئة ، ولاجئين من المجوس ، كل ذلك : حفلت به الجزيرة العربية وله آثاره الواضحة في خلق آفاق جديدة من التفكير لدى بعض أفراد أدامهم ميولهم العقلى الى تقييم ما حولهم من وثنية واضطلعوا بعبء مسئولية التفكير فيها .

قال الشافعى : في الام : فكانت المجوس يدينون غير دين أهل الأوثان ويخالفون أهل الكتاب من اليهود والنصارى في بعض دينهم وكان أهل الكتاب اليهود والنصارى يختلفون في بعض دينهم . يقول : الشيخ مصطفى عبد الرازق معلقا :

وكان هذا الجدل يتناول بالضرورة شئون الألوهية والرسالة والبعث والآخرة والملائكة والجن والأرواح ويدعو الى الموازنة بين المذاهب المختلفة في تلك الشئون وقوى أمر هذا الجدل الدينى في ذلك العهد حتى تولدت نزعة ترمى الى تلمس دين ابراهيم أبى العرب (٢) . وبذلك تسرب الشك في الأصنام والأوثان الى نفوس العرب .

قال ابن إسحاق : واجتمعت قريش يوما في عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه وينحرون له ويعكفون عنده ويدبرون به وكان ذلك عيدا لهم في كل سنة يوما . فخلص منهم أربعة نفر نجيا ثم قال بعضهم لبعض تصادفوا وليكتن بعضكم على بعض .

قالوا : أجل وهم :

ورقة بن نوفل ، وعبد الله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث ، وزيد

(١) راجع ما سبق في باب الصابئة .

(٢) التمهيد ص ١٠٣ .

ابن عمرو بن نفيل (١) .
 فقال بعضهم لبعض : « تعلموا والله ما قومكم على شيء لقد أخطأوا
 دين أبيهم إبراهيم ما حجر نظيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ؟
 يا قوم. التمسوا لانفسكم فانكم والله ما انتم على شيء » فتفرقوا في
 البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم .
 فأما ورقة بن نوفل فاستحكم في النصرانية واتبع الكتب من أهلها حتى
 علم علما من أهل الكتاب .

وأما عبيد الله بن جحش : فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم
 ثم هاجر مع المسلمين الى الحبشة ومعه امراته أم حبيبة بنت أبي سفيان
 مسلمة فلما قدما تنصر وفارق الاسلام حتى هلك هناك نصرانيا وكان
 عبيد الله بن جحش حين تنصر يمر بأصحاب رسول الله وهم هنالك من
 أرض الحبشة فيقولون .

فحقنا أي أبصرنا وصاأتم : أي تلتمسون البصر ولم تبصروا بعد .
 وأما عثمان بن الحويرث . فقدم على قيصر ملك الروم فتنصر وحسنت
 منزلته عنده .

قال صاحب الروض : ان قيصر الروم كان قد توج عثمان وولاه أمر مكة
 فلما جاءهم بذلك أنفوا من أن يجينوا . الملك وصلاح الأسود بن أسد بن
 عبد العزى إلا أن مكة حى لقاح لا تدين فلم يتم له مراده . . . قال وكان
 يقال له البطريق ولا عقب له ومات بالشام مسموما سمه عمرو بن جفنة
 الغساني الملك .

وأما زيد بن عمرو : فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية وفارق
 دين قومه فاعتزل الأوثان والميعة والدم والذبايح التي تذبح على الأوثان
 ونهى عن قتل الموعودة وقال أعبد رب إبراهيم ونادى قومه بعيب ما هم عليه .

(١) ذكر المسعودي في كتابه مروج الذهب : اسما أناس من العرب دعوا قومه
 الى الله ونبهوهم على آياته في زمن الفترة كتمس بن ساعده ، ورياب السيتي . وبجرا الراهب
 وكان من عبدة تيس .

خرج الى الشام يسأل عن الدين ؟ ويتبعه فلقي عالما من اليهود فسأله عن دينهم وقال انى لأتبع أنى. أدين بدينكم فأخبرونى فقال لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله قال زيد ما أفر الا من غضب الله ولا أحمل من غضب الله شيئا أبدا وانى أستطيعه فهل تدلنى على غيره قال ما أعلمه الا أن يكون حنيفا .

قال : وما الحنيف ؟

قال : دين ابراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولا يعبد الا الله .
فخرج زيد فلقي عالما من النصارى فذكر مثله فقال لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله قال ما أفر الا من لعنة الله ولا أحمل من لعنة الله ولا من غضب الله شيئا أبدا وانى أستطيعه فهل تدلنى على غيره قال ما أعلمه الا أن يكون حنيفا .

قال : وما الحنيف ؟

قال دين ابراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولا يعبد الا الله .
فلما رأى زيد قولهم فى ابراهيم خرج فلما برز مع يديه فقال اللهم انى أشهدك انى على دين ابراهيم .

وفى حديث للبخارى عن أسماء بنت أبى بكر قالت رأيت زيد بن عمرو ابن نفيل قائما مسندا ظهره الى الكعبة يقول : يا معشر قريش والله ما منكم على دين ابراهيم غيرى وكان يحيى الموءودة يقول للرجل اذا أراد أن يقتل ابنته لا تقتلها أكفك مؤنتها فيأخذها فاذا ترعرعت قال لأبيها ان شئت دفعتها اليك وان شئت كفيتك مؤنتها .

ومن شعره يقول زيد بن عمرو بن نفيل :

أربا وانحدا أم ألف رب	أدين اذا تقسمت الأمور
عزلت اللات والعزى جميعا	كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا عزى أدين ولا أبنيتهما	ولا صئى بنى عمرو أزور
ولا هبلا أدين وكان ربا	لنا فى الدهر اذ حطى يسير

(م — ١٧ الفكر الدينى)

عجبت وفي الليالي معجبات
بأن الله قد أفنى رجالا
وبينا المرء يعثر تاب يوما
ولكن أعبد الرحمن ربي
فتقوى الله ربكم احفظوها
تري الأبرار دارهم جنان
وخزي في الحياة وأن يموتوا
وفي الأيام يعرفها البصير
كثيرا كان شأنهم الفجور
كما يتروح الغصن العطير
ليغفر ذنبي الرب الغفور
متى ما تحفظنوها لا تبور
والكفار حامية سعيهم
يلاقوا ما تضيق به الصدور

وقال مما ذكره أبو الفرج :

أدين ألاها يستجار ولا أرى أدين لمن يسمع الدهر داعيا

مما سبق نلاحظ أن هؤلاء الأربعة خرجوا عن الوثنية ثم بعد ذلك تفرقوا إلى وجهات مختلفة غير وجهة الوثنية . وكانت لهم وجهة نظر في أطراح الوثنية هي : أنها لا تسمع ولا تبصر ولا تضر ولا تنفع وهم اذ يقولوا هذا فانهم ما خرجوا عن وصف قطعة الحجر في أنها كذلك ، غير أنهم لم يبحثوا فيما وراء ذلك من مشكلات دينية وبالرغم من أنهم لم يستهزئوا بالدين انما استهزأوا بالاله المصنوع من حجر وغيره ، فان من الواضح أن فكرة وجود اله مغاير لما عليه الأصنام كانت تؤرقهم غير أنهم لم يبحثوها ولو من ناحية تحقيق حاجاتهم الدينية التي كانوا يحسون أن ما هم عليه لا يحقق رغبتهم الدينية ولا سيما بعد ما بدا لهم أن آلهتهم تعتبر غريبة على هذا العالم .

انما رأوا أن عليهم اختيار دين مما هو منتشر بينهم فبعضهم اتخذ سبيل المسيحية والبحث كورقة ومن تحير إلى أن تنصر ومات كعبيد الله بن جحش وآخر وقع في براثن السياسة فاهلكته والذي قال : «كذلك يفعل الجلد الصبور» تحسس المسيحية واليهودية إلى أن وقع هواه على الحنيفية دين أبيه ابراهيم .

«وسمى هؤلاء المفكرون بـ (الحنفاء) ولكنهم لم ينتظموا في طائفة ولم يرتبطوا برباط واحد ولم يشتركوا في عبادة واحدة معينة ثم ظهر الصابئة

الذين كانوا يسمون أيضا الحنفاء نبذ هذان النوعان من الحنفاء : اليهودية والمسيحية وآمنوا بدين ابراهيم وكانت تعاليمهم بسيطة فطرية تتفق مع سلوك العرب .

ولتصبح الحنيفية دين العرب كانت في حاجة الى تعاليم محددة وتنظيم قوى وطقوس دينية وكتاب سماوى ولما كانت الحنيفية توزها الاسس السماوية التى تجذب الانسان فانها لم تتمكن من الانتشار بحيث تصبح دين العرب .

وخلاصة القول : منح الاسلام العرب عقيدة التوحيد فى أنقى صورها غير متأثرة بغيرها وأشعرهم بمسئوليات الحياة وقضى على الفساد الاجتماعى من جذوره .

وحطم حياتهم الانعزالية وجعلهم رسل الحضارة ولا نجد ما يعبر عن البحث خيرا مما قاله الأستاذ براون : فقد رأينا فى موقعه « ذى قار » علاقات تدل على حيوية العرب العظيمة وشدة بأسهم بينما كان جيرانهم ينظرون اليهم على أنهم كميات مهملة بشكل غير مألوف كما كانوا فى عصر ما قبل الاسلام (١) .

أما الاسلام ذلك القانون الالهى الفريد الذى يستطيع متعلم منصف أن ينكر عظمته فقد جعل العرب يأخذون نصيبا كبيرا ويؤدون دورهم فى الحضارة . .

بعد ذلك نحب أن نذكر بعض التعليقات حول بعض الأسماء التى أطلقت على ذلك النفر من بعض كتب السيرة فبعضها أطلق على هؤلاء النفر «حنفاء» والبعض الآخر أطلق عليهم «المتحنثون» .

فمن ناحية كلمة «حنفاء» يجوز إطلاقها عليهم من ناحية المعنى اللغوى أى الذين خرجوا على دين قومهم .

(١) حضارة الاسلام ص ٣١ صلاح الدين جودا ابن خلدون ترجمة على حسن الخربوطلى .

.. ومن ناحية المعنى الاصلاحي فانه يشملهم جميعا من باب قصدهم فهم قصدوا جميعا — عند ما سحبوا من الأوثان . ودين قومهم — الحنيفية او من باب التغليب أى لما كان منهم من انتسب الى الحنفاء سموا جميعا بالحنفاء لان الذى اعتنق الحنيفية بعد أن بحث عنها واحد منهم فقط .

أما من ناحية : أهل الحنث .

— حنث اليمين : أى نقضها .

قال الجوهرى : بلغ الغلام الحنث : أى بلغ المعصية أو الطاعة .

— وفيه أن الرسول كان يأتى حراء فيتحنت فيه : أى يتعبد فيه .

— يقال فلان يتحنت : أى يفعل فعلا يخرج به من الاثم والحرَج .

— ومنه حديث حكيم بن حزام : رأيت أمورا كنت اتحنت بها فى الجاهلية .
أى اتقرب بها الى الله .

ومنه حديث عائشة : ولا اتحنت الى نذرى أى لا أكتسب الحنث وهو :
الذنب .

بـ . ومنه : تكثروا فيهم أولا الحنث أى أولاد الزنا .

ما عرضناه من معان لكلمة « الحنث » فهى معان صالحة لاطلاقها عليهم . فهم حنثوا أى نقضوا ما تواعبوا عليه وهو طلب الحنيفية ثم لم يطلبها غير واحد .

وبعضهم بلغ بحنثه (عبادته) المعصية ولا سيما ما كان من بعضهم عندما ترك الحق واتبع السياسة فأهلكته ، والبعض الآخر بلغ بحنثه الطاعة وكلهم طلبوا أمورا صالحة فى نظرهم لتعبدتهم وكلهم فعلا خرجوا به من الاثم الى الطاعة بحسب اجتهادهم .

... وهكذا أوقفنا معاجم اللغة — كما رأينا — أمام حشد من المعانى دون تنبيه منها يبين متى نشأ المعنى الاصطلاحى للفظ او متى نقل من معناه اللغوى الى معناه المذهبى .

الباب الخامس

موقفهم من قضايا الفكر الدينى

- ١ - الألوهية •
- ٢ - الرسالة •
- ٣ - المغيبيات •
- ٤ - رموز أساطيرهم •
- ٥ - على هامش الأخبار العربية •

نظرة تحليلية حول الوثنية العربية :

راينا فيما سبق أن الجاهلى عرف حياة دينية تعمق به حيناً ويطفوا بها على السطح حيناً آخر يطفوا بها حتى يتسرب الشك الى نفسه حتى يخيّل اليها أن البدوى قليل الدين قلما يكثر لما يعبد .

والعربى : اذ يتعمق حياته الدينية أو يسخط عليها فانما يصدر فى ذلك عن طبيعته البدوية وليس عن فكر دينى فى أغلب الأحيان .

فالعربى ذكى الى حد تكفيه الاشارة فماتور الحكمة والأمثال يشهد بذكائه وحاضر بديهته وطبيعته من وراء ذلك شخص ميال الى الاعتزاز بنفسه بما يخدم حريته الشخصية فلا يدين لأحد فهو ذكى غير ميال الى التفاهم الاجتماعى .

ونظامه القبلى : كشكل اجتماعى بدائى — صرفه عن أن يفكر فى محيط اجتماعى أوسع فلم يفكر فى تغيير مجرى حياته الاجتماعى أو الفكرى فأنحصر فكره داخل قبيلته ولم يتهددها عن مألوفها الا بقدر ما يخدم حريته الشخصية فهو كعضو فى قبيلته مخلص مطيع لتقاليدها . لذلك كان العربى مقلداً غير ميال الى التغيير الاجتماعى والعربى يحب من الأفكار ما يلهيه ويرفع عنه سامة الحياة ويتناسب مع سعة الخيال العربى الذى يتسع للعقاب والغول والجان والشياطين سعة تتناسب أيضاً مع رحابة صحراء جزيرة العرب . يجب مثل هذا الفكر وليس ذلك لضعف طبيعة عقله وانما لميوله الفكرية فهو يرى أنه غير ميال الى التغيير ولم يغير ؟

انه رئيس فى قبيلته أو عضو عامل فيها فالتغيير لماذا ؟ فالحفاظ على وضعه فيه نوع من الفكر الذاتى المنغلق على نفسه . فلذلك اندفع نحو الخرافات ليحفظ بها نظامه القبلى . وليس العربى وحده مصدقاً للخرافات فالأمة اليونانية فيها خرافات لا تتناسب مع عقلها المنطقى .

فحياته الدينية كانت تقليداً غير مرتبطة بحياة عقلية ناضجة وليست كما يرى بعض الباحثين أن العقائد الدينية قبل الاسلام خضعت لعوامل

التطور ومن هؤلاء الأستاذ أنور الرفاعي اذ يقول : عرف عن عرب ما قبل الاسلام أنهم وثنيون وعرفت وثنيتهم وتقاليدهم في القرآن الكريم بالجاهلية وبالرغم من ذهاب معظم أخبارها ، فقد تسرب اليها نكت كثيرة من أساطير الجاهلين ومعتقداتهم وأفكارهم ، وكلها تدل على أن الوثنية ليست بسيطة التركيب ولا قريبة المتناول ، فما وصلنا منها يدل على أنها مرحلة راقية ، وأن كثيرا من قديمها قد بقى في متأخرها وأن بعض أحوالها صيغ بالأفكار اليهودية أو الصابئة أو المسيحية أو اتحد مع عقائد أجنبية . ومن الضروري أن نلجأ في تفهمها الى تصنيف تاريخي يمهّد لبيان تطورها وتقدمها في الزمن .

واستعراض الأساطير والعقائد العربية الجاهلية يدلنا على أن الوثنية العربية مرت في أطوار تشبه تلك التي مرت بها وثنيات الأمم الأخرى فانها عرفت ١

١ — الطور الحيوى : وفيه اعتقد العرب أن في كل شيء حياة فعبدوا الشجر والحجر والجن ، واعتقدوا أن الحجر شجر الشياطين . وأن الصفا والروة هما : رجل وامرأة فسقا في الحرم فمسخا حجرين وأن الضب هو يهودى مسخ فلا يؤكل لحمه . . وأن الحجارة الحرم تحمل قدسيته فهم يحملون منها للعبادة في ديارهم . . . الخ .

٢ — الطور الطوطمى : وفيه تنحصر الحياة والأرواح في أشياء محدودة : ومن بقايا هذا التطور ما وجد عندهم من تسمية الانسان بأسماء الحيوان ومن عبادة بعض البهائم ، كالجمال الأسود عند طيء ، والكبش الأبيض ، ومن التشاؤم بالغراب والبوم . ومن عبادة الأصنام على شكل الحيوان كينوث وهو على شكل نسر ، ويعوق وهو على شكل فرس . . الخ .

٣ — الطور الوثنى وتعدد الآلهة : وفيه وصل العرب الى تصور الاله بأشكال انسانية . وتعددت الآلهة عندهم وتخصصت ومهدت للطور الوجدانى الذى جاء به الاسلام .

نحن لا نشايح الأستاذ أنور الرفاعي فيما ذهب اليه من تحليل للوثنية العربية وانتقائها الى أطوار مختلفة لما رأيناهم بينهم انهم مجتمع قبلى لكل قبيلة معبودها حجرا أو شجرا أو حيوانا وذهبت في عباداتها لهذه الأوثان المتعددة والمختلفة مذهب التقليد والمحاكاة .

يقول اسبتيانو موسكاتى (١) :

وقد عرفت القبائل البدوية في وسط الجزيرة طائفة كبيرة من الآلهة ، ولكنها ليست آلهة أو الهات محددة تحديدا واضحا لها صفاتها وأساطيرها الثابتة ، بل أرواح كل منها تهيم على موضع وتحميه مثل البعول الكنعانية المختلفة . فخيال البدوى أضفى أرواحا على الآبار والأشجار والحجارة ، وشعر بوجود آلهة فيها .

وكانت تسكن الصحراء أرواح أخرى محلية غير الآلهة ، هي خليط من مخلوقات غريبة بعضها خير وبعضها شرير تملك القدرة على الإستخفاء وكان على المرء استرضائها اذا أراد اجتناب آذاها .

الوثنية في نظر الرازى :

يقول الرازى المفسر :

أعلم أنه ليس في العالم أحد يثبت لله شريكا يساويه في الوجود والقدرة والعلم والحكمة وهذا مما لم يوجد الى الآن .

لكن في الوثنية يثبتون الهين :

— أحدهما : حلیم : يفعل الخير .

— والثاني : سفیه : يفعل الشر .

وأما اتخاذ معبود سوى الله ففي الذاهبين الى ذلك كثرة :

الفريق الاول : عبدة الكواكب :

وهم الصابئة فانهم يقولون أن الله خلق هذه الكواكب وهذه الكواكب هي المدبرات لهذا العالم . قالوا فيجب علينا أن نعبد الكواكب ووالكواكب تعبد الله .

(١) الحضارات السامية ص ٢٠٦ ترجمة الشهيد يعقوب أبو بكر

الفريق الثاني : النصاري : الذين يعبدون المسيح •

الفريق الثالث : عبدة الأوثان •

وأعلم أنه لا دين أقدم من دين عبدة الأوثان ، وذلك لأن أقدم الانبياء الذين نقل إلينا تاريخهم هو نوح وهو إنما جاء بالرد على ما أخبر الله عن قومه في قوله : لا تخرن آلهتكم ولا تخرن ودا ولا سسواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا •

فعلمنا أن هذه المقالة كانت موجودة قبل نوح وهي باقية الى الآن بل أكثر أهل العالم مستمرون على هذه المقالة .

يقول الرازي : والدين والمذهب الذي هذا شأنه يستحيل أن يعرف فساد به بالضرورة ولكن العلم بأن هذا الحجر المنحوت في هذه الساعة ليس هو الذي خلقني وخلق السموات والأرض علم ضروري فيستحيل أطباق الجمع العظيم عليه فوجب أن يكون لعبدة الأوثان غرض آخر سوى ذلك •

فما هو هذا الغرض ؟

يقول الرازي :

الوجه الأول : اعتقاد الشبه :

ذكر أبو معشر جعفر بن محمد المنجم البلخي في بعض مصنفاته : أن كثيرا من أهل الصين والهند كانوا يقولون بالله وملائكته ويعتقدون أن الله جسما وذا صورة كأحسن ما يكون من الصور وهكذا حال الملائكة أيضا في صورهم الحسنة وانهم كلهم قد احتجبوا عنا بالسماء وإن الواجب عليهم أن يصوغوا تماثيل أنيقة المنظر حسنة الرواء على الهيئة التي كانوا عليها ويعتقدونها من صور الالهة والملائكة • فيعكفون على عبادتها قاصدين طلب الزلفى الى الله وملائكته •

قال الرازي تعليقا عليه : فإن صح ما ذكره أبو معشر فالسبب في عيادة الأوثان : اعتقاد الشبه •

الوجه الثانى : اعتقاد فى الأسباب الظاهرة :

ذكره أحد العلماء وهو أن الناس رأوا تغيرات أحوال هذا العالم مربوطة بتغيرات أحوال الكواكب ، فبحسب قرب الشمس وبعدها عن سمت الرأس تحدث الفصول المختلفة والأحوال المتباينة ثم أنهم رصدوا أحوال سائر الكواكب واعتقدوا ارتباط السعادة والنحوسة فى الدنيا بكيفية وقوعها فى طوابع الناس فلما اعتقدوا ذلك بالغوا فى تعظيمها .

فمنهم من اعتقد أنها أشياء واجبة الوجود لذواتها وهى التى خلقت هذه
العالم .

ومنهم : من اعتقد أنها مخلوقة للاله الأكبر لكنها خالقة لهذا العالم .
فالأولون اعتقدوا أنها هى الآلهة فى الحقيقة .

والفريق الثانى : اعتقدوا أنها هى الوسائط بين الله وبين البشر فلا جرم اشتغلوا بعبادتها والخضوع لها ، ثم لما رأوا الكواكب مستقرة فى أكثر الأوقات من الأبصار اتخذوا لها أصناما وأقبلوا على عبادتها قاصدين بتلك العبادات تلك الأجرام العالية ومتقربين الى أشباحها الغائبة ، ثم لما طالت المدة ألفوا ذكر الكواكب وتجردوا لعبادة تلك التماثيل .
فهؤلاء فى الحقيقة : عبدة الكواكب .

الوجه الثالث : تعظيم المجهول :

أن أصحاب الأصنام كانوا يعينون أوقاتا فى السفين المتطاولة نحو الألف والالفين ويزعمون أن من اتخذ طلسم فى ذلك الوقت على وجه خاص فإنه يفتفع به فى أوقات مخصوصة نحو السعادة والخصب ودفع الآفات .

وكانوا اذا اتخذوا ذلك الطلسم عظموه لاعتقادهم أنهم يفتفعون به فلما بالغوا فى ذلك التعظيم صار ذلك كالعبادة ولما طالت مدة ذلك العقل نسوا مبدأ الامر واشتغلوا بعبادتها على الجهالة بأصل الامر .

الوجه الرابع : اعتقاد في الأرواح :

انه متى مات منهم رجل كبير يعتقدون انه مجاب الدعوة ويقبلون الشفاعة عند الله اتخذوا صنما على صورته يعبدونه على اعتقاد أن ذلك الانسان يكون شفيعا لهم يوم القيامة عند الله على ما أخبر الله بهذه المقالة في قوله :
هؤلاء شفعاؤنا عند الله .

الوجه الخامس : اعتقاد في المقدسات :

لعلهم اتخذوها مجاريب لصلواتهم وطاغاتهم ويسجدون اليها لا لها كما انا نسجد الى القبلة لا للقبلة ولا استمرت هذه الحالة ظن الجاهل من القوم انه يجب عبادتها :

الوجه السادس :

لعلهم كانوا من المجسمة فاعتقدوا جواز حلول الرب فيها فعبدوها على هذا التأويل (١) .

وبهذا الاتجاه الوثني نسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين ابراهيم واسماعيل غيره فعبدوا الأوثان وصاروا الى ما كانت عليه الأمم من قبلهم من الضلالات . ومع ذلك بقيت فيهم بقايا عهد ابراهيم يتمسكون بها

من تعظيم البيت والطواف والحج والعمرة بعرفة والمزدلفة وهدى البدن والاحلال بالحج العمرة مع ادخالهم فيه ما ليس فيه .
فكانت كنانة وقريش اذا أهلوا قالوا :

لبيك اللهم لا شريك لك الا شريكا هو لك تملكه وما ملك فيوحدونه بالتلبية ثم يدخلون معهم أصنامهم ويجعلون ملكها بيده يقول الله تعالى :
(وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون) . أي ما يوحدونني لمعرفة حتى
الاجلوا معي شريكا من خلقي ...

لقد لاحظنا أن العربي كان متدينا سواء كان الدافع الي اعتقاده الديني

(١) مفتاح الغيب ج ١ ص ٢٢١ .

فكره كامية ، ولبيد ، وقيس بن ساعدة ، أو الدافع اليه تقليد القبيلة
أو الدافع اليه بعض الاتجاهات السياسية كمسيحية غسان : على أى حال
مهما كان الدافع فانه كان متدينا .

وذهب الباحثون في تدينه مذاهب شتى من حيث قضايا الفكر الدينى
وليس الحال كما رأى بعض الباحثين أن العربى وقع بتدينه تحت أطوار
مختلفة وانما نقول : أن العربى حاله فى دينه هو حاله مع آلهة كما تصوره
هذه الرواية التاريخية :

يقول الكلبي : كان الرجل إذا سافر فنزل منزلا أخذ أربعة أحجار
فنظر الى أحسنها فاتخذها ربا وجعل ثلاثة أثاقى لغيره وإذا ارتحل تركه فإذا
نزل منزلا آخر فعل مثل ذلك (١) ويقول أبو عثمان النهدي (نهدي قبيلة
من قضاة) كنا فى الجاهلية نعبد حجرا ونحمله معنا فإذا رأينا أحسن منه
ألقيناه وعبدنا الثانى وإذا سقط الحجر عن البعير قلنا سقط الحكم فالتمسوا
بحجرا (٢) .

ويقول ابن دريد (١) « كان الرجل منهم إذا وجد حجرا أحسن من حجر
أخذهُ وعبدهُ » . فالعربى لم يعبد الوثن معتقدا أنه خالقه أو خالق الكائنات
لأنه تارة يستقسم عنده وتارة أخرى يسبه ويشتمه ومرة ثالثة يأكله وقت
المجاعة لذلك لا نعد تصرف العربى مع وثنه تطورا انما استخفافا ومثله
إذا انتقل من عبادة وثن الى عبادة كوكب لا يرى فى ذلك تطورا أيضا لأنه
غير مصحوب بفكر عقلى انما هو انتقال من صورة مظلمة الى صورة مشعة
كتركه الحجر لحجر أحسن فى صورته . أما ما يصح أن يطلق عليه «انتقال
منطور » فهو الانتقال الذى يصاحبه فكر ويتبعه قضايا دينية توجب على
المتدين النظر أو الشك ، لم يحصل شيء من هذا حتى الحنفاء الذين تشككوا
فى الأوثان رأوا أن علاج شكهم اختيار دين آخر وتفرقت بهم سبل الاختيار
فلم يحاولوا عرض قضايا دينية أو قضايا فكرية ، وذلك شأن العربى ،

(١) الأصنام ص ٢٢ .

(٢) اسد الغابة فى معرفة الصحابة ج ٢ ص ٢٢٥ ابن الأثير .

(٣) الاستغنى ص ٨٦ .

أما الاسلام فكان شيئا جديدا وكلا متكاملا وفي ذلك ما يدل على سماويته
ونبوة الرسول .

ونتيجة هذا التنقل في الاختيار وقع العربى تحت عدة تناقضات فكرية
ودينية أشار اليها القرآن منها قوله تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السموات
والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون . ولئن سألتهم من
نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ليقولن الله . قل الحمد لله
بل أكثرهم لا يعقلون (١) » .

وأشار أيضا الى لون آخر من ألوان تناقضهم في قوله تعالى : « يعبدون
من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » (٢)

فمنهم من كان يعبد الله مع صنمه ومنهم من كان لا يعبد الله مع صنمه .
وسنشير الى ألوان من عقائدهم لنرى أن الحياة العقائدية في مكة لم يحكمها
قانون التطور انما حكمها قانون الانتشار والتقليد . فانتشر في ربوع شبه
الجزيرة العربية متفرقات من الملل والنحل وعاش بها بعضها بعضا .

وكان تعدد آلهة الصحراء نتيجة لحالة التشتت التي كانت تعيش فيها
القبائل ولميلها الغالب الى التفوق وكان الاله لا يستطيع الا نادرا التغلب على
هذين العاملين ومد نفوذه الى ما وراء حدود منطقته المحلية مثلما فعلت الالهات
الثلاث : اللات ومناة والعزى ، وكانت تعبد في المنطقة التي حول مكة وكان
يعلو عليهن أبوهن الله (٣) .

١ — موقفهم من قضايا الألوهية :

(١) المشركون بالله :

يتسم موقفهم من قضايا الألوهية بالشر ك . والاشراك بالله له صور ولكل
صورة طائفة .

(١) سورة العنكبوت ٦١ ، ٦٢ .

(٢) سورة يونس ١٨ .

(٣) الحضارات السامية ص ٢٠٦ اسبتيئوهو سنكاتى ترجمة د . السيد يعقوب بكر .

١ — منهم من اتخذ آلهة من الاجسام المعدنية كالحجر والذهب والفضة والنحاس . .

٢ — ومنهم من اتخذ من النبات كالشجر .

٣ — ومنهم من اتخذ من الانسان .

٤ — ومنهم من اتخذ من الاجسام البسيطة :

— اما سفلية : كعبدة النار وهم المجوس .

— او علوية : كعبدة الشمس والقمر وسائر الكواكب وهم نوع من الصابئة .

٥ — ومنهم من قال بالاثنية : النور والظلمة وهم الثنوية .

٦ — ومنهم من قال للملائكة عبارة عن الارواح الفلكية ولكل اقليم روح من الارواح الفلكية يديره وكذا لكل نوع من انواع هذا العالم فيتخذون لتلك الارواح صوراً وتمثيل ويعبدونها وهم عبدة الملائكة .

وقد كان صنف من العرب يعبدون الملائكة وهم بخلاف الصابئة الذين يقدسون الملائكة ولا يعبدونها . ويزعمون انها بنات الله فكانوا يعبدنها لتشفع لهم الى الله .

وهم الذين قال الله فيهم : ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون :

وقوله : (أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى لكم الذكر وله الأنثى تلك اذا قسمة ضيزى) .

٧ — ومنهم من قال للعالم الهان :

— أحدهما خير وهو : الله .

— والآخر شر وهو الشيطان .

وهؤلاء هم الذين يشير اليهم القرآن الكريم بقوله :

« وقال الله لا تتخذون الهين اثنين إنما هو اله واحد » .

ونهاية القول فان ما كان عليه العرب من مظاهر الشرك المتعددة منهم من كان يتعمق في عبادته حتى يرى الله وراء حقيقة الوجود فوجه اليهم القرآن الكريم هذه الأسئلة : « قل لمن الأرض ومن فيها أن كنتم تعلمون بـ سيقولون لله : قل أفلا تذكرون ، قل من رب السموات السبع ورب العرش

العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون . قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل فاني تسجيرون (١) .
وقال : ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون .

ومن الملاحظات العامة على المظاهر الدينية القديمة التي كانت في البابليين والمصريين القدماء والفرس وحتى اليونان كانت مرتبطة بالظواهر الطبيعية علوية ، أو سفلية ، ارتباطاً تاليه أو تقديس .

(ب) الدهريون :

والدهرية هم الذين يقولون بإسناد الحوادث الى الدهر واستقلال الدهر بالتأثير ، والدهر عندهم : هو حركات الفلك وأن العالم يدور بمقتضى تأثير هذه الحركات والعرب يقولون به ولا صانع سواه .

أما تعريف الدهر عند الاسلاميين : فهو : مدة زمان الدنيا .
وعرفه بعضهم بأنه أمد مفعولات الله في الدنيا أو فعله لما قبل الموت .

يقول الألوسي : وزعم بعض من لا تحقيق لهم أن الدهر من أسماء الله وهو غلط (٢) وأطلقه العرب بفتح الدال على المجدين الذين ينكرون الله وتأثيره ، أما إذا أرادوا منه الرجل المعمر قالوا دهرى بضم الدال (٣) .

وعقيدة الدهرية ترجع أيضاً الى بعض مبادئ الصابئة فهي خمسة :
الرب — النفس — المادة — الدهر — الفضاء .

وجعل الشهرستاني الدهرية من المعطلة فقال : معطلة العرب أصنافاً صنف منهم أفكر الخالق والبعث والاعادة وقالوا بالطبع المحيى والدهر المبنى وهم الذين أخبر القرآن عنهم :

(١) سورة المؤمنون : ٨٤ — ٨٦ .

(٢) روح المعاني ج ٨ ص ٦٩ .

(٣) لسان العرب لابن منظور .

وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا (١) .
يقول الشهرستاني : اشارة الى الطبائع المحسوسة في العالم السفلى
وقصر الحياة والموت على تركيبها وتحللها فالجامع هو الطبع والمهلك هو الدهر .

« وما يهلكنا الا الدهر وما لهم بذلك من علم أن هم الا يظنون » فاستحل
عليهم بضرورات فكرية وآيات فطرية في كثير من السور فقال تعالى : « او
لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة ان هو الا نذير مبين » .
وقال : أثنكم لتكفرون بالذى خلق الارض في يومين بـ
وقال : يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم .
فأثبت الدلالة الضرورية من الخلق على الخالق وأنه قادر على الكمال
ابتداءً واعادة .

روى صاحب الأغاني : يقول عدى بن زيد بلسان حال المقابر . يتضح
منها أن لديهم أكثر من معنى للدهر :

من رأنا فليحدث نفسه انه موف على قرن زوال
وصروف الدهر لا يبقى لها ولما تأتى به صم الجبال
رب ركب قد أناخوا عندنا وجياد الخيل تردى فى الجبال
عمروا دهرا بعيش حسن أمنى دهرهم غير عجال
ثم أضحوا عصف الدهر بهم وكذلك الدهر يودى بالرجال
وكذلك الدهر يرمى بالفتى فى طلاب العيش حالا بعد حال

(ج) الموحدون :

« وقد نقلت الصحراء أيضا عدا . القيليد الوثنية تتعالج دين التوحيد
الكبيرين اللذين كان مركزهما على مقربة من حدود الصحراء فقد هاجر جماعات
من اليهود الى الجنوب ولعل ذلك كان من أيام تخريب الرومان لبيت المقدس
وكونوا جاليات صغيرة على الطريق التجارى وفي واحات الحجاز وكانوا يستغلون
بالزراعة خاصة وقد أتوا الى موطنهم الجديد بتقاليد قومهم الدينية والحضارية

واتخذوا العربية لغة لهم (١) .

كان منهم الموحد المقر بخالقه المصدق للبعث موقنا بأن الله يثيب المطيع ويعاقب العاصي مثل الذين تحنفوا والذين تهودا والذين تنصروا .

وبعض القبائل لم تتغير فطرتهم ولا سيما « ربيعة » التي لازمت الحنيفية المشربة بالأوثان ومن الأشخاص مثل :

- قيس بن ساعدة
- وأميه بن أبي الصلت
- ولبيد بن ربيعة
- يقول الشهرستاني :

ومن العرب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، وينتظر النبوة ، وكانت لهم سنن وشرائع قد ذكرناها ، لأنها نوع تحصيل .

فمن كان يعرف النور الظاهر ، بالنسب الطاهر ، ويعتقد الدين التحنفي وينتظر المقدم النبوي زيد بن عمرو بن نفيل ، وكان يسند ظهره إلى الكعبة ويقول : أيها الناس هلموا إلى ، فإنه لم يبق على دين إبراهيم أحد غيري . وسمع « أميه بن أبي الصلت » ، يوما ينشد :

كل دين يوم القيامة عند الله إلا ، دين الحنيفية : زور
فقال له صدقت : وقال زيد أيضا :

فلن تكون لنفس منك واقية يوم الحساب إذا ما جمع البشر
ومن كان يعتقد التوحيد ، ويؤمن بيوم الحساب : « قيس بن ساعدة الأيادي » . قال في مواعظه : كلا ورب الكعبة ليعودن ما باد ولئن ذهب ليعودن يوما . وقال أيضا :

كلا بل هو الله اله واحد ، ليس بمولود ولا والد ، أعاد وأبدى ، واليه المآب غدا .

(١) الحضارات السامية ص ٢٠٧ .

وأنشد في معنى الاعادة :

يا باكي الموت والأموات في جدث
عليهم من بقايا يزهم خرق
دعهم : فان لهم يوما يصاح بهم
كما ينبه من نوماته الصدق
حتى يجيئوا بحال غير حالهم
خلق مضى ثم هذا بعد ذا خلقوا
منهم عراة ومنهم في ثيابهم
منها الجديد ومنها الأزرق الخلق

ومنهم : عامر بن الظرب العدواني ، وكان من شعراء العرب وخطبائهم وله وصية طويلة يقول في آخرها انى ما رأيت شيئاً قط خلق نفسه ، ولا رأيت موضوعاً الا مصنوعاً . ولا جائياً الا ذاهباً ، ولو كان يميت الناس الداء لأحياهم الدواء . ثم قال : « انى أرى أموراً شتى وحتى قيل له وما حتى ؟ قال : حتى يرجع الميت حياً ، ويعود لا شئ شيئاً . ولذلك خلقت السموات والأرض فتولوا عنه ذاهبين ، وقال : ويل : انها نصيحة ، لو كان من يقبلها به

وكان عامر ، قد حرم الخمر على نفسه فيمن حرمها ، وقال فيها :

ان أشرب الخمر أشربها للذتها
وان أدعها فانى ماقت قال
لولا اللذاذة والقينات لم أرها
ولا أرتنى الا من مدى عالى
سألة للفتى ما ليس في يده
ذهابة يعقول القوم والمال
نورث القوم أضغاناً بلا أحن
مزرية بالفتى ذى النجدة الحالى
أقسمت بالله أسقيها وأرويها
حتى يفرق ترب الأرض أوصالى

وهمن كان قد حرم الخمر في الجاهلية : قيس بن عاصم التميمي . وصفوان بن أمية بن الحرث الكناني ، وعفيف بن معدى كرب الكندي ، وقالوا فيها أشعاراً . وقال الأسلم البالي ، وقد حرم الخمر والزنا على نفسه :

سألت قومي بعد طول مضاضة
والسلم أبقي في الأمور وأعرف
وتركت شرب الراح وهى أثيرة
والموسسات وترك ذلك أشرف
وعففت عنه يا أميم تكرما
وكذلك يفعل ذو الحجى المتعفف

ومن كان يؤمن بالخالق ، وبخلق آدم عليه السلام ، عبد « لطابخة بن ثعلب بن ويرة » من قضاة ، وقال فيه :

وأدعوك يا ربى بما أنت أهله دعاء غريق قد تشبث بالعصم
لأنك أهل الحمد والخير كله ونو الطول لم تعجل بسخط ولم تلم
وأنت الذى لم يحيه الدهر ثانيا ولم يرد عبد منك فى صالح وجم
وأنت القديم الأول المجد الذى تبد أخلق الناس فى أكثم العدم
وأنت الذى أحللتنى غيب ظلمة الى ظلمة من صلب آدم فى ظلم

ومن هؤلاء النابغة الذبياني ، آمن بيوم الحساب ، فقال :

ووجهتهم ذات الاله ودينهم قويم ، فما يرجون غير العواقب
واراد بذلك الجزاء بالأعمال .

ومن هؤلاء زهير بن أبى سلمى المزنى ، وكان يمر بالعضاء (١) وقد أورقت
أورقت بعد ببس فيقول : لولا أن تسبني العرب لآمنت أن الذى أحياك بعد
ببس سيحيى العظام وهى رميم ثم آمن بعد ذلك وقال فى قصيدته التى أولها :
أمن أم أو فى حمنة لم تكلم :

يؤخر فيوضح فى كتاب فيدخر

ليوم حساب ، أو يعجل فينقم

ومنهم علاف بن شهاب التيمى ، كان يؤمن بالله تعالى وبيوم الحساب
وفبه قال :

ولقد شهدت الخصم يوم رفاعة فأخذت منه خطة المقتال
وعلمت أن الله جاز عبده يوم الحساب بأحسن الأعمال

وكان بعض العرب اذا حضره الموت يقول لولده: ادفنوا معى راحلتى حتى
أحشر عليها فان لم تفعلوا حشرت على رجلي .. قال جريبة بن الأشيم
الاسدى فى الجاهلية وقد حضره الموت - يوصى ابنه سعدا :

يا سعد اما اهلكن فائتى أوصيك أن أخا الوصاة الأقرب
لا تتركن أباك يعثر راجلا فى الحشر يصرع لليدين وينكب

(١) العضاءة بالكسر : أعظم الشجر ، أو ذات الثوك . جمعه ، عضاء بالكسر .

واحمل أباك على بعير صالح والخ المطية ، انه هو أصوب
ولعل لي مما تركت مطية في الحشر أركبها اذا قيل اركبوا

وقال « عمرو بن زيد بن المثنى » يوصى ابنه عند موته :

ابنى : زودنى اذا فارقتنى في القبر راحلة برحل فاتر
للبعث أركبها اذا قيل اظعنوا متساوقين معا لحشر الحشائر
من لا يوافيه على عثراته فالخلق بين مدافع أو عائر

وكانوا يربطون الناقة معكوس الرأس الى مؤخرها مما يلي ظهرها او
مما يلي كلكها ويطننها ويأخذون ولية ، فيشدون وسطها ويقلدون لها عنق الناقة
ويتركونها حتى تموت عند القبر ويسمون الناقة « بلية » والخيط الذي تشد
به « ولية » وقال بعضهم يشبه رجلا في « بلية » كالبلايا في أعناقها الولايا .

واذا تصفحنا الشعر الذى ذكره ابن هشام في سيرته عن حادث الفيل
وجيش أبرهة لو تصفحناه جميعا وأردنا تحليله من ناحية عاطفتهم الدينية
ثم اردنا ان نصل الى ظواهر دينهم العام لما تردنا عن الحكم عليهم بأنهم
مؤمنون موحدون ، لا يشوب ايمانهم شوائب الوثنية او سذاجة الشرك .
فما رأينا في شعرهم اسما لوثن أو صنم .

فعندما تقرا شعر عبد المطلب يطالعك قوله :

لا هم أن العبد يمن مع رطة فامنع حلالك
لا يغلبن صليبيهم ومحالهم غدوا محالك
لأهم : أى بالله ..

ثم قال لا يغلبن صليبيهم ..
فقابل بين الله والصليب .

فهذا منه يعنى ادراكا موضوعيا حين قابل بينهما أى بين الله والصليب
وان الله حقيقة والصليب زائف .

وحين لم يقابل بين وثنه والصليب ، كما هو واقعه المتورط في الوثنية .
والسؤال : هل كان عنده علم عن النصرانية ؟
كذلك شعر عبد الله بن الزبيرى :

يذكر في شعره : والله فوق العباد يقيمها . . فلم يذكر وثنا ولا صنما
وهو العنيد في جداله مع الرسول •
وأمية بن أبى الصلت :
الذى يبدأ تصديقه بقوله :
ان آيات ربنا ثاقبات
ثم ختمها بقوله :
لايمانى فيهن الا الكفور

كل دين يوم القيامة عند الله الا دين الحنيفية بور

فالشعر الذى ساقه ابن هشام يذكرنا بأمرين اما انهم موحدون واما أنه
شعر مفتحل •

ولعل مثل هذه الملاحظات جعلت بعض المستشرقين يزعم أن الرواة
الاسلاميين هم الذين وضعوا لفظة الجلالة في شعر الجاهليين بدلا من كلمة
المالات التى تتفق معها في الوزن •

يقول كارلو فلينو :

« بالغ الاب شيخو في كتابه المسمى بشعراء النصرانية من شعراء
الجاهلية بالغ في ظنه هذا الراى اى مبالغة كأنه زعم نصرانيا كل شاعر جاهلى
ورد في شعره شيء مما يتقرب من اعتقاده وحدانية الله أو من التأملات
والاعتبارات الدينية فعد من النصارى امرؤ القيس والنابعة وطرفة يقول
فلينو : لا شك عند كل منصف في انهم من أصحاب الوثنية اما المؤكد المثبت
فانما هو ان دين النصرانية ذاع في القرن السابق للهجرة في شمال جزيرة
العرب فاعتنقه بعض القبائل مثل بنى تغلب وقسم غير صغير من بنى تميم
فصلا عن اكثر المقيمين بمملكة بنى غسان واكثر سكان مدينة الحيرة (١) »

فلينو : يرد على مبالغة شيخو قائلا : بأنه ربما تكون الأفكار التى
تقترب من التوحيد نتيجة — تأملات وليست نتيجة النصرانية ولا سيما ان
النصرانية من الفاحية التاريخية تأخرت عن معاصرة هؤلاء الشعراء » (٢) •

(١) راجع : رسال الجاحظ : في الرد على النصارى ضمن مجموعة رسائل الجاحظ
تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون وهى ملحقه بالكتاب اثبتناها لهيئ مدى انتشارها في الجزيرة
العربية

(٢) تاريخ الاداب العربية وهى محاضراته التى ألهاها في الجامعة المصرية ١٩١٠ — ١٩١١
طبع دار المعارف •

ورأينا ما يؤيد فللينو في رواية مسلم عن عبد الله بن الصامت قال
قال : أبو ذر يا ابن أخي صليت سنتين قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم
قال : قلت : فأين كنت توجه ؟

قال : حيث وجهني الله • يقول رسول الله « غفار غفر الله لها وأسلم
سألمها (١) •

فإن أبا ذر لم يبين أثر المسيحية أو اليهودية في توجهه إلى الله ربما
كان ذلك أثرا من الحنيفية ما زال موجودا بين العرب وهذا ما تميل إليه
وعباداة الرسول قبل البعثة كانت على دين إبراهيم وكان يدفعهم إلى البحث
عن اتجاهات عقلية تميل نحو البحث عن حقيقة الدين ووجدنا مثل ذلك ظهر
مع الحنفاء •

يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق : (٢) كل ذلك يدل على أن العرب عند
ظهور الاسلام كانوا يتشبهون بأنواع من النظر العقلي •

ويقول — وكان يعد العرب للجدل الديني ويحفزهم إليه أما الدفاع عن
أديانهم الموروثة ضد الأديان الدخيلة عليهم وأما المهاجمة لهذه الأديان جميعا
من أجل ما يلتبسون من الدين الحنيف دين إبراهيم •

« على أنه ينبغي أن لا نبالغ في تصور من تنصروا من العرب قبل الاسلام
ونظن أنهم قاموا بتعاليم النصرانية قايما دقيقا فقد عرفوا الكنائس والبيع
والشراء والرهبان والأساقفة والصوامع ولكنهم ظلوا لا يتعمقون في هذا
الدين الجديد وظلوا يخطونه بغير قليل من وثقتهم وربما كان مما يوضح
ذلك خبر توضيح قول عدي بن زيد العبادي :

سعى الأعداء لا يألون شرا على ورب مكة والصليب

فهو يجمع بقسمه بين رب مكة ورب الصليب •

والحق أن نصارى العرب في الجاهلية إنما عرفوا ظاهرا من دينهم وقلموا
عرفوا حدوده وقد سبقت إلى أشعارهم وأشعار الوثنيين أنفسهم كلمات

(١) فتح الباري اسلام أبي ذر ج ٨ •

(٢) تهديد في الفلسفة الإسلامية ص ١١١ •

ومصطلحات كثيرة منه ومن شخوصه وطقوسه فننذ امرىء القيس وقوله :

يضىء سناه أو مصابيح راهب أهان السليط في الذبال المقتل

والشعراء يرددون ذكر الرهبان ومحارب كنائسهم يقول الأعشى :

كدمية صور محرابها بمذهب ذى مرمر مائر

وطالما تحدثوا عن نواقيسهم وقرعها في أواخر الليل يقول المرقش الأكبر في بعض شعره :

وتسمع تزقاء من اليوم حولنا كما ضربت بعد الهدو النواقيس (١)

في ذلك ما يدل ولا سيما قول الأعشى وهو وثنى على أنه كان لديهم بعض معارف عن المسيحية أدخلوها في قصائدهم في بعض وجوه التشبيه أيا كان نوع هذا التشبيه كقول المرقش في جمعه بين اليوم والنواقيس وذلك يبعدها عن منظر المتقديس وخاصة أن اليوم مما يتشاع من العرب .

على أي حال فإن معارفهم عن المسيحية تفاهت اليهم فاستعملوا مصطلحاتها دون نظر إلى اتخاذها عقيدة كما هو واضح من أشعارهم .

وظهرت بوادر لمذهب الجبر والاختيار وذلك لا يكون من شدة وحيدهم يروى صاحب الأغاني (٢) ما نصه :

قال لى : يحيى بن متى رواية الأعشى وكان نصرانيا عباديا وكان معمرًا قال :

— كان الأعشى قدريا .

— وكان ليبيد مثبتا .

قال ليبيد :

من هداه سبل الخير اهتدى ناعم الببال ومن شاء أضل

وقال الأعشى :

استأثر الله بالوفاء وببال وعد وولى الملامة والرجلا

(٢) العصر الجاهلى ص ١٠٠ — ١٠١ دكتور شوقي خليف دار المعارف .

قلت : فمن أين أخذ الأعشى مذهبه ؟

قال من العبادين نصارى الحيرة كان يأتيتهم يشتري منهم الخمر فلقنوه ذلك .

كذلك كانت لهم وجهة نظر في تقسيم القوى الروحية فكان فيها الأرواح الخيرة • مثل الملائكة وكان فيها الأرواح الشريرة مثل الشياطين •

وكانت فكرتهم عن هذه الأرواح انها تحل في ما حولهم من مظاهر الطبيعة • كذلك كانت لهم دراية عن تقسيم الشيء أو الأشياء : الى شيء مقدس ، والى شيء غير مقدس •

أشار الى ذلك القرآن فقال :

« وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا »

فقالوا : هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا •

٢ - موقفهم من الرسالة :

ذهبت الصابئة والبراهمة ومعهم الوثنيون الى القول باستحالة النبوات مراينا في العرب من كان منهم من مال الى مبادئ الصابئة فطعنوا في أصل النبوة وهم الذين حكى الله عنهم أنهم قاتلوا أبعد الله بشرا رسولا •

فان الصابئة لا يجوزون أن يكون الوسيط بشريا انما يجوزونه ملكا فرد الله عليهم بقوله :

وقالوا لولا أنزل عليه ملكا ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون •

ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون •

ولقد استهزئ برسول من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون (١) •

وهناك موقف اليهود والنصارى ومن تابعهم ممن يسلم بأصل النبوة غير أنهم طعنوا في نبوة محمد •

والقرآن مملوء بالرد عليهم • وطعنهم من وجوه :

(١) الروض الاتف ج ٢ ص ٣٣ على سيرة ابن هشام •

تارة بالطعن في القرآن فأجاب الله بقوله : « ان الله لا يستحيى ان يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها » وتارة بالتماس سائر المعجزات كتوله تعالى : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا » .

وتارة بأن هذا القرآن نزل منجما نجما نجما وذلك يوجب تطرق التهمة اليه فأجاب الله بقوله « كذلك لنثبت به فؤادك » .

وهناك موقف من يفكر رسالة محمد على جهة العصبية القبلية حكى الله ذلك بقوله : « لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » .
فرد الله عليهم بقوله : « أهم يقسمون رحمة ربك » .

وهناك موقف أهل عبادة الأوثان والدهريين الذين لا يعرفون جنّة ولا نارا ولا قيامة ولا كتابا مثل الأوس والخزرج .

يقول الشهرستاني : وصنف منهم أقروا بالخالق وابتداء الخلق ونوع من الاعادة ، وانكروا الرسل ، وعبدوا الأصنام ، وزعموا أنهم شفعاؤهم عند الله في الدار الآخرة وحجوا اليها ، ونحروا لها الهدايا وقربوا القرابين ، وتقربوا اليها بالمناسك والمشاعر واحلوا وحرموا . وهم الدهماء من العرب الا شرفة منهم نذكرهم وهم الذين أخبر عنهم التنزيل . « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ؟ الى قوله : ان تتبعون الا رجلا مسحورا فاستدل عليهم بأن المرسلين كلهم كانوا كذلك : قال الله تعالى : « وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق » .

ويقول تعالى : « وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا سحر كذاب اجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشيء عجاب وانطلق الملائكة منهم أن امشوا واصبروا على آلهتهم ان هذا لشيء يراد ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ان هذا الا اختلاق » .

٣ - قضايا الغيب :

ومن العرب من أقر بالخالق واثبت حدوث العالم وأقر بالبعث والاعادة وانكر الرسل وعكف على عبادة الأصنام .

وهم الذين قال الله فيهم : ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى .

قال المسعودى : وهذا الصنف هم الذين حجوا الى الأصنام وقصدوها وتحروا لها البدن ونسكوا لها انفساء واحلوا لها وحرموا (١) .

يقول الشهرستاني : وصنف منهم أقروا بالخالق وابتداء الخلق والابداع وأنكروا البعث والاعادة وهم الذين أخبر عنهم القرآن :

« وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيى العظام وهي رميم ؟ »

فاستدل عليهم بالنشأة الأولى اذ اعترفوا بالخلق الاول . فقال عز وجل : قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ، وقال : أقميينا بالخلق الاول ؟ بل هم فى لبس من خلق جديد .

ومن العرب من يعتقد التناسخ فيقول : اذا مات الانسان أو قتل اجتمع دم الدماغ وأجزاء بنيته وانصب طيرا « هامة » فيرجع الى راس القبر كل مائة سنة وعلى هذا أنكر عليهم الرسول فقال :

لا هامة ولا عنوى ولا صفر (٢) .

يقول الألوسى : عند قوله تعالى : « نموت ونحيا » .

اعادة الروح لبدن آخر بطريق التناسخ وهو اعتقاد كثير من عبدة الأصنام (٣) .

يقول الشهرستاني : وشبهات العرب كانت مقصورة على هاتين الشبهتين :

أحدهما : انكار البعث . بعث الأنام .

والثانية : جحد البعث . بعث الرسل .

(١) مروج الذهب ص ٣٥١ ج ١ .

(٢) الملل والنحل ص ٢٤٥ ج ٢ .

(٣) روح المعاني ج ١ ص ٦٩ .

(٤) لا يرى المسعودى القول بالتناسخ في العرب للاستزادة يراجع ص ٢٨٣ ج ١ من

كتابه مروج الذهب .

فعلى الأولى قالوا : « انذا متنا. وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون أو آباؤنا
الاولون ؟ »

وعبروا عن ذلك في أشعارهم :

حياة ثم موت ثم نشر حديث خرافة يا أم عمرو
ولبعضهم مرثية في أهل بدر من المشركين يقول فيها :

فماذا يا قليب قليب بحر • ترى ماذا تكلل بالسنام
يخبرنا الرسول بأن سنحيا وكيف حياة أصداء وهام

وأما الشبهة الثانية : فكان انكارهم لبعث الرسول صلى الله عليه وسلم
في الصورة البشرية أشد واصرارهم على ذلك أبلغ • واخبر التنزيل عنهم بقوله
تعالى : « وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى الا أن قالوا : بعث الله
بشرا رسولا » • أبشر يهودننا ؟

فمن كان يعترف بالملائكة كان يريد أن يأتيه ملك من السماء • وقالوا
« لولا نزل عليه ملك » ومن كان لا يعترف بهم كان يقول : الشفيع والوسيلة
لنا الى الله هي الأصنام المنصوبة أما الامر والشرعية من الله الينا — فهو
المنكر •

لاحظنا مما سبق تدرجا في مستويات القوى الروحية أو القوى المعبودة
المؤلهة لدى عرب الجاهلية فرأينا قوى روحية عليا معبودة مثل الملائكة
واختلطت صور الملائكة ببعض مثل بشرية أو اخضعوها لتصوراتهم
البشرية •

فقالوا عنها : أنها بنات الله قال تعالى : « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد
الرسم اناثا أشهدوا خلقهم ؟ سكتتب شهادتهم ويسألون » •

ووجدت قوى روحية سفلى في بنى مليح من خزاعة وهم رهط طلحة
الطلحات يعبدون (١) الجن والشیاطین وأنهم كانوا يستخدمونها في كتابتهم

(١) تشككها في رمى الجن •

قال ابن اسحق انه حدث أن أول العرب نزع للرسم بالنجوم — حين رمى بها — هذا الحى

من ثقيف وانهم جاءوا الى رجل منهم يقال له : عمرو بن أمية احدثنى ملاح •

ولهم معها أساطير واتخذوا أيضا منها شركاء لله قال تعالى « وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون » .

ولهم أيضا بجانب ذلك اتجاهات ونفية لا تتفك عن سذاجة الفطرة كعبادة المحسوسات من شجر وحجر وغير ذلك ، ورأينا فيهم على جاهليتهم ووثنيقتهم أنهم يعرفون لفظ الجلالة : الله : وتحدثنا الروابات التاريخية أنهم وجدوه في الكعبة منذ أن بناها إبراهيم ومعه اسماعيل وكانت قريش تعتبره هو المعبود الحقيقي ومظاهرها الوثنية زلفى إليه .

ورأينا فيهم من يتكلم عن الدهر كقوة عظمى تعلو فوق التصور الانساني وعبدوا النيرات من شمس وقمر .. الخ .

« ومع كل هذا لا يوجد في العرب طبقة دينية تختص بأمور الدين » وليس في بلاد العرب ولا سيما في منطقة الحجاز ونجد ، طبقة اكليريكية خاصة انما يقوم مقامها طائفة العرافين والزاجرين والقائمين والسحنة ولم يكن لهذه الطائفة ما يميزها أو يرفعها عن سائر الناس فلا مسحة خاصة مما ولا رتبة ولا فرقة في أساليب المعيشة بينهم وبين أبناء قبيلتهم لهم ما لها وعليهم ما عليها » .

رمزيات أساطيرهم :

الاختلاف في النفس عند العرب في الجاهلية :

يقول المسعودي : كانت للعرب مذاهب في الجاهلية في النفوس وآراء ينازعون في كيفياتها :

= قال : وكان أوهى العرب وأنكرها رأيا — فقالوا له : يا عمرو : ألم تر ما يحدث في السماء من القذف بهذه النجوم . قال : بلى فانظروا فان كانت معالم النجوم التي يهتدى بها في البر والبحر وتعرف بها الاتوار من الصيد لما يصلح الناس في معاشهم هي التي يرى بها بهو — والله — طى الغنى وهلاك هذا الخلق الذي فيها ، وان كانت نجوما غيرها وهي ثابتة على حالها لهذا الامر أراد الله به هذا الخلق لما هو ؟ يضيف السهيلي وقد فعل ما فعلت فكتب بنولهم عند لزعمهم للنرى بالنجوم .

١ — فمنهم من زعم أن النفس هي الدم لا غير ، وأن الروح والهواء الذي في باطن جسم المرء منه نفسه .

ولذلك سموا المرأة منه نفساء لما يخرج منها الدم . ومن أجل ذلك تنازع فقهاء الأمصار فيما له نفس سائلة إذا سقط في الماء : هل ينجسه أم لا ؟
وقال تابط شرا لخاله الشنفري الأكبر وقد سأله عن قتيل قتله . كيف كانت قصته ؟ فقال : ألقمته عضبا : فسأل نفسه سكبا . وقال ان الميت لا ينبعث منه الدم ولا يوجد فيه ، بدأ في حالة الحياة ، وطبيعة الحياة : النماء مع الحرارة والرطوبة ، لأن كل حي فيه حرارة ورطوبة فاذا ما بقى اليبيس والبرد نفيت الحرارة .

وقال ابن براق بن كلعة :

وكم لاقيت ذا نجب شديد تسيل به النفوس على الصدور
إذا الحرب العوان به استهامت وحال ، فذاك يوم قمطيرير

٢ — وطائفة منهم تزعم أن النفس طائر ينبسط في جسم الانسان فاذا مات أو قتل لم يزل مطبقا به متصورا اليه في صورة طائر يصرخ على قبره مستوحشا .

وفي ذلك يقول بعض الشعراء وذكر أصحاب الفيل :

سلط الطير والمنون عليهم . فلهم في صدى المقابر هام

(١) الهامة :

الهامة وهي اليوم وكانوا يعتقدون أن الرجل اذا قتل خرجت من راسه هامة تصيح ، أسقوني أسقوني حتى يأخذ بثأره ، قال ذو الأصبغ العدواني :
اضربك حيث تقول الهامة أسقوني (٢) .

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٣٤ .

(٢) مروج الذهب ج ١ ص ١٣٤ .

ويضيف المسعودى ص ٣٦٩ .

وهى أن تتوحش وتصدح وتوجد أبداً في الديار المعطلة والفواويس وحيث
مصارع القتلى وأحداث الموتى .

ويزعمون أن الهامة لا تزال على ذلك عند ولد الميت في محله بغنائهم
لنعلم ما يكون بعده فتخبره به .

وحتى قال الصلت بن أمية لبنيه هامتى تخبرنى بما تسقشعرون . .
لنتجنب الشنماء والمكروه ولما جاء الاسلام قال : لا هام ولا صفر (١) :
ذكر الزبير ابن بكار أن العرب كانت في الجاهلية تقول : اذا قتل الرجل
لم يؤخذ بثأره خرجت من رأسه هامة وهى دودة فتدور حول قبره فنقول :
اسقونى اسقونى فان أدرك ثأره ذهبت والا بقيت .

يقول شاعرهم :

يا عمر ألا تدع شتمى ومنقصتى أضربك حتى تقول الهامة اسقونى

قال وكانت اليهود تزعم أنها تدور حول قبره سبعة أيام ثم تذهب .

وذكر ابن فارس وغيره من اللغويين نحو الأول الا أنهم لم يعينوا كودها
دودة وقال القزاز : الهامة طائر من طير الليل كأنه البومة . وقال ابن الاعرابي
كانوا يتشائمون بها اذا وقعت على بيت أحدهم :

يقول : نعت الى نفسى أو احداً من أهل دارى . .

وقال أبو عبيد : كانوا يزعمون أن عظام الميت تصير هامة فتطير ويسمون
ذلك الطائر (٢) : الصدى .

ويعبر هذا من فتن اليهود للسيطرة على عرب الجاهلية لأن معنى سبعة
أيام فترة زمنية كافية ليؤلب اليهود مواقع الثأر بين العرب أى على العربى
أن يثار . وبذلك أشعلوا الحرب بين الأوس والخزرج باستغلال تلك المعتقدات
في الواقعة بينهم .

(١) ومعنى الحديث لحياء لهامة من الميت ولا تؤم بالبومة .

(٢) نتج البارى ج ١٠ ص ١٩٧ .

(ب) الغول :

« العرب يزعمون أن الغول يتغول لهم في الفلوات ويظهر لخواصهم في أنواع من الصور فيخاطبونها وربما ضيفوها . وكانت اذا تراعت لهم في الليالي وأوقات الخلوات فيتوهمون أنها انسان فيتبعونها فتزيلهم عن الطريق التي هم عليها وتتبعهم . كذلك اعتقادات ومزاعم في الشياطين والمردة والجن (١) .

يقول المسعودي : ويمكن لجميع ما قلناه مما حكيناه عما ذكرناه من أهل البقاع أن يكون ضربا من السوانح الفاسدة والخواطر الرديئة أو غير ذلك من الآفات والأدوار المعترضة لجنس الحيوان من الناطقين وغيرهم .

(ج) الهوائف والجان (٢) :

أما الهوائف فقد كانت كثرة في العرب ، ومن حكم الهوائف أن يهتف بصوت مسموع وجسم غير مرئي . وقد كانت العرب قبل ظهور الاسلام تقول : أن من الجن من هو على صورة نصف الانسان وأنه كان يظهر لها في أسفارها وحين خلواتها وتسميه شقا :

وذكروا اشخاصا قتلتهم الجن :

— حرب بن أمية .

— عباس بن مرداس (٢) .

ييقول المسعودي :

ان ما تذكره العرب وتنبيء به من ذلك فانما يعرض لها من قبل التوحد في القفار والتفرد في الأودية والسلوك في المهامة الموحشة . لأن الانسان اذا صار في مثل هذه الأماكن وتوحد وتفكر اذا هو تفكر وجل وجبن واذا هو جبن داخلته الظنون الكاذبة والأوهام المؤذية والسوداوية الفاسدة فصورته له الأصوات ومثلت له الاشخاص وأوهمته الحال بنحو ما يعرض لخبوى الوسواس . وأنتج ذلك في رأسه سوء التفكير وخروجه على غير نظام قوى أو طريق مستقيم

(١) مروج الذهب ج ١ ص ٤٠١ المسعودي .

(٢) نفس المرجع ج ١ ص ٤٠٥ .

سليم لأن المنفرد في القفار والمتوحد في الفساور مستشعر للمخاوف مترهم للمتآلف متوقع للحتوف لقوة الظنون الفاسدة على فكرة وانغراسها في نفسه فيتوهم ما يحكيه من هتاف الهواتف به واعتراض الجان له .

ونضيف أن مثل هذه الأشياء تعتبر من لوازم الوثنية ، إذ أن الإيمان في الله موجب لطرح هذه الخواطر الفاسدة .

(د) التطير :

— التطير هو : أنهم كانوا في الجاهلية يعتمدون على الطير فإذا خرج أحدهم لأمر فإن رأى الطير طار يمينه تيمن به واستمر ، وإن رآه طار يسره تشاءم به ورجع .

— وربما كان أحدهم يهيج الطير ليطير فيعتمدها وكانوا يسمونه السائح والبارح .

فالسائح ما ولاك ميامنه بأن يعر عن يسارك الى يمينك ، والبارح بالعكس وكانوا يقيمون بالسائح ، ويتشائمون بالبارح لأنه لا يمكن رميه الا بأن ينحرف اليه .

يقول ابن حجر : وليس في شيء من سنوح الطير وبروحها ما يقتضى ما اعتقدوه (١) .

وانما هو تكلف يتعاطى ما لا اصل له إذ لا نطق للطير ولا تمييز فيستدل بفعله على مضمون معنى فيه . وطلب العلم من غير مكانه جهل من فاعله .

وقد كان بعض عقلاء الجاهلية ينكر التطير ويتمدح بتركه .
قال شاعر منهم :

ولقد عدوت وكنت لا	على واق وحاتم
فاذا الاشمام كالايا	من والأيامن كالاشاتم

وقال آخر :

الزجر والطير والكهان كلهم	مضللون ودون الغيب أقفال
---------------------------	-------------------------

(١) فتح الباري ص ١٧٤ ج ١٠ .

وقال :آخر :

بـل شيء يوافق بعض شيء أحايينا وباطله .كثير

يقول لبيد (١) :

لعفرك ما قدرى الضوارب بالحصي ولا زاجرات الطير ما الله صانع؟
سلوهن ان كذبتمونى متى الفتى يذوق الثنايا أو متى الغيث واقع؟

يقول ابن حجر : وبقيت من ذلك بقايا في كثير من المسلمين .

يقول أبو هريرة : اذا تطير ثم فامضوا وعلى الله فتوكلوا .

عن أبي الدرداء : لن ينال الدرجات العلا من تكهن أو استقسم أو رجع

عن ابن مسعود : الطيرة شرك (وما منا الا تطير ولكن الله يذهب به

بالتوكل) من كلام ابن مسعود .

قال ابن حجر : وانما جعل ذلك شركا لاعتقادهم ان ذلك يجلب نفعا

أو يدفع ضرا فانهم أشركوه مع الله .

وعن عبد الله عمر :: من عرض له من هذه الطيرة شيء فليقل : اللهم

لا طير الا طيرك ولا خير الا خيرك ولا اله غيرك .

ومن علاج التطير الفأل :

يقول أبو هريرة عن الرسول : لا طيرة وخيرها الفأل : وقال : وما الفأل ؟

قال : الكلمة الصالحة يسميها أحكم .

وقال عن أنس : ويعجبني الفأل الصالح والكلمة الحسنة .

قال ابن بطال : جعل الله في فطر الناس محبة الكلمة الطيبة والأنس

بها كما جعل فيهم الارتياح بالمنظر الانيق والماء الصافي وإن كان لا يملكه

ولا يشربه .

الفرق بين الفأل : والتطير :

— الفأل من طريق حسن الظن بالله .

(١) ديوان لبيد ربعة العامري ص ٩٠ دار هجر .

— والطيرة لا تكون الا في السوء وفيها سوء ظن بالله بغير سبب محقق
وذكر البيهقي في الشعب عن الحلیمی ما ملخصه .

كان القطير في الجاهلية في العرب ازعاج الطير عند ارادة الخروج
للحاجة وكانوا يتطيرون بصوت الغراب وبمرور الظباء فسموا الكل تطيرا
لأن أصله الأول .

قال : وكان التشاؤم في العجم اذا رأى الصبى ذاهبا الى المعلم
تشاعم أو راجعا تيمن : . الخ فجاء الشرع يرفع ذلك كله وأسند التدبير الى
الله (١) .

(هـ) الكهانة :

الكهانة : ادعاء علم الغيب كالأخبار بما سيقع في الأرض مع الاستناد
الى سبب .

والكاهن : لفظ يطلق على :

- ١ — العراف الذي يضرب بالحصى — والمنجم .
- ٢ — ويطلق على من يقوم بأمر آخر ويسعى في قضاء حوائجه .
- ٣ — وقال في المحكم : الكاهن : القاضي بالغيب .
- ٤ — وقال في الجامع : العرب تسمى كل من أذن بشيء قبل وقوعه
كاهنا .

— الكهنة :

- ١ — قال الخطابي : الكهنة قوم لهم أذهان حادة ونفوس شريرة وطباع
نارية .
- وكانت الكهنة في الجاهلية فاشنية خصوصا في العرب لانقطاع النبوة
فيهم .

اصناف الكهانة : منها :

- ١ — منها ما يخبر الجلى به من يواليه بما غاب عن غيره مما لا يطلع

(١) يراجع فتح الباري ج ١٠ ص ١٧١ ، والسيرة الحلبية للاستزادة ج ١ ص ٦٥ .

الانسان عليه غالبا أو يطلع عليه من قرب منه لا من بعد .

٢ — ما يستند الى ظن وتخمين وحس فهذا قد يجعل الله فيه لبعض الناس قوة مع كثرة الكذب فيه .

٣ — ما يستند الى التجربة والعادة فيستدل على الحادث بما وقع قبل ذلك وقد يعضد في بعضهم بالزجر والطرق — والفجوم (١) .

وكل ذلك مذموم شرعا عن أبي هريرة : من أتى كاهنا أو عرافا فصحقه

بما يقول فقد كفر بما نزل على محمد .

وعن ابن مسعود : من أتى عرافا أو ساحرا أو كاهنا فقد برىء مما نزل على محمد .

قال القرطبي : كانوا في الجاهلية يترافعون الى الكهان في الوقائع والأحكام ويرجعون الى أقوالهم وقد انقطعت الكهانة بالبعثة المحمدية ، لكن بقى في الوجود من يتشبه بهم وثبت النهى عن اتيانهم فلا يحل اتيانهم ولا تصديقهم .

قال ابن اسحاق : الأحبار من اليهود ، والرهبان من النصارى ، والكهان من العرب ، ويربطون انتهاء الكهانة بقوله تعالى : « وانا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا » .

وتحدث عن الكواكب بقوله : « وجعلناها رجوما للشياطين » .

من الكهان :

١ — صاف بن صياد ، كان يتكهن ويدعى النبوة وينسبون اليه أنه تكلم مع الرسول . وينسبون اليه أنه قال فيه : اخسا فلن تعدو قدر الله نيك .

٢ — الغيطلة الكاهنة بنت مالك بن الحارث : وينسبون اليها أنها قالت : شعوب ما شعوب تصرع فيه كعب لجنوب . وهو كعب بن لؤى .

(١) تلح البارى ج ١٠ ص ١٧٧ .

٣ - فاطمة بنت النعمان النجارية : كان لها تابع من الجن ويزعمون أن تابعها إذا جاءها اقتحم عليها بيتها ، وفي أول البعث جاءها وقعد على حائط الدار فقالت له لم لا تدخل فقال قد بعث نبي بتحريم الزنا .

٤ - أخطر ابن مالك من أعلم الكهان وعنده علم الفجوم ينسبون إليه :

يا معشر بنى قحطان	أخبركم بالحق والبيان
أقسمت بالكعبة والأركان	والبلد المؤتمن السدان
لقد منع السمع عتاة الجان	بثاقب بكف الشأن ذى سلطان
من أجل مبعوث عظيم الشأن	يبعث بالتنزيل والقرآن
بالهدى وفاصل القرآن	تبطل به عبادة الأوثان

فقالوا : وماذا ترى لقومك فقال :

أرى لقومي ما أرى لنفسى	أن يتبعوا خير نبي الانس
برهانة مثل شعاع الشمس	يبعث في مكة دار الحمس
بمحكم التنزيل غير اللبس	

فقلنا يا أخطر من هو :

فقال : والحياة والعيش ، انه لمن قريش ، ما في حلمه طيش ، وما في خلقه طيش . . أخبرني به رئيس الجان .

١ - ويقال أن جنيا من بطن اليمن كان لهم كاهن في الجاهلية سألوه عن الرسول عندما انتشر أمره بين العرب فقال :

أيها الناس إن الله أكرم محمدا واصطفاه .

وجنب هم من مذبح وهم : عبد الله ، وأنس الله ، وزيد الله ، وأوس الله

قال ابن اسحاق : وكانت الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى وكلها من العرب قد تحدثوا بأمر الرسول قبل مبعثه لما تقارب من زمانه .

— أما الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى ، فمما وجدوا في كتبهم

من صفته وصفة زمانه وما كان من عهد أنبيائهم فيه .

— وأما الكهان من العرب : فأتقهم به الشياطين من الجن فيما تسترق من السمع اذ كانت وهمى لا تحجب عن ذلك بالقصف من النجوم. وكان الكاهن والكاهنة لا يزال يقع منهما ذكر بعض أموره لا تلقى العرب لذلك فيه بالآلاف.

(و). السحر :

من صفات اليهود وليس من صفات العرب .

قال الراغب (١) : السحر يطلق على معان :

١ — أحدهما ما لطف ودق ومنه سحرت الصبى خادعته واستملته ومنه اطلاق الشعراء : يسحرون العيون لاستمالتها النفوس . ومنه قول الأدياء الطبيعية ساحرة .

٢ — الثانى : ما يقع بخداع وتخيلات لا حقيقة لها نجوما يفعلها المشعوذ من صرف الأبصار عما يتعاطاه بخفة يده . وإلى ذلك أشار قوله تعالى : يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى . وقوله : سحروا أعين الناس .

٣ — الثالث : ما يحصل بمعاونة الشياطين بضرب من التقرب اليهم وإلى ذلك أشار قوله تعالى : ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ٤ — الرابع : ما يحصل بمخاطبة الكواكب واستئزال روحانياتها بزعمهم :

والسحر يطلق ويراد به :

١ — الآلة التى يسحر بها .

٢ — ويطلق ويراد به : فعل السحر .

الآلة التى يسحر بها قد تكون معنى من المعانى : كالرقى والنفث فى العقد وقد تكون من المحسوسات : كتصوير الصورة على المسحور وتارة تجمع الأمرين وهو أبلغ .

والسحر : تخييل فقط ولا حقيقة له .

(١) مفردات القرآن مادة سحر .

وقال النووي : انه له حقيقة (١) .

والذى قال تخييل جعله انقلاب عين . والذى جعله حقيقة جعل له
تأثيرا على المزاج فيكون نوعا من الأمراض أو تأثيرا باحالة يتحول الجماد
حيوانا .

ونحن نرى أن ما يتبع منه لا يخرج عن كونه خيالات باطلة ، ولما
كان السحر يشبه خوارق العادات رأى العلماء أن يفرقوا بينه وبين غيره من
الكرامة والمعجزة .

١ - السحر يكون بمعاننا أقوال وأفعال حتى يتم للساحر ما يريد ،
وقال الجوينى نقلا بالاجماع على أن السحر لا يظهر الا من فاسق . وقال
القرطبي : كذلك « السحر » حيل صناعية يتوصل اليها بالاكتمساب غير
أنها لدقتها لا يتوصل اليها الا آحاد الناس ، وحده الوقوف على ظواهر الأشياء
وأكثرها تخييلات بغير حقيقة ، وإيهامات بغير ثبوت .

الكرامة : لا تحتاج إلى ذلك من أقوال الناس أو أفعالهم أو تعلم انما تقع
غالبا اتفاقا وأنها لا تظهر ، على فاسق .

المعجزة : مثل الكرامة غير أنها تمتاز عنها بالتحدى .

والسحر : يرجع الى اليهود منذ نبى الله سليمان وظهوره في جزيرة العرب
مرتبط باليهود .

قال النووي : عمل السحر حرام وهو من الكبائر بالاجماع .

قال صاحب المحيط : وأما في زماننا الآن فكل ما وقفنا عليه في الكتب
فهو كذب وافتراء لا يترتب عليه شيء ولا يصح منه شيء البتة وكذلك العزائم
وضرب المتدل . والناس الذين يعتقد فيهم أنهم عقلاء يصدقون بهذه الأشياء
ويصغون الى سماعها .

قال : وقد رأيت بعض من ينتمى الى العلم اذا أفلس وضع كتباً وذكر
فيها أشياء من رأسه وباعها في الأسواق بالدراهم الجيدة .

قال في فتح الباري (١) :

شرح : لا عدوى :

البرهان العقلي والحسي : رد على قول أن المرض يعدى بطبيعته عقيدة الطبيعيين يجوز مشافهة من وقعت له شبهة في اعتقاده بذكر البرهان العقلي إذا كان السائل أهلا لفهمه .

وأما من كان قاصرا فيخاطب بما يحتمله عقله من الاقتناعات .

وقول الرسول لا عدوى نفى لشبهة وقع فيها الطبيعيون أولا والمعتزلة ثانيا :

فقال الطبيعيون : بتأثير الأشياء بعضها في بعض وإيجاد أياها وسموها المؤثر طبيعة .

وقال المعتزلة : ينحو من ذلك في الحيوانات والمتولدات وإن قدرهم مؤثرة فيها بالإيجاد وأنهم خالقون لأفعالهم مستقلون باختراعها .

واستند الطائفتان : إلى المشاهد الحسية ونسبوا من أنكر ذلك إلى إنكار البديهة . وغلط من قال منهم غلطا فاحشا لالتباس إدراك الحس بإدراك العقل، فإن المشاهد إنما هو تأثير شيء على آخر وهذا حظ الحس فأما تأثيره فهو حظ العقل .

فالحس إدراك وجود شيء عند وجود شيء وارتفاعه عند ارتفاعه . أما إيجاده به للحس فليس للحس فيه مدخل .

فالعقل هو الذي يفرق فيحكم بتلازمهما عقلا أو عادة مع جواز التبديل عقلا .

على أي حال فإن تعدد الخرافات وتنوعها شغلت كاهل الوثني وشنت فكره .

وكنا نرى في ذلك سببا وراء عدم ظهور وحدة القصيدة في قصيدة الشاعر الجاهلي مضافا إليه تأثير الشاعر ببيئته القبلية أي كان مجتمعه تحكمه أنظمة قبلية شتى ، ومن جانب آخر عدم وجود وحدة تجمع بينه وبين أديانه المتعددة

أضف ذلك كله الى شخصية الشاعر التي وقعت تحت ذاتية منغلقة ، بسبب ذلك كله وقع الشاعر تحت مؤثراته البيئية التي لهم تشعره بضرورة وحدة القصيدة .

تعقيب

سوف يكون تحليلنا لهذه الرمزيات من خلال أثرها على العربى وأثره عليها ، حينما أبدعها خياله : كان يرى فيها نوعا من المناسبة بين مكوناته النفسية وبين ما هو كامن في طبيعة صحرائه من سعة لا حد لها تشعره بتضاؤله فيها وجفاف في قسوة ، الى احياء تسوده رهبة .

فهو مثلا يرى في التطير أن اتجه الى التجارة نوعا من فهم سبيله فهو يرى في ميامنها تفاؤلا : يدفعه لوجهته وفي مياسرها تشاؤما : يدفعه ليعدل عن وجهته .

تبعا لمعتقدده هذا نراه يتجاوب فكريا مع أى معنى يوحى اليه من خلال ميامن الطير أو مياسرها ، ربما كان ذلك من وجهة نظرنا — محاولة من العربى يفك بها لغز الكون بعد ما بات يحس من نفسه ضعفه أمام لغزه بالرغم من شجاعته المشهود له بها في شعره .

كذلك يرى فيها : دلائل عرفان نحو مستقبله فخوفه من المستقبل دفعه نحو تلك الأشياء ليفهم بها مكامن الجهول ، وعلى أى حال انها في رمزياتها محاولات خفف بها عن نفسه عبء اليأس من عدم فهمه للوجود وأبعدت عنه فكرة الافتحار الذى قد يكون حلا قانطا وسلبيا لمشكلة اليأس من عدم فهم مستقبله ، والعربى حين بدأ يفكر فليس بدعا من بداية الفكر الانسانى في طفولته « كان الفكر الانسانى في طفولته يتفتح لرؤية الكون الهائل تفتحا مشفوعا بالعجب والهيبة »^(١) وكانوا يودون من مغزى هذه الرموز أن تكفيهم شر الحياة المادية الخبيثة وذلك لما يرون فيها من معايير مقدسة يفرعون اليها ان الم بهم شيء أو هموا الى شيء .

وبالرغم من أنها تصورات خيالية فانها توقفت على شيء ذى بال في

(١) سيرة تاريخ ونن ص ٢٢ د . ماهر حسين نهى مكتبة النهضة .

حياة العربى النفسية والدينية : فانها من الناحية النفسية تفسر لنا مثيرات افعالاته وعواطفه ، وبها ايضا نستطيع ان نفسر مكوناته الشخصية ومؤثراتها الخارجية ، فمن طريق هذه المعتقدات يتسع لنا المجال لاستبطان احساسه الداخلية وتقدير طموحه فى حياته البهامة .

ومن الناحية الدينية تفسر لنا اثر المعتقد على الانسان لما لها من معنى مقدس فى نفس العربى لا يجد فى نفسه متسعاً لمخالفتها فينكرها ومظهر تقديسها يظهر فى أنه تصورهما على هيئة قوى روحية على شكل طيور ليتناسب طيرانهما مع صحرائه — ولها قدرة الايحاء اليه أمراً أو نهياً مع التزامه بطاعتها فى كلا الحالتين .

وفى هذا رؤية رمزية للكون تتناسب مع فكر لما يزال فى دور الطفولة ويلازم فكرة التشاؤم والتقاؤل من احساس العربى بتأثيرهما عليه نظرية انقسام الروح الى خيرة وشريرة أى بعضها يختص بالخير وبعضها يختص بالشر . يمنح العربى هذا كله معنى المعرفة يستوحى منها مظهر الخير فى مستقبل حياته . وليست فكرة الخير لديه — كما نتصور — رفيعة فى معناها انما كانت فكرة رديئة رداءة رمزها : فهو يرى فى قول الهامة اسقونى من دم قاتلى : دعوة خير بينما الهامة وقولها يتشابهان فى الرداءة ، لكنها مع ذلك هى من دلائل الخير عند العربى صاحب الثار .

ولعل الذى جعل فكرته عن الخلود باهتة الألوان ما كابده من شظف العيش وما يمسه فى حياته من لغوب ومن جفاف فى صحرائه لعل فى ذلك مقنعا للعربى فى عدم خلق أساطير يرمز بها الى البحث عن فكرة الخلود ، وكيف يبحث خلوده وربما يكون مكان بعثه لا يبعد عن صحرائه أو يناظرهما فى القسوة والجفاف . على أى حال كانت كل معتقداته الرمزية تنبى عن معنى خوفه :

— خوفه من العار : وأد البنات وثار .

— خوفه من خسارة فى رحلته التجارية : لجأ الى التطير .

فصفة الخوف من المستقبل هي الغالبة على الروح العربية لذلك ، نرى شجاعة العربى فورة حماسية أو نزوة عصبية تشعلها كلمة وتطفئها أخرى .

فشجاعة الخوف : توترات عصبية من غير تركيز منه على الهدف وقيمه .

ومن هنا كانت فكرته العقلية عن الأشياء غير مركزة وغير ثابتة قد يضل عن مضمونها ان فاوض أو ناقش أو يتسرب معها في مسارها دون وعى منه بميز به بين ما هو ضرورى وأساسى فى القضية المطروحة وبين ما هو فيها من باب الطرافة . أو قد يصرفه عن مناقشة القضية كلمة غامزة يقولها : خبيت ذكى دون أن يفتن الى خبثه ، وقد بصرفه بها عن مناقشة القضية دون أن يلتفت الى حقيقة الدور الذى حوله ، وأما اذا كانت نتيجة المناقشة سوف تنتهى الى جانب العربى فستثار العربى لينهى بنفسه دوره ثم أخيرا يتحمل مسئولية عمله بينما هو مدفوع اليه .

وفى النهاية : فان الاوهام والعقائد الشعبية وأعمال السحر التى كانت المركز الأساسى لدائرتهم الثقافية كانت تعمل دائما على قهرهم اذا حاولوا فهم وجودهم أو تغيير علاقاتهم الاجتماعية من مستواها القبلى الى مستوى انسانى ، فلما جاء الاسلام عصف بتلك الروح وأحل فيهم روحه الغامرة بالحياة . وكان من أرفع ما قدمه الاسلام أن ربط كتابه بالعقل الانسانى ، وأزال ما يعوق تفاهمه مع العقل ، وكان أهم ما يعوق رحلة التفاهم بينه وبين الدين وجود طبقة دينية اكليزيكية ترى فى نفسها : امتياز دينيا يؤهلها للوصاية على لغة التفاهم بين العقل والقرآن .

« وقد دمغ القرآن بالشرك الذن اعطوا سلطة التشريع المطلق لبعض البشر من رجال آديان الذين بدلوا كلمات الله ، وغيروا شرع الله فأحلوا ما حرم الله وحرّموا ما أحل الله افتراء على الله ، وفى هذا يقول فى شأن اهل الكتاب : « اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا الا ليعبدوا الها واحدا لا اله الا هو سبحانه عما يشركون » . اعتبر القرآن : هؤلاء الاحبار والرهبان اربابا وآلهة معبودين من دون الله

وما كانت عبادتهم الا طاعتهم في احلال ما حرم الله وتحريم ما أحل الله ، أى أعطاهم حق التشريع فيما لم يأذن به الله تعالى كما فسر ذلك النبي صلى الله عليه وسلم لعدي بن حاتم الطائي .

فقد كان عدي تنصر في الجاهلية فلما دخل على النبي صلى الله عليه وسلم - وهو يقرأ هذه الآية من سورة التوبة « اتخذوا احبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » قال يا رسول الله : ما كنا نعبدهم « كأنه حصر مفهوم العبادة في الركوع والسجود والصلاة ونحوها » فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ألم يكونوا يحطون لكم الحرام فتحطوه ويحرمون عليكم الحلال فتحرموه : قال : بلى ، قال فتلك عبادتكم اياها (١) .

فكان موقف القرآن من الطبقة الاكليريكية واضحا وفيه عنف لأن وجود مثل هذه الطبقة يعمل دائما على شل العقل عن وظيفته وعلى تغيير مفهوم المقدس وهو ما عناه الرسول بقوله : ألم يكونوا يحطون لكم الحرام فتحطوه ويحرمون عليكم الحلال فتحرموه قال : بلى ؟

قال الرسول : فتلك عبادتكم اياهم .

أما بعد :

ففى القرآن ثلاث آيات متفرقات فى ثلاث سور مدنية تناولت موضوعا واحدا هو : الحياة الاعتقادية السائدة فى العالم ابان ظهور الاسلام من خلال مستوى مذاهبهم الدينية وكما فصلنا القول من قبل .

الآية الأولى من سورة البقرة آية ٦٢ يقول الله فيها :

« ان الذين آمنوا والذين هادوا والنجارى والصابئين : من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا . فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

الآية الثانية : من سورة المائدة آية ٦٩ يقول الله فيها :

« ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنجارى من آمن بالله

(١) الخصائص العامة للاسلام . د . يوحنا العزضاوى .

واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

الآية الثالثة : من سورة الحج آية ١٧ يقول الله فيها :

« ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ان الله على كل شئ شهيد » .

نلاحظ ان القرآن عدد فيها الكثير من الملل والنحل القديمة — رعاية منه للجانب التاريخي — ثم عرض لبعضها بالنقاش ، وفصل من قضاياها ما شاء ان يفصل ، وأعرض عن البعض — في بعض مسائله — اذا كان مداره قائما على التقليد الساذج الذي لا يراعى فكرا ولا يراعى جانب العقل مثل هذه الملل يعرض عنها القرآن وحسبه فيه ان يردّها الى التقاليد وهو اذ يردّها الى التقاليد يكون قد أصاب النقء .

وكان الهدف الأساسي من منهج القرآن الجدلي لهذه الملل ، هو السعى بذويها الى نتيجة محددة هي : الايمان بالله وحده وتنزيهه .

واقترضاء سعيه الى تلك القضية المحددة ، أن يرفع دور العقل ووظيفته ويحط من شأن التقليد مزدريا لياه وكان ذلك منه بخطى معينة ومحددة لأن الحياة الاعتقادية التي أشاعتها هذه الأديان : كان مجال التفكير فيها محدودا ضيقا ، والانسان معها : كان متزمتا ، فبسبب مجال التفكير المحدود الضيق — من السيطرة الكاملة لهذه المذاهب المتزمتة عليه — اتخذ القرآن خطواته نحو رفع القيمة العملية للبحث والنقد وكانت خطواته معها متأنية مترفة غير أنه لا لين فيها .

يلاحظ ذلك من الآيات السابقة ، فمرة يقول : ان استجابوا للايمان » لهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . ومرة يقول « لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

والثالثة الأخرى : ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ان الله على كل شئ شهيد . ويغلب على ظني — والأمر يحتاج الى توقيف — أن ترتيب نزول الآيات هو :

آية البقرة أولا . وآية المائدة ثانيا . وآية الحج ثالثا .

وان صح هذا وخاصة أن هذه السور منفية ، يمكن اعتبارها نمونجا تطبيقيا — من بين نماذج كثيرة حفل بها القرآن — في هذا المقام بالذات لنوع من الجدل المتدرج نحو غايته . وكنا نلاحظ من خلال تفصيل القرآن للاديان القديمة والنحل : منهجا سار عليه — ازاء تلك المعتقدات القديمة — حين ردها على كثرتها الى مبدأ التقابل ، فمن كان معتقده عن كتاب يداخل مع اهل الكتاب الذين تعلموا من كتب السماء التي حرفت ، يتقابلون مع الأميين الذين التمسوا تعليمهم من غيرهم بعيدا عن كتب السماء تقليدا . وهذا معا يتقابلون مع الذين آمنوا بالدين الخالص وهو دين الله « لا إله الا الله » الخالص .

مصر الجديدة في ١٩٨٣

دكتور

محمد ابراهيم الفيومي

ملحق على هامش الأخبار العربية

- * العربي والعبري •**
- * من مظاهر اشتراكهما ((ايل)) •**
- * من الأخبار السمرية المكتشفة •**
- * رسالة الجاحظ في النصارى •**

١ - العبري والعربي :

لا شك أن بين لفظ العبري والعربي وحدة من حيث الحروف وعددها وأسمائها وأجناسها ومن حيث المعنى أيضا فهما يطلقان على البدو الرحل ومن حيث الرقعة الجغرافية فانهما واحدة من تباعد الأطراف بينهما ومن حيث الاتجاه الفكري الديني فان في مكة الحرم المقدس وفي فلسطين المسجد الأقصى ومقدسات دينية أخرى . ومن حيث النسب فان العرب أمة اسماعيل أو اسماعيل واليهود أمة اسرائيل فكلنا أمة (ايل) وفي هذا ما يجعلني أتساءل هل الأصل في النطق هو العبري أو العربي بمعنى : أن الأصل هو العربي ثم هاجرت قبائل فنطقتة : عبري ، أو أن الأصل هو عبري ثم نطق على السنة من هاجر عربي ، قد يكون شيئا من هذا كان .

يقول د . سوسة : (١)

ويبدو لنا لأول وهلة عندما يرد ذكر العبري والعربي أن هناك تقارباً وثيقاً في اللفظ بينهما حتى انه يقرأى للمرء ان الكلمتين تكادان تكونان كلمة واحدة ومن أصل واحد . الا أن السؤال الذي يرد الى الذهن هو أي اللفظين مشتق من الآخر ؟ . فالاستاذ عبد الحق فاضل الذي كتب مقالا في سومر عنوانه « عربي ، آرامي ، عبري » (٢) ثم ألحقه بكتاب عنوانه « مغامرات لغوية » طبع في بيروت (بلا تاريخ) يرى أن العربية والآرامية والعبرية مشتقة من أصل واحد من كلمة واحدة هي العربية باعتبارها أم اللغات السامية وأكثرها شبيها باللغات السامية المتطورة . والذي يهمنا هو «العبرية» و « العربية » فهو يذهب الى أن اشتقاق العبري من العربي كان بطريق القلب على حد تعبيره ، ويضيف الى ذلك قوله : « وما أكثر ما صنعت العرب من ذلك منذ أقدم عهودها » (٣) ونحن مع ترجيحنا رأيه القائل بأن العبري

(١) العرب واليهود

(٢) سومر ، ١٤ ، ١٩٥٨ ص ١٨٠ - ١٨٨

(٣) عبد الحق فاضل مغامرات لشعوبه بيروت بدون تاريخ ص ٣١

(م - ٢٠ الفكر الديني)

والعبري من أصل واحد ومن كلمة واحدة ، الا أننا لا نتفق واياه بأن العبري مشتق من العربي اذ نرجح عكس ذلك ، أى أن العربي مشتق من العبري وذلك نتيجة تقديم وتأخير في اللفظ . ودليلنا على ذلك هو التسلسل الزمني، فأى اللفظين جاء ذكره قبل الآخر ، هل هو العربي أم العبري ؟ ..

لقد سبق أن أشرنا الى ان اقدم ذكر لكلمة « العبري » « الخبيرو » « والهبري » « العبري » يرجع الى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، حيث ورد هذا اللفظ مرات كثيرة في رسائل العمارنة وكان يقصد به عرب البادية أو البدو الرحل ، ومما لا شك فيه أن استعمال هذا اللفظ بهذا المعنى كان قبل ذلك بكثير . أما لفظة « عربي » ، فاقدم ذكر لها ورد في الكتابات الآشورية اذ وردت أول اشارة ثابتة الى العرب في نقش للملك الآشوري شلمنصر الثالث (٨٥٩ - ٨٢٤ ق م) الذي قام بحملة على ملك دمشق عام ٨٥٤ ق م ثم وردت في كتابات أخلاف شلمنصر (١) وقد سمي ملوك بلاد العرب بملوك « العربي » كما أطلقت كلمة « العريبي » على الآراميين والأدوميين أيضا مما يدل على أن الآشوريين كانوا يعودن الآراميين والأدوميين من العرب كما هو واقع الحال . وقد مرت بنا الاشارة الى مقال بعنوان « العبري ، العبيرو والعربي » نشر في إحدى المجلات ، لم يتيسر لنا الاطلاع عليه ،

(١) لقد أشار الدكتور جواد علي في كتابه « تاريخ العرب قبل الاسلام ج ١ ص ١٦١ أن أول اشارة الى العرب وردت في نص أرشوري يعود الى أيام الملك شلمنصر الثاني ملك آشور معتمدا في ذلك على ماركولبات والدكتور حتى ودائرة المعارف اليهودية الا أن شلمنصر الثالث كما بينا اعلاه . ويظهر ان الدكتور جواد علي قد صحح هذا الخطأ في كتابه الاجرود المفضل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج ١ ص ٥٧٤ حيث ذكر ان أول اشارة الى العرب ترجع الى زمن شلمنصر الثالث كما بينا اعلاه . ويظهر أيضا ان الدكتور حتى هو آخر قد صحح نفس الخطأ في الطبعة الاخره من كتابه تاريخ العرب « المطول » الطبعة الرابعة ١٩٦٥ ج ١ ص ٤٥ ونواد ان نرجى شكرنا الى الاستاذ طه باو بمصلنا الى هذا الخلاف .

والأرجح أنه يتناول بحث نفس الموضوع الذي نحن بصدده ، ومما يذكر في هذا الصدد أن العلماء اختلفوا في كيفية نقل كلمة « عربى » من النصوص الآشورية .

وهذا مما يزيد الاحتمال بأن كلمة عربى تحريف للعبرى بالتقديم والتأخير . وقد وردت تسميات العرب ، وملوك العرب ، وبلاد العرب ، الأعرابى ، في العهد العتيق « التوراة » (١) ويؤيد الدكتور ولفنسون ارتباط المصطلح عربى ، بكلمة ، عربى ، بقوله « ويلاحظ أن كلمة عربى ترتبط بكلمة عربى ارتباطا لغويا متينا لأنهما مشتقان من أصل واحد وتدلان على معنى واحد » . ان كلمة عربى تؤدى المعنى الذى تؤديه كلمة عربى نفسها أى أن العبريين هم قبائل رحل كانت تنتقل بخيامها وابلها من مكان الى مكان وكان هذا الاسم يطلق على بنى اسرائيل (أبناء يعقوب) والقبائل الرحل كانت في جهات طور سيناء وبادية سورية وفلسطين (٢) .

من مظاهر الاشتراك : ايل :

يبدو أن « عربى وعبرى » تفرعا من لغة واحدة هي اللغة الأكديّة التي كانت تستخدم في كافة أنحاء فلسطين وما يحيط بها في الألف الثاني قبل الميلاد كلغة مشتركة في العالم الأدبى كله تقريبا لوجود ظواهر مشتركة . وفي اللغة العربية كلمات معربة من أسرة واحدة لها نفس النطق في العبرية :

* طير ابابيل :	* اسماعيل
* سرابيل	* عزرائيل
* سلسبيل	* جبرائيل
* جنزبيل	* ميكائيل
* شرحبيل	* اسرافيل
* قطربيل	* عبيداليل
* اسرائيل	* سجيل

(١) حز ، ٢٧ : ٢١ — آر ، ٣ : ٤ . ، ٢٥ : ٢٢ :: ٤ أسن ، ١٢ : ٢١

(٢) تاريخ اللغات السامية ص ٧٨ ، ١٦٤ .

مثل هذه الكلمات على ما يبدو من نطقها أنها تتردد الى لغة واحدة وترجع الى عائلة واحدة في التراكييب اللغوية .

ويبدو أنها ذات صلة بنطق (ايل) وهو الله في نطقه العربى أو على نطق اللغة التى نطق بها نبي الله ابراهيم سواء تسمى لغة اكدية أو نبطية . . الخ .

يقول الشيخ رشيد رضا : (١)

من آلهة الكلدانيين (آل) وهى كلمة سامية عرفت فى اللغة العربية والسريانية والعبرانية . قال صاحب القاموس : والآل الربوبية واسم الله تعالى . وكل اسم آخره (آل وايل) فمضاف الى الله تعالى . وقال آل المريض والحزين يئىل ألا واللا أن وحن ورفع صوته بالدعاء . وقال فى مادة (اى ل) : ايل بالكسر اسم الله تعالى . وفى لسان العرب بحث فى كون الايل من أسماء الله تعالى ولكنه نقله عن ابن سيده ثم قال : والآل الربوبية ، والآل بالضم الأول فى بعض اللغات وليس من لفظ الأول . ثم قال فى (ايل) : من أسماء الله عز وجل عبرانى أو سريانى ثم نقل عن ابن الكلبي أن جبرائيل وشراجيل وأشباهما كشرحبيل تنسب الى الربوبية «لأن ايل لغة فى آل وهو الله عز وجل كقولهم عبد الله » أقول ونقل مثله من أسماء العرب ، ونقل عن أبى منصور أنه لا يجوز أن يكون ايل عرب فقليل آل ثم قال فى مادة (اله) وقد سمت العرب الشمس لما عبدوها آلهة ، والآلهة الشمس الحارة حكى عن ثعلب ، والآليهة والآلهة (بالفتح والكسر) والآلهة (مضمومة الهمزة غير معرفة) لله الشمس . . الخ ثم ذكر أن : الآلهة والآلوهة والآلوهية العبادة . وذكر عند تفسير الآله بالمعبود فى أول المسادة قولهم : اله بين الآلهة والآلهية والآلهانية وأن أصله من اله يآله (من باب علم) إذا تحير .

هذا وإن دل دلالة مادة اله على العبادة والمعبود سامية قديمة منقولة عن الكلدانيين وغيرهم . قال البستاني فى دائرة المعارف عيد تعريف اسم (الله) بأنه اسم للذات الواجب الوجود المستحق لجميع المحامد — أى كما قال علماء المسلمين — وهو بالعبرانية الوهيم بصيغة الجمع تعظيما لا تكثيرا ،

وقد يطلق على غير الله ، ويهوه أى الكائن وهو خاص به تعالى . وايل أى
القدير ، وبالسريانية الوهو وبالكلدانية ألاها .

وفى تواريخ المتأخرين المؤيدة بالعاديات (الآثار القديمة) أن أعظم أرباب
الكلدانين وآلهتهم (ايل - أو - ال) فهو رب الأرباب وأصل الآلهة ، وليس
له تمثال ولا صورة فى معابدهم . والظاهر أنهم كانوا يعتقدون مما ورثوا
من دين نوح عليه السلام أنه منزّه عن صفات الخلق وتخيلاتهم . وروى
ديودورس عن فيلو أنه مرادف لزحل . ولا يصح هذا إلا ان يراد بزحل أبو
المشتري كما قيل وقد أشاروا الى الايمان به فى عصور قدماء ملوكهم ، ومما
قالوا عنه فى أقدم الخرائط أنه أولد ولدين (انا ، وبيل ، وانا) هذا هوراس
(الثالث) الكلدانى . وقيل أن هذا الاسم بمعنى اسم الجلالة (الله)
ويقولون أنو اذا كان فاعلا وأنا اذا كان مفعولا وانى اذا كان مضافا اليه .
ومن ألقابه عندهم — القديم والرأس الأسمى وأبو الآلهة ورب الأرواح
والشياطين وملك العالم الأسفل وسلطان الظلام أو رأس الموت ، ووجدت
آثار عبادته فى مدينة (آراك) وهى الوركاء . قال ياقوت : الوركاء موضع
بناحية اروابى ولد به ابراهيم الخليل عليه السلام . وقد بنى أحد ملوكهم
معبدا لابنه (قول) فى آشور سنة ١٨٣٠ قبل المسيح فصار اسم هذه
المدينة بعد ذلك (تلان) وأصله (تل انا) وجاء ذكره فصار اسم هذه
المدينة بعد ذلك (تلان) وأصله (تل انا) وجاء ذكره فى آخر للملك (أورك)
اكتشفت فى أنقاض (تل قبر) هذه ترجمته : « ان اله القمر ابن شقيق ،
انو ، وبكر (بعلوس) قد حمل عبوه (أورك) الرئيس التقى ملك (أور) على
بناء هيكل (تسين كاثو) معبدا مقدسا له .

والثانى فى ثالثهم (بلوس — أو بيل) ولعلهما محرفان عن (بعل)
و (بعلوس) ومن أسمائهم — أنو — و — ايل و — ايل انيو — ومعناه السيد .
وتلحق غالبا بلفظ — نيبرو — ومؤنثها — نيبروث — وهى قريبة من كلمة
(نمرود) التى هى فى ترجمة التوراة السبعينية — نبروث — وكلمة — نيبرو —
مشتقة من كلمة بابارا السريانية ومعناها طارد ، وتدل مادة نبر فى العربية
على الارتفاع فنبر : رفع . والنبرة الشئ المرتفع ففيها معنى الشرف . ومعناها
فى الآشورية يقارب معناها فى السريانية — فييل نبرو — بمعنى السيد الصياد
أو رب الصيد . لذلك قيل أنه نمرود المذكور فى العهد العتيق ، ويقولون

انه كان يصيد الوحوش ، وهو بعلوس الذى ذكر مؤرخو اليونان انه باني مويضة (بابل) ملكها الأول ، وحلت الآثار على أن الآشوريين كانوا يسمونها مدينة (بل نبرو) وظل الكلدانيون يعبدون نمرود مدة وجود دولتهم وكانوا يكتونه بأبى الآلهة ويكنون زوجه المسماة (مولينا - أو - أنوتا) بام الآلهة العظام . ولكن وصفت في بعض الآثار بأنها زوج (نين) وهو ابنها وفي بعضها أنها زوج (آشور) ولها ألقاب عظيمة ووجد لها عدة هياكل .

والثالث من ثالوثهم (حو - أو - حيا) وهو حيوان بعضه كالإنسان وبعضه كالسمك ، وزعموا انه خرج من خليج فارس ليعلم سكان ضفاف النهرين علم الفلك والأدب ، ونسب اليه اختراع حروف الهجاء ، وقد وجد اسمه على صحيفة من الآجر وجدت في خرائب (أور) ، ويرى بعض الباحثين أن اسمه من مادة الحياة العربية أو الحية ، وشعاره في القلم الكلداني الشكل الأسفينى ، ومنه رسم الحية للدلالة على منتهى الذكاء والحكمة والإشارة الى الحياة . وله ألقاب عظيمة .

وكان للكلدان (ثالوث) آخر أحد آلهته (سينى) وهو القمر وهذا الاسم سامى فاسم القمر بالسريانية سين وكذا في السنسكريتية ، ومن ألقابه زعيم الأرباب في السماء والأرض (وبل رونا) أى رب البناء ، وكانوا يصورونه في جميع تطوراته منذ يكون هلالاً ، وله هياكل كثيرة وأعظم معابده في (أور) .

والثانى (سان - أو - سانسى) وهو الشمس . والاسم سامى ايضا ومنه السننا بالربية وهو بالقصر الضياء وقيل ضوء النار والبرق والصواب انه أعم قال تعالى « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا » ومنه (شانى) بالعبرية ومعناها لامع ، واسم الشمس باللغة السنسكريتية (سيونا) ومن ألقاب هذه الاله : رب النار ونير الأرض والسماء . وكان له هياكل في المدن الكبيرة وأشهرها (بيت بارا) وبارا أوفرا اسم الشمس بالمصرية القديمة وكان اسم (هليبوليس) عندهم (سيبارا) وتسمى في الآثار (تيسبار شاشاماس) ومعنى الثلاثة مدينة الشمس . وللشمس زوجة عندهم يسمونها (أى) و (كولا) و (أنونيت) .

وثالث الثثة (فول) أو (أيفا) أى الهواء وهو رب الجو القائم بتسخير الريح والمواسم والأعاصير المتصرف فى الزراعة والمواسم . ومن هياكله هيكل بناء الملك (شمش وفل) الذى ملك الكلدان سنة ١٨٥٠ قبل المسيح .

وهذه الأخبار والآثار تشهد بصدق القرآن ، وكونه حجة لله على الأناس ، لأن من جاء به أمى لم يقرأ شيئا من كتب الأولين ، ولا رأى اثرا من آثار الفبايرين ، فيعلم منها خبر معبوداتهم . ولا يرد عليه ما أورد على العهد العتيق من كون كاتبه (عزرا الكاهن) كتبه بعد السبى فاقبس منه كثيرا من تقاليد البابليين .

مكتشفات سومرية :

وفى كتاب : (السومريون تاريخهم وحضاراتهم وخصائصهم) وهو مجموعة أبحاث ، مستكشفة ما يفيد بلا شك أن سلسلة الأفكار الدينية قديمة ومتصلة وأنها ليست أساطير كما كان يظن وإن ما قاله القرآن عما سبق من الحضارات فإن المحدث من المستكشفات يؤيده .

ألا أن التأثير السومرى تغلغل الى التوراة عن طريق الآداب الكنعانية والحورية والحيثية والأكدية ، وعلى الأخص عن طريق الأخيرة ، لأن اللغة الأكدية والحورية والحيثية والأكدية ، وعلى الأخص عن طريق الأخيرة ، لأن اللغة الأكدية كانت تستخدم ، كما هو معروف جيدا ، فى كافة أنحاء فلسطين وما يحيط بها فى الألف الثانى قبل الميلاد كلغة مشتركة فى العالم الأدبى كله تقريبا . وعلى هذا كانت الأعمال الأدبية الأكدية بكل تأكيد معروفة معرفة جيدة عند الأدباء الفلسطينيين ، بما فى ذلك العبرانيون ، ويمكننا أن نتتبع أثر جزء غير قليل من هذه الأعمال الأدبية الأكدية الى نماذج سومرية أولى جددت صياغتها وتغيرت عبر القرون .

بيد أن هناك مصدرا ممكنا آخر للتأثيرات السومرية فى التوراة كانت مؤثراته الصق وأقرب اليه من مؤثرات المصدر الذى وصف قبل قليل ، أن هذا المصدر ربما يعود فى الواقع الى الأب إبراهيم نفسه . أن أغلب الباحثين يتفقون على أنه بينما تحتوى قصة إبراهيم كما وردت فى التوراة على الكثير مما هو أسطورى وخيالى ، فإنها تحتوى أيضا على بذرة مهمة من الحقيقة

بما في ذلك ولادة ابراهيم في مدينة (أور) الكلدانية ، التي ربما كانت حوالى ١٧٠٠ ق . م وأخبار حياته مع عائلته هناك . وكانت (أور) احدى أهم المدن السومرية القديمة ، بل كانت في الواقع عاصمة بلاد سومر في ثلاثة عهود مختلفة .

وفي أثناء التنقيبات الانكليزية - الأمريكية المشتركة التي أجريت هناك بين سنتي ١٩٣٢ و ١٩٣٤ كشف عن عدد كبير من الوثائق الأدبية . ومن الجائز جدا أن يكون لابراهيم وآبائه صلة ما مع الانتاج الأدبي السومري الذي كان يستنسخ أو يبتدع في مدرسة مدينتهم . وليس من المستحيل أبدا أن يكون هو وأفراد عائلته قد جلبوا معهم بعضا من التقاليد السومرية الى فلسطين ، حيث أصبحوا تدريجيا جزءا من التقاليد والمصادر التي استفاد الأدباء العبرانيون منها في تأليف وتنقيح كتب التوراة .

ومهما يكن الأمر ، فإننا نقدم هنا عددا من الأمثلة التوراتية المتطابقة مع ما هو موجود في الكتب السومرية والتي تشير بلا شك الى بقايا من التأثيرات السومرية :

١ - خلق الكون : لقد كان السومريون يعتقدون كما يعتقد العبرانيون القدامى بأن البحر الأول كان موجودا قبل الخليفة . وكان الكون بالنسبة للسومريين . يتألف من سماء وأركس متحدين ولدقا بطريقة ما في هذا البحر الأولى وأن الاله - الريح « أنليل » الذي ربما لا يختلف عن روح الوهيم - أى روح الله - في سفر التكوين - هو الذي فصل السماء عن الأرض .

٢ - خلق الانسان : لقد خلق الانسان ، وفقا لتفكير كل من العبرانيين والسومريين ، من الطين وأشرب به - « نفس الحياة » . أما الغرض الذي خلق من أجله فهو خدمة الآلهة - أو للوحدة عند العبرانيين - بالصلاة والابتهال وتقديم القرابين .

٣ - أساليب الخلق : لقد تم الخلق وفقا لكل من الكتاب التوراتيين والسومريين بصورة رئيسة بطريقتين : بأمر الهى او به - « بفعل » او « تكوين » عملى . وفي هاتين الحالتين كان التخطيط الالهى يسبق الخلق الفعلى على الرغم من عدم التعبير عن هذه الحاجة الى التخطيط على نحو واضح .

٤ - الجنة : لم يعثر حتى الآن على مقابلات سومرية لقصة جنة عدن وطرده الانسان منها . بيد أنه توجد عدة مواضيع تتصل بالجنة لها أهمية بالنسبة لأغراض المقارنة ، بما في ذلك موضوع واحد قوى يساعد على توضيح قصة «الطوفان» في سفر التكوين ٢ : ٢١ - ٢٣ . أضف الى ذلك وجود سبب وجيه للاعتقاد بأن فكرة جنة الهية ، أو حديقة الهية ذاتها من أصل سومري (انظر الفصل الرابع) .

٥ - الطوفان : تظهر الروايتان التوراتية والسومرية عن قصة الطوفان كما لوحظ منذ فترة طويلة ، عدد كبير من الأفكار المتطابقة تطابقا واضحا والقوية الصلة ببعضها البعض . ومما تجدر ملاحظته أيضا حقيقة وجود عشرة ملوك حكموا قبل الطوفان ، وكانت أعمارهم طويلة الى درجة غير طبيعية وفقا لرواية عراقية واحدة على الأقل . ويذكرنا هذا ببعض الآباء التوراتيين في فترة ما قبل الطوفان .

٦ - موضوع قابيل وهابيل : ان موضوع المنافسة في قصة قابيل وهابيل الذي ورد في التوراة بلا شك بصورة مختصرة جدا كان موضوعا محببا جدا عند الكتاب والشعراء السومريين (انظر الفصل السابع) .

٧ - برج بابل وتششتت البشر : لقد بدأت قصة تشييد برج بابل بلا ريب في محاولة لتوضيح وجود الزقورات في بلاد ما بين النهرين . أما بالنسبة للعبرانيين فان هذه الأبنية الشاهقة ، التي غالبا ما يمكن رؤيتها في حالة من الخراب والدمار ، أصبحت رموزا لشعور الانسان بعدم الأمان ، وما يتصل به من لهفة شديدة للحصول على السلطة ، تلك اللهفة التي لا تعود عليه الا بالذل والعذاب . ولذلك فانه من المستبعد جدا الحصول على مثل مطابق لهذه القصة عند السومريين الذين كانت الزقورة بالنسبة لهم تمثل رباطا بين السماء والأرض ، أي بين الاله والانسان ، غير أننا قد نجد من الناحية الأخرى فترة العصر الذهبي التي تكون جزءا من القصة الملحمية السومرية « اينمر كار ونفس الكلمات » ، وان نهاية هذه الحالة السعيدة جاءت على يد اله غاضب في فترة العصر الذهبي التي تكون جزءا من القصة الملحمية السومرية « اينمر كار وسيد اراتا » (التي أشير إليها في بداية هذا الفصل) .

٨ - الأرض وتنظيمها : ان الأسطورة السومرية « أنكى ونظام العالم »

تنظيم الأرض وعملياتها الحضارية « تقدم وصفا مفصلا لفعاليات « أنكى » ،
 إله الحكمة السومرية ، في تنظيم الأرض وفي تأسيس ما يمكن التعبير عنه
 بالقانون والنظام فيها . ان لهذه القصة أصداً توراتية في سفر تثنية الاشتراع
 ٣٢ : ٧ - ١٤ ، على سبيل المثال (لاحظ بصورة خاصة المقطع ٨) وفي
 المزمور ١٠٧ .

٩ - إله الشخصى : كان العبرانيون القدامى استنتاجاً من العهد
 بين الإله وإبراهيم - لاحظ أيضاً الإشارة إلى عبارة « إله ناحور » في سفر
 التكوين ٣١ : ٥٣ - على اطلاع على فكرة الإله الشخصى ، لقد طور
 السومريون الاعتقاد بوجود إله شخصى في وقت مبكر يعود على الأقل إلى
 منتصف الألف الثالث ق . م . إذ كان لكل ذكر بالغ الرشد ورئيس عائلة
 وفقاً لرأى المعلمين والحكماء السومريين « إله الشخصى » ، أو ما يشبه الملاك
 الخير الذى ينظر إليه كإلهى له . وكان هذا الإله الشخصى على ما يحتمل
 جداً يتبنى من قبل رب الأسرة السومرية كنتيجة لوحى أو حلم أو رؤيا
 تتضمن تفهماً متقابلاً أو اتفاقاً بين الطرفين لا يختلف عن العهد بين الآباء
 العبرانيين والإله يهوا .

في الواقع لم يكن هناك شىء قاطع بالنسبة للطرفين في العهد بين السومري
 وإله الحامى ، ولذلك كان في هذه الناحية يختلف اختلافاً كبيراً عن العهد
 بين إبراهيم وربّه . ان كل ما كان السومري ينتظره من إله الشخصى هو أن
 يتكلم لصالحه ويتدخل في مجتمع الآلهة من أجله متى تطلبت الظروف ذلك
 وبهذا يحقق له حياة طويلة وصحة سليمة ، وكان الشخص مقابل ذلك يقوم
 بتجميد إلهه بالأدعية والابتهالات وتقديم القرابين ، على الرغم من أنه كان
 يواصل في نفس الوقت عبادة آلهة المجمع الإلهى السومري الأخرى ومع ذلك
 كانت هناك علاقة مقينة وودية وموثوق بها بل ورقيقة بين السومري والشخصى .
 علاقة تحمل في طياتها تشابهاً غير قليل من العلاقة بين يهوا والآباء العبرانيين
 وبين يهوا والعبرانيين ككل في الأزمان المتأخرة ، كما تشير إلى ذلك الوثيقة
 الأدبية السومرية المعنونة « الإنسان وإله » .

١٠ - الشريعة : ان حقيقة كون كل من الشرائع التوراتية وشريعة
 حمورابى المعروفة منذ مدة طويلة تظهر العديد من التشابهات في المحتوى والصيغة

بل حتى بالتفظيم ، قد لوحظت في الواقع من قبل دارسى العهد القديم جميعهم ، ولكن شريعة حمورابى نفسها ، كما ظهر في السنوات الاخيرة ، عبارة عن مؤلف اكدى استند بصورة عامة الى النماذج السومرية الاولى « الفصل الرابع » وفي الواقع . هناك سبب وجيه يدفعنا الى الاستنتاج بأن نمو وتطور المفاهيم والممارسات والسوابق والتأليف القانونية والرائعين في الشرق الأدنى القديم يرجعان بصورة علمية الى السومريين والى توكيدهم المبالغ فيه كثيرا على المنافسة والتفوق (انظر الفصل السابع) .

١١ — الاخلاق والتعاليم الأخلاقية : ان المفاهيم الأخلاقية والمثل المعنوية التى طورها السومريون كانت متطابقة مع مفاهيم ومثل العبرانيين ، على الرغم من أنها كانت تفتقر الى حساسيتها الخلقية وحماسها المعنوى الواضحين تقريبا وعلى الأخص في تلك السجاياء التى ضربت عليها أمثلة في الأدب التوراتى التنبؤى . لقد كان السومرى من الناحية النفسية (السيكولوجية) أكثر تشامخا وتحفظا من العبرانى ، كان أكثر تحفظا من الناحية العاطفية وأكثر تمسكا بالشكليات وبالمنهجية . وكان ينزع الى النظر الى اخوانه من البشر بشيء من الشك والريبة ، بل وحتى بشيء من الخوف الذى بكبت الى حد غير قليل الدفء والعطف والحنان البصرى ، تلك الصفات الحيوية جدا بالنسبة الى النمو الروحى والسعادة . وعلى الرغم من مكتسباته الخلقية الرفيعة فان السومرى لم يصل أبدا الى الاعتقاد السامى بأن « قلبا نقيا » و « ايادى طاهرة » كان تقدر عند الآلهة من أكثر الصلوات الطويلة والقرايين المتواترة والطقوس المعقدة .

١٢ — الثواب والعقاب الالهيان والكارثة القومية : ان غضب « يهوا » واذلاله وتدميره للشعب الذى كان يجلب على نفسه ذلك تؤلف موضوعا يتكرر دائما في الكتب التوراتية . وكانت الكارثة القومية تحل عادة بهجوم عنيف يقوم به شعب مجاور يختار بصورة خاصة ليكون عصا الاله يهوا وسوطه . وتقدم الوثيقة التاريخية « لعنة أكد » نظيرا مثيرا لهذا الموضوع : وهو أن « انليل » الاله القائد في مجمع الالهة السومرى ، بعد أن اثار غضبه الشديد حاكم من حكام أكد اتصف بالكفر رفع نظره الى الجبال وجاء بالـ « جوتين » البرابرة القساة الذين لم يدمروا أكد فقط بل شرعوا أيضا بتدمير كل بلاد سومر تقريبا .

١٣ — موضوع الوباء : تحتوى الأسطورة السومرية « اينانا وشوكاليتودا : خطيئة البستاني الميتة » على موضوع حلول وباء في بلاد سؤمر يطابق الى حد ما موضوع الوباء التوراتي في قصة سفر الخروج . ففي كلتا الحالتين ارسل اله اغضبته افعال سيئة واثم يقتصره فرد من الأفراد سلسلة من الأوبئة على بلاد بكاملها وعلى سكانها .

١٤ — المعاناة والاستسلام : موضوع « أيوب » . لقد تيسرت قبل فترة تتصف بكثرة البكاء وشدة الحزن .

١٥ — المعاناة والاستسلام : موضوع « أيوب » . لقد تيسرت قبل فترة قريبة جدا مقالة شعرية توراتية ذات أهمية غير قليلة بالنسبة للدراسات التوراتية المقارنة . ان موضوعها الرئيسي المعاناة والاستسلام البشرى ، متطابق مع الموضوع الذى عولج ببرقة متذاهية وبشكل مثير للمشاعر في سفر « أيوب » في التوراة ، بل كانت الأحداث التى ذكرت كمقدمة متشابهة : رجل من الناس — لم يذكر اسمه في القصيدة السومرية — كان غنيا وحكيما وعادلا . وكان ينعم ببركة صفاء العيش مع الأصدقاء وذوى القربى ، أصيب في يوم من الأيام ، بلا سبب واضح بالسقم والعذاب والفقر وخيانة الأصدقاء وكره الناس له . على أننا نعتزف بأن هذه المقالة السومرية ، التى تتكون من أقل من مائة وخمسين سطرا لا تقارن بأية حال بالسفر التوراتي من حيث سعة المدى وعمق الفهم وجمال التعبير ، الا أنها أقرب كثيرا من حيث المزاج والانفعال والمحتوى الى المزامير التى وردت في « سفر المزامير » والتى تتصف بكثرة البكاء وشدة الحزن .

١٦ — الموت والعالم السفلى : ان عالم الموتى ، ومثوى الأموات في الميثولوجيا الاغريقية بقدر ما يتعلق الأمر بهذا الموضوع لهما ما يقابلهما في « كور » السمرى . فقد كان الـ « كور » ، مثل عالم الموتى العبرانى ، سكن الأموات المظلم المخيف . وكان أرضا لا عود منها ، ولو أنه قد يستدعى منها في حالات خاصة فقط (١) .

(١) السومريون : تاريخهم وحضارتهم وحمايتهم تأليف سمونيل نوح كريم — ترجمة

فيصل الوائلى .

هذه الأشياء كشفت عنها الحفائر وأكدت أحداثها غير ان بعض المؤرخين يذهب الى وصفها بالأسطورة ونقول : ان وصفها بالأسطورة لا يلغيها لأن هيكل الأسطورة كان حقيقة خارجة تلقفها الانسان بخياله فانهرف بها فأحدث فيها ما أحدث من الوان واسقط عليها مضامين اخيلته ليحيب بها حاجة في نفسه فمثلا تمثال أبو الهول في قصوره أسطورة ولكنه اجزاء هيكل حقيقية .

فوجهه : منتزع من الانسان وهو حقيقة خارجة • وجسمه : منتزع من الحيوان وهو حقيقة خارجة • لكن التشكيل العام هو الأسطورة •

فوصف الشيء بالأسطورة لا يلغى حقيقة وجوده انما يؤكد وجوده مع غرام الانسان به •

رسالة الجاحظ

ونحن نطالع رسائل الجاحظ وهو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ١٥٠ — ٢٥٥ وهى تحقيق وشرح العلامة المحقق الاستاذ / عبد السلام محمد هارون نشر الخانجي وقع بصرنا على رساله : الرد على النصارى . . ورأينا فيها قيمة علميه تخدم وجهه نظرنا فى كتابنا : فى الفكر الدينى الجاهلى . . من جوانب فهمى من جانب تعتبر وثيقه علميه شاهده على أن علم الاديان المقارن ، تد ظهر على أيدي العرب منذ القرن الثانى للهجرة بأسلوبه العلمى الدقيق يعالج فيما يعرضه بأمانه علميه للفكره بين أنصارها وخصومها — بأسلوب هادى ورزين قضا بالاطراف المتنازعه .

ومن جانب آخر تعتبر وثيقه علميه شاهده أيضا على انتشار المسيحيه فى الجزيره العربيه والقبائل التى دانت ومدى علمها بها . . وكأنها ترسم رسما بيانيا للروافد التى حبلت المسيحيه الى مكه . . وهذا ما تعرضنا له فى كتابنا فهمى تؤدى ما قلناه ونزيد عليه — ومن ثالث : ياخذك الجاحظ وهو يتصدر لمشاكل علم الاديان المقارن من غير أن ياخذك الملل ويجعلك شريكا فى احكامه بأسلوبه السهل الممتع والممتع .

فإذا هو يدخل بك أعماق النفس وأعماق المجتمع ليحصي الاسباب الاجتماعيه والنفسية والثقافية فأتا مبتدئ فى ذكر الاسباب التى لها صارت النصارى أحب الى العوام من المجوس وأسلم صدوراً عندهم من اليهود وأقرب موده وأقل غائله ، واصفر كفرا واهون عذابا . ولذلك أسباب كثيره ووجوه واضحه يعرفها من النظر ويجهلها من لم ينظر . . . ذلك هو الجاحظ .

فتجد نفسك فى النهايه أمام وثيقه شاهده على عمق الجدل والحوار فى صياغة سلسلة وفى ترفق ولين — ففيها جوانب لعلم الاجتماع الدينى واللوان من علم النفس الدينى — واليك الرساله :

١ - فصل من صدر كتابه في

الرد على النصارى (١)

الحمد لله الذى من علينا بتوحيده ، وجعلنا ممن يتفنى شبهة خلقه (٢) وسياسة عبادته (٣) ، وجعلنا لا نفرق بين أحد من رسله ، ولا نجحد كتابا أوجب علينا الاقرار به ، ولا نضيف اليه ما ليس منه ، انه حميد مجيد ، فعال لما يريد .

أما بعد فقد قرأت كتابكم ، وفهمت ما ذكرتم فيه (٤) من مسائل النصارى فبلكم ، وما دخل على قلوب احدائكم وضعفائكم من اللبس ، والذى خفتموه على جواباتهم من العجز ، وما سألتهم من اقرارهم بالمسائل ومن حسن معونتهم بالجواب .

وذكرتم انهم قالوا : ان الدليل على أن كتابنا باطل ، وأمرنا فاسد ، اننا ندعى عليهم ما لا يعرفونه فيما بينهم ، ولا يعرفونه من أسلافهم ، لأننا نزعم أن الله جل وعز قال في كتابه على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم : « واذ قال الله يا عيسى بن مريم أنت قلت للناس اتخوذنى وامى الهين من دون الله (٥) » ، وانهم زعموا انهم لم يدينوا قط بأن مريم اله في سرهم ،

(١) نشر هذا الاختبار من قبل ، بعد ظهوره على هامش الكامل ، في مجموعة يوتس فنكل ، وعنوانها (ثلاث رسائل لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ) وطبعت في المطبعة السلفية سنة ١٣٤٤ . وجعلت هذه المجموعة هدية من مجلة الزعماء التى كان يصدرها الأستاذ محب الدين الخطيب ، الى قرائها في السنة الثانية . والرسالة التى تليها هى (ذم اخلاق الكتاب) ، ثم (رسالة القيان) . وقد تمت بنشر هاتين الأخيرتين في الجزء الثانى من الرسائل في الصفحات ١٣٩ - ٢٠٦ .

(٢) يعنى كونه مخلوقا

(٣) اشارة الى ما يرى المعتزلة من أنه غير خالق لأعمال العباد ، فهم يخلقون أعمالهم ويريدونها ، فيحاسبون على ما فعلوا .

(٤) ب : « من ما فكرتم » .

(٥) الآية ١١٦ من سورة المائدة .

(م - ٢١ الفكر الدينى)

ولا ادعوا ذلك قط في علانيتهم • وأنهم زعموا أنا ادعينا عليهم ما لا يعرفون ،
كما ادعينا على اليهود ما لا يعرفون ، حين نطق كتابنا ، وشهد نبينا : أن
اليهود قالوا : أن عزيرا ابن الله (١) ، وأن يد الله مغلولة (٢) ، وأن الله
فقير وهم أغنياء (٣) • وهذا ما لا يتكلم به انسان ، ولا يعرف في شيء من
الأديان •

ولو كانوا يقولون في عزير (٤) ما نحلتمون وادعيتموه ، لما جحدوه من دينهم ،
ولما أنكروا أن يكون من قولهم ، ولما كانوا بأنكار بنوة عزير أحق منا
بأنكار بيوة المسيح ، ولما كان علينا منكم بأس بعد عقد الذمة ، راخذ
الجزية •

وذكرتم أنهم قالوا : ومما يدل على غلطكم في الاخبار ، وأخذكم العلم
عن غير الثقات (٥) ، أن كتابكم ينطق أن فرعون قال لهامان : « ابن لى
صرحا (٦) • وهامان لم يكن إلا في زمن الفرس ، وبعد زمن فرعون بدهر طويل ،
وأن ذلك معروف عند أصحاب الكتب ، مشهور عند أهل العلم • وإنما اتخذ
صرحا ليكون اذا علاه أشرف على الله •

وفرعون لا يخلو من أن يكون جاحدا لله تعالى ، أو مقرا به • فإن كان
دينه عند نفسه وأهل مملكته نفى الله وجحده ، فما وجه اتخاذ النصرح وطلب
الأشراف ، وليس هناك شيء ولا اله ؟

(١) ب : « عزير ابن الله » .

(٢) إشارة الى الآية ٦٤ من المائدة .

(٣) إشارة الى الآية ١٨١ من آل عمران .

(٤) ب : لقط : « يقولون في شيء في عزير » .

(٥) في جميع النسخ : « الثقات » ، وهو خطأ مادم في الرسم الذى يوجب رسمه

جميع المؤنث السالم مبتبوبة .

(٦) من الآية ٣٦ في غائرا .

(٧) م لقط : « لم يكن في زمن الفرس » ، تحريف .

وان كان مقرا بالله عارفا به ، فلا يخلو من أن يكون مشبها أو نافيا للتشبيه . فان كان ممن ينفي الطول والعرض والعمق والحدود والجهات ، فما وجه طلبه له في مكان بعينه ، وهو غده بكل مكان ؟ وان كان مشبها فقد علم انه ليس في طاقة بنى آدم أن يبنوا بنيانا ، أو يرفعوا صرحا يخرق سبع سموات بأعماقهن ، والأجزاء التي بينهما ، حتى يحاذى (١) العرش ثم يعملوه .

وفرعون وان كان كافرا فلم يكن مجنونا ، ولا كان الى نقص العقل من بين الملوك منسوبيا . على أن الحكم قد يقوم (٢) بعقول الملوك بالفضيلة على عقول الرعية .

وذكرتم انهم قالوا : تزعمون أن الله تعالى ذكر يحيى بن زكريا يخبر أنه « لم يجعل له من قبل سميا (٣) » ، وأنهم يجدون في كتبهم وفيما لا يختلف فيه خاصتهم وعامتهم أنه كان من قبل يحيى بن زكريا غير واحد يقال له يحيى ، منهم : يوحنا بن فرح (٤) .

وزعمتم انهم قالوا لكم (٥) : أنكم ذكرتم أن الله قال في كتابه لنبيكم : « وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم (٦) » ، فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون (٧) » ، وانما عنى بقوله : « أهل الذكر » : أهل التوراة ، وأصحاب

(١) ب : « يحاذى » ، تحريف .

(٢) ب : « قد يقدم » .

(٣) من الآية ٧ في سورة مريم .

(٤) لم أجد له ذكرا في كتب الجاحظ ، كما لم أجد له خبرا الا في سفر: أرميا ٤٠ : ٨ و ٤١ : ١١ و ٤٣ : ٦ . واسمه في هذا السفر : يوحنا بن قاريح .

(٥) ب فقط : « لك » صوابه في م ، ط .

(٦) كذا القراءة في الآية ٤٣ من سورة النحل . أما في الآية ٧ من سورة الانبياء فقرأة الجمهور فيها : « يوحى اليهم » ، كما ورد في نسخة ب ، وقراها طمس فقط : « نوحى اليهم » أنظر اتحاد بضلاء البشر ٢٠٦ .

(٧) هي الآية ٤٣ من سورة النحل ، ونصها هو نص الآية ٧ من الانبياء .

الكتب يقولون : ان الله قد بعث من النساء نبيات منهن مريم بنت عمران (١) ،
وبعث منهن حنة (٢) ، وسارى (٣) ، ورفقى (٤) .

وذكرتم أنهم قالوا : زعمتم ان عيسى تكلم في المهد ، ونحن على تقديمنا
له ، وتقريبنا لأمره ، وإفراطنا بزعمكم فيه ، على كثرة عدتنا ، وتفاوت بلادنا ،
واختلافنا فيما بيننا ، لا نعرف ذلك ولا ندعيه (٥) ، وكيف ندعيه ولم نسمعه
عن سلف ، ولا ادعاء منا مدع .

ثم هذه اليهود لا تعرف ذلك ، وتزعم أنها لم تسمع به الا منكم ، ولا تعرفه
المجوس ، ولا الصابئون ، ولا عباد البهدة (٦) من الهند وغيرهم ، ولا الترك

(١) انظر بقية نسبها في الطبرى ١ : ٥٨٦ .

(٢) هى حنة بنت نونيل ، من سبط اشير . اتجيل. لوقا ٢ : ٣٦

(٣) سميت في العهد القديم « سارى » تكوين ١١ : ٢٩ ، ٣٠ / ١٢ : ٥ ، ١١ ،
١٧ / ١٦ : ١ - ٩ . وجاء في سفر التكوين ١٧ : ٥ في مخاطبة ابراهيم عليه السلام :
« فلا يدعى اسمك بعد ابرام ، بل يكون اسمك ابراهيم » وفي الفترة الخامسة عشرة منه :
« وقال الله لابراهيم : سارى امرأتك لاتدعى اسمها سارى ، بل اسمها سارا » .
وفي حواشى سفر التكوين ان « سارة » بمعنى رئيسة . وسارة هذه هى بنت هاران الاكبر
عم ابراهيم ، كما في الطبرى ١ : ٢٤٤ ، وفيها الآية الكريمة : « وامرأته قائمة مضحكت
لبشرناها باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب » . وسارة تضبط بتخفيف الراء ، ويخطئ من
يشددنها ، وان كانت قد ضبطت بذلك في اللسان (هجر ١١٨ ورقم ١٨٠) وشرح القسطلانى
٤ : ١٠٢ . ومما يعين ضبطها بتخفيف الراء قول جرير في ديوانه ٥٤٣ :

ليجمعنا والعز اولاد سارة اب الايبالى بعده من تعذرا

(٤) ووسعت في الطبرى « رفقا » ، وهو الوجه ، لان جميع المنتهى بالالف اللبنة من
الاسماء الاعجمية حقه ان يكتب بالالف ، ماعدا الاسماء الخمسة : موسى ، عيسى ، كسرى ،
بخارى ، متى . وهى رفقا ابنة بتويل بن فاحور بن تارخ ، وهى امرأة اسحاق ، كما
في الطبرى ١ : ٣١٢ وتسمى ايضا « رفقة » في التكوين ٢٤ : ١٥ ، ٢٦ / ٢٥ : ٢٠ .
(٥) ب ، م : « لايعرف ذلك ولا يدعيه » ، حوايه في ط .

(٦) البد ، بالضم : الصنم الذى يعبد ، وهو اعراب بت ، باللارسية بضم
الباء ايضا . والجمع البهدة . ب : « البهرة » ط : « المرة » ، حوايهما في م . وانظر
ما سبق في حواشى ٢٥٢ .

والخزر(١) ، ولا بلغنا ذلك عن أحد من الأمم السالفة ، والقرون الماضية ، ولا في الانجيل ، ولا في ذكر صفات المسيح في الكتب والبشارات به على السنة الرسل .

ومثل هذا لا يجوز أن يجهله الولي والعدو ، وغير الولي وغير العدو ، ولا يضرب به مثل ، ولا يروح به الناس ، ثم يجمع النصارى على رده ، مع حبهم لتقوية امره . ولم يكونوا ليضادوكم .(٢) فيما يرجع عليهم نفعه . وكيف لم يكذبوهم في احيائه الموتى ، ومشيه على الماء ، وابراء الأكمة والأبرص ؟ بل لم يكونوا ليتفقوا على اظهار خلاف دينهم ، وانكار أعظم حجة كانت لصاحبهم ، ومثل هذا لا ينكتم ولا ينفك ممن يخالف وينم (٣) .

والكلام في المهد أعجب من كل عجب ، وأغرب من كل غريب ، وأندع من كل بديع ، لأن احياء الموتى والمشي على الماء ، واقامة المقعد ، وابراء الأكمة ، وابراء الأكمة (٤) قد اتت به الانبياء ، وعرفه الرسل ، ودار في أسماعهم . ولم يتكلم صبي قط ، ولا مولود في المهد .

وكيف ضاعت هذه الآية ، وسقطت حجة هذه العلامة من بين كل علامة ؟

وبعد ، فكل أعجوبة يأتى بها الرجال (٥) ، والمعروفون بالبيان ، والمنسوبون

(١) م : « والخزر » ، تحريف . والخزر جيل من الترك كان يتر حكمهم في سهوب القوقاز الشمالية . وانظر مانتى (بلغار) و (الخزر) في دائرة المعارف الاسلامية .

(٢) ب ، م : « ولم يكن ليضادوهم » .

(٣) ب لقط : « ويتم » بالتاء .

(٤) الاكمة : الذى يولد أعمى ، ومصدره الكمه ، بالتحريك . وربما جاء الكمه في الشعر للعمى العارض ، كما جاء في قول سويد بن أبى كامل الرشكرى في المفضليات ٢٠٠ :

كمهت ميناء لسا أبيضنا فهو يلحى نفسه لما نزع

(٥) ب ، م : « الرجل » ، واثبت ما في ط .

الى صواب الراى ، تكون (١) الحيلة فى الظن اليها اقرب ، وخوف الخدعة عليها
اغلب . والصبى المولود عاجز فى الفطرة ، ممتنع من كل حيلة ، لا يحتاج فيه
الى نظر ، ولا يشبهه من شاهده بدخل (٢) .

٢ - فصل منه

وسنقول فى جميع ما ورد علينا من مسائلكم ، وفيما لا يقع اليكم من
مسائلهم ، بالشواهد الظاهرة ، والحجج القوية ، والأدلة الاضطرارية ، ثم
نسألهم بعد جوابنا اياهم عن وجوه يعرفون بها انتقاض قولهم ، وانتشار
مذهبهم (٣) ، وتهافت دينهم .

ونحن نعوذ بالله من التكلف والانتحال ما لا نحسن ، ونسأله القصد
فى القول والعمل ، وأن يكون ذلك لوجهه ، ولنصرة دينه ، انه قريب
مجيب .

فأنا مبتدئ فى ذكر الأسباب التى لها (٤) صارت النصارى أحب الى
العوام من المجوس ، وأسلم صدورا عندهم من اليهود ، واقترب مودة ، وأقل
غائلة ، وأصغر كفرا ، وأهون عذابا .

ولذلك أسباب كثيرة ، ووجوه واضحة ، يعرفها من نظر ، ويجهلها من
لم ينظر .

(١) ب ، م : « تكون » ، صوابه فى ط .

(٢) ط فقط : « ولا يشبهه » . والدخل ، بالتحريك وبالفتح أيضا : الريبة والغش .
قال الله تعالى : « تتخذون أيمانكم دخلا بينكم » . وفى كلام ابنه الخنس :

ترى اللقيان كاللخل وما يدريك ما الدخل

(٣) انتشار مذهبهم : تفرقه وعدم ترابطه . ويقولون : ضم الله نشارك ، بالتحريك ،
أى لم شعثك .

(٤) ب : « التى بها » .

اول ذلك ان اليهود كانوا جيران المسلمين بيثرب وغيرها ، وعداوة الجيران شبيهة بعداوة الأقارب في شدة التمكن وثبات الحقد ، وانما يعادى الانسان من يعرف ، ويميل على من يرى ، ويناقض من يشاكل ، ويبدو له عيوب من يخالط . وعلى قدر الحب والقرب يكون البغض والبعد ، ولذلك كانت حروب الجيران وبنى الأعمام من سائر الناس وسائر العرب أطول ، وعداوتهم أشد .

فلما صار المهاجرون لليهود جيرانا ، وقد كانت الأنصار متقدمة الجوار ، مشاركة في الدار ، حسدتهم اليهود على النعمة (١) في الدين ، والاجتماع بعد الافتراق ، والتواصل بعد التقاطع ، وشبهوا على العوام (٢) ، واستمالوا الضعفة ، ومالئوا (٣) الإعداء والحسدة ، ثم جاوزوا الطعن وادخل الشبهة ، الى المناجزة والمناجزة بالعداوة ، فجمعوا كيدهم ، وبذلوا أنفسهم وأموالهم في قتالهم ، وأخرجهم من ديارهم ، وطال ذلك واستفاض فيهم (٤) وظهر ، وترادف لذلك الغيظ ، وتضاعف البغض ، وتمكن الحقد .

وكانت النصارى لبعد ديارهم (٥) ، من مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ، ومهاجره ، لا يتكلفون طعنا (٦) ، ولا يثيرون كيذا (٧) ، ولا يجمعون على

(١) ب ، م : « حسدتهم اليهود النعمة » ، وهي صحيحة أيضا ، يقال حسده على الشيء وحسده اياه ، كما في قول شمر بن الحرث الضبي :

نقلت الى الطعام فقال منهم زعيم نحسد الانس الطعاما

(٢) ط نقط : « القوام » ، تحريف .

(٣) ب ، م : « ومالئوا » ، صوابه في ط . والمالاة : المساعدة ، والمشيعة

(٤) ب ، م : « واستفاض فيهم » ، صوابه في ط .

(٥) ب ، م : « ديارها » .

(٦) ب ، م : « لا يتكلفون طعنا » ، صوابه في ط .

(٧) ب ، م : « ولا يثيرون كيذا » ، والوجه في ط .

حرب (٢) . فكان هذا أول أسباب ما غلظ القلوب على اليهود ، ولينها على
النصارى .

ثم كان من أمر المهاجرين الى الحبشة ، واعتمادهم على تلك الجنبه (٢)
ما حبيبهم (٣) الى عوام المسلمين . وكلما لانت القلوب لقوم غلظت على أعدائهم ،
وبقدر ما نقص من بغض النصارى زاد في بغض اليهود .

ومن شأن الناس حب من اصطنع اليهم خيرا أو جرى على يديه (٤) ،
أراد الله بذلك أو لم يردده ، وبقصد (٥) كان أم باتفاق .

وأمر آخر ، وهو من أمتن أسبابهم واقوى أمورهم ، وهو تأويل آية
غلطت فيها العامة حتى نازعت الخاصة ، وحفظتها النصارى واحتجت ،
واستمالت قلوب الرعاع والسفلة ، وهو قول الله تعالى : « لتجدن أشد
الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين
آمنوا (٦) » . الى قوله : « وذلك جزاء المحسنين (٧) » . وفي نفس الآية
أعظم الدليل على أن الله تعالى لم يعن هؤلاء النصارى ولا أشباههم :
الملكائيه (٨) واليعقوبييه (٩) ، وانما عنى ضرب

(١) ب ، م : « ولا يجمع على حرب » ، تحريف .

(٢) الجنبه : الجانب . وفي ط نقط : « الجهة » .

(٣) ب نقط : « ما حبيبهم » ، صوابه في م ، ط .

(٤) الكلام بعده الى كلمة « باتفاق » ساقط من ط .

(٥) في الأصل ، وهو هنا ب ، م : « وبعد » ، والوجه ما أثبت .

(٦) الآية ٨٢ من سورة المائدة .

(٧) يعنى الايات ٨٢ — ٨٥ من سورة المائدة .

(٨) ب نقط : « الملكائيه » ، صوابه في م ، ط ويقال ملكائيه وملكائيه أيضا بالهمز ،

كما في مناقب العلوم ٢٣ . ويقال أيضا الملكيه ، كما في التنبيه والاشراف للمسعودي ١٢٣ ،

١٢٤ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣١ . وجاء في مناقب العلوم ٢٣ : « وهم منسوبون الى

ملكاه ، وهم أقدمهم » ، أى أئدم النصارى . وفي الملل والنحل ٢ : ٦٢ : « الملكائيه

أصحاب ملكا الذى ظهر بالروم واستولى عليها » . والحق أن الملكائيين منسوبون الى « ملكا»

ومعناه الملك بالسرانيه . والمراد بهم أتباع مذهب قياصرة الروم الذى يسمى أيضا المذهب

الخلقيدونى ، الذى أقره الجمع المعتبر في خلقيدونية سنة ٤٥١ م . وفي مناقب العلوم :

« وأهل الروم كلهم ملكائيه » . وانظر تاريخ الامة القبطية (الحلقة الثانية ص ٩١ — ٩٣) .

(٩) اليعقوبية ، أو اليعاقبة : ثلاثة فرق قدماء النصارى ، وهم الملكائيه ، والنسطورية ،

بحيرا (١) ، وضرب الرهبان الذين يخدمهم سلمان (٢) .

وبين حمل قوله (٢) : « الذين قالوا انا نصارى » على الغلط منهم في الاسماء ،
وبين أن نجزم عليهم (٤) لأنهم نصارى — فرق .

كما ذكر اليهود أنه جاء الاسلام وملوك العرب رجلاً : غسانى ولخمى ،
وهما نصرانيان ، وقد كانت العرب تدين لهما ، وتؤدى الاتاوة الهيما ، فكان
تعظيم قلوبهم لهما راجعا (٥) الى تعظيم دينهما . وكانت اتهامه ، وان كانت
لقاحا (٦) لا تدين الدين (٧) ، ولا تؤدى الاتاوة ، ولا تدين للملوك ، فانها (١)

= واليعقوبية . وهم ينسبون الى مار يعقوب . قال الخوارزمى في مفاتيح العلوم : « وهم
تأول » . وفي الفصل لابن حزم ١ : ٤٦ : « ينسبون الى يعقوب البرذعانى ، وكان
راهبا بالقسطنطينية » . وانظر الملل والنحل ٢ : ٦٦ .

(١) بحيرا الراهب ، بفتح الباء ، كما في القاموس ، وقد رسم بالياء في آخره في
القاموس وشرحه ، والوجه كتابته بالالف كما في الاصابة ٥٩٥ . وهو الذى لقي الرسول صلى
الله عليه وسلم قبل البعثة في ركب تريض حين نزلوا بصرى من أرض الشام ، فاستضافهم
جميعا ، وعرف رسول الله معا كان يعرف من صفته من قبل . السيرة ١١٥ — ١١٧ .
(٢) سلمان الفارسي : صحابي جليل ، أصله من رام هرمز ، وقيل من أصبهان ،
وكان قد سمع بأن النبي صلى الله عليه وسلم سيبعث ، فخرج في طلب ذلك ، وأسلم ،
وشهدا بدر ، وأخى النبي بينه وبين أبى الدرداء . الاصابة ٣٣٥ . والسيرة ١٣٦ ، ٣٤٥ ،
٦٦٣ ، ٦٧٧ . ب : « نجد منهم سلمان » م : « يجذبهم سلمان » وفي ط : « يجذبهم
سلمان » ، والصواب ما أثبت . وقد وجدت نصا حريحا في سيرة ابن هشام ١٢٨ يقول
فيه سلمان لأسقف الكنييسة في الشام قبل اسلامه : « ائني قد رغبت في هذا الدين فأحببت
أن أكون معك وأخدمك في كنيسة » . ثم تروى السيرة تنقله في كنائس الموصل ، ونصيبين
، ودمورية ، ومن دمورية انتقل الى أرض العرب حتى كان بالمدينة ولقى رسول الله صلى
الله عليه وسلم ، فدخل في الاسلام .

(٣) ب ، م : « وبين قوله » يستوط كلمة « حمل » .

(٤) ب : « نجزم » ط : « نجري » . وأثبت ما في م .

(٥) ب ، م : « راجعة » ط : « راجع » ، صوابها ما أثبت .

(٦) يقال حى لقاح ، كصحاب : لم يدينوا للملوك ولم يملكوا ولم يصبهم سبب في

الجاهلية . قال ثعلب : مشتق من لقاح الناقة ، لان الناقة اذا لقحت لم تطاوع الفحل .

(٧) كلمة « الدين » ساقطة من ط . وفي ب ، م : « لا يدين » . صوابها في ط .

كانت لا تمتنع من تعظيم ما عظم الناس ، وتصغير ما صغروا •

ونصرانية النعمان وملوك غسان مشهورة في العرب ، معروفة عند أهل النسب ، ولولا ذلك لدلت عليها (٢) بالأشعار المعروفة ، والأخبار الصحيحة •

وقد كانت تتجر إلى الشام ، وينفذ (٣) رجالها إلى ملوك الروم ، ولها رحلة في الشتاء والصيف ، في تجارة مرة إلى الحبشة ، ومرة قبل الشام ومرة ببيثرب (٤) ، ومصيفها بالطائف ، ومرة منيحين مستأنفا بحمده (٥) ، فكانوا أصحاب نعمة ، وذلك مشهور مذكور في القرآن ، وعند أهل المعرفة •

وقد كانت تهاجر إلى الحبشة (٦) ، وتأتي باب النجاشي وافدة ، فيحبوهم بالجزيل (٧) ، ويعرف لهم الأقدار ، ولم تكن تعرف كسرى (٨) ، ولا تأنس بهم • وقيصر والنجاشي نصرانيان ، فكان ذلك أيضا للنصارى ، دون اليهود •

والآخر من الناس تبع للاول في تعظيم من عظم ، وتصغير من صغر •

(١) ب ، م : « وبانها » ط : « لانها » ، والوجه ما أثبت

(٢) ب نقط : « عليه » تحريف .

(٣) ط نقط : « وتنفذ » .

(٤) ومرة ببيثرب ، ساقطة من ط .

(٥) كذا وردت هذه العبارة في ب • م مع تنقيطها من ط ، لكن في م : « بجهده » . ولعلها « ومرة مرمين » من أيمن ويمن تيمينا ، اذا أتى اليمن .

(٦) ب ، م : « تهاجر الحبشة » ، صوابها في ط .

(٧) يحبوهم ، من الحباء ، وهو العطاء بلا من ولا جزاء . ب ، م : « فيحبوهم » ط : « فيحييهم » ، صوابها ما أثبت .

(٨) ط : « ولم يكن يعرف ذلك كسرى » .

وأخرى (١) : أن العرب كانت النصرانية فيها فاشية ، وعليها غالبية ،
 إلا مضر ، فلم تغلب عليها يهودية ولا مجوسية ، ولم تقش فيها النصرانية ،
 إلا ما (٢) كان من قوم منهم نزلوا الحيرة (٣) يسمون : العباد ، فانهم كانوا
 نصارى ، وهم مغمورون مع نبذ يسير (٤) في بعض القبائل . ولم تعرف
 مضر إلا دين العرب ، ثم الاسلام .

وغلبت النصرانية على ملوك العرب وقبائلها : على لخم ، وغسان ،
 والحارث بن كعب بنجران ، وقضاة ، وطى ، في قبائل كثيرة ، وأحياء معروفة .
 ثم ظهرت في ربيعة فغلبت على تغلب وعبد القيس وأفناء بكر (٥) ، ثم في
 آل ذى الجدين خاصة .

وجاء الاسلام وليست اليهودية (٦) بغالبة على قبيلة ، إلا ما كان من
 ناس من اليمانية ، ونبذ يسير (٧) من جميع اباد وربيعة . ومعظم اليهودية
 انما كانت بيثرب وحمير وقيماء ووادي القرى ، في ولد هارون ، دون العرب .

فعطف قلوب دهماء العرب على النصارى الملك الذى كان فيهم ، والقراية
 التى كان تلتهم . ثم رأت عوامنا أن فيها ملكا قائما ، وأن فيهم عربا كثيرة (٨) ،
 وأن بنات الروم ولدن للوك الاسلام ، وأن في النصارى متكلمين وأطباء ومنجمين ،

(١) ط : « وأخرى ، وهى » .

(٢) في الاصول : « إلا من كان » ، ووجه ما أثبت .

(٣) نزلوا الحيرة ، ساقط من ب .

(٤) النبذ ، بالفتح : الشيء القليل . ب نقط : « مغمورون مع نبذ يسيرة » ،
 صوابه في ط .

(٥) الاقناء : الاخلاط النزاع من هاهنا وهاهنا ، الواحد فنو ، بالكسر .

(٦) ب ، م : « لليهودية » ، صوابه في ط .

(٧) ب : « ونبذ يسيرة » تحريف . وانظروا ما مضى تريبا .

(٨) ب ، م : « عربا كثيرة » صوابه بالعين المهملة كما في ط .

فصاروا بذلك عندهم عقلاء وفلاسفة حكماء ، ولم يروا ذلك في اليهود .

وانما اختلفت (١) احوال اليهود والنصارى في ذلك لأن اليهود ترى ان
الخطر في الفلسفة (٢) كفر ، والكلام في الدين بدعة ، وانه مجلبة لكل شبهة ،
وانه لا علم الا ما كان في التوراة وكتب الانبياء ، وان الايمان بالطب ، وتصديق
المنجمين من اسباب الزندقة والخروج الى الدهرية ، والخلاف على الاسلاف
واهل القدوة ، حتى انهم ليهرجون المشهور بذلك ، ويحرمون كلام من
سلك (٣) سبيل أولئك .

ولو علمت العوام أن النصاي والروم ليست لهم حكمة ولا بيان ، ولا بعد
روية (٤) ، الا حكمة الكف ، من الخبط والنجر والتصوير ، وحياسة البزيون (٥)
لأخرجتهم من حدود الأدباء ، ولحتهم من ديوان الفلاسفة والحكماء ، لأن
كتاب المنطق والكون والفساد ، وكتاب العلوى (٦) ، وغير ذلك ، لارسطاطاليس (٧)
وليس برومى ولا نصرانى .

وكتاب المجسطى لبطليموس (٨) ، وليس برومى ولا نصرانى .

وكتاب اقليدس لاقليدس ، وليس برومى ولا نصرانى .

(١) ب ، م : « اختلف » .

(٢) ب فقط : « في الفلسفة » .

(٣) ط : « كلام سالك » .

(٤) ب ، م : « رؤية » .

(٥) البزيون : السندس . قال ابن برى : هو رقيق الديباج . وضبطه صاحب
القاموس كجر دخل وعصفور ، وصاحب اللسان بالضم فقط . ط : « الميون » تحريف .
وانظر اللسان والقاموس (بزن) .

(٦) ذكره في الحيوان ٦ : ٢٨٠ باسم « لاثار العلوية » . ط فقط : « العلوى »
تحريف .

(٧) ب ، م : « لارسطوطيلس » ، واثبت ما في ط والحيوان .

(٨) انظر حواشى الحيوان ١ : ٨٠ .

وكتاب الطب لجالينوس ، ولم يكن روميا ولا نصرانيا .

وكذلك كتب ديمقراط وبقراط وافلاطون ، وفلان وفلان .

وهؤلاء ناس (١) من أمة قد باحوا وبقيت آثار عقولهم ، وهم اليونانيون ، ودينهم غير دينهم ، وأدبهم غير أدبهم ، أولئك علماء ، وهؤلاء صنّاع أخذوا كتبهم (٢) لقرب الجوار ، وتداني الدار ، فمنها ما أضافوه إلى أنفسهم ، ومنها ما حولوه إلى ملتهم . إلا ما كان من مشهور كتبهم ، ومعروف حكمهم ، فإنهم حين لم يقدرُوا على تغيير أسمائها زعموا أن اليونانيين قبيل من قبائل الروم ففخروا (٣) بأديانهم على اليهود ، ولستطالوا بها العرب ، وبخخوا بها على الهند (٤) ، حتى زعموا أن حكماءنا اتباع حكمائهم وأن فلاسفتنا اقتدوا على مثالهم (٥) ، فهذا هذا .

ودينهم (٦) يرحمك الله — يضاهي الزندقة ، ويناسب في بعض وجوه قول الدهرية ، ونهم من أسباب كل حيرة وشبهة .

والدليل على ذلك أنا لم نر أهل ملة (٧) قط أكثر زندقة من الذمّاري ، ولا أكثر متحيرا أو مترنحا منهم (٨) .

وكذلك شأن كل من نظر في الأمور الغامضة بالعقول الضعيفة :
إلا ترى أن أكثر من قتل في الزندقة ممن كان ينتحل الإسلام ويظهره ،

(١) ط لقط : « أناس » .

(٢) ب : « أخذوا كتبهم » ، وهو تحريف كتابي

(٣) ب ، م : « منجروا » ، صوابه في ط

(٤) البذخ : تطاول الرجل بكلامه وانتخاره ، وفعله كفرح يلرح ، وتعد يقعد .

(٥) ب : « اقتدروا » ، تحريف . ط : « احتذوا » ، وأثبت ما في م .

(٦) ط : « فهذا هو دينهم » ، وإخلاله تصرفا من الناشر . وما أثبت من ب ، م هو

لغة الجاحظ .

(٧) ط : « أهل مكة » ، صوابه في ب ، م .

(٨) الترنع : التمايل والاضطراب . وفي جميع الأصول : « متحيزا » بالزاي ،

صوابه ما أثبت .

هم (١) الذين آباؤهم وأمهاتهم نصارى .

على أنك لو عدت اليوم أهل الظنة ومواضع التهمة لم تجد أكثرهم
إلا كذلك .

ومما عظمهم في قلوب العوام ، وحببهم إلى الطغام ، أن منهم كتاب
السلطين ، وفراشي الملوك (٢) ، وأطباء الأشراف ، والعطارين والصيارفة .
ولا تجد اليهودي إلا صبغا ، أو دباغا ، أو حجاما ، أو قصابا ، أو شعابا .

فلما رأت العوام اليهود والنصارى توهمت أن دين اليهود في الأديان
كصناعاتهم في الصناعات ، وأن كفرهم أقدر الكفر ، إذ كانوا هم أقدر الأمم .

وانما صارت النصارى أقل مساخة من اليهود (٣) ، على شدة مساخة
النصارى ، لأن الأسرائيلي لا يزوج إلا الأسرائيلي ، وكل مناكحتهم مردوده
فيهم (٤) ، ومقصورة عليهم ، وكانت الغرائب لا تشوبهم ، وفحولة الأجناس
لا تضرب ولا تضرب فيهم ، لم ينجبوا في عقل ولا أسر ولا ملح (٥) . وانك
لتعرف ذلك في الخيل والابل ، والحمير والحمام .

ونحن — رحمك الله — لم نخالف العوام في كثرة أموال النصارى ،
وأن فيهم ملكا قائما ، وأن ثيابهم أنظف (٦) ، وأن صناعاتهم أحسن .

(١) ب : « وهم » ، والواو متعمة .

(٢) يراد بالفراش من يتعهد فراش البيت وأثاثه . وانظر ما كتبت في ذلك في (حول
ديوان البحري) ٣٩ — ٤٠ والحيوان ٣ : ٤٣٥ .

(٣) المسيح من الناس : الذي : الذي لاملاحة له . وقد مسخ مساخة .

(٤) ب : « وكل مناكحتهم مردون فيهم » ط ، م : « وكل مناكحتهم مردودة فيهم » ،
صوابهما . ما أثبت .

(٥) الأسر : شدة الخلق . وفي التنزيل العزيز : « نحن خلقناهم وشددنا أسرهم » .
والمح ، بالكسر : الرضاع واللبن .

(٦) ب : « وان ما بهم » م : « ما بهم » ط : « ما بهم » ، والوجه ما أثبت .
وانظر ما سيأتي في ٢٢٥ من قوله : « والنصراني وان كان أنظف ثوبا » .

وانما خالفنا في فرق ما بين الكافرين والفرقتين ، في شدة المعاندة واللجاجة ،
والارصاد لأهل الاسلام بكل مكيدة ، مع لؤم الأصول ، وخبث الاعراق .

فأما الملك والصناعة والهيئة ، فقد علمنا أنهم اتخذوا البراذين الشهرية (١) ،
والخيل العتاق ، واتخذوا الجوقات (٢) ، وضربوا بالصوالجة ، وتحذفوا
المديني (٣) ، ولبسوا اللحم والمطبعة (٤) ، واتخذوا الشاكرية (٥) ، وتسموا
بالحسن والحسين ، والعباس والفضل وعلى ، واكتفوا بذلك أجمع ، ولم يبق
الا أن يتسموا بحمد ، ويكتفوا بأبى القاسم . فرغب اليهم المسلمون ،
وترك كثير منهم عقد الزناجير ، وعقدها آخرون (٦) دون ثيابهم ، وامتنع كثير
من كبرائهم من اعطاء الجزية ، وانفوا مع اقدارهم من دفعها (٧) وسبوا من
سبهم ، وضربوا من ضربهم .

-
- (١) الشهرية ، سبق تفسيرها في ١٢٨ . وكلمة « اتخذوا » ساقطة من ب ، م .
(٢) الجوقة : جماعة من الناس ، معربة كما في شفاء القليل . والمراد فرق القروسية
ونحوها .
(٣) تحذيف الشعر : تطريزه وتسويته . وفي اللسان : « قل النضر : التحذيف في
الطرة أن تجعل سكينية كما تفعل البصارى » . فقد وضع التحذيف هنا موضع التحذيف . وفي
الأصول هنا : « وتحذفوا » ، ولا وجه له .
(٤) في اللسان : « اللحم : جنس من الثياب » . وفي القاموس : « ويحكم :
جنس من الثياب » . واللحم الناسج الثوب . وفي المثل : « اللحم ما أسديت » أي
تم ما ابتدأته من الاحسان . واللحمة ، بالضم : خيوط النسج العرضية يلحم بها
السدى ، كما في المعجم الوسيط . وفيه أيضا : « اللحم جنس من الثياب يختلف نوع
سداه ونوع لحته ، كالصوف والقطن ، أو الحرير والقطن » أي لا يكونان من نوع واحد أما
المطبعة ، فهي من قولهم : طابق بين تميمين : لبس أحدهما على الآخر . والمراد الثياب
المزدوجة المتطابقة .

(٥) الشاكرية ، يراد بهم الجند المستاجرون ، لأن الشاكرى معناه كما في القاموس :
الاجير المستخدم ، معرب جاكز . وانظر حواشي الحيوان ٢ : ١٢٠ ورسائل الجاحظ ٢٠:١

(٦) ب ، م : « ومقدوها آخرون » ، وأثبت ما في ط .

(٧) ب ، م : « وأنف مع اقدارهم من دفع » ، صوابه في ط .

وما لهم لا يفعلون ذلك وأكثر منه ، وقضاتنا أو عامتهم (١) يرون أن دم الجاثليق (٢) والمطران والأسقف وفاء بدم جعفر وعلى والعياس وحمزة .

ويرون أن النصراني إذا قذف أم النبي صلى الله عليه وسلم بالغواية (٣) أنه ليس عليه إلا التعزير والتأديب (٤) ، ثم يحتجون أنهم إنما قالوا ذلك لأن أم النبي صلى الله عليه وسلم لم تكن مسلمة . فسيحان الله العظيم ! ما أعجب هذا القول (٥) وأبين انتشاره (٦) !

ومن حكم النبي صلى الله عليه وسلم : أن لا يساوونا في المجلس ، ومن قوله : « وان سبوكم فاضربوهم ، وان ضربوكم فاقتلوهم » .

وهم اذا قذفوا أم النبي عليه السلام بالفاحشة لم يكن له عند أمته الا التعزير والتأديب . وزعموا أن افتراءهم على النبي ليس بنكث للعهد ، ولا بنقض للعقد .

وقد أمر النبي عليه السلام أن يعطونا بالضريبة عن يدمنا عالية (٧) في قبولنا منهم (٨) ، وعقدنا لذمتهم ، دون اراقة دمهم (٩) . وقد حكم الله تعالى عليهم (١٠) بالذلة والمسكنة .

(١) ط نقط : « وعامتهم » .

(٢) الجاثليق ، بفتح الهمزة : رئيس من رؤساء النصارى ، يكون تحته المطران ، ثم الأسقف ثم القسيس ، ثم الشماس .

(٣) الغواية ، بالفتح : الضلال . ب ، م : « بالغواية » ، صوابه في ط .

(٤) التعزير : التأديب والعقاب .

(٥) ب ، م : « القوم » تحريف ما في ط .

(٦) انتشار الامور : عدم احكامه . ط نقط : « انتشاره » .

(٧) ب ، م : « عليه » ، وتصح اذا قرئت « عليه » .

(٨) ب ، م : « منه » .

(٩) ب ، م : « وعقدنا له ذمته دون اراقة دمه » .

(١٠) ب ، م : « عليه » .

أو ما ينبغي (١) للجاهل أن يعلم أن الأئمة الراشدين ، والسلف المتقدمين لم يشترطوا عند أخذ الجزية ، وعقد الذمة عدم الافتراء (٢) على النبي صلى الله عليه وسلم وأمه ، إلا (٣) لأن ذلك عندهم أعظم في العيون ، وأجل في الصدور من أن يحتسبوا إلى تخليده في الكتب ، وإلى اظهار ذكره بالشرط ، وإلى تثبيته بالبينات (٤) ، بل لو فعلوا ذلك لكان فيه ألوهن عليهم ، والمطمعة فيهم ، ولظنوا أنهم في القدر الذي يحتاج فيه (٥) إلى هذا وشبهه .

وانما يتواثق الناس في شروطهم ، ويفسرون في عهودهم ما يمكن فقد فعلوه ، وهو كالدلة والصفارة (٦) ، واعطاء الجزية ، ومقاسمة ويتعلق به الخصم ، فأما الواضح الجلى (٧) ، والظاهر الذي لا يخيل (٨) فما وجه اشتراطه ، والتشاغل بذكره .

واما ما احتاجوا إلى ذكره في الشروط ، وكان مما يجوز أن يظهر في العهد فقد فعلوه ، وهو كالدلة والصفارة (٩) ، واعطاء الجزية ، ومقاسمة الكنائس ، وأن لا يعينوا بعض المسلمين على بعض ، واشباه ذلك . فأما

(١) ط : نقط : « وما ينبغي » :

(٢) كلمة « عدم » من ط .

(٣) الا ، ساقطة من ب .

(٤) ط : « وتشبيته بالبينات » .

(٥) ب ، م : « عليهم » .

(٦) غيبى عنه غباء وغباءة : لم يظن له . ب ، م : « يغنى بالثون ط » يعبا ،

صوابها ما أثبت .

(٧) الجلى : الظاهر . ب ، م : « الجليل » .

(٨) لا يخيل على احد : لا يشكل . ط : « لا يخيل غيره » ، تحريف .

(٩) الصفارة ، كسحابة : صفراء القدر . وفي اللسان : « ابن سيده : الصفرة

والصفارة : خلاف العظم . وقيل الصفرة في الجرم والصفارة في القدر » . ب ، م :

« والصفرة » ط : « الصفارة » بالفاء ، ووجهها ما أثبت .

(م — ٢٢ الفكر الدينى)

أن يقولوا لمن هو أذل من الذليل ، وأقل من القليل ، وهو الطالب الراغب في أخذ فديته ، والانعام عليه بقبض جزيته وحقن دمه : نعاهدك على أن لا تفترى (١) على أمة (٢) رسول رب العالمين ، وخاتم النبيين وسيد الأولين والآخرين (٣) فهذا ما لا يجوز (٤) في تدبير أوساط الناس ، فكيف بالجلّة والعلية ، وأئمة الخليقة ، ومصاييح الدجى ، ومنار الهدى ، مع أنفة العرب ، وبأو السلطان (٥) ، وغلبة الدولة ، وعز الاسلام ، وظهور الحجة ، والوعد بالنصرة .

على أن هذه الأمة لم تبتل باليهود ، ولا المجوس ، ولا الصابئين كما ابتليت بالنصارى (١) . وذلك أنهم يتبعون المتناقض من أحاديثنا ، والضعيف بالأسناد من روايتنا ، والمتشابه من آى كتابنا ، ثم يخلون بضعفائنا ، ويسألون عنها عوامنا ، مع ما قد يعلمون من مسائل الملحدين ، والزنادقة الملاحين ، وحتى مع ذلك ربما تبرعوا (٧) الى علمائنا ، وأهل الأقدار منا ، ويشغبون على القوى (٨) ، ويلبسون على الضعيف .

ومن البلاء أن كل انسان من المسلمين يرى أنه متكلم ، وأنه ليس أحد أحق بمحاجة الملحدين من أحد .

وبعد ، فلو لا متكلمو النصارى وأطباؤهم ومنجھوهم ما صار الى

(١) ب ، م : « يعاهدك ان لايفترى » ، ومع سقط « على » ، وصوابه في ط .

(٢) ب ، م : « على ام » .

(٣) . ب ، م : « وخير سيد الاولين والآخرين » ، تحريف .

(٤) ب ، م : « فهذا ما يجوز » ، تحريف .

(٥) البابو : الكبر والفخر والعظمة . ب : « وبأوو » ط : « وشاو » صوابها

في ب .

(٦) ط : « كما ابتلت بالنصارى » ، صوابه في ب ، م .

(٧) ب : « تبرعوا » .

(٨) ب ، م : « على القوم » ، صوابه في ط .

اغبيائنا (١) وظرفائنا ، ومجائنا وأحداثنا (٢) شيء من كتب المنانية (٣) ،
والديسانية (٤) ، والرقونية (٥) ، والفلافية (٦) ، ولما عرفوا غير كتاب
الله تعالى ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، ولكانت تلك الكتب مستورة
عند (٧) أهلها ، ومخلاة (٨) في أيدي ورثتها . فكل نسخة عين (٩) رأيها
في أحداثنا واغبيائنا فمن قبلهم كان أولها .

وأنت إذا سمعت كلامهم في العفو والصفح ، وذكرهم للسياسة ،
وزرايتهم على كل من أكل اللحم (١٠) ، ورغبتهم في أكل الحبوب ، وترك
الحيوان ، وتزهيدهم في النكاح ، وتركهم لطلب الولد ، ومديحهم للجائليق
والمطران والأسقف والرهبان ، بترك النكاح وطلب النسل ، وتعظيمهم
الرؤساء ب علمت أن بين دينهم وبين الزنعة نسبا ، وأنهم يحفون الى ذلك
المذهب .

-
- (١) م : « اغنائنا » ب ، ط : « اغبيائنا » ، صوابها ما أثبت . وانظر
ما سيأتي في السطر الخامس .
- (٢) المجان : جمع ما جن . ب ، م ، « وتجاينا » ، صوابه . والأحداث : جميع
حدث . وفي ب ، م : « وأخذائنا » ط : « وأخذائنا » ، صوابها ما أثبت .
- (٣) المنانية : اتباع ماني . وانظر ما سبق في ٢٥٤ .
- (٤) الديسانية : فرقة من الجوس . قال ابن النديم : « انما سمي صاحبهم
يديسان بأسم نهر والد عليه . هو قبل ماني . والمذهب قريب بعضها من بعض ، وانما
بينهما خلف في اختلاط النور بالظلمة » . وانظر الملل ٢ : ٨٨ والفهرست ٤٧٤ والحيوان
٥ : ٤٦ .
- (٥) الرقونية : فرقة من الجوس ، اتباع مرقون . أثبت قديمين أصليين متضادين
أحدهما النور والآخر الظلمة ، وإثبتوا أصلا ثالثا هو الجامع . وفي مفاتيح العلوم ٢٥ :
« الرقونية » . وهي في جميع الأصول : « الرقونية » ، تحريف . وانظر الملل
والنحل ٢ : ٨٦ ومعجم استنجاس . ١٢١٨ .
- (٦) لعله كناية عن أي فرقة كانت .
- (٧) ب فقط : « مسطورة » .
- (٨) مخلاة : متروكة . وفي جميع الأصول : « مخلاة » بالحاء المهملة .
- (٩) نسخة العين : نقیض قرنها ، وذلك من حرارة الحزن . وفي ب فقط :
« نسخة » بالمهمله ، تحريف .
- (١٠) الزراية : العيب والانكار . ب : « وفرياتهم » ، صوابه في م ، ط

والعجب أن كل جاثليق لا ينكح ، ولا يطلب الولد . وكذلك كل مطران (١) ، وكل أسقف . وكذلك كل أصحاب الصوامع من اليعقوبية ، والمقيمين في الديارات (٢) والبيوت من النسطورية . وكل راهب في الأرض وراهبة ، مع كثرة الرهبان والرواهب ، ومع تشبه أكثر القسيسين بهم في ذلك (٣) ، ومع ما فيهم (٤) من كثرة الغزاة ، وما يكون فيهم مما يكون في الناس ، من المرأة العاقر ، والرجل العقيم .

على أن من تزوج منهم امرأة لم يقدر على الاستبدال بها ، ولا على أن يتزوج أخرى معها (٥) ، ولا على التسرى عليها . وهم مع هذا قد طبقوا الأرض ، وملئوا الآفاق ، وغلبوا الأمم بالعدد ، وبكثرة الولد . وذلك مما زاد في مصائبنا ، وعظمت به محنتنا .

ومما زاد فيهم ، وانمى عددهم ، أنهم يأخذون من سائر الأمم ، ولا يعطونهم ، لأن كل دين جاء بعد دين ، أخذ منه الكثير ، وأعطاه القليل .

٣ — فصل منه

ومما يدل على قلة رحمتهم ، وفساد قلوبهم أنهم أصحاب الخصاء من بين جميع الأمم ، والخصاء أشد المثلة ، وأعظم ما ركب به إنسان (٦). ثم يفعلون ذلك بأطفال لا ذنب لهم ، ولا دفع عندهم .

(١) المطران ، بفتح الميم وكسرهما ، كما في القاموس .

(٢) ط : « الديورات » تحريف . ويراد بالديارات أديار النصارى . والديارات معروفة في جموع الدار إذ هر جمع جمع لها ، فهي جمع للديار . وانظر مقدمة كتاب « الديارات » للشابستى . وأما الجمع المعروف للدير ، بالفتح ، فهو الأديار والأديرة .

(٣) ب ، م : « في زل » ، صوابه في ط .

(٤) ب ، م : « وقع مع ما فيهم » ، صوابه في ط .

(٥) على ، ساقطة من ب . وفي ب ، م : « يزوج » .

(٦) ط . نقط : « دكية إنسان » .

ولا نعرف قوما يعرفون بخصاء الناس حيث ما كانوا الا ببلاد الروم
والحبشة ، وهم في غيرهما قليل ، وأقل قليل (١) .

على أنهم لم يتعلموا الا منهم ، ولا كان السبب في ذلك غيرهم ، ثم
خصوا أبناءهم وأسلموهم في بيعهم . وليس الخصاء الا في دين الصابئين ،
فان العابد ربما خصى نفسه (٢) ، ولا يستحل خصاء ابنه (٣) . فلو تمت
إرادتهم في خصاء أولادهم في ترك النكاح وطلب النسل كما حكيت لك قبل
هذا — لانقطع النسل ، وذهب الدين ، وفتن الخلق .

والنصراني وان كان أنظف ثوبا وأحسن صناعة ، وأقل مساخة (٤) ،
فان باطنه الأم وأقذر وأسمج ، لأنه أكل ، ولا يفتسل من الجنابة ، ويأكل
لحم الخنزير ، وامراته جنب لا تطهر من الحيض ، ولا من النفاس ، ويغشاها
في الطمث ، وهي مع ذلك غير مختونة .

وهم مع شرارة طبائعهم (٥) ، وغلبة شهواتهم ليس في دينهم مزاجر
كثار الأبد في الآخرة ، وكالحدود والقود والقصاص في الدنيا ، فكيفه
يجانب ما يفسده ، ويؤثر ما يصلحه من كانت حاله كذلك . وهل يصلح
الدنيا من هو كما قلنا (٧) ؟ وهل يهيج على الفساد الا من وصفنا (٨) ؟

(١) انظر الحيوان ١ : ١١٩ ، ١٢٤ .

(٢) انظر الحيوان ١ : ١٢٥ .

(٣) ب ، م : « خصاء نفسه » ، جوابه في ط .

(٤) انظر ما مضى في ص ٣١٨

(٥) يقال : شرير ويشرا شرا ، وشرارة ، فهو شرير كأمير ، وشرير كمسكيت .

وفي جميع الاصول : « شرار » ، والوجه ما أثبت . وانظر الحيوان ٤ : ٢٩٧/٦ : ٤٦٠ .
واما الشرار ، بالكسر وكجبل ، فهو ما يطاير من النار ، واحتتهما بناء .

(٦) ب ، م : « بجانب ما يفسده » ، جوابه في ط .

(٧) ب ، م : « وهل يصلح الدنيا كجبا قللوا » ، جوابه في ط .

(٨) ب ، م : « وهل التهييج على الفساد الا كما وصفنا » ، جوابه في .

ولو جهدت بكل جهدك ، وجمعت كل عقلك أن تفهم قولهم في المسيح ،
لما قدرت عليه ، حتى تعرف به حد التصرائية ، وخاصة قولهم في الالهية .

وكيف تقدر (١) على ذلك وأنت لو خلوت ونصرائى نسطورى فسألته
عن قولهم في المسيح لقال قولا ، ثم ان خلوت بأخيه لأمه وأبيه وهو نسطورى
مثله فسألته عن قولهم في المسيح لأتاك بخلاف أخيه وصنوه . وكذلك جميع
الملكانية واليعقوبية (٢) . ولذلك صرنا لا نعقل حقيقة النصرائية ، كما
نعرف (٣) جميع الأديان .

على أنهم يزعمون أن الدين لا يخرج في القياس ، ولا يقوم على
المسائل (٤) ، ولا يثبت في الامتحان ، وإنما هو بالتسليم لما في الكتب ،
والتقليد للأسلاف . ولعمري ، ان (٥) من كان دينه دينهم يجب عليه
أن يعتذر بمثل عذرهم .

وزعموا أن كل من اعتقد خلاف النصرائية من المجوس والصابئين
والزنادقة فهو معذور ، ما لم يعتمد الباطل ، ويعاند الحق . فإذا صاروا
الى اليهود قضوا عليهم بالمعاندة ، وأخرجوهم من طريق الغلط والشبهة .

٤ - فصل منه

فأما مسألتهم في كلام عيسى في المهد : أن النصارى مع حبهم لتقوية أمره
لا يثبتونه ، وقولهم : أنا نقولناه وروينا عن غير الثقات (٦) ، وأن الدليل

(١) ب ، م : « يقدر » .

(٢) انظر ما معنى في ص ٢١٢ .

(٣) م فقط : « يعرف » .

(٤) في جميع الاصول : « المسائل » ، والوجه ما اثبت .

(٥) ان ساقطة من ط .

(٦) في جميع النسخ : « اللغات » ، وهو خطأ في الرسم ، لانه جمع لغة .

على أن عيسى لم يتكلم في المهد أن اليهود لا يعرفونه ، وكذلك المجوس ، وكذلك الهند والخزر والديلم . فنقول في جواب مسألتهم عند انكارهم كلام المسيح في المهد مولودا . و

يقال لهم : انكم حين سويتم المسألة وموهتموها ، ونظمتم الفاظها ، ظننتم انكم قد انجحتتم (١) ، وبلغتم غايتكم . ولعمري لئن حسن ظاهرها ، وراع الأسماع مخرجها (٢) ، انها لقبیحة المفتش ، سيئة المعرى .

ولعمري أن لو كانت اليهود تقر لكم باحياء الأربعة الذين تزعمون (٣) ، واقامة المقعد الذى تدعون ، واطعام الجمع الكثير من الأرغفة اليسيرة ، وتصيير الماء جمدا (٤) والمشي على الماء ، ثم أنكرت الكلام في المهد من بين جميع آياته وبراهينه (٥) لكان لكم في ذلك مقال ، والى الطعن سبيل . فاما وهم يجحدون ذلك أجمع ، فمرة يضحكون ، ومرة يغتاظون ويقولون : انه صاحب رقى ونيرجات (٦) ، ومداوى مجانيين ، ومتطبيب ، وصاحب

(١) انجح : صار ذا نجح وظفر . وينال أيضا نجح ، اذا اصاب طلبته . ط نقط : « نجحتم » واثبت ما في ب ، م .

(٢) ب نقط : « لخرجها » ، تحريف .

(٣) ب ، م : « يزعمون » . وهؤلاء الأربعة فيما يذكر المسرون هم : « عازر » ، وكان صديقا له ، احياه بعد ثلاثة أيام فقام من قبره يقطر ونكه وبقي الى أن ولد له . والثانى : ابن المعجوز احياه وهو على سرير الموت ، فنزل عن اعناق الرجال وحمل سريريه ، وبقي الى أن ... ولد له . والثالث : بنت المعمار ، وقد تمتعت بولدها بعد ما حيت . والرابع : سام بن نوح عليه السلام . سألوه ان يحييه لخبيرهم عن حال السفينة . فخرج من قبره . هذا ما ذكره أبو حيان في تفسيره ٢ : ٤٦٧ .

(٤) الجمد ، بالتحريك ، وكذا بالفتح : الماء الجامد . وقيل : هو بالتحريك يكون جمعا لجامد ، مثل خادم وخدم . ب فقط : « جامدا » .

(٥) ب ، م : « وبرهانه » ، جوابه في ط .

(٦) كذا في ب والحيوان ٤ : ٢٧٠ . في م ، ط : « نيرجات » ، وهما لغتان في التعريب قال صاحب القاموس : « والنيرنج ، بالكسر : اخذ كالسحر وليس به . وعقب عليه الزبيدي بقوله : « هكذا في سائر النسخ . والمنقول عن نص كلام اللبث : النيرج ، بإسقاط النون الثانية . وجاء في كتاب المعارف لابن قتيبة ١٧٨ : « وكان صاحب نيرجات » . واقول : هو بالفارسية « بيرتك » .

حيل وتربص خدع (١) ، وقراءة كتب ، وكان لسنا مسكينا (٢) ، ومقتولا مرحوما ، ولقد كان قبل ذلك صياد سمك ، وصاحب شبك ، وكذلك أصحابه . وأنه خرج على مواطاة منهم له ، وأنه لم يكن لرشدة (٣) .

ولحسنهم قولا ، والينهم مذهباً من زعم أنه ابن يوسف النجار (٤) . وأنه قد كان واطاً. ذلك المقعد قبل اقامته بسنين ، حتى اذا شهره بالقعدة (٥) ، وعرف موضعه في الزمنى ، مر به في جمع من الناس كأنه لا يريد ، فشكا اليه الزمانة وقلة الحيلة ، وشدة الحاجة ، فقال : ناولنى يدك . فناوله يده ، فاجتذبه فاقامه ، فكان تجمع (٦) لطول القعود ، حتى استمر بعد ذلك .

وأنه لم يحى (٧) ميتاً قط ، وإنما كان داوى رجلاً يقال له « لا عازر (٨) » اذ (٩) أغمى عليه يوماً وليلة ، وكانت أمه (١٠) ضعيفة العقل ، قليلة المعرفة ، فمر بها (١١) ، فاذا هى تصرخ وتبكي ، فدخل

(١) التربص : المكث والانتظار . ب ، م : « وترمض » . وفي ط : « وصاحب » رآى الوجه فيما أثبت .

(٢) ب ، م : « سكيناً » ، وأثبت ما في ط

(٣) يقال هو لرشدة بالكسر وقد يفتح : نقيض قولهم : لزنية أو لغير رشدة . والرشدة : النكاح الصحيح . ط : « لم يكن له شدة » ، تحريف .

(٤) ط : « وأخسهم قولا والابهم مذهباً » ، تحريف .

(٥) القعدة ، بالكسر : ضرب من القعود .

(٦) ط فقط : « تجهد » .

(٧) ب ، م : « لم يحى » ، تحريف .

(٨) في جميع الاصول : « لعازر » ، وانها هو « لعازر » المذكور في انجيل يوحنا

١١ : ٤٣

(٩) ب فقط : « اذا » .

(١٠) في انجيل يوحنا ١١ : ٥ انها اخته واسمها « مرقا » . وفيه ايضا ان يسوع

كان يحب مرقا واختها ولعازر . وينهم من هذا ايضا ان له أختين .

(١١) ط فقط : « بها » .

اليها ليسكتها ويعزيها ، وجس عرقه فرأى فيه علامة الحياة ، فداواه حتى أقامه ، فكانت لقلّة معرفتها (١) لا تثك أنه قد مات ، وفرحها بحياته تثنى عليه بذلك ، وتتحدث به .

فكيف تستشهدون قوما هذا قولهم في صاحبكم ، حين قالوا : كيف يجوز أن يتكلم صبي في المهد مولودا (٢) ، فيجعله (٣) الأولياء والأعداء .

ولو كانت المجوس تقر لعيسى بعلامة واحدة ، وبأننى أعجوبة ، لكان لكم أن تنكروا علينا بهم (٤) ، وتستعينوا بإنكارهم . فأما وحال عيسى في جميع أمره عند المجوس كحال زرادشت في جميع أمره عند النصارى فما اعتلالهم بهم ، وتعلقهم في إنكارهم ؟

وأما قولكم : وكيف لم تعرف الهند والخزر والترك ذلك ؟ فمتى أقرت الهند لموسى بأعجوبة واحدة ، فضلا عن عيسى ؟ ومتى أقرت لنبى بلأيه ، أو روت له سيرة ، حتى تستشهدوا (٥) الهند على كلام عيسى في المهد ؟

ومتى كانت الترك والديلم والخزر والبير (٦) والطيلسان (٧) مذكورة في شيء من هذا الجنس ، محتجا بها على هذا الضرب ؟

(١) ب ، م : « بقلة معرفتها » .

(٢) ب ، م : « مولود » .

(٣) ب فقط : « يجعله » .

(٤) ب ، م : « تكبروا علينا بهم » .

(٥) ب ، م : « حتى يستشهدوا » .

(٦) البير ، بيامنين : أمة تدينه أنها من أمم الترك ، وتقرن بالطيلسان ، كما

في البيان ١ : ١٣٧ . وجاء في الطبرى ٤ : ٢٤٦ : « تبعث عبدالله بن شبيل بن عوف

الاحمسي في أربعة آلاف ناغار على أهل موطن والبير والطيلسان » ، ب : « والسرو »

م « والسر » ط : « والنتز » ، صوابها جميعا ما أثبت . ولم ترد «النتز» في

أثر من آثار الجاحظ ، كما أن معرفة العرب بالنتز جاءت متأخرة ، إذ لم يرد ذكرهم في الكامل

لابن الأثير قبل سنة ٣٤٥ .

(٧) الطيلسان : إقليم واسع كثير البلدان والسكان من نواحي الديلم والخزر ،

انتدحه الوليد بن عقبة في سنة ٣٤ . معجم البلدان . وانظر للحاشية السابقة .

فان سألونا عن انفسهم فقالوا : ما لنا لا نعرف ذلك ولم يبلغنا عن احديته ؟ أجبناهم بعد اسقاط نكيرهم (١) وتشنيعهم ، وتزوير شهودهم .

وجوابنا (٢) : انهم انما قبلوا دينهم (٣) عن أربعة انفس : اثنان منهم من الحواريين بزعمهم (٤) : يوحنا ، ومتى . واثنان من المستجيبة (٥) وهما : ماركس ولوقس (٦) ، وهؤلاء الأربعة لا يؤمن عليهم الغلط ولا النسيان . ولا تعمد الكذب ، ولا التواطؤ (٧) على الأمور ، والاصطلاح على اقتسام الرئاسة (٨) ، وتسليم كل واحد منهم لصاحبه حصته التي شرطها له .

فان قالوا : انهم كانوا افضل من أن يتعمدوا كذبا ، وأحفظ من أن يفسوا شيئاً ، وأعلى (٩) من أن يغلطوا في دين الله تعالى ، أو يضيعوا عهداً .

قلنا : ان اختلاف رواياتهم في الانجيل ، وتضادها في كتبهم (١٠) ، واختلافهم في نفس المسيح ، مع اختلاف شرائعهم ، دليل على صحة قولنا فيهم (١١) ، وغفلتكم عنهم .

(١) في الاصول : « تكثيرهم » .

(٢) ط نقط : « مجوابنا » .

(٣) قبلوا دينهم : اخذوه وتلقوه ، كما يقبل الرجل الدلو من المستقى والقابلة الولد من الوالدة .

(٤) ب نقط : « يزعمهم » ، تحريف .

(٥) ب نقط : « من المسيحية » ، تحريف .

(٦) هما مرقس ولوقا .

(٧) ب ، م : « ولا التواطى » ، صوابها في ط .

(٨) ب ، م : « والاصلاح على اقتسام الرئاسة » ، صوابه في ط .

(٩) ب ، م : « وأعنى » ، تحريف ما في ط .

(١٠) ب ، م : « وتضاد معانى كتبهم » .

(١١) الكلام بعده الى نهاية هذه الرسالة بجبرج اصولها ، ساقط من ط .

وما ينكر من مثل لوقش أن يقول باطلا ، وليس من الحواريين ، وقد كان يهوديا قبل ذلك بأيام يسيرة ، ومن هو عندكم من الحواريين خير من لوقش عند المسيح في ظاهر الحكم بالطهارة ، والطباع الشريفة ، وبراءة الساحة .

٥ - فصل منه (١)

وسألتهم عن قولهم : إذا كان تعالى قد اتخذ عبدا من عباده خليلا ، فهل يجوز أن يتخذ عبدا من عباده ولدا ، يريد بذلك اظهار رحمته له ، ومحبته اياه ، وحسن تربيته وتأديبه له ، ولطف منزلته منه ، كما سمي عبدا من عباده خليلا ، وهو يريد تشريفه وتعظيمه ، والدلالة على خاص حاله عنده .

وقد رايت من المتكلمين من يجيز ذلك ولا ينكره ، اذا كان ذلك على التبنى والتربية والابانة له بلطف المنزلة ، والاختصاص له بالرحمة والمحبة ، لا على جهة الولادة ، واتخاذ صاحبة . ويقول (٢) : ليس في القياس فرق بين اتخاذ الولاد على التبنى والتربية وبين اتخاذ الخليل على الولاية والمحبة .

وزعم أن الله تعالى يحكم في الأسماء بما أحب ، كما أن له أن يحكم في المعاني بما أحب .

وكان يجوز دعوى أهل الكتاب على التوراة والانجيل والزبور ، وكتب

(١) هذا الفصل وما يليه من الفصول الى نهاية هذه الرسالة ساقط من ط كما سبق التنبيه .

(٢) ب : « ونقول » م : « ونقول » ، صوابهما ما اثبت .

الأنبياء صلوات الله عليهم في قولهم : ان الله قال : « اسرائيل بكري (١) »
 اى هو اول من تبنيته من خلقى . وانه قال : « اسرائيل بكري ، وبنوه
 اولادى » . وانه قال لداود : « سيولد لك غلام ، ويسمى لى ابنسا ،
 واسمى له ابا (٢) » . وان المسيح قال في الانجيل : « انا اذهب الى ابي
 وابيكم ، والهي والهكم (٣) » ، وان المسيح امر الحواريين ان يقولوا في صلواتهم :
 « يا ابانا في السماء تقدس اسمك (٤) » . في أمور عجيبة ، ومذاهب
 شنيعة (٥) ، يدل على سوء عبادة اليهود (٦) ، وسوء تأويل اصحاب
 الكتب ، وجهلهم مجازات الكلام ، وتصارييف اللغات ، ونقل لغة الى لغة ،
 وما يجوز على الله ، وما لا يجوز . وسبب هذا التأويل كله الغى والتقليد ،
 واعتقاد التشبيه .

وكان يقول : انما وضعت الاسماء على اقدار المصلحة ، وعلى قدر
 ما يقابل من طبائع الأمم . فربما كان اصلح الأمور وامتنها (٧) ان يتبناه
 الله او يتخذاه خليلا ، او يخاطبه بلا ترجمان ، او يخلقه من غير ذكر ،
 او يخرجه من بين عاقر وعقيم . وربما كانت المصلحة غير ذلك كله . وكما

(١) في سفر الخروج ٤ : ٢٢ : « تقول لفرعون : هكذا يقول الرب ، اسرائيل
 ابني المبكر » . وفي سفر هوشع ١١ : ١ : « لما كان اسرائيل غلاما أحببته ومن مصر
 دعوت ابني » . وفي رسالة بولس الى اهل رومية ٩ : ٤ : « الذين هم اسراييليون ،
 ولهم اللبني والمجد » .

(٢) في صموئيل الثانى ٧ : ١٢ - ١٤ : « متى كملت ايامك واضطجعت مع
 آبائك اقيم بعدك نسلك الذى يخرج من احشائك واثبت مملكه . هو يبنى بيتا لا سمي
 وانا اثبت كرسى مملكته الى الابد . انا اكون له ابا وهو يكون لى ابيا » .

(٣) جاء في انجيل يوحنا ٢٠ : ١٧ في مخاطبة عيسى عليه السلام لمريم المجدلية :
 « قال لها يسوع : لا تلمسينى لانى لم اصعد بعد الى ابي . ولكن اذهبي الى اخوتي
 وقولى لهم : انى اصعد الى ابي وابيكم والهي والهكم » .

(٤) في انجيل متى ٦ : ٩ : « صلوا انتم هكذا : ابانا الذى في السموات ليتقدس
 اسمك » . وانظر ايضا انجيل لوقا ١١ : ٢ .

(٥) ب : « شيعه » م : « شئعة » ، والوجه ما اثبت ، وان كانت « شئعة »
 صحيحة ايضا .

(٦) ب : « عبارة » ، واثبت ما في م .

(٧) ب : « وامته » م : « وامنه » ، ولعل وجهه ما أثبت .

تعبدا أن نسميه جوادا ونهانا أن نسميه سخيا أو سريا (١) وأمرنا أن نسميه مؤمنا ونهسانا أن نسميه مسلما ، وأمرنا أن نسميه رحيما ونهانا أن نسميه رفيقا .

وقياس هذا كله واحد ، وإنما يتسع ويسهل على قدر العادة وكثرتها . ولعل ذلك كله قد كان شائعا في دين هود وصالح وشعيب وإسماعيل ، إذ كان (٢) شائعا في كلام العرب في إثبات ذلك وإنكاره .

وأما نحن — رحمك الله — فإنا لا نجيز أن يكون لله ولد ، لا من جهة الولادة ، ولا من جهة التبني ، ونرى أن تجوز جهل عظيم ، واثم كبير ، لأنه لو جاز أن يكون أباه ليعقوب لجاز أن يكون جدا ليوسف ، ولو جاز أن يكون جدا وأبا ، وكان ذلك لا يوجب نسبا ، ولا يوهم مشاكلة في بعض الوجوه ، ولا ينقص من عظم ، ولا يحط من بهاء ، لجاز أيضا أن يكون عما وخالا ، لأنه ان جاز أن يسميه (٣) من أجل الرحمة والمحبة والتأديب — أبا ، جاز أن يسميه آخر من جهة التعظيم والتفضيل والتسويد أخا (٤) ، ولجاز أن يجد له صاحبا وصديقا ، وهذا ما لا يجوز إلا من لا يعرف عظمة الله ، وصغر قدر الإنسان .

وليس بحكيم من ابتذل نفسه في توقير عبده ، ووضع من قدره في التوفر على غيره . وليس من الحكمة أن تحسن إلى عبدك بأن تسيء إلى

(١) في النسختين : « سريا » ، والصواب ما أثبت . والسرى : وصف من سرو كشراف ودعا ورضى ، سراوة وتروا وسرا وسراء ، وهي المروءة في شرف .

(٢) م : « إذا كان » .

(٣) الكلام بعده إلى « ينميه » التالية تساقط من م .

(٤) في النسختين : « والتفضيل أخا والتسويد أخا » ، و « أخا » الأولى مقحمة .

نفسك ، وتأتى من الفضل ما لا يجب بتضييع ما يجب . وكثير الحمد لا يقوم بقليل الذم (١) ، ولم يحمد الله ولم يعرف الهيته من جوز عليه صفات البشر ، ومناسبة الخلق ، ومقاربة العباد .

وبعد ، فلا يخلو المولى فى رفع عبده وكرامه من أحد أمرين :
أما أن يكون لا يقدر على كرامته الا بهوان نفسه ، ويكون على ذلك قاورا ، مع وفارة العظمة ، وتمام البهاء .

وان كان لا يقدر على رفع قدر غيره الا بأن ينقص (٢) من قدر نفسه فهذا هو العجز ، وضيق الذرع (٣) .

وان كان على ذلك قادرا فائرا ابتذال نفسه والخط من شرفه فهذا هو الجهل الذى لا يحتمل (٤) .

والوجهان عن الله جل جلاله منفيان .

ووجه آخر يعرفون به صحة قولى ، وصواب مذهبي ، وذلك أن الله تبارك وتعالى لو علم أنه قد كان فيها أنزل من كتبه على بنى اسرائيل : ان اباكم كان بكرى وابنى ، وانكم أبناء بكرى — لما كان تغضب عليهم (٥) اذ قالوا : نحن أبناء الله ، فكيف لا يكون ابن ابن الله ابنه (٦) ،

(١) فى النسختين : « ما لا يقول بقليل الذم » ، والصواب حذف « ما » . لا يقوم به : لا يعادله .

(٢) ب : « ينقض » ، صوابه في م .

(٣) الذرع : الطاقة وهو أيضا : بسط اليد . والمراد ضيق الخلق ، على المثل . م : « الزرع » ، تحريف .

(٤) فى النسختين : « لا يحمل » ، والوجه ما أثبت .

(٥) التغضب : الغضب ، واستعار الراعى التغضب لشدة غليان القدر فى قوله : اذا أحشوها بالوقود تغضبت على اللحم حتى تترك اللحم باديا

وفى النسختين : « تعصب » بالعين المهملة ، صوابه ما أثبت . وانظر الآية ١٨ من

سورة المائدة .

(٦) ب : « لا يكون ابن ابنه » م : « لا يكون ابن الله ابنه » . والصواب ما أثبت .

وهذا من تمام الاكرام ، وكمال المحبة ، ولا سيما ان كان قال في التوراة :
بنو اسرائيل أبناء بكرى .

وانت تعلم ان العرب حين زعمت ان الملائكة بنات الله كيف استعظم
الله تعالى ذلك واكبره ، وغضب على اهله ، وان كان يعلم ان العرب لم
تجعل الملائكة بناته على الولادة واتخاذ الصاحبة ، فكيف يجوز مع ذلك ان
يكون الله قد كان يخبر عباده قبل ذلك بأن يعقوب ابنه ، وأن سليمان
ابنه ، وأن عزيزا ابنه ، وأن عيسى ابنه (١) ؟ .

فالله تعالى اعظم من أن يكون له أبوة من صفاته ، والانسان احقر
من أن يكون بنوة الله من انسابه .

والقول بأن الله يكون ابا وجدا (٢) واخا وعمما ، للنصارى الزم ،
وان كان للآخرين لازما ، لأن النصارى تزعم ان الله هو المسيح بن مريم ،
وان المسيح قال للحواريين : « اخوتي » . فلو كان للحواريين اولاد لجاز
أن يكون الله عمهم ا

بل قد يزعمون ان مرقس هو ابن شمعون الصفا (٣) ، وأن زوزرى
ابنته ، وان النصارى تقر ان في انجيل مرقس (٤) : « ما زاذ (٥) امك
واخوتك على الباب » وتفسرها : ما زاذ (٦) : معلم . فهم لا يمتنعون
من أن يكون الله تبارك وتعالى ابا وجدا وعمما .

(١) وان عزيزا ابنه ، ساقط من ب .

(٢) ب : « ابا واحدا » ، صوابه في م .

(٣) في الفصل لابن حزم ٢ : ٢ ان ماركس هو تلميذ شمعون الصفا بن توما .

(٤) في النسختين : « في الانجيل مرقس » صوابه ما اثبت . وانظر انجيل مرقس

٣ : ٣٢ .

(٥) ب : « ماذا » بذالين معجمتين . والذي في الانجيل : « هوذا » .

(٦) ب : « ماذا » بذالين معجمتين .

ولولا (١) أن الله قد حكى عن اليهود أنهم قالوا : « عزيرا ابن الله (٢) » ، (ويد الله مغلولة (٣)) ، و « أن الله فقير ونحن أغنياء (٤) » وحكى عن النصارى أنهم قالوا : « المسيح ابن الله » وقال : (قالت النصارى المسيح ابن الله (٥)) . وقال : (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة (٦)) — لكنك لأن أخر من السماء أحب الى من أن ألفظ بحرف مما يقولون . ولكنى لا أصل الى اظهار جميع مخازيهم ، وما يسرون من فضائحهم ، الا بالاخبار منهم ، والحكاية منهم .

فان قالوا : خبرونا عن الله ، وعن التوراة ، اليسست حقا (٧) ؟ قلنا : نعم . قالوا : فان فيها « اسرائيل بكرى (٨) » وجميع ما فكرتم عنا معروف فى الكتب .

قلنا : ان القوم انما أتوا من قلة المعرفة بوجوه الكلام ، ومن سوء الترجمة ، مع الحكم بما يسبق الى القلوب . ولعمري ان لو كانت لهم عقول المسلمين ومعرفتهم بما يجوز فى كلام العرب ، وما يجوز على الله ، مع فصاحتهم بالعبرانية ، لوجدوا لذلك الكلام تأويلا حسنا ، ومخرجا سهلا ، ووجها قريبا . ولو كانوا ايضا لم يعطلوا فى سائر ما ترجموا لكان لقائل مقال ، ولطاعن مدخل ، ولكنهم يخبرون ان الله تبارك وتعالى قال فى العشر

(١) بي : « ولولا » :

(٢) اشارة الى الآية الكريمة : « وقالت اليهود عزير ابن الله » ، وهى الآية ٣٠

من التوبة .

(٣) الآية ٦٤ من سورة المائدة .

(٤) الآية ١٨١ من سورة آل عمران

(٥) الآية ٣٠ من سورة التوبة . والانتباس هنا بطرح الواو ، فان نص الآية :

« وقالت النصارى » . وهو امر جائز كما اشرت الى ذلك فى كتابى تحقيق النصوص ص ٥١ .

(٦) الآية ٧٣ من سورة المائدة .

(٧) فى النسختين : « حق » ، صوابه ما أثبت .

(٨) انظر ما مضى فى حواشى ص ٢٢٢ .

آيات (١) التي كتبها. أصابع الله : « انى أنا الله الشديد ، وانى أنا الله الثقف. (٢) ، وانا النار التي تاكل النيران (٣) ، آخذ الأبناء بحوب الآباء ، القرن الأول والثانى والثالث الى السابع (٤). » . وأن داود قال فى الزبور : « وافتح عينك يارب » و « قم يارب » ، و « أصغ الى سمعك يارب (٥) » . وأن داود خبر أيضا فى مكان آخر عن الله تعالى : « وانتبه الله كما ينتبه السكران الذى قد شرب الخمر (٦) » . وأن موسى قال فى التوراة : « خلق الله الاشياء بكلمته ، وبروح نفسه » . وأن الله قال فى التوراة لبني اسرائيل : « بذراعى الشديدة اخرجتكم من أهل مصر (٧) » . وأنه قال فى كتاب اشعيا : « احمد الله حمدا جديدا ، احمده فى اقصى الأرض ، يملأ الجزائر وسكانها ، والبحور والقفار وما فيها ، ويكون بنو قيدار فى القصور ، وسكان الجبال (٨) — يعنى قيدار بن اسماعيل — ليصيحوا ويصيروا لله الفخر والكرامة ، ويسبحوا بحمد الله فى الجزائر (٩) » .

-
- (١) فى النسختين : « فى العشر آيات » ، والوجه ما أثبت .
 (٢) الثقف : القطن النكى .
 (٣) فى النسختين : « أكل النيران » .
 (٤) فى سفر الخروج ٣٤ : ٧ : « معتد اثم الأسماء فى أبناء فى الجيل الثالث والرابع . »
 (٥) انظر المزامير ١٧ : ١ و ٢٨ ، ٢ و ٦١ : ١
 (٦) فى المزامير ٧٨ : ٦٥ : « تاسيقظ للرب كنائم كجبار منعيط من الخمر . » . معيط الشارب : قال عيط معيط ، بكسر العين ، وقد عيط تعييطا .
 (٧) انظر الخروج ١٣ : ٣ والتثنية ٤ : ٣٤/٥ : ١٥ والمزامير ١٣٦ : ١١-١٢ .
 (٨) فى سفر اشعيا ٤٢ : ١٠ ، ١١ : « غنوا للرب أغنية جديدة تسبيحه من اقصى الأرض ، ايها المنحدرون فى البحر وملؤه ، والجزائر وسكانها . لترفع البرية ومدنها صوتها الديار التي سكنتها قيدار . لتترنم سكان سلع من رؤس الجبال » .
 (٩) فى سفر اشعيا ٤٣ : ١١ — ١٢ : « ليهتلوا . ليعطوا الرب مجدا ويخبروا بتسبيحه فى الجزائر » . وفى الاصل هنا : « يصيحوا ويصيروا لله الفخر والكرامة ، ويلبسون بحمد الله فى الجزائر » . وقد اصلحت العبارة فى ضوء ما فى السفر .
 (م — ٢٣ الفكر الدينى)

وأنه قال على اثر ذلك : « ويخرج الرب (١) كالجبار ، وكالرجل الشجاع المجرب (٢) ، ويزجر ويصرخ ، ويهيج الحرب والحمية ، ويقتل أعداءه (٣) ، يفرح السماء والأرض » .

وأن الله قال أيضا في كتاب اشعيا : « سكت . قال : هو متى أسكت ، مثل المرأة التي قد أخذها الطلق للولادة اتلف (٤) ، وان ترانى أريد احرق الجبال والشعب (٥) ، وآخذ بالعرب في طريق لا يعرفونه (٦) » .

وكلهم على هذا اللفظ العربى مجمع . ومعنى هذا لا يجوزه احد من اهل العلم ، ومثل هذا كثير تركته لمعرفةكم به .

وانت تعلم ان اليهود لو أخذوا القرآن فترجموه بالعبرانية لأخرجوه من معانيه ، ولحولوه عن وجوهه ، وما ظنك بهم اذا ترجموا : (فلما آسفونا انتقمنا منهم (٧)) ، و (لتصنع على عيني) و (السموات مطويات بيمينه) و (على العرش استوى (١٠)) ، و (فاضرة . الى ربه ناظرة (١١)) ، وقوله : (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا (١٢)) ،

(١) في النسختين : « ويحيى الرب » وفي سفر اشعيا : « الرب كالجبار يخرج » .
 (٢) في سفر اشعيا : « كرجل حروب ينهض غيره »
 (٣) في سفر اشعيا : « يهتف ويصرخ ويقوى على أعدائه » .
 (٤) لاريب ان في العبارة تحريفا . والذي في سفر اشعيا ٤٢ : ١٤ : « قد صمت منذ الدهر ، ، سكت تجلجت . كالوالدة اصيح وانلخ وأنخر معا » . سكت وتجلجت بتاء المتكلم فيهما .

(٥) في سفر اشعيا : « أخرج الجبال والاكمام واجلف كل عشبها واجعل الانهار يبسا وانشف الاجام » .

(٦) كذا . والذي في السفر : « وأسير العمى في طريق لم يعرفوها » . اسير من التسيير ، والعمى : جمع أعمى

(٧) الآية ٥٥ من سورة الزخرف .

(٨) الآية ٣٩ من سورة طه .

(٩) الآية ٦٧ من سورة الزمر .

(١٠) الآية ٥ من سورة طه .

(١١) الآية ٢٢ ، ٢٣ من سورة القيامة .

(١٢) الآية ١٤٣ من سورة الأعراف .

و (كلم الله موسى تكليما (١)) ، و (جاء ربك والملك صفًا صفًا (٢)) .

وقد يعلم أن مفسري كتابنا وأصحاب التأويل منا أحسن معرفة ، واعلم بوجوه الكلام من اليهود ، ومتأولي الكتب ، ونحن قد نجد في تفسيرهم ما لا يجوز على الله في صفة ، ولا عند المتكلمين في مقاييسهم (٣) ، ولا عند النحويين في عربييتهم . فما ظللك باليهود مع غبارتهم وغيهم ، وقلة نظرهم وتقليدهم ؟ .

وهذا باب قد غلطت فيه العرب أنفسها ، وفصحاء أهل اللغة إذا غلطت قلوبها ، وأخطأت عقولها ، فكيف بغيرهم ممن لا يعلم كعلمها ؟ .

سمع بعض العرب قول جميع العرب : « القلوب بيد الله » ، وقولهم في الدعاء : « نواصينا بيد الله » وقوله جل ذكره : (بل يده مبسوطة) (٤) ، وقولهم : « هذا من أيادي الله ونعمه عندنا » وقد كان من لغتهم أن الكف أيضا يد (٥) ، كما أن النعمة يد ، والقدرة يد ، فغلط الشاعر (٦) فقال :
هون عليك فان الأمور بكف الاله مقاديرها (٧)

(١) الآية ١٦٤ من سورة النساء .

(٢) الآية ٩٢ من سورة النجم .

(٣) في النسختين : « مقاييسهم » .

(٤) الآية ٦٤ من سورة المائدة .

(٥) في النسختين : « الكفر أيضا يد » ، والوجه ما أثبت . وهو تهديد للاستشهاد بالبيت الثاني ، الذي أثبت للاله كما ، وذلك من سوء أدب الشاعر ، وإنما يعبر باليد في ذات الله لمعنى النعمة والقدرة .

(٦) هو محمد بن حازم الباهلي كما في المتمد ٣ : ٢٠٦ . وسماه « ابن أبي حازم » ، تحريف . وهو محمد بن حازم بن عمرو الباهلي . كان من ساكني بغداد ، ومولده ونشؤه بالبصرة . وهو من شعراء الدولة العباسية . شاعر مطبوع ، إلا كان كثير الهجاء للناس . ولم يمدح من الخلفاء إلا المأمون . كان يقول المقطعات الصغيرة فيحسن . وهو صاحب البيت المشهور :

يا رائد الليل مسرورا بأوله ان الحوادث قد يطرئن أسحارا

وقد عاتبه يحيى بن أكرم على اختصاره للشعر ، فأجابه بأشعار حسن .

انظر الاغانى ١٢ : ١٥١ - ١٦٠ والمرزبانى ٤٢٩ وتاريخ بغداد ٧٨١ .

(٧) في المتمد : * لا تحرصن فان الامور *

وقد كان إبراهيم بن سيار النظام، يجيب بجواب ، وأنا ذاكره ان شاء الله . وعليه كانت علماء المعتزلة ، ولا آراء مقنعا ولا شافيا .

وذلك انه كان يجعل الخليل مثل الحبيب ، مثل الولي ، وكان يقول : خليل الرحمن مثل حبيبه ووليه وناصره . وكانت الخلّة والولاية والمحبة سواء .

قالوا : ولما كانت كلها عنده سواء جاز أن يسمى عبدا له ولدا ، لمكان التربية التي ليست بحضانة ، ولمكان الرحمة التي لا تشتق من الرحم (١) ، لأن انسانا لو رحم جرو كلب فرباه لم يجز أن يسميه ولدا ويسمى نفسه أباً . ولو التقط صبيا فرباه جاز أن يسميه ولداً ويسمى نفسه له أباً ، لأنه شبيه ولده ، وقد يولد بثلاثة مثله . وليس بين الكلاب والبشر أرحام ، فإذا كان شبهه شبه (٢) الاثنان أبعد من الله تعالى من شبهه الجرو بالانسان ، كان الله أحقّ بالآل يجعله ولده ، وينسبه الى نفسه .

قلنا لإبراهيم النظام عند جوابه هذا وقياسه (٣) الذي قاس عليه ، في المعارضة والموازنة بين قياسنا وقياسه : أرايت كلباً ألف كلابه (٤) ، وحامى وأحمى دونه ، هل يجوز أن يتخذه بذلك كله خليلاً ، مع بعد التشابه والتناسب ؟

فإذا قال : لا . قلنا : فالعبد الصالح أبعد شبيهاً من الله من ذلك الكلب المحسن الى كلابه ، فكيف جاز في قياسك أن يكون الله خليل من لا يشاكله

(١) في الينختين : « لا يشتق » ، تحريف .

(٢) ب : « شبيه » .

(٣) ب : « وان قياسه » .

(٤) الكلاب : صاحب الكلاب ، كما أن المكنى صاحبها الذي يعلمها أخذ الصيد ويصطاد

بها . ب : « أرايت كلاباً » طوابعه في م .

. لمكان احسانه ، ولا يجوز للكلاب أن يسمى كلبه خليلا أو ولدا لمكان حسن تربيته له ، تأديبه اياه ، ولمكان حسن الكلب وكسبه عليه ، وقيامه بمقام الولد الكاسب والأخ ، والبار .

والعبد الصالح لا يشبه الله في وجه من الوجوه ، والكلب قد يشبه كلابه لوجوه كثيرة ، بل ما أشبهه به مما خالفه فيه ، وإن كانت العلة التي منعت من تسمية الكلب خليلا ولدا بعد شبهه من الانسان .

فلو قلتم (١) فما الجواب الذي أجبت فيه ، والوجه الذي ارتضيته ؟ .

قلنا : ان ابراهيم صلوات الله عليه ، وإن كان خليلا ، فلم يكن خليلا بخلة كانت بينه وبين الله تعالى ، لأن الخلة والاخاء والصداقة والتصافي والخلطة وأشباه ذلك منفية عن الله تعالى عز ذكره ، فيما بينه وبين عباده ، على أن الاخاء والصداقة دخلتان في الخلة ، والخلة أعم الاسمين ، وأخص الحالين . ويجوز أن يكون ابراهيم خليلا بالخلة (٢) التي أدخلها الله على نفسه وماله ، وبين أن يكون خليلا (بالخلة وأن يكون خليلا (٣) بخلة بينه وبين ربه — فرق ظاهر ، وبون واضح . وذلك أن ابراهيم عليه السلام اختل في الله تعالى اختلا لا لم يختله أحد قبله لقنهم اياه في النار ، وذبحه ابنه ، وحمله على ماله في الضيافة والمواساة والاثرة ، وبيعداوة قومه ، والبراءة من أبويه في حياتهما ، وبعد موتهما ، وترك وطنه ، والهجرة إلى غير داره ، ومسقط رأسه « فصار لهذه الشدائد مختلا في الله وخليلا في الله . والخليل والمختل (٤) سواء في كلام العرب . والدليل على أن يكون

(١) في النسختين : لم قلتم « ، والوجه ما اثبت .

(٢) الخلة ، بالفتح : الحاجة والمقر .

(٣) تكملة ينتقر إليها الكلام .

(٤) في النسختين : « مخول » ، تحريف . وفي اللسان : « ورجل مغل ومختل

وخليل . وأغل : بفتح . مختل . » .

الخليل من الخلّة كما يكون من الخلّة قول زهير بن أبي سلمى ، وهو يمدح
هرما :

وان اتاه خليل يوم مسغبة يقول لا عاجز مالى ولا هرم (١)

وقال آخر :

وانى الى ان تسعفانى بحاجة الى آل ليلى مرة لخليل

وهو لا يمدحه بأن خليله وصديقه يكون فقيرا سائلا ، يأتى يوم المسألة
ويبسط يده للصحة والعطية ، وانما الخليل فى هذا الموضع من الخلّة
والاختلال ، لا من الخلّة والخلال .

وكأن ابراهيم عليه السلام حين صار فى الله مختلا أضافه الله الى
نفسه ، وأبناؤه بذلك عن سائر أوليائه ، فسماه خليل الله من بين الأنبياء ،
كما سمى الكعبة : بيت الله من بين جميع البيوت ، وأهل مكة : أهل الله
من بين جميع البلدان . وسمى ناقّة صالح عليه السلام : ناقّة الله من بين
جميع النوق . وهكذا كل شئ عظمه الله تعالى ، من خير وشر ، وثواب
وعقاب . كما قالوا : دمه فى لعنة الله ، وفى نار الله وفى حرقة . وكما
قال للقرآن : كتاب الله ، وللمحرم : شهر الله . و (على هذا المثال قيل
لحمزة رحمة الله ورضوانه عز ذكره عليه : أسد الله ، و (٢) لخالد رحمة
الله عليه : سيف الله تعالى .

وفى قياسنا هذا لا يجوز : ان الله خليل ابراهيم ، كما يقال : ان ابراهيم
خليل الله .

(١) ديوان زهير ١٥٣ والعينى ٤ : ٤٢٦ .

(٢) هذه التكملة من م وان كانت عبارة الدعاء هذه ليست من أسلوب الجاحظ .

فان قال قائل : فكيف لم يقدموه على جميع الانبياء ، اذ كان الله قدمه بهذا الاسم الذى ليس لاحد مثله ؟ .

قلنا : ان هذا الاسم اشتق له من عمله وحاله وصفته ، وقد قيل لموسى عليه السلام : كلیم الله ، وقيل لميسى : روح الله ، ولم يقل ذلك لابراهيم ، ولا لمحمد صوات الله عليهما ، وان كان محمد صلى الله عليه وسلم ارفع درجة منهم ، لأن الله تعالى كلم الانبياء عليهم السلام على السنة الملائكة ، وكلم موسى كما كلم الملائكة ، فلهذه العلة قيل : كلیم الله . وخلق في نطف الرجال ان قذفها (١) في ارحام النساء على ما أجرى عليه تركيب العالم ، وطباع الدنيا ، وخلق في رحم مريم روحا وجسدا ، على غير مجرى العادة ، وما عليه المناكحة . فلهذه الخاصة قيل له : روح الله .

وقد يجوز ان يكون في نبي من الانبياء خصلة شريفة ، ولا تكون تلك الخصلة بعينها في نبي ارفع درجة منه ، ويكون في ذلك النبي خصال شريفة ليست في الآخر . وكذلك جميع الناس ، كالرجل يكون له ابوان ، يحسن برهما وتعاهدهما ، والصبر عليهما ، وهو أعرج لا يقدر على الجهاد ، وفقير لا يقدر على الانفاق . ويكون آخر لا أب له ولا أم له ، وهو ذو مال كثير ، وخلق سوى ، وجلد طاهر ، فأطاع هذا بالجهاد والانفاق ، وأطاع ذلك ببر والديه والصبر عليهما .

والكلام اذا حرك تشعب ، واذا ثبت اصله كثرت فنونه ، واتسعت طرقه . ولولا ملالة القارئ ، ومداراة المستمع لكان بسط القول في جميع ما يعرض اتم للدليل ، وأجهع للكتاب ، ولكننا ابتدأنا الكتاب لنقتصر به على كسر النصرانية فقط .

(١) في النسختين : « اذ قذفها » ، ووجهت العبارة بما ترى .

٦ - فصل منه

قلنا في جواب آخر : ان كان المسيح انما صار ابن لله لان الله خلقه من غير ذكر ، فادم وحواء (١) لذ كانا (٢) من غير ذكر وانثى . أحق . بذلك ، ان كانت العلة في . باتخاذ ولد انه خلقه من غير ذكر . . وان كان ذلك . لمكان التربية . فهل رباه الا كما ربي موسى (٣) ، وداود ، وجميع الأنبياء . وهل تأويل : « رباه » الا غذاه ، ورزقه ، وأطعمه ، وسقاه ، فقد فعل ذلك (٤) بجميع الناس . ولم سميت سقيه لهم . وأطعمه اياهم تربية ؟ ولم رباه وانتم لا تريدون الا غذاه ورزقه ، وهو لم يحضنه ، ولم يباشر تقلبيه ، ولم ينول بنفسه سقيه وأطعمه ، فيكون ذلك سببا له دون غيره ، وانما سقاه لبن أمه في صغره وغذاه بالحبوب والماء في كبر .

٧ - فصل منه

والأعجوبة في ادم عليه السلام ابداع ، وتربيته أكرم ، ومنقلبه أعلى واشرف ، اذا كانت السماء داره ، والجنة منزله ، والملائكة خدامه . بل هو المقدم بالسجود والسجود أشد الخضوع . وان كان بحسن التعليم والتثقيف (٥) ، فمن كان . الله تعالى يخاطبه ، ويتولى مناجاته دون أن يرسل اليه ملائكته ويبعث اليه رسله ، أقرب منزلة ، واشرف مرتبة ، وأحق بشرف التأديب وفضيلة التعليم .

(١) رسمت في النسختين : « حوى » .

(٢) ب : « اذا كان » م : « اذا كان » ، والوجه ما أثبت .

(٣) في النسختين « الاحمد بن موسى » ، صوابه ما أثبت ، وهو من دقيق التحريد ،

(٤) ب : « فهل فعل ذلك » ، صوابه في م .

(٥) اي « وان كان تقديمه بحسن التعليم » ، وكلمة « التثقيف » سائطة من م .

وفي النسختين : « وان كان يحسن التعليم » ، والوجه ما أثبت .

وكان الله تعالى . يكلم آدم كما كان يكلم ملائكته ، ثم علمه الأسماء كلها ، ولم يكن ليعلمه الأسماء كلها إلا بالمعاني كلها ، فإذا (كان (١) ذلك كذلك فقد علمه (٢) جميع مصالحة ومصالحة ولده ، وتلك نهاية طباع الآدميين ، ومبلغ قوى المخلوقين .

٨ - فصل منه

فأما قولهم أنا نقول على الناس ما لا يعرفونه (٢) ، ولا يجوز أن يدينوا به ، وهو قولنا أن اليهود قالت : أن الله تعالى فقير ونحن أغنياء .
وانها قالت : أن يد الله مظلومة ، وانها قالت : أن عزيزا ابن الله ، وهم مع اختلافهم وكثرة عددهم ، ينكرون ذلك ويأبونه أشد الإباء .

قلنا لهم : أن اليهود لعنهم الله تعالى كانت تطعن على القرآن ، وتلتمس نقضه ، وتطلب عيبه ، وتخطيء فيه صاحبه ، وتأتيه من كل وجه ، وترصده بكل حيلة ، ليلتبس على الضعفاء ، وتستميل قلوب الأغنياء (٤) .

فلما سمعت قول الله تعالى لعباده الذين أعطاهم ، قرضا ، وسألهم قرضا على التضعيف ، فقال عز من قائل : (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له (٥)) . قالت اليهود (٦) على وجه الطعن والعيب والتخطئة والتعنّت : تزعم أن الله يستقرض منا ، وما استقرض منا

(١) كلمة يلتقز اليها الكلام .

(٢) ب : « . علمه » ، صوابه في م .

(٣) سقطت كلمة « لا » من النسختين ، ولا يستقيم الكلام بدونها .

(٤) ب : « الأغنياء » ، صوابه في م . وفي النسختين : « ويستميل » ، تحريف .

(٥) الآية ٢٤٥ من سورة البقرة . وقراءة نصب « فيضاعف » هي لعاصم وابن عامر

ويعقوب . وقراءة الجمهور « فيضاعفه » بالرفع . على الاستئناف . اتخافت تضاعف البشر ١٥٩ .

(٦) ب : « قالت » ، سقط .

الا لفقره وغنانا ! فكفرت بذلك القول اذ كان (١) على وجه التكذيب والتخطئة ، لا على وجه أن دينها كان في الأصل أن الله فقير ، وأن عباده أغنياء . وكيف يعتقد انسان أن الله عاجز عما يقدر عليه ، مع اقراره (٢) بأنه أغنياء . وكيف يعتقد انسان أن الله عاجز عما يقدر عليه ، مع اقراره (٢) بأنه الذي خلقه ورزقه ، وأن شاء حرمة ، وأن شاء عذبه ، وأن شاء عفا عنه . وقورته على جميع ذلك كتدبرته على واحد .

ومجاز الآية في اللغة واضح ، وتأويلها بين ؟ وذلك ان الرجل منهم كان يقرض صاحبه لارفاقه (٣) ، ليعود اليه مع أصل ماله اليسير من ربحه ، ثم هو مخاطر به الى أن يعود في ملكه . فقال لهم — بحسن عاداته ومنته : آسوا فقراءكم (٤) ، وأعطوا في الحق اقرباءكم ، من المال الذي أعطيتكم ، والنعمة التي خولتكم ، بأمرى اياكم وضمانى لكم ، فاعتده منكم قرضا وان كنت أولى به منكم ، فأننا موفيكم حقوقكم الى ما لا ترتقى اليه همة ولا تبلغه أمنية . على انكم قد امنت من الخطار ، وسلمتم من التفرير .

والرجل يقول لعبده (٥) : اسلفنى درهما ، عند الحاجة تعرض له (٦) ، وهو يعلم أن عبده وماله له . وانما هذا كلام وفعال يدل على حسن الملكة ، والتفضل على العبد والأمة ، واخبار منه لعبده أنه سيعيد عليه ما كانت سخط به نفسه .

(١) ب : « اذا كان » ، صوابه في م .

(٢) في النسختين : « مع قراره » .

(٣) الارفاق : النفع . وفي م : « لارفاقه » .

(٤) الـ اناسة : مصدر آسأه بماله : أناله منه وجعله فيه أسوة ، فهي المشاركة .

وفي الحديث « ما أحد عندي أعظم يدا من أبي بكر ، آسأى بنفسه وماله » . وفي ب :

« وآسوا » على التخفيف ، وان فكر صاحب اللسان أنها لغة ضعيفة ، فلى حيث :

الحديبية : « ان المشركين وآسونا للملح » .

(٥) ب : « لعبد » ، صوابه في م .

(٦) في النسختين : « تعرض له » ، تعريف ما أثبت .

وهذا ليس بغلط في الكلام ولا بضيق فيه (١) ولكن المتعنت يتعلق بكل سبب ، ويتشبه بكل ما وجد .

وأما اخباره عن اليهود أنها قالت : (يد الله مغلولة (٢)) ، فلم يذهب الى أن اليهود ترى أن (٣) ساعده مشدودة الى عنقه بغسل . وكيف يذهب الى هذا ذاهب ، ويدين به دائن ؟ ! لأنه لا بد أن يكون يذهب الى أنه غل نفسه أو غله غيره . وإيهما كان ، فإنه منفي عن وهم كل بالغ يحتمل التكليف ، وعاقل يحتمل التثقيف ، ولكن اليهود قوم جبرية والجبرية (٤) تبخل الله مرة وتظلمه مرة (٥) ، وإن لم تقر بلسانها ، وتشهد على اقرارها ، بقولهم : (يد الله مغلولة) يعنون بره واحسانه (٦) . وقولهم : مغلولة ، لا (يعني (٧)) أن غيره حبسه ومنعه ، ولكن إذا كان عندهم أنه الذي منع أياديهم ، وحبس نعمه ، فهي محبوسة بحبسه ، ممنوعة بمنعه .

والذي يدل على أنهم أرادوا باليدين النعمة والانضال ، دون

(١) في الاصلين : « وهذا ليس بغلط في الكلام ولا يضيق فيه » .

(٢) الآية ٦٤ من سورة المائدة .

(٣) في اليسختين : « بأن » تحريف .

(٤) في اللسان : « الجبرية : الذي يقولون : اجر الله العباد على الذنوب ، أي اكرهمهم » والمعروف عند المتكلمين أن الجبر هو نفي الفعل حقيقة عن العبد ، واضافته الى الرب تعالى . . والجبرية أصناف . فالجبرية الخالصة هي التي لا تثبت للعبد فعلا ولا قدرة على الفعل أصلا . والجبرية المتوسطة التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة . فأما من أثبت للقدرة الحادثة أثرا ما في الفعل وسمى ذلك كسبا فليست بجبرية . والمعتزلة يسمون من لم يثبت للقدرة الحادثة في الإبداع والاحداث استقلالاً - جبرياً . الملل والنحل ١ : ١٠٨ .

(٥) في اللسان (ظلم ٢٦٧) : وظلمه (بالتشديد) : أنباء أنه ظالم ، أو نسبه الى الظلم « وأنشد :

أبست مظالمى ولست بظالم وتنبهنى نبيها ولست بنائم

وفي ب : « وتظلمه » ، صوابه ما أثبت من م .

(٦) يره ، ساقطة من ب . وهي في م : « يده » ، ووجه هذه ما أثبت .

(٧) تكملة ينتقل الى مثلها الكلام .

للساعد والذراع ، جواب كلامهم حين قال : (بل يداه . مبسوطتان ينفق كيف يشاء (١)) . دليلا على ما قلنا ، وثناهدا على ما وصفنا .

فان قالوا : فكيف لم ينقل ان اليهود بخلت الله وجحدت احسانه ، دون ان يقال ان يد الله مغلولة ؟ .

قلنا : ان اراد الله الاخبار عن كفر قوم (٢) وسخط عليهم ، فليس لهم عليه ان يعبر عن دينهم وعبوبهم بأحسن المخرج ، ويجليها (٣) بأحسن اللفاظ . وكيف وهر يريد التنفير عن قولهم ، وأن يبغضهم الى من سمع ذلك عنهم .

ولو اراد الله تعالى تليين الأمر وتصغيره وتسهيله ، لقال قولا غير هذا . وكل (٤) صدق جائز في الكلام . فهذا مجاز مسالتهم في اللغة ، وهو معروف عند أهل البيان والفصاحة .

وأما قولهم : ان اليهود لا تقول ان عزيزا ابن الله . فان اليهود في ذلك على قولين : أحدهما خاص ، والآخر عام في جماعتهم .

فأما الخاص ، فان ناسا منهم لما رأوا عزيزا أعاد عليهم التوراة من تلقاء نفسه ، بعد دروسها وشتات أمرها غلوا فيه ، وقالوا ذلك ، وهو مشهور (٥) من أمرهم . وان فريقا من بقاياهم لباليمن والشام ودخل بلاد الروم . وهؤلاء بأعيانهم يقولون : ان اسرائيل الله ابنه (٦) ، وإذا كان ذلك على خلاف تناسب الناس ، وصار (٧) ذلك الاسم للعزيز

(١) من الآية ٦٤ في تنورة المائدة .

(٢) ب : « على كفر قوم » ، صوابه في م .

(٣) م : « ويجليها » .

(٤) في النسختين : « وحل » ، وجهه ما أثبت .

(٥) ب : « مشهود » .

(٦) انظر ما سبق في ص ٣٣١ — ٣٣٢ . وهو ترجمة لكلمتي « اسرا » و

« ايل » . وفي تفسير أبي حيان ١ : ١٧١ ان « اسرا » بمعنى العبد ، في العبرانية .

(٧) ب : « وسار » بالسعين .

بالطاعة والعلامة ، والمرتبة لانه (١) من ولد اسرائيل .

والقول الذى هو عام فيهم ، أن كل يهودى (٢) ولده اسرائيل ، فهو ابن الله ، اذ لم يجدوا ابن ابن قط الا وهو ابن .

٩ - فصل منه

فان قالوا : ليس المسيح روح الله وكلمته ، كما قال عز ذكره : (وكلمته القاها الى مريم وروح منه (٣)) او ليس قد أخبر عن نفسه حين ذكر امه انه نفخ فيها من روحه ؟ او ليس مع ذلك قد أخبر عن حصانة فرجها وطهارتها (٤) ؟ او ليس مع ذلك قد أخبر انه لا أب له ، وانه (٥) كان خالقا ، اذ كان يخلق من الطين كهيئة الطير ، فيكون حيا طائرا ؟ نأى شيء بقى (٦) من الدلالات على مخالفته لمشكلة (٧) جميع الخلق ، ومباينة جميع البشر ؟

قلنا لهم : انكم انما سألتمونا عن كتابنا ، وما يجوز في لغتنا وكلامنا ، ولهم تسألونا عما يجوز في لغتكم وكلامكم . ولو أننا جوزنا ما في لغتنا وما لا يجوز ، وقلنا على الله تعالى ما لا نعرف ، كنا بذلك عند الله والسماعين في حد المكاثرين ، وأساءوا حالا من المنقطعين ، وكنا قد أعطيناكم أكثر مما سألتم ، وجزنا بكم فوق أمنييتكم .

(١) ب : « لا لانه » ، و « لا » متحمة لتسد الكلام .

(٢) في النسختين : « أن يكون يهودى » .

(٣) الآية ١٧١ من سورة النساء .

(٤) في الاصل : « او ليس مع ذلك قد أخبر عن حصانة فرجها وطهارتها ، أخبر انه

نفخ فيها من روحه » وفي هذا تكرار لاوجه له .

(٥) ب : « وأن » ، صوابه في م .

(٦) في النسختين : « نأى » ، تحريف .

(٧) في النسختين : « بمشاكله » . والتصود نأى المشكلة :

ولو كنا اذا قلنا : عيسى روح الله وكلمته ، وجب علينا (١) في لغتنا ان يجعله الله ولدا ، ونجعله (٢) مع الله تعالى الها ، ونقول (٣) : ان روحا كانت في الله فانفصلت منه الى بدن عيسى ويطن مريم . فكنا اذا قلنا : ان الله سمى جبريل روح الله وروح القدس ، وجب علينا ان نقول فيه ما يقولون في عيسى . وقد علمتم ان ذلك ليس من ديننا ، ولا يجوز ذلك بوجه من الوجوه عندنا ، فكيف نظهر للناس قولا لا نقوله ، وديننا لا نرتضيه .

ولو كان قوله جل ذكره (٤) : (فنفخنا فيه من روحنا (٥)) يوجب نفخا كنفخ الزق ، او كنفخ الصائغ في المنفاخ ، وان بعض الروح التي كانت فيه انفصلت فاصلة الى بطنه ويطن امه (٦) ، لكان قوله في آدم يوجب له ذلك ، لانه قال : (وبدا خلق الانسان من طين . ثم جعل نسله (٧)) . الى قوله : (ونفخ فيه من روحه (٨)) وكذلك قوله : (فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين (٩)) .

والنفخ يكون من وجوه ، والروح يكون من وجوه :

منها ما اضافته الى نفسه ، ومنها ما لم يصفه الى نفسه . وانما

(١) ب : « وجب علينا » ، تحريف ، ما في م .

(٢) في النسختين : « ويجعله » ، محرف .

(٣) في النسختين : « ويقول » .

(٤) في النسختين : « ولو قال جل ذكره » . ليتطع للكلام بما بعده .

(٥) من الآية ٩١ من الانبياء و ١٢ من التحريم .

(٦) في النسختين : « بعض روح » .

(٧) في النسختين : « بطنها ويطن امها » .

(٨) الايتان ٧ ، ٨ من سورة السجدة .

(٩) الآية ٩ من سورة التمجدة .

(١٠) الآية ٢٩ من الحجر و ٧٢ من ص .

يكون ذلك على قدر ما عظم من الأمور ، فبما سمى روحا وأضافه الى نفسه ، جبريل الروح الأمين ، وعيسى بن مريم . والتوفيق كقول موسى حين قال : ان بنى فلان أجابوا فلانا النبي ولم يجيبوك . فقال له (١) : « ان روح الله مع كل أحد » (٢) .

وأما القرآن فان الله سماه روحا ، وجعله يقيم للناس مصالحهم في دنياهم وأبدانهم ، فلما اشتبهها من هذا الوجه الزمهما اسمها فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا (٣)) وقال : (تنزل الملائكة والروح (٤)) .

١٠ - فصل منه

قد جعلنا في جواباتهم وقدمنا مسائلهم (٥) ، بما لم يكونوا ليبلغوه لأنفسهم ، ليكون الدليل تاما ، والجواب جامعا ، وليعلم من قرأ هذا الكتاب تدبر هذا الجواب ، أنا لم نغتنم عجزهم ، ولم ننتهز غرتهم ، وان الأدلال بالحجة ، والثقة بالفليح والنصرة ، هو الذى دعانا الى أن نخبر عنهم بما ليس عندهم ، والا نقول في مسائلهم بمعنى لم ينتبه له منتبه ، أو يشر اليه مشير (٦) ، والا يوردوا فيما يستقبلون ، على ضعفائنا ومن قصر

(١) ب : « فقالوا له » ، تحريف .

(٢) الإشارة الى ما جاء في سفر العدد ١١ : ٢٧ - ٢٩ : « فركض غلام وأخبر موسى وقال : الداد وميداد ينتبآن في المحلة . فأجاب يشوع بن نون خادم موسى من حدائقه وقال : ياسيدى موسى ، اردعهما . فقال له موسى : هل تغار أنت لى ، يالبت كل شعب الرب كانوا أنبياء اذا جمل الرب روحه عليهم » .

(٣) الآية ٥٢ من الشورى .

(٤) الآية ٤ من المارج .

(٥) م : « وقومنا بمسائلهم » .

(٦) في النسختين : « أو يشر » ، وإنما هو مطب على : « لم ينتبه » .

نظره منا ، شيئاً الا والجواب قد سلف فيه . ، والسنتهم قد مذلت به (١) .

وسفسالهم ان شاء الله ، ونجيب عنهم ، ونستقصى لهم في جواباتهم ،
كما سألنا لهم انفسنا (٢) ، واستقصينا لهم في مسائلهم .

فيقال لهم : هل يخلو المسيح ان يكون انسانا بلا اله ، او الها
بلا انسان ؟ او ان يكون الها وانسانا ؟

فان زعموا انه كان الها بلا انسان ، قلنا لهم : فهو الذي كان صغيرا
مُشعب والتحي (٣) ، والذي كان يأكل ويشرب ، وينجو ويبول . ، وقتل
بزعكم وصلب ، ولوته مريم وأرضعته ، ام غيره هو الذي كان يأكل ويشرب
على ما وصفنا ؟ فأى شيء معنى الانسان الا ما وصفنا وعددنا ؟ .

وكيف يكون الها بلا انسان ، وهو الموصوف بجميع صفات الانسان .
وليس القول في غيره ممن صفته كصفته ، الا كالقول فيه كاشتغالها على غيره ؟ .

وان زعموا انه لم ينقلب عن الانسانية ولم يتحول عن جوهر البشرية ،
ولكن لما كان اللاهوت فيه ، صار خالقاً وسمى الها . قلنا لهم : خبرونا عن
اللاهوت . اكان فيه وفي غيره (٤) ، ام كان فيه دون غيره ؟

(١) مذلت به : اذاعته وانفضته ، واصل المثل اتساعة السر . قال قيس من الحطيم :

فلا تمذل بترك كل سر . اذا ما جاوز الاثنين لماشي

ب : « قد دلت به » م : « قد رلت به » والوجه ما أبدت .

(٢) ب : « كما سألناهم انفسنا » ، صوابه في م .

(٣) التحي : ظهرت لحيته . ب : « والتحي » بالجيم ، تحريف .

(٤) ب : « اكان فيه وفي غيره » نقط ، وبقية العبارة من م مع تسقوط كلمة

« فيه » الثانية ، وقد ائبتها تكملة للقول .

فإن زعموا أنه كان فيه وفي غيره ، فليس هو أولى بأن يكون خالقاً ويتسمى الها من غيره . وإن كان فيه دون غيره ، فقد صار اللاهوت جسماً .

وسنقول في الكسر عليهم إذا صرنا إلى القول في التشبيه ، وهو قول معظمهم (١) ، والذي كان عليه جماعتهم ، إلا من خالفهم من متكلميهم ومتفلسفيهم ، فإنهم يقولون بالتشبيه (٢) والتجسيم ، فرارا من كثرة الشناعة ، وعجزا عن الجواب . وكفى بالتشبيه قبحا ، وهو قول يعم اليهود وأخوانهم من الرافضة ، وشياطينهم من المشبهة والحشوية (٣) والناطقة (٤) ، وهو بعد متفرق في الناس . والله تعالى المستعان .

(١) ب : « قول منع لهم » م : « منعلهم » ، وأثبت ما رأيت من العوالم .

(٢) في النسختين : « في التشبيه » .

(٣) انظر ما سبق من الكلام على الحشوية في ص ٢٨٨/١ .

(٤) في النسختين : « الناطقة » ، وأثبت وأولاً قبلها لأن هؤلاء غير هؤلاء . وانظر للناطقة

رسائل الجاحظ ٢ : ٥ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢١ .

(م — ٢٤ الفكر الديني)

المراجع العربية

على رأس هذه المراجع القرآن الكريم ثم الكتاب المقدس ودائرة المعارف
الاسلامية .

- | المؤلف | الكتاب |
|------------------------------|-----------------------------------|
| ١ — ابن الأثير : | — أسد الغابة في معرفة الصحابة |
| (٦٣٠ هـ — ١٢٣٨ م) | |
| على بن أحمد بن أبي الكرم | — النهاية في غريب الحديث والأثر |
| ٢ — ابن الخطيب التبريزي : | — تهذيب اصلاح المنطق |
| | (شرح على اصلاح المنطق) |
| ٣ — ابن السكيت : | — اصلاح المنطق |
| ٤ — ابن الكلبي : | — الأصنام |
| أبو المنذر هشام بن أبي النصر | تحقيق أحمد زكي باشا ، |
| محمد بن السائب | الدار القومية |
| ٥ — ابن النديم : | — الفهرست |
| محمد بن اسحاق | |
| ٦ — ابن تيمية : | — فتح الباري شرح صحيح البخاري |
| ٧ — ابن حجر العسقلاني : | — الفصل في الملل والنحل ، الخلبى |
| ٨ — ابن حزم : | — العقد الفريد ، نشر الأساتذة : |
| ٩ — ابن عبد ربه : | أحمد أمين ، أحمد الزين ، ابراهيم |
| أبو عمر أحمد بن محمد | الابيارى |
| ١٠ — ابن قتيبة (٢١٣هـ) | — المعارف ، تحقيق د. ثروت عكاشة ، |
| | دار المعارف |
| أبو عبد الله بن مسد | — الشعر والشعراء |
| ١١ — ابن كثير : | — القرآن العظيم (تفسير) |
| ١٢ — ابن منظور : | — لسان العرب |
| أبو الفضل جمال الدين محمد | |
| بن مكرم | |
| ١٣ — أبو حيان (اثير الدين) : | — البحر المحيط (تفسير) |

المؤلف

١٤ — احمد أمين (دكتور) :

١٥ — الأزرقى :

الوليد محمد بن عبد الله

ابن احمد

١٦ — الأصفهاني :

أبو الفرج علي بن الحسين

١٧ — الأصفهاني (الراغب)

سبتيانو موسكاتي

١٨ — الألوسي :

السيد محمود شكرى

السيد عبد الرازق الحسيني

١٩ — البكرى :

عبد الله بن عبد العزيز

ابن محمد بن عمر

٢٠ — البلاذرى :

(٢٧٩هـ — ٨٩٢م)

احمد بن يحيى بن جابر

٢١ — البهى :

دكتور محمد

٢٢ — البيرونى :

أبو الريحان محمد احمد

الخوارزمي

٢٣ — الجندي :

(الاستاذ علي)

الكتاب

— فجر الاسلام

— خبار مكة وما جاء فيها من الآثار

ط٠ خباط ، بيروت سنة ١٩٦٤ م

— الأغاني

ط٠ دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٧م

— مفردات القرآن

الحضارات السامية القديمة

ترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر

مراجعة : محمد القصاص

ط٠ دار الكاتب العربى

— روح المعاني (تفسير)

— بلوغ الارب في معرفة احوال العرب

سنة ١٣٤٢ هـ

عنى بشرحه وتصحيح ضبطه : محمد

بهجة الأثرى : دار الكتب الحديثة

— الصابئة : قديما وحديثا

تقديم : احمد زكى باشا

طبعة أولى ١٩٢٥ ، المطبعة الرحمانية

بمصر

— معجم ما استعجم

بتحقيق الأستاذ مصطفى السقا

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

— فتوح البلدان ، القاهرة سنة ١٣١٨

— الجانب الالهى في التفكير الاسلامى

وهبة

— الآثار الباقية عن القرون الخالية

(ليبسك ١٨٧٨ م)

الانجلو المصرية

— تاريخ الأدب الجاهلى ،

المؤلف

الكتاب

- الزينة في المصطلحات الاسلامية
- علق عليه حسين بن فيض الله الهمداني
- مفاتيح الغيب (تفسير)
- الروض الأنف ،
- القاهرة ١٩١٤ م
- حاشية الشهاب على البيضاوى
- الملل والنحل ، الانجلو
- تخريج د. محمد بن فتح الله بجران
- جامع البيان في تفسير القرآن
- (تفسير)
- مقدمة في : تاريخ الحضارات القديمة
- الجزء الأول الوجيز في تاريخ حضارة
- وادي الرافدين ، الطبعة الأولى ١٩٧٣
- مطبعة الحوادث ، بغداد
- أبو الأنبياء
- الله
- موسوعة العقاد الاسلامية
- دار الكتاب اللبناني
- قضايا في الاجتماع الاسلامي
- حول حركة تفاعل الانسان وتكيفه
- بالوحي
- القلق الانساني ، سنة ١٩٧٥
- الانجلو المصرية
- جامع الاحكام (تفسير)
- الخصائص العامة للإسلام
- مكتبة وهبة
- مروج الذهب
- ط. دار الشعب ، القاهرة

- ٢٤ — الرازي :
- (أبو حاتم)
- ٢٥ — الرازي (فخر الدين)
- ٢٦ — السهيلي :
- أبو القاسم عبد الرحمن
- ابن عبد الله الخثعمي
- ٢٧ — الشهاب :
- ٢٨ — الشهرستاني :
- المتوفى (٥٤٨ هـ)
- أبو الفتح محمد بن عبد الكريم
- ٢٩ — الطبري (ابن جريو)
- طه باقر
- ٣٠ — العقاد :
- عباس محمود
- ٣١ — الفيومي :
- د. محمد ابراهيم
- ٣٢ — القرطبي :
- ٣٣ — القرضاوى :
- (د. يوسف)
- ٣٤ — المسعودي المتوفى (٣٤٦ هـ)
- أبو الحسن علي بن الحسين
- ابن علي

المؤلف	الكتاب
٣٥ — المقصى :	— البدء والتاريخ
٣٦ — المكلاى :	— لباب العقول فى الرد على الفلاسفة
أبو الحجاج يوسف محمد	— فى علم الأصول ، تحقيق د. فوقية حسين محمود ، دار الأنصار ١٩٧٧
٣٧ — النيسابورى :	— غرائب القرآن و رغائب الفرقان (تفسير)
٣٨ — الهمذانى :	— الاكليل ، نشر وتعليق الأب أنستاس الكرملى ١٩٣١
أبو محمد الحسن بن أحمد	—
ابن يعقوب	—
٣٩ — اليعقوبى :	— تقارىخ اليعقوبى
أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر	—
ابن وهيب المعروف بابن واضح	—
٤ — أوند الرفاعى :	— الاسلام فى حضارته ونظمه ، دار الفكر ، دمشق
٤١ — انوليمان	— لهجات عربية شمالية تبلى الاسلام
	بحث مستخرج من مجمع اللغة العربية الملكى سنة ١٩٣٦ م
٤٢ — أوليرى (ديلاس)	— الفكر العربى ومكانته فى التاريخ
	ترجمة د. تمام حسان
	مراجعة د. محمد مصطفى حلمى
	— علوم اليونان وسبل انتقالها الى العرب ، ترجمة دوهيب كامل
	مراجعة الأستاذ زكى على
٤٣ — بدوى :	— رسائل فلسفية ، نشر جامعة بنى غازى
دكتور عبد الرحمن	—
	شخصيات قلقة فى الاسلام
٤٤ — برييه (أميل)	— الآراء الدينية والفلسفية لفيلون الاسندرى ، ترجمة د. محمد يوسف موسى ود. عبد الحليم الفجار ط ٣

المؤلف	الكتاب
٤٥ — تـارن :	— الحضارة الهلينية، ترجمة عبد العزيز جاويد
٤٦ — حـتى :	— تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين
(دكتور فيليب)	ترجم الجزء الأول د. جورج حداد وعبد الكريم رافق ، مراجعة جبريل جبور ، ترجم الجزء الثاني د. كمال اليازجي ، مراجعة د. جبريل جبور دار الثقافة ، بيروت
٤٧ — حـلان : (أحمد زيني)	— السيرة الحلبية
٤٨ — دراز (د. محمد عبد الله)	— يدخل الى القرآن ، عرض تاريخي مقارن لترجمة محمد عبد العظيم على
٤٩ — دروزة :	— القرآن والمبشرون
الاستاذ محمد عزة	— قصة الحضارة ترجمة الاستاذ محمد بدران ، دار التأليف والترجمة والنشر
٥٠ — ديورانت (ول)	— تاريخ الفلسفة في الاسلام ترجمة د. محمد عبد الهادي أبو ريده لجنة التأليف والترجمة والنشر
٥١ — دي بور :	— تفسير المنار
٥٢ — رشيد رضا :	— النشر الفني في القرن الرابع الهجري
(الاستاذ الشيخ محمد)	— العرب واليهود في التاريخ
٥٣ — زكي مبارك	— حقائق تاريخية تظهرها المكتشفات الأثرية ، العربي للاعلان والنشر سنة ١٩٧٥ ط ٤
(دكتور)	— تاريخ الأدب العربي ، العصر الجاهلي ، دار المعارف
٥٤ — سوسة :	— النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية بيروت
دكتور أحمد	— التاريخ اليهودي العام ، دار الجيل
٥٥ — شوقي ضيف (دكتور) .	
٥٦ — شيخو. (لويس)	
٥٧ — صابر طعيمة (دكتور)	

المؤلف

الكتاب

- ٥٨ — صلاح الدين خوادبخشي
— حضارة الاسلام ، ترجمة على حسنى
الخربوطلى
- ٥٩ — صموئيل نوح كريم
— السومريون : تاريخهم وحضارتهم
وخصائصهم ، ترجمة فيصل الواصل
نشر وكالة الكويت
- ٦٠ — ظاظا (دكتور حسن)
— الساميون ولغاتهم ، تعريف بالقرابات
اللغوية والحضارية للعرب
دار المعارف
- ٦١ — عبد الحليم محمود
(دكتور)
٦٢ — غفيسي
(دكتور) أبو العلا
- ٦٣ — على حسن ابراهيم
(دكتور)
- ٦٤ — غلاب
(دكتور محمد)
- ٦٥ — فلهوزن (يوليوس)
مستشرق المانى
- ٦٦ — ماكس مايرهوف
- ٦٧ — ماهر حسن فهمي (دكتور)
- حضارة الاسلام ، ترجمة على حسنى
الخربوطلى
- السومريون : تاريخهم وحضارتهم
وخصائصهم ، ترجمة فيصل الواصل
نشر وكالة الكويت
- الساميون ولغاتهم ، تعريف بالقرابات
اللغوية والحضارية للعرب
دار المعارف
- التفكير الفلسفى فى الاسلام
الانجلو المصرية
- الأثر الفلسفى الاسكندري فى قصة
حى بن يقظان ، بحث مستخرج من مجلة
كلية الآداب بجامعة فاروق الأول
(الاسكندرية) المجلد الثانى ١٩٤٤
لجنة التأليف والترجمة والنشر
- التاريخ الإسلامى العام ، الجاهلية ،
الدولة العربية ، الدولة العباسية ،
النهضة المصرية ١٩٧٢
- الفلسفة الشرقية
بحوث تحليلية نشرت فى مجلة
الرسالة ١٩٣٧ م
- تاريخ الدولة العربية
ترجمة د. محمد عبد الهادى ابر ريدة
— من الاسكندرية الى بغداد
- بحث فى تاريخ التعليم الفلسفى والطبى
عند العرب ، ترجمة د. عبد الرحمن
بدوى ضمن المجموعة المسماة :
التراث اليونانى فى الحضارة
الإسلامية ، دار النهضة
- السيرة تاريخ وفن ، دار النهضة

- | المؤلف | الكتاب |
|--------------------------------|---|
| ٦٨ — محمد التونجي فرهنك | — المعجم الذهبي فارسي وعربي
دار العلم للملايين بيروت |
| ٦٩ — محمد عبد المعيد خان | — معجم الأدباء
— الأساطير العربية قبل الاسلام
سنة ١٩٣٧ |
| ٧٠ — محمد نعمان الجارم | — أديان العرب في الجاهلية
سنة ١٩٢٣ م |
| ٧١ — مذكور | — في الفلسفة الاسلامية، منهج وتطبيقه
دار المعارف |
| (دكتور ابراهيم بيومي) | — ملتقى اللغتين العبرية والعربية |
| ٧٢ — مراد فرج المحامي | — تمهيد في الفلسفة الاسلامية |
| ٧٣ — مصطفى عبد الرازق | لجنة التأليف والترجمة والنشر |
| (الأستاذ الشيخ) | — مفتاح باب الأبواب في أصول
الديانات ١٣٢١ |
| ٧٤ — ميرزا : | — أمراء غسان ، ترجمة د. بخلوي جوزي
و د. قسطنطين زريق |
| (محمد مهدي) | — تاريخ الآداب العربية من الجاهلية
حتى عصر بني أمية ، نص إحاضرات
التي القاها بالجامعة المصرية سنة
١٩١٠ ، سنة ١٩١١ عنيت بنشرها
مريم نيلينو ، تقديم دكتور طه
حسين ، دار المعارف بمصر ط ٢ |
| ٧٥ — نولدكه | — روح الحضارة العربية ، ترجمة
د. عبد الرحمن بدوي ،
دار العلم للملايين ١٩٤٩ |
| ٧٦ — نيلينو | — معجم البلدان |
| كارلو — مستشرق ايطالي | |
| ٧٧ — هانز هيتزش شيدر | |
| ٧٨ — ياقوت : | |
| شهاب الدين أبو عبد الله الحموي | |
| ٧٩ — جيبون (ادوارد) | — اضمحلال الامبراطورية الرومانية
وسقوطها ترجمة د. محمد سليم سالم
مراجعة : محمد علي ابو حرة |

المؤلف	الكتاب
٨٠ — نقتج :	— العرب ترجمة دكتور راشد البراوى الانجلو المصرية
٨١ — ستوقتزف	— تاريخ الامبراطورية الرومانية الاجتماعى والاقتصادى ترجمة : زكى على مكتبة النهضة المصرية — انطاكية القديمة
٨٢ — جلانقيل ديونى	ترجمة : د. ابراهيم نصحي الناشر : النهضة المصرية
٨٣ — د. عبد اللطيف احمد على	— مصر والامبراطورية الرومانية في ضوء الأوراق البردية دار النهضة العربية ١٩٧٤
٨٤ — النابغة الذبياني	— ديوان النابضة الذبياني دار صادر
٨٥ — ابن سعد	— طبقات ابن سعد
٨٦ — لبيد بن ربيعة العامري	— ديوان لبيد ، دار صادر
	المراجع الأجنبية

كتب المؤلف

أولاً - دراسات في الفلسفة والفكر الإسلامى :

- ١ - لنقل الإنسانى - الطبعة الأولى سنة ١٩٧٥ م - الطبعة الثانية سنة ١٩٨٠ م - الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٣ م - الناشر الأنجلو المصرية .
- ٢ - الإسلام واتجاهات الفكر المعاصر - الطبعة الأولى سنة ١٩٧٧ م الناشر الأنجلو المصرية .
- ٣ - في الفكر الدينى الجاهلى (قبل الإسلام) - الطبعة الأولى سنة ١٩٧٩ م . عالم الكتب - الطبعة الثانية سنة ١٩٨٠ م . دار القلم الكويت - الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٣ م دار المعارف المصرية .
- ٤ - ملاحظات على المدرسة الفلسفية فى الإسلام - الطبعة الأولى . . الأنجلو المصرية سنة ١٩٨٠ م .
- ٥ - رسالة فى الحوار الفكرى بين الإسلام والحضارة - الطبعة الأولى . . عالم الكتب سنة ١٩٨٢ م .
- ٦ - الوجودية فلسفة الوهم الإنسانى - الطبعة الأولى سنة ١٩٨٣ م الناشر الأنجلو المصرية .
- ٧ - تأملات فى أزمة العقل العربى الطبعة الأولى سنة ١٩٨٣ الأنجلو المصرية .

ثانياً - دراسات فى علم الاجتماع :

- ٨ - مقدمة فى علم الاجتماع الدينى - الطبعة الأولى سنة ١٩٧٤ - الطبعة الثانية سنة ١٩٨٣ م . الناشر مكتبة الأزهر .
- ٩ - قضايا فى الاجتماع الإسلامى - الطبعة الأولى سنة ١٩٧٧ م . . الناشر الأنجلو المصرية .

ثالثاً - دراسات فى الشخصيات :

- ١٠ - الامام الغزالى وعلاقة اليقين بالفعل - الطبعة الأولى سنة ١٩٧٦ م . الناشر الأنجلو المصرية .
- ١١ - مع البوصيرى وابن عطاء الله - الطبعة الأولى . . سنة ١٩٨٣ م الأنجلو المصرية .

رابعاً - بحوث :

١٢ - ابن باجه : فيلسوف مغترب .. نشر على مقالات في مجلة الأزهر
سنة ١٤٠٢ هـ .

١٣ - الفرعة العقلية عند الإمام الشافعي .. نشر بعضه في مجلة الوعي
الاسلامي الكويت سنة ١٣٩٧ هـ - والاخر في منبر الاسلام سنة ١٣٩٩ هـ
القاهرة - ومكمل في حويله كلية الدراسات الاسلاميه والعربيه - جامعة
الأزهر .

رقم الايداع : ٨٣/٣٢٥٤

الترقيم الدولي : ٢ - ٥٢٢ - ٠٢ - ٩٧٧

مطبعة القاهرة الجديدة

٣٣ شارع الجيش ت : ٩٠٤٢٨٦

10/01/11